جامعة الزقازيق
فرع بنها
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الحياة الأدبية في أصبهان

في القرن الرابع الهجري

بحث لنيل درجة الماجستير

في الآداب

إشراف

الأستاذ الدكتور / محمد رجاء عيد

عميد كلية الآداب بنها

إعداد

أحمد السيد حجازي

١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري
واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

صدق الله العظيم.

إهداء

إلى أستاذى الكبير

. إلى من تعلمت منه الكثير والكثير

الأستاذ الدكتور : محمد رجاء عيد

بالحب والوفاء والتقدير ...

المقدمـــــــــــــــــة

* . * . * . * . *

مقدمـــــــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، أوتى جوامع الكلم فكان سيد البلغاء وأشرف الفصحاء ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فإن الأدب كان ولا يزال المرآة التى تنعكس على صفحتها الحياة بكل ما فيها من فكر وثقافة وفن واجتماع ، وبالجملة فالأدب فى كل أمة من الأمم هو عنوان حضارتها ودليل تقدمها ونهضتها ففى أطوار القوة والمنعة تجد الأدب لا معا متوهجا ، ينطق بكل قوة ويحدث بأبلغ لسان ، وفى أطوار الانحطاط والتأخر تجد الأدب أفل النجم منزويا لا يكاد يعبر عن الحياة إلا بوسائل تتوافق مع انحطاط الظروف وتأخرها .

- والأدب العربى حفل بكثير من الحواضر التى كانت كعبة الشعراء وقبلة الفصحاء - على أن الآدب وهو يؤدى هذه المهمة لم يكن بمنآى عن التأثر بما يصاحبه من ملابسات سياسية ، ففى بغداد الخلافة كان الأدب زاهرا يعيش أزهى عصوره وأحلى أيامه فلما أفلت شمسها - بحكم اهتزاز الخلافة وتأخرها - كان لا بد للأدب من متنفس آخر يجد فيه شمسه وهواءه ، ويبحث فيه عن الاهتمام والعناية التى افتقدها بافتقاد بغداد فكانت ضالة الأدب المنشودة فى ذلك العصر أصبهان بما توفر لها من أمن وماتمتعت به من حضارة فى ظل دولة بنى بويه ، فتسابق إلى الهجرة إليها جمع كبير من الشعراء والأدباء والنقاد إلى جانب من نشأ فيها من أهل الأدب والفكر ، فكانت أصبهان هى المنهل العذب الذى نهل منه الأدب ، والتى أخرجت للثقافة الأصفهانى ، والمرزوقى ، وأبا على الرستمى ، والسلامى الشاعر وابن طباطبا والصاحب بن عباد وحمزة الأصبهانى وغيرهم من عيون الأدب والفكر الذين اشتهروا على مر التاريخ .

ورغم هذه الأهمية الفائقة لأصبهان فإنها لم تحظ من الباحثين بالدراسة الكافية أو الاهتمام الذى يجلى غوامض هذه المرحلة الهامة من تاريخها الذى هو فى نظرى تاريخ الأدب فى تلك الفترة ، فكان موضوع (الحياة الأدبية فى أصبهان فى القرن الرابع الهجرى) حريا بالبحث وجديرا بالاهتمام .

ومما زاد من أهمية هذا الموضوع أن هذه الفترة من تاريخ أصبهان يكاد يخلو منها سجل الدراسات الأدبية ، فلم أظفر ببحث أو رسالة تتناول الأدب فى أصبهان ، ورغم الصعوبة الكبيرة فى تناول موضوع مهجور كهذا إلا أننى بتوفيق الله تعالى وتشجيع من أساتذتى الأفاضل ، مضيت فيه قدما يحدونى الأمل فى أن أرفع عن بيئة أصبهان الأدبية ما أصابها من ضيم ، وأن أنفض عنها غبار عشرة قرون مضت ، فعشت معها رحلة طويلة ممتعة — وإن كانت شاقة — وسرت فى الطريق الطويل أتعثر حينا ، ويلوح لى بصيص الأمل أحيانا ، حتى قدر لى أن أخرج أخيرا بهذا البحث الذى أرجو أن ينال رضا أساتذتى الأجلاء والدارسين والباحثين .

أما العقبات التى صادفتنى فى البحث فلا يحمد التحدث عنها لأنه ما من باحث مر بهذا الطور من الدراسة إلا ولقى الكثير من عنت البحث ، ومشقة الحصول على المراجع العلمية .

كما لا بد أن يتجشم التعب ويتعود السهر .. وكل ذلك يهون فى سبيل الجمع والتحصيل ، وعند الصباح يحمد القوم السُّرَى .

مصادر البحث : أما مصادر البحث فكانت كثيرة ويمكن حصرها فى :

١ — كتب التاريخ والثقافة العامة : وقد استفدت منها فى تصوير تاريخ أصبهان وحياة أدبائها وعلمائها ومفكريها وآثارهم ، وقد أفدت من هذه الكتب فوائد عظيمة — وإن كانت المعلومات فيها مبعثرة تحتاج إلى جهد فى استخراجها وتنسيقها وعرضها عرضا مقبولا .

٢ — كتب الأدب ومجموعة دواوين الشعراء : وقد استفدت منها فى رسم هيكل البحث ووضع خطوطه العامة ، كما أمدتنى بالمادة الأولى للبحث . فقد كانت مادة البحث الأساسية تستقى أصولها منها .

٣ — كتب البلاغة والنقد : وتضم كثيرا من كتب النقد والبلاغة العربية. ومهما يكن من شىء فقد كان لكل كتاب أثبتناه فائدة عظيمة ، وأثر واضح فى استكمال البحث واتمام الدراسة .

وجاءت الدراسة فى ثلاثة أبواب يسبقها تمهيد لالقاء الضوء على أصبهان مكان الدراسة ، جاء فى مباحث ثلاثة .

المبحث الأول : في أصبهان الموقع والشكل .

المبحث الثاني : في مكانتها بين المدن الاسلامية .

المبحث الثالث : في العوامل البيئية وأثرها في الأدب .

وخصصت الباب الأول لدراسة الشعر في أصبهان وقسمته إلى فصلين الفصل الأول بعنوان بيئة أصبهان بين الكتابة والشعر ، والثاني لدراسة موضوعات الشعر وفنونه .

وجعلت الباب الثاني لفنون النثر الأدبي في أصبهان . كما تحدثت في الباب الثالث عن النقد الأدبي في أصبهان . وذيلت بخاتمة سجلت فيها أهم نتائج البحث ، وفهرست فهرسة علمية للمصادر والمراجع .

وبعد — فهذه هي خطة البحث ومنهجه وهو منهج أملته علينا طبيعة الموضوع .

وأرجو بهذا البحث أن أكون قد جليت عن الحياة الأدبية في أصبهان في القرن الرابع الهجري وأزلت عنها غشاوة عشرة قرون أو تزيد ، وما كان لأدبائها وشعرائها من فضل في حقل الأدب والبلاغة والنقد والبيان ، كما آمل أن ينال بحثي هذا الرضا والقبول .

وقبل أن اختتم هذه المقدمة لا يسعني إلا أن اتقدم بمزيد من الشكر والامتنان لأستاذي الكبير ، الدكتور / محمد رجاء عيد ، المشرف على البحث ، فقد كان نعم الأب الذي يقسو على ابنائه ليشتد عودهم . جزاه الله عني وعن ابنائه من الدارسين خير الجزاء .

كما أخص بالشكر ، كل من أسدى إلي النصيحة أو ساهم برأي في هذا البحث ، فله مني خالص التقدير ، وبعد : فأملي أن يجد القارئ فيه بغيته وأن يقع منه موقعا حسنا ، فإن كان ذلك فهو المنية والأمل وإن كان دون ذلك فما أردت إلا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:=:

تمهيـــــد

: = : = : = : = :

* تمهيـــد :

اعتاد الباحثون فى دراساتهم أن يقدموا لها بمقدمات تمهيدية ، ولكنى فى هذا التمهيد ، لا أعده تمهيدا للدراسة ، بل هو جزء لا يتجزأ من البحث . وسأتناول فى هذا التمهيد مباحث ثلاثة ، المبحث الأول فى أصبهان الموقع والشكل والثانى فى مكانتها بين المدن الاسلامية ، والمبحث الثالث فى العوامل البيئية وأثرها فى الأدب ، وسوف أتحدث فى هذا التمهيد عن كل ماله اتصال وثيق بالحياة الأدبية فى أصبهان فى القرن الرابع الهجرى .

* مدينة أصبهان :

تسميتها : ..... قبة الاسلام وضرة مدينة السلام (١) ، فأعجب بها من قبة فى القباب وأحسن بلقبها بين الألقاب . وهى مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها .

وأصبهان : منهم من يفتح الهمزة ، وهم الأكثر ، وكسرها آخرون ، منهم السمعانى وأبو عبيد البكرى الأندلسى . قال ياقوت : سميت بأصبهان ابن فَلُوج بن لفطى بن يونان بن يافث وقال ابن الكلبى : سميت بأصبهان بن فلوج بن سام بن نوح ، عليه السلام (٢) .

وأصل لفظة أصفهان .. اسفاهان لأنه كان عليها فى أيام الفرس كوذرزين كشواذ وهو حينئذ يركب فى ثمانين ابنا له فرسانا شجعانا فضلا عن حفدته وأشياعه و خوله وأتباعه ، وكلما ركبوا قيل لهم اسفاهان أى الجيوش . فسميت به لتداوله فى كلامهم . وقيل أنه لما أمر نمروذ بنقل الأحطاب إلى الموضع الذى أراد احراق ابراهيم الخليل عليه السلام فيه طاوعه الناس جميعا فى نقلها غير أهلها فقيل لهم بعد ذلك اسفاه آن أى جنوده ، يعنى جنود الله (٣) .

وقال ابن دريد : أصبهان اسم مركب لأن الأصب البلد بلسان الفرس ، وهان اسم الفارس ، فكأنه يقال بلاد الفرسان ، وقال عبد الله المستجير بعفوه : المعروف أن الأصب بلغة الفرس هو الفرس ، وهان كأنه دليل الجمع ، فمعناه الفرسان والأصبهانى الفارس . (٤) .

---

(١) محاسن أصفهان لمفضل بن سعد المافروخى ص٦ (ط . مطبعة مجلس) .

(٢) انظر معجم البلدان — ياقوت — ط دار صادر بيروت جـ١ / ٢٠٦ .

(٣) انظر محاسن أصفهان ص٦

(٤) معجم البلدان جـ١ ص ٢٠٦ .

وقال حمزة بن الحسن : أصبهان اسم مشتق من الجندية وذلك أن لفظ أصبهان إذا رد إلى اسمه بالفارسية كان أسباهان وهي جمع أسباه ، وأسباه : اسم للجند والكلب وكذلك سك : اسم للجند والكلب ، وإنما لزمها هذان الاسمان واشتركا فيهما لأن أفعالهما لفق لأسمائهما وذلك أن أفعالهما الحراسة ، فالكلب يسمى في لغة سك وفي لغة أسباه ، وتخفف ، فيقال : أسبه ، فعلى هذا جمعوا هذين الاسمين وسموا بها بلدين كانا معدن الجند الأساورة ، فقالوا لأصبهان : أسباهان ، ولسجستان : سكان وسكستان ، وذكر ابن حمزة في اشتقاق أصبهان حديثا يلهج به عوام الناس وهوامهم ، قال : أصله أسباه آن أي هم جند الله (١).

* موقع المدينة :

وضعت رقعة أصبهان على مائة وعشرين فرسخا في مائة وعشرين فرسخا ، وحدودها كانت ما بين أطراف همذان وماه ونهاوند إلى أطراف كرمان. وما بين أطراف الري وقومس إلى أطراف فارس وخوزستان ، وكانت موضوعة على أساتين ثلاثة وعلى ثلاثين رستاقا ، ومائة وعشرين طسوجا وخمسة آلاف قرية ، وسبع مدائن ذكر ذلك صاحب كتاب أصبهان مشروحا بأساميها وحدودها . فخربت من هذه المدن السبع أربع ، وبقيت إلى الإسلام ثلاث مدائن ، مدينة جيّ ، ومدينة مهرين ، ومدينة قم ، هذه المدن حصلت على كورتين وسبعة وعشرين رستاقا ، وثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاث عشرة قرية إلى أن وردها العرب(٢).

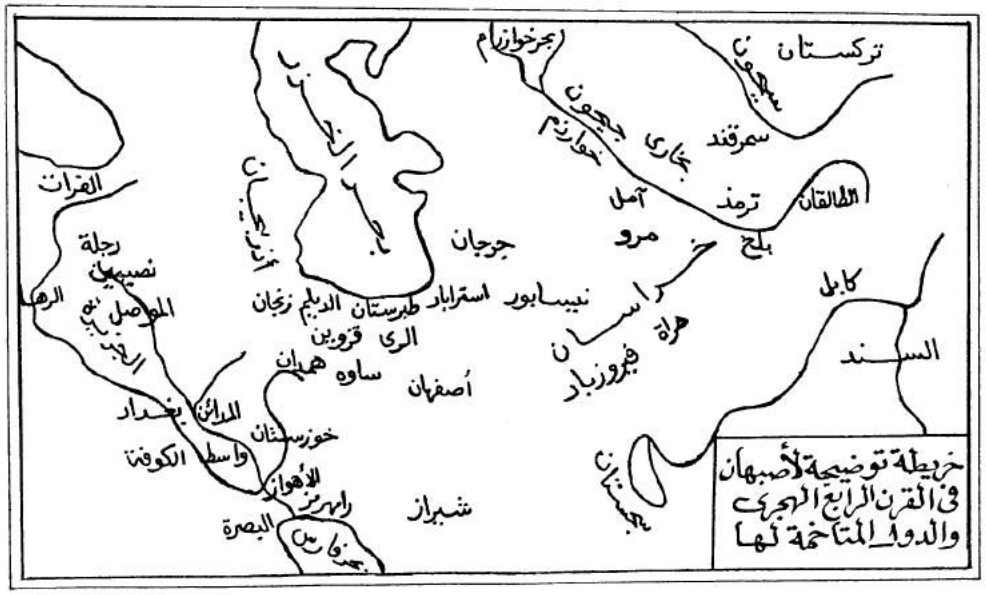
ثم إن الرشيد كوّر كورة قم من أصبهان على أربعة رساتيق مع ما أضاف إليه من رساتيق أخر من همذان ونهاوند فحصلت أصبهان بعده على ثلاثة وعشرين رستاقا إلى أن شرع المعتصم في بناء كورة الكرج فكوّر الكرج على أربعة رساتيق من أصبهان وعلى ضياع أخر من ضياع نهاوند وهمذان فحصلت أصبهان بعد المعتصم على تسعة عشر رستاقا وكورة واحدة وألفين وخمسمائة قرية (٣).

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت جـ١ / ٢٠٦.

(٢) انظر أخبار أصبهان لابي نعيم المجلد الأول ص١٤ (ط. ليدين ١٩٣١م.).

(٣) المرجع السابق ص١٤


بحر خوارزم
تركستان
سيحون
جيحون
خوارزم
بخارى
سمرقند
القفقاز
ترمذ
آمل
مرو
بلخ
جرجان
نيسابور
استراباد
طبرستان
الديلم
زنجان
الرى
قزوين
همذان
ساوه
أصفهان
فيروزباد
كابل
السند
الفرات
دجلة
نصيبين
الموصل
الرها
الرقة
المدائن
بغداد
واسط
الكوفة
خوزستان
الأهواز
نهر معقل
البصرة
شيراز
مكران
بحر فارس
خريطة توضيحية لأصبهان
فى القرن الرابع الهجرى
والدول المتاخمة لها

بنـــاء أصبهـــان

وأصبهـان اسم للاقليم بأسره ، وكانت مدينتهـا أولا جَيّا ثم صارت اليهوديـة وهـى من نواحى الجبـل فى آخـر الاقليم الرابـع ، طولهـا ست وثمانون درجـة ، وعرضهـا ست وثلاثـون درجـة تحت اثنتى عشـرة درجـة من السرطـان ، يقابلهـا قبلهـا من الجـدى (١) .

وأمـا بنـاء مدينة جـى فقيـل بناهـا الأسكنـدر الرومـى على يـد ى جـى بن زارد ، الأصبهانـى فسميت المدينـة بـه وعرض أساسى سورهـا ستـون لبنـة وألزق بأساسـه الفرهـيز بالشيفتق ، وقيـل إن المدينـة كانت مبنية قبـل أيام مملكـة جم فخربهـا فراسيـاب فيما خـرب من سائـر المـدن بإيـران شهـر . وأعـاد أساسهـا خُمانـى جهرازاد بنت بَهْمَن بن اسفنديار الملكـة قبـل مجىء الأسكنـدر فماتـت خمانى من بنـاء السـور على النصـف وورد الأسكنـدر فتركهـا على حالهـا . فبقيـت على حالتهـا إلى أيـام فيروز بـن يزدجـرد فتقدم إلى آذرسابور بـن آذرمانان من قرية هَرّاستـان من رستاق مابريـن بإتمـام بنـاء سـور مدينة جَىّ وذلك قبـل الإسـلام بمائة وسبعين سنة فأتـم بناءها آذرسابـور وركّـب فيـه الشـرف ، وهيأ مواقـف المقاتلـه على أعـلاه (٢) .

* أبـــواب المدينـــة :

ويتصـل بشكـل المدينة اتخـاذ آذرسابور أبوابا لهـا ، فعلـق أربعـة أبواب فـى أربعـة مواضـع من السـور فى أربعـة أيام فى كل يوم باب . . علق الباب الذى وجهه إلـى ميدان السـوق فى روزخور فسماه بـاب خور ، وتفسـير خور الشمـس . وعلق من عَـده ماه بـر فى روزمـاه ، وماه عندهـم القمـر وهو الـذى يسمى باب إسفيـس ثم علق من غـده الباب الثالـث وسمـاه تيرير ومعنـاه باب عطـارد وهـو المسمى باب تيره ، وعلـق من غـده البـاب الرابـع وسمـاه كوش بر وهـو المسمى باب اليهوديـة . ومن الهندسـة فى تعليق هـذه الأبواب أن الشمس إذا حلّت أول درجـة من الجـدى تطلـع فى بـاب خـور وتغـرب فى بـاب اليهوديـة ، وإذا حلـت الشمس أول درجـة من السرطان طلعـت فى بـاب اسفيس وتغـرب فى بـاب تيرة ، وكـان بالمدينـة رجـل من الزيريـة يقـال

---

(١) معجم البلدان ١ / ٢٠٦

(٢) أخبار أصبهان لأبى نعيم ١ / ١٥

لـه محمد بن محمود فقلـع باب خور وفتـح بابا آخـر مـن سورهـا وسُمـّى الباب الجديـد ورد مكانـه بابا خشبيـا علـى مصـراع واحـد (١) .

ومساحـة مدينـة جى استدارة سورهـا ألف قصبـة ، فمساحـة المدينـة ألفا جريب سـواء وذلك أن قطرهـا ثلاثمائـة وعشـرون قصبـة فإذا ضرب نصف قطرها فى نصف إدارتها كـان ثمانـين ألف قصبة وذلك ألفا جريب . وفى سورها من القصور مائة وأربعـة قصور وهى بـروج معوجـة واسعـة ثابتـة مـن استدارة السـور.فمن باب خور إلى باب اليهوديـة الصغـرى ألـف ومائـة ذراع وبينهما ثمانيـة عشـر برجـا ، ومنـه إلى باب تيره ألـف ومائـة ذراع وبينهمـا ثلاثـة وثلاثـون برجـا ومنـه إلى بـاب إسفيـس ألـف وثلاثمائـة ذراع وبينهمـا أربعـة وعشرون برجـا ، ومنـه إلى باب خور ألـف وأربعمائـة ذراع وبينهمـا خمسة وثلاثـون برجـا ، فدوران مدينـة جـى سبعـة آلاف ومائـة ذراع ، وبذراع اليد عشـرة آلاف وستمائة وخمسـون ذراعـا وطولهـا ألف وخمسمائـة ذراع ، وعرضهـا ألف وسبعمائـة اثنـان وخمسون ذراعـا (٢) .

* بيئتهـا الطبيعيـة :

امتـازت بيئة أصبهان بطبيعة ساحـرة فاتنـة ، انتظمـت الكثـير مـن الجبال والأودية الفسيحـة ، والحقـول المديـدة ، والمـدن الجميلـة ، فقـد وقعـت فى المنطقة الخصبـة بين الجبـال والصحـراء .. وهبتهـا الطبيعيـة بسخـاء ، فجـرى إليها نهـر أصبهان المعـروف يزند روذ . وهـو غايـة فى الطيـب والصحـة والعذوبـة .. وقـد أفـاض الكتـاب فى وصف محاسـن هـذه الطبيعـة ومفاتنهـا فـى رسائلهـم ومؤلفاتهـم . فهـى مدينـة عظيمـة مـن أعلـى المـدن ومشاهيرهـا ، جامعـة لأشتات الأوصـاف الحميـدة مـن طيـب التربـة وصحـة الهـواء وعذوبـة المـاء ، وصفاء الجـو وصحـة الأبدان ، وحسـن صـورة أهلهـا ، ويسـرف المؤلفـون فـى وصـف عظمتهـا حـتى يتجاوز واحد الإقتصاد (٣)

وقـد وصـف المقديـس هـذا الاقليم معجبـا بجمالـه فى فصـل الصيف قـال :

" إقليم حشيشـه الزعفران ، وشراب أهله العسـل والألبـان ، وأشجاره الجوز والاثيان (٤) .

---

(١) انظر أخبار أصبهان لأبى نعيم ١ / ١٥

(٢) المرجع السابق ص ١٦

(٣) انظر معجم البلدان لياقوت ١ / ٢٠٧

(٤) الاثيان : ليس فى القاموس - وربما أراد به الشجر الثمر .

تزينه بهى خصيب وله شأن ، به الرى الجليلة وهمذان ، والكورة النفيسة أصبهان ، لا حربه ولا براغيث ولا ذباب ولا أفاعى ولا عقارب ولا ديدان ، فى الصيف جنة ورونقة وبستان ... (١) " وقال القزوينى : " يبقى التفاح بها غضا سنة ، والحنطة لا تتسوس بها ، واللحم لا يتغير أياما .... (٢) " .

وقد وصفها شعراؤها ، وأفاضوا فى الوصف .. وصفها الحجاج فقال : " حجرها الكحل . وذبابها النحل ، وحشيشها الزعفران " . وقال بعضهم : (٣)

لست آسى من أصفهان على شى ... سوى مائها الرحيق الزلال .
ونسيم الصبا ومنحرق الريـ ... ـح وجو صاف على كل حال
ولها الزعفران والعسل الماذى ... الصفنات تحت الجلال

ولاختلاف هذا الاقليم من ناحيتى التضاريس والمناخ أثر كبير فى غناه بالمناظر الطبيعية واختلاف منازهه وفواكهه وحبوبه . وزاد من جمال هذه البيئة الطبيعية الرائعة ، ما أنشأ فيها من مدن وقلاع وقصور ، وما حلوا به مدنهم من شوارع منسقة ، وحدائق ، ومنتزهات جميلة واسعة .

ولقد أثرت هذه الطبيعة ، وما استتبعته من ثراء ورخاء وسعة فراغ ، فى الأدب نثره وشعره . فألهمت الشعراء بأروع ما ابتكروا من أدب الطبيعة ، وأثرت فى الأدب تأثيرا واضحا تجلى فى رقة ألفاظه ، وسهولة أسلوبه ، وبدائع معانيه ، وغرر تشبيهاته وكناياته ومجازاته .

---

(١) أحسن التقاسيم للمقديس ص٣٨٤ (ط بريل ١٩٠٩)
(٢) آثار البلاد للقزوينى ص٢٩٦ .
(٣) انظر معجم البلدان لياقوت ١ / ٢٠٨ ، ومقدمه عيار الشعر تحقيق د / زغلول سلام .

ثانيا : مكانتها بين المدن الإسلامية :

أصبهان : بلدة عظيمة تحدث الكثيرون عن فخامتها وتقدم العمران فيها وترجع أهميتها إلى وقوعها فى المنطقة الخصبة بين الجبال والصحراء ، لذلك كانت من أقدم العصور طريق المواصلات بين غرب إيران وشرقها .

فتحها المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ٢٢هـ ، وابتدأت عهدها الزاهر فى الإسلام واستمرت فى طريق النمو والإزدهار حتى أصبحت حاضرة إسلامية كبيرة فى القرن الرابع الهجرى تفوق بغداد نفسها فى كثير من الأحيان

وقد بلغت المدينة أوج عظمتها حين وطد البويهيون أقدامهم وبسطوا ظلهم على الخلافة العباسية بعد أن قضوا على القائد مرداويج بن زياد سنة ٣٢٣هـ وباتوا المسيطرين على بغداد مركز الخلافة منذ ٣٣٤ هـ ، فقد أصبحت أصبهان منذ ذلك الحين اقطاعا لفرع من بيوت الدولة البويهى ، وكانت أصبهان آنذاك تأخذ أهميتها كمركز ثقافى هام وبخاصة أيام الصاحب بن عباد وزير البويهيين الأكبر .

وقد بلغ من أهمية أصبهان كبلد اشعاع حضارى أن ذكر المافروخى فى وصف دار الكتب بجامع أصبهان : " دار الكتب بحزاء الجامع الكبير وحجرها وخزانتها اللواتى قد بناهن الأستاذ الرئيس أبو العباس أحمد الضبى ونضد فيها الكتب عيونا ، وخلدها من العلوم فنونا قد تخيرها على مر الأيام فضلاء سالف الأزمنة وأدباء غابر الآونة ، ويشتمل فهرستها على ثلث مجلدات كبيرة من المصنفات فى أسرار التفاسير وغرائب الأحاديث ، ومن المؤلفات فى النحو واللغة والتصريف والأبنية ، ومن المدونات من غرر الأشعار وعيون الأخبار ، ومن الملتقطات من سنن الأنبياء والخلفاء وسير الملوك والأمراء ، من المجموعات من علوم الأوائل من المنطقيات والرياضيات والطبيعيات والإلهيات إلى غير ذلك مما يفتقر إليه طالب الفضل ، والمميز بين العلم والجهل (١) وأما أرباب العلوم كالفقهاء والأدباء والمنجمين والأطباء فأكثر من أهل كل مدينة ، سيما فحول الشعراء وأصحاب الدواوين فاقوا غيرهم بلطافة الكلام ، وحسن المعانى ، وعجيب التشبيه وبديع الاقتراح . (٢) .

---

(١) انظر محاسن أصفهان للمافروخى ص ٨٥

(٢) مقدمة عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق د /محمد زغلول سلام

وقال الثعالبي : " لم تزل أصبهان مخصوصة من بين البلدان بإخراج فضلاء الأدباء وفحولة الشعراء والكتاب (١)". ومن مآثرها المأثورة ومفاخرها المشهورة ما يحكى عنها من فراهة صانعيها وحذاقة محترفيها ، قال القزويني : " ولصناعها يد باسطة في تدقيق الصناعات ، لا ترى خطوطا كخطوط أهل أصبهان ولا تزويقا كتزويقهم ، وهكذا صناعهم في كل فن فاقوا فيه جميع الصناع ، حتى أن نسّاجها ينسج خمارا من القطن أربعة أذرع وزنها أربعة مثاقيل ، والفخار يعمل كوزا وزنه أربعة مثاقيل يسع ثمانية أرطال ماء ، وقس على هذا جميع صناعاتهم (٢) .

وقال الهيثم بن عدي : " لم يكن لفارس أقوى من كورتين ، واحدة سهلية والأخرى جبلية ، أما السهلية فكسكر ، وأما الجبلية فأصبهان ، وكان خراج كل كورة اثني عشر ألف ألف مثقال ذهبا (٣)". وقد بلغت فضائلها المشهورة المشهودة ، وخصائصها المحمودة المعدودة مرتبة شريفة ، ومنزلة رفيعة لا يجحدها من أولي الألباب أحد ، ومن الأخبار الشاهدة بعلو مكانتها بين المدن ما أجاب به الهرمزان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا شاوره في أصبهان وفارس وأذربيجان فقال : " يا أمير المؤمنين أصبهان الرأس وفارس وأذربيجان الجناحان (٤)". وحكى عن ابرويز قال : " لا يتم أمرنا إلا بمعونة أهل أصبهان ، وفضّل أنوشروان جند أصبهان على جند الأرض(٥) " .

فتحها :

فتحها عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه في سنة ١٩ للهجرة المباركة بعد فتح نهاوند فبعث عبد الله بن عبد الله بن عتبان وعلى مقدمته عبدالله بن ورقاء الرياحي ، وعلى مجنبته عبد الله بن ورقاء الأسدي ، وسار عبد الله بن عتبان إلى جَيّ والملك يومئذ بأصبهان الفاذوسقان (٦) .

---

(١) يتيمة الدهر ٣/٢٦٧ (ط. الصاوي)
(٢) مقدمه عيار الشعر ، وانظر أيضا محاسن أصفهان للمافروخي ص ٨٨
(٣) انظر معجم البلدان لياقوت ١ / ٢٠٨
(٤) محاسن أصفهان ص ٦
(٥) المرجع السابق ص ٤٢
(٦) معجم البلدان لياقوت ١/ ٢٠٨

فلما التقت الفئتان قال الفاذوسقان لعبد الله لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي . فبرز له عبد الله ، فقال له : إما أن تحمل علي وإما أن أحمل عليك ، فقال : أنا أحمل عليك فاثبت لي ، فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسقان فطعنه فأصاب قربوس السرج فكسره وقطع اللبب والحزام . فأزال اللبب والسرج ، وعبد الله على الفرس فوقع قائما ثم استوى على الفرس عريانا ، وقال له أثبت ، فحاجزه الفاذوسقان وقال :

ما أحب أن أقاتلك .. فإني قد رأيتك رجلا كاملا ، ولكني أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام وأدى الجزية وأقام على ماله ، وعلى أن يجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون ، ومن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه ، قال لكم ذلك .. فرضى أهل جيّ بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم لحقوا بكرمان ، ودخل عبد الله وأبو موسى الأشعري جيّا وكان قد لحق بعبد الله ، وجيّ : مدينة أصبهان (١) وكتب عبد الله بالفتح إلى عمر ، رضي الله عنه ، فرجع إليه الجواب يأمره أن يلحق بكرمان مداد للسهيل ابن عدي لقتال أهلها ، فاستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع ومضى إلى كرمان حسب أمر عمر (٢) .

وكان نسخة كتاب صلح أصبهان : " بسم الله الرحمن الرحيم .. كتاب من عبد الله للفاذوسقان وأهل أصبهان وحواليها .. إنكم آمنون ما أديتم الجزية ، وعليكم من الجزية على قدر طاقتكم على كل سنة تؤدونها إلى الذي يلي بلادكم . على كل حالم . ودلالة المسلم واصلاح طريقه ، وقراه يومه وليلته ... ولا تسلطوا على مسلم وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم ولكم الأمان ما فعلتم ، فإذا غيرتم شيئا أو غيرة مغير منكم لم تسلموه فلا أمان لكم ، ومن سب مسلما بلغ منه . فإن ضربه قتلناه ... (٣) .

---

(١) انظر كتاب أخبار أصبهان لأبي نعيم الأصبهاني في جـ١ / ٢٥ ، معجم البلدان جـ١ / ٢٠٨ وانظر محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية للشيخ محمد الخضري جـ١ / ٢٢٤ الطبعة الرابعة سنة ١٣٥٤هـ .

(٢) انظر معجم البلدان ١ / ٢٠٩

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٠٩

ثالثا : " العوامل البيئية وأثرها فى الأدب "

* **الوراثـــة :**

ينتمى الفرس إلى الجنس الإيرانى أحد الأجناس العالمية المشهورة ، التى لا تزال موضع اهتمام الباحثين إلى اليوم . وإن اختلف العلماء فى الجد الفارسى الأول الذى ينحدر منه الفرس.

ونرى أن الخلافات التى تدور حول الجنسية الفارسية تنحصر حول الجد الأول.أما انتماؤهم إلى السلالة الإيرانية فذلك ما لا سبيل إلى الشك فيه .

والجنسية الآرية تعتبر الوحدة الكبرى التى تجمع الفرس فيمن تجمع وتظلهم جميعا تحت لواء واحد . وهى من أرقى الأجناس العالمية ، ولا تقل عن الجنسية السامية فى مواطن الفخر ووفرة الفضائل . فإذا كان الساميون يفخرون بوحدة اللغة وتقاربهم فى اللهجات ، فإن الايرانيين ينعمون بنفس هذه الميزات ، إذ يرجعون إلى أصل واحد كما تربطهم لغة واحدة تكاد تكون متقاربة اللهجات متحدة الأصول .

قال " ألول ستن sutton " " إن هذه القبائل تنحدر من أقدم الأصول وأن لغتهم الهند آرية Indoiiryan تجعل منهم وحدة متماسكة الأجزاء ، وعلى هذا الأساس قامت النظريات النازية التى تجمع بين الايرانيين والألمان النرديك فى الأصول .... (١) " .

وعلى هذا الأساس يعتبر العلماء " اللغة النورديكية " من الأسس القديمة فى اللغة الفارسية . وعليه فإن النظرية التى تجمع بين الفرس وسكان شرق أوربا فى الجنس تدلنا على مدى ما قامت به القبائل الإيرانية منذ الآف السنين من سياحات واسعة شملت أوربا فى عصورها الأولى .. ولعل ذلك هو ما يفسر لنا ما نلمسه من تشابه فى قواعد " اللغات الهند وأوربيه " وأن كل ما نراه من وجوه الشبه بين قواعد اللغة الفارسية وقواعد اللغات الأوربية وما نلحظه من تشابه فى بعض الكلمات وطريقة تركيب الجمل والعبارات هو فى الحقيقة وليد الجنس الإيرانى .

أما الموطن الأصلى لهذا الجنس فيقع ما بين غربى إيران إلى شمال الهند ، وهو الإقليم الذى يحتله الفرس وكانوا يسيطرون عليه قديما ولا يزالون فيه إلى اليوم .

---

(١) L.P.Elwell-sutton,modern Iran, P.13.

وللفرس طبائع وتقاليد موروثة تتفق مع خصائصهم الجنسية ومع ما يمتازون به من فروسية ونشاط، والقبائل المنتقلة منهم تميل إلى الحياة الحرة والهواء الطلق ، ويمتازون بالطبيعة الصريحة التي هي من أهم ميزات الجنس الإيراني ولكن لا نرى هذه الصفات بوضوح في سكان المدن ، ومعظم السكان يشتغلون بالزراعة وقليل منهم يميلون للحياة البحرية التي ورثها عنهم العرب والأرمينيون (Armenians) ويشتهر الإيرانيون بالكرم ، ويغرمون بالشرف ، وهم اجتماعيون ، وأهل لباقة ومهارة (١).

وهم اجتماعيون يحسنون استقبال الغرباء والضيوف ، ذوو مقدرة خاصة على مجاراتهم ويعنون كثيرا باحترام من يكبرون عليهم في السن أو الرتب والدراسات ومن أحب الأشياء إلى نفوسهم التجمهر في المنتديات والبيوت(٢).

والفرس من الأجناس الشغوفة بالطقوس وإقامة الحفلات المتمسكة بالتقاليد ولعل اهتمامهم بالحفلات التي تصاحب الفرد من مولده إلى وفاته مما يؤيد لنا هذه الحقيقة وهناك صورا شتى من التقاليد في حفلات الميلاد التي يقيمونها للمولود الجديد . كما نلمس ذلك في التعاويذ التي يحصنون بها المولود من أعين الحاسدين ، واللفائف الثقيلة التي يحيطونه بها ، وما يعقدونه حول رقبته من كتب وتعاويذ . ومن تقاليدهم الطيبة أنهم يعاملون خدمهم وأتباعهم برفق وشفقة تستحق التقدير والثناء (٣).

وكان للصفات الجنسية والتقاليد الموروثة في الجنس الفارسي أثر كبير ظهر صداه واضحا في حياتهم العقلية كما تجلى في حياتهم الفنية وفي كثير من حياتهم الروحية فامتازوا بسعة الخيال ، ورقة العاطفة والميل الشديد إلى الفنون الجميلة والعكوف على مناهجها .

وقال الول ستن (sutton): " والإيرانيون من الأجناس التي تمتاز بسعة الخيال مع ميل شديد إلى الفن والشعر ، ولهم شغف عظيم بالتفكير في المناظر الخارجية للأشياء أكثر من التفكير في حقائقها الداخلية ، وهم ثرثارون فصحاء يميلون إلى اكتساب المعارف كما يميلون إلى المناهج الجديدة والأفكار الحديثة (٤).

---

(١) Elwell - sutton, P.13.

(٢) Elwell - sutton, P.13.

(٣) الصاحب بن عباد حياته وأدبه ماجستير مخطوطة باسم حامد حنفي داود ص٤ جامعة عين شمس.

(٤) Elwell - Sutton, modern Iran, P.13.

وهم أهل فن وأصحاب أفكار وآراء قديمة عرفها عنهم جميع من درسوا لغتهم وزاروا بلادهم وشاهدوا آثارهم . وقد حدثنا التاريخ عما افادته الأمم المجاورة لهم . وما أفادوه عنها من آداب وفنون ، ولعل نحلهم القديمة ومذاهبهم القديمة المعروفة كالمزدكية ، والمانوية ، والزرادشتية وغيرها دليل آخر على سعة ثقافتهم ، ووفرة أفكارهم ، وكثرة تجاربهم ، ومبلغ ما وصلوا إليه من حياة عقلية معقدة .

وأن هذه المقومات الأدبية قديمة فى الجنس الايرانى مغرقة الأصالة فيه ، وربما كان أقدم آثارهم الأدبية التى انحدر منها الخصائص الأدبية يرجع إلى كتاب الأفستا Avesta الذى كان معتبرا الدستور الدينى والعلمى والأدبى عند الفرس ، وقد كانت لغتهم الفارسية فى ذلك الوقت تسمى البهلوية (Bahlavi)(١) .

هذه هى عوامل الوراثة لا شك أنها أثرت فى الحياة الأدبية فى اصبهان من فن وأدب .. نثر وشعر . حيث إن الصفات الوراثية تنتقل فى أفراد الجنس منحدرة عن أصولها الأولى . والأدباء والشعراء فى أصبهان لا شك أنهم ورثوا هذه الصفات عن جدودهم . وإذا كان الأدب العربى قد تأثر بعض الشئ بالأدب الفارسى ، وأن ذلك الأثر ظهر بشكل واضح فى القرن الرابع فإن هذا الأدب الفارسى لا بد أن يكون أوضح ظهورا وأشد بيانا فى أدباء وشعراء أصبهان .

* عوامل البيئة :

بعد أن تعرضنا للحديث عن أثر عوامل الجنس والوراثة فى الحياة الأدبية فى أصبهان نتحدث عن البيئة الطبيعية والاجتماعية والسياسية والفكرية لنرى إلى أى حد أثرت فى الأدباء والشعراء والحياة الأدبية بوجه عام وإلى أى حد ظهر صدى ذلك فى أدبهم .

وإذا كان علماء وظائف الأعضاء يرون أن الكائن الحى يتشكل ويتكيف ببيئته الطبيعية ، ويسير جنبا إلى جنب مع مقوماتها وخصائصها الجغرافية ، كما أنه مزود بالجسم والعضلات التى تلائم ظروف البيئة الطبيعية فإننا لا نشك أن الانسان وهو أرقى الحيوانات وأشدها تأثرا بطبيعة بيئته . يتأثر بها فى جسمه وفى مسكنه وفى ملبسه ، ولا يقف عند ذلك . بل يجارى بيئته الطبيعية فى السلوك والأخلاق . ولسنا نشك فى أن ساكن الجبل غير ساكن الصحراء ، وأن هذا وذاك غير ساكن السهول والوديان .. فنرى الأول فظا غليظا بينما الثانى قوى العضلات مفتولها .. على حين أن الثالث

---

(١) Elwell - Sutton, modern Iran, P.27,L.17.

سهلا وديعا كبيئة التى يعيش فيها فنفس الإنسان أيا كانت جنسيته ووراثته مرآة صادقة تنعكس عليها خصائص إقليمه الذى يعيش فيه . ولا شك أن الأدباء والشعراء كان لهم من البيئة الطبيعية فى أصبهان أكبر الأثر . لقد تأثرت نفوسهم بطبيعة هذه البيئة ، وظهرت آثارها واضحة فى كتاباتهم .

ولعل ما فى هذه البيئة من فوارق طبيعية واسعة المدى بين مرتفع وسهل منخفض ورياض مزهرة وحدائق غناء وحر شديد فى الصيف إلى برد قارس فى الشتاء ، كل هذه الفوارق الجغرافية أعلت آثارها فى نفوسهم (١) .

ولعل هذا التناقض السريع الذى سندرسه ونلمسه بعد قليل فى شخصية شعرائهم إن دل على شىء فإنما يدل على شدة تأثرهم بطبيعة بلدهم واستجابتهم الشديدة لمؤثراتها الطبيعية .. رضاء الشاعر ، ازوراره أو سخطه ما هو فى الحقيقة إلا صدى لما فى هذا الإقليم من مناظر طبيعية شديدة التقلب سريعة التغير - كما أن بعض الأغراض الشعرية الرفيعة التى نالت جهد وعناية واتقان الشعراء كوصف الأزهار والربيع والرياض وما كان فيها من فواكه وأشجار كانت صفة صادقة معبرة عن تأثر نفوسهم وما طبع فى عقولهم وحسهم من مظاهر البيئة وطبيعتها .

ولعل أسلوب النثر المنمق المشتمل على السجع والجناس ، والذى كان موجودا فى اللغة العربية قبل اتصال العرب بالفرس ، إنما أولع به الفرس واستكثروا منه فى القرن الرابع لأنه يوافق طبيعتهم الفنية .

---

(١) انظر بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار للدكتور / عبد الفتاح لاشين ص٤١
وانظر كتاب محاسن أصفهان ص٤٩ ، ٥٠ ، ٦٤ ، ٦٨ .

البيئة الاجتماعية والاقتصادية :

كان من الطبيعي أن تنعكس آثار الاضطرابات السياسية على الحياة الاقتصادية، فقد أصاب الناس أيام البويهيين وبخاصة في العراق ضيق شديد بسبب حاجة الأمراء إلى المال للإنفاق على الجند ، وكان معز الدولة أسوأ مثل لذلك ، ووصل الأمر في بغداد إلى أنهم أكلوا الميتة والسنانير ، والكلاب والأشواك ، ولم تشهد أصبهان والري وهمذان شدة كهذه ، إلا أن مظالم الحكام والأمراء كانت موفورة أشار إليه القاضي عبد الجبار في كتبه أكثر من مرة ، كما أنه اكتوى بناره شخصيا حين صودرت أملاكه وأمواله (١) .

فعندما كانت الأموال تقل بين أيدي أمراء بني بويه ، كانوا يلجئون إلى البدعة السيئة وهي مصادرة أموال الوزراء والكبراء ، ومن يلوذ بهم أو ينتمي إليهم ، وباتت موردا أساسيا للأمراء وللدولة ، وقد عدد صاحب ذيل تجارب الأمم بعض حوادث المصادرات المشهورة : (٢) كمصادرة فخر الدولة للصاحب بن عباد وجميع أصحابه .

وكان المجتمع الإسلامي في ذلك العصر يتوزع على ثلاث طبقات : طبقة السلاطين والأمراء الذين وصلوا إلى حد كبير من الرفاهية والغنى واكتناز الأموال ، وطبقة الجند الذين كانت لهم مرتباتهم ، وكثيرا ما كانوا يستغلون فرصة انقطاعها لاختلاق أسباب السلب والنهب ، وطبقة العامة التي كان معظمها يعيش في بؤس وفاقة وخوف مستمر مما يجري من منازعات وحروب مستمرة بين السلاطين والأمراء والقواد وأتباعهم .

ولعل هذا وذاك يعطينا صورة من الفساد والانحلال ، إلا أن كل هذه الاضطرابات السياسية والفوضى الإقتصادية لم يضعف من النهضة الثقافية والفكرية ، بل أن القرن الرابع الهجري يعتبر في طليعة العصور الاسلامية الزاهية من حيث الثقافة والفكر ، فقد كان المد الثقافي مستمرا حتى إننا نستطيع أن نقول إن الانقسام السياسي كان من أسباب النهضة الثقافية ، فقد حرص كل أمير ووزير أن يجمع في قصره عددا من المفكرين في شتى نواحي المعرفة والثقافة ، وإذا استطاع واحد من هؤلاء أن يجذب إلى ديوانه

---

(١) قاضي القضاة عبد الجبار ص ١٦ وما بعدها ، د. عبد الكريم عثمان (ط. بيروت).

(٢) الكامل لابن الأثير ٩/٤٠

أديبا مشهورا أو شاعرا معروفا ، فإنه يعد من دواعي فخره الشديد الذي لا يعادله فخر آخر .

وقد كان المجتمع البويهي صورة مركبة عجيبة التركيب ، شديدة التعقيد ، كان مجتمعا جامعا لعناصر وأشتات مختلفة من التقاليد والسلوك والنزعات والأهواء .. كان من الأدباء الفارسي الأصل ، المسلم الدين ، العربي اللغة ، الشيعي العقيدة — كما كانوا يرتبطون بهذه التقاليد والعادات أوشاج وروابط كثيرة في عددها مختلفة في نوعها فتأله ملوك الفرس ، وإسراف أمرائهم في الأبهة والعظمة والترفع ، والمغالاة في التجمل والتزين بفاخر اللباس كل هذه التقاليد وتلكم الصفات والعادات انعكست في نفوسهم وأدبهم ، كما أن هذه التقاليد نمت إلى شعرهم ، وغلبت على بعض أغراضه فتحدثوا في كثير منها — كما سنرى — عن عادات المجتمع البويهي واحتفلوا بأعيادهم واكثروا من ذكر عيد النيروز . ولعل ذلك سبب ما سنلمسه من غلبة الفخر والوصف والهجاء على معظم أشعارهم .

وجانب آخر من جوانب البيئة الاجتماعية هو " البلاط البويهي " وما كان يحيط به من ضروب التعظيم والترف والنعم . وما كان يلاقية من حفاوة وتعظيم ، وما كان يستمتع به من طعام وشراب وصنوف الملذات وكل هذه الجوانب خلقت في أدبهم لونا جديدا من الفن ، كانت في هذه النواحي صدى لبيئتهم الاجتماعية .

وشيء آخر هو التيارات الدينية : فقد شجع آل بويه التشيع بأوسع معانيه ، حتى ابتدعوا في مجتمعاتهم طقوسا وعادات فرضوها على الناس فرضا ، وأحيوا بها سنة الأئمة من آل البيت ، واحتفلوا بإعلان حزنهم على الأئمة ولا سيما مقتل الحسين في أيام عاشورا (١) .

كان لهذه الطقوس أثر عظيم في خلق المشاغبات بين الشيعة والسنة وتأثر الأدباء والشعراء بهذه التيارات الدينية كل التأثر حتى أمتزج ذلك بروحهم وجسدهم ، وظهر صداه واضحا في ميولهم ومن ثم في أدبهم وشعرهم .

ثم كان للتيارات الفكرية في هذه البيئة أثرها الملموس إلى جانب الحياة المذهبية التي كانت تسود هذا الاقليم يضاف إلى ذلك نضج مذهب المعتزلة (٢) الذين تكلموا في ذات الله

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ٤ / ١٤ (ط. دار الكتب).
(٢) المنية والأمل للمرتضى ص٦٣ (ط. حيدر آباد ١٣١٦ هـ).

وصفاتـه . وقد ساعد على انتشار الإعتزال فى القـرن الرابع وفـرة ما بين الشيعة والمعتزلـة من صـلات ووجوه شبـه ، وما يربطهما مـن تشابـه فى الأهـداف والغايـات .

وكان هذا وذاك سببا فى اتسـاع رقعة التيارات الفكريـة وعناية آل بويـه باقامـة أسـواق العلم والأدب ، والشغف المفرط فى جمع الكتب وتعمير دور العلـم وانشاء المكتبـات ـ كمكتبـة ابن العميـد ، ومكتبـة عضد الدولـة ، وخزانـة كتب الصاحب بن عباد (١) وغير ذلك مـن مظاهـر النشاط الفكرى الـذى كان له أثره فى تكويـن شخصيـة الأدباء والشعراء والعلمـاء وبنـاء ثقافتهـم .

وبعـد ، فكل ما نلحظ من خصائص الأدب فى القرن الرابـع ـ ما هـو الا مزيج عقلـى من الثقافـات الفارسيـة القديمـة التى ورثها الأدبـاء ، والثقافـات الاسلامية المعاصـرة التى اكتسبوهـا من بيئتهم .. ومن هذيـن المعينين تولـدت ثقافة كتاب الفـرس وبنيـت عقلياتهـم فى فلك العصـر ، وتلـك نتيجـة علمية حتمية لا محيص من الأخـذ بهـا .

البيئـــــة السياسيـــة :

اختلـط بهـا الأدبـاء والشعـراء . لذلك لم يكـن أثرها فى نفوسهـم وادبهـم أقل من أثر البيئـة الطبيعية والاجتماعيـة والاقتصاديـة ، وما أحداث التاريخ سوى تعبـير عن التيارات الظاهرة والخفيـة التى تعبث بالأمـة ، والقـرن الرابع مثل واضح على هـذا ، فهـو وإن كـان العصـر الذهبى التى نضجت فيه الثقافـة العربية الاسلاميـة وأتت أكلهـا ، فإنـه كان فـى الوقـت نفسه قرن زوال الخلافـة ببغداد وتقسيم الامبراطوريـة المترامـيـة الأطـراف إلـى دول :

فتغلب بنـو بويـه على فارس والرى وأصبهـان والجبـل ، ومحمـد بن إلياس علـى كرمـان ، ونصر بن أحمـد السامانـى على خراسان ، والبريـديون علـى واسط والبصـرة ، والديلـم على طـبرستان وجرجـان ، وأبو طاهـر القرمطى على اليمامـة والبحريـن وبنـو حمـدان علـى الموصـل وديـار ربيعـة ، وديـار بكـر ومضـر ، ومحمد بن طغـج الأخشيـد علـى مصـر والشـام ، كمـا كان المغرب وإفريقيـة فى يد الفاطميين ، والأندلس

---

(١) معجـم الأدباء لياقوت جـ٢ / ٢٥٦

فى يد عبد الرحمن الناصر ، ولم يبق فى يد الخليفة سنة ٣٢٤ هـ سوى بغداد وأعمالها ، أى المنطقة بين بغداد وواسط .

وتقسيم الامبراطورية الاسلامية إلى دول كانت نتيجة لضعف السلطة المركزية فى بغداد ممثلة فى الخليفة ، ونتيجة لعوامل كانت تتخمر فى جسم الامبراطورية ولكنها كانت مكبوتة بسبب قوة الخلفاء ، فما إن ضعفوا حتى انفجرت كل التيارات الخافية وأخذت تعبر عن نفسها بعنف ، ولم يكن هذا التقسيم يحول دون استمرار الوحدة الاسلامية وانتقال العلماء والأدباء بين أنحاء ديار الاسلام ، والذى حدث أن بغداد لم تعد هى التى تحرك العالم الاسلامى ، بل أخذت مكانها قرطبة ، والقاهرة ، والرى ، وأصبهان وغيرها

ونتيجة لهذا أصبحت هذه العواصم الجديدة هى مقصد الشعراء والأدباء والعلماء ، وبسبب هذا التنافس بينها على اجتذابهم انتعش العلم والأدب .

واذا نظرنا إلى أحوال الدولة العباسية فى هذا القرن وجدنا عوامل الضعف موجودة فى الحياة السياسية فقد استحال الخليفة إلى لعبة يلهو بها — قبل استيلاء البويهيين على مقاليد الحكم — الأتراك الذين سيطروا على الجيش منذ أن قربهم المأمون ، واعتمد عليهم المعتصم ، وبلغ من هوان الخليفة أن اعتلى العرش خلال تسع سنوات تقريبا أربعة خلفاء : المنتصر ، والمستعين ، والمعتز ، والمهتدى وقضى الأتراك على هؤلاء الأربعة إما بالقتل أو التعذيب أو الخلع(١) .

هذه الحال السيئة دفعت بالخليفة المستكفى بالله إلى دعوة بنى بويه إلى بغداد فدخلها معز الدولة أحمد بن بوية يوم أحد عشر من جماد الأولى سنة ٣٣٤هـ .

وهكذا آلت السلطة فى القرن الرابع إلى أيدى البويهيين ، وهم سلالة ديلمية اختلف الكتاب فى أصلهم ، وبنو بويه التى سميت دولتهم " دولة بنى بويه " ثلاثة إخوة وهم جنود مغامرون أبناء صياد فقير على بحر قزوين ، صنعوا أمجادهم بأنفسهم وهم :

---

(١) القاضى الجرجانى ، د . محمود السمرة ص١٠ (ط. بيروت) .

على ، وحسن ، وأحمد . وقد أقاموا لهم دولة فى فارس والرى والجبل ، وتوجه أحمد الأخ الأصغر لاحتلال بغداد فلما وصلها فى أحد عشر من جماد الأولى من سنة ٣٣٤ هـ ، خرج الخليفة المستكفى لاستقباله ، وفى هذا اليوم أنعم على الإخوة الثلاثة بالألقاب فأصبح " على " صاحب فارس " عماد الدولة " و " الحسن " صاحب الرى " ركن الدولة " و " أحمد " صاحب العراق " معز الدولة " وأشهر أمراء بنى بويه هو عضد الدولة ابن ركن الدولة .

وقد بدأت دولة بنى بويه فى المشرق الإسلامى بعد مقتل مرداويج بن زياد سنة ٣٢٣ هـ وانتهت فى بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، أما فى المشرق فكانت نهايتها قبل هذا التاريخ فى سنة ٤٢٠ هـ على يد محمود الغزنوى ، وكانت الخلافة العباسية فى عصر بنى بويه موزعة بين أولاد ركن الدولة الثلاثة : مؤيد الدولة فى أصفهان ، وفخر الدولة فى الرى وهمذان ، وعضد الدولة فى فارس وبغداد (١) وكان وزيرهما الصاحب بن عباد .

وهذا العصر يتميز باضطراب سياسى عنيف تشهده الدولة الاسلامية فى شتى أقطارها ، وكان ظن الكثيرين أن سيطرة البويهيين على الدولة ستعيد الاستقرار إلى أقاليم الخلافة العباسية المتقلقلة لكن ذلك بقى حلما لم يتحقق ، فقد استمرت الحروب والغارات بين البويهيين والحمدانيين ، كما ظهرت محاولات عديدة لاستقلال بعض ولاة بنى بويه بولاياتهم واضطربت فتن القرامطة فى أنحاء من الدولة ، كما اشتدت غزوات الروم على حدود البلاد الاسلامية مستغلين ضعف الخلافة وانقسام الأمراء والقواد فيها ، هذا بالاضافة إلى الخلاف الشديد بين فروع دولة بنى بويه وما أسرفوا فيه من خلع الخلفاء والتمثيل بهم مما أضعف سلطة الدولة ونزع مهابتها من قلوب الناس .

وزاد الحال سوءا ما كان يدعيه معظم بنى بويه من نصرة على والتشيع له ، وما كانوا يقومون به من أعمال استفزازيه يضرمون بها نار الفتنة ، وذلك كأمرهم بلعن معاوية والتهجم على الخلفاء الثلاثة وتولية الشيعة شئون الدولة ، ومن ذلك أيضا ما أحدثه

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة " بويه " .

معز الدولة فى بغداد حين أمر فى العاشر من محرم سنة ٣٥٢ هـ " يوم عاشوراء " باغلاق الحوانيت وإبطال الأسواق والبيع والشراء ، واظهار النياحة وأن تخرج النساء منشورات الشعر ، مسودات الوجه ، قد شققن ثيابهن يدرن فى البلد بالنوائح ، ويلطمن وجوههن على الحسين بن على — رضى الله عنهما — وفى الثامن عشر من ذى الحجة أمر باظهار الزينة فى البلد وإشعال النيران احتفالا بعيد غديرخم (١) .

وكانت الاضطرابات المسلحة سرعان ما تشتد ، والقتال سرعان ما يبدأ بين الأهالى والجند على أثر هذه الاستفزازات . فقد قامت فى بغداد وغيرها من الأمصار القريبة والبعيدة ثورات تعبر عن احتجاج جماعات من الناس على بعض الإتجاهات السياسية والإجتماعية والفكرية أو تتبنى الآراء المناهضة للدولة .

وقد شهدت بغداد ثورات للعامة من الحنابلة عرفت بالتشدد الدينى ، صارت تكبس دور العامة والخاصة يريقون ما بها من الخمور ويضربون المغنيات ويكسرون آلات الغناء . وعارض الحنابلة الشيعة وتعقبوهم ، وخرج كثير من العلوية فى أنحاء الدولة ، وقامت ثورة الزنج فى الكوفة (٢) .

وبهذا الانقسام السياسى صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للمنازعات المتكررة بين العامة والسلطان والخليفة . ونستطيع أن نعد الجزء الذى تقع فيه أصبهان والرى وهمذان من الدولة الاسلامية هادئا مستقرا إذا قيس بغيره ، اذا ما نظرنا إلى الثورات والفتن التى كانت تعانيها بغداد مركز الخلافة .

ورغم هذه الاضطرابات السياسية التى أدت إلى ضعف سلطة الدولة فقد ازدهرت الفنون والآداب ، وتنافست العواصم الاسلامية فى اجتذاب عدد من العلماء والأدباء والشعراء ، وكانت أصبهان من بين تلك العواصم مدينة زاهرة ، ومركزا هاما من مراكز الحضارة الاسلامية (٣) .

---

(١) حديث غديرخم : تزعم الشيعة فيه أن النبى — (ص) — عهد فيه إلى على بالخلافة والامارة من بعده " المغنى جـ٢٠ / ١٤٤ "

(٢) مقدمة عيار الشعر لابن طباطبا العلوى دراسة وتحقيق د . محمد زغلول سلام ط . سنة ١٩٨٠

(٣) المصدر السابق .

وكان من الطبيعى أن تنعكس آثار هذه الاضطرابات السياسية على الحياة الأدبية بوجه عام . واذا كنا نعلم أن الأديب إنسان مرهف الحس رقيق الشعور يتأثر بما حوله فيعبر عن وقع هذا الوجود على وجدانه .

عرفنا مبلغ أثر هذه التيارات السياسية فى حياة الأدباء والشعراء والعلماء وأدبهم فقد عاشوا فى البلاط البويهى الذى كان يعد فى القرن الرابع أرفع بلاط فى المماليك الإسلامية . وقد ضاعف من مكانة هذا البلاط نفوذ البويهيين واستيلاؤهم على أزمّة الأمور فى بغداد وخضوع خليفة المسلمين لهم .

وكان لعزة البلاط البويهى وعظم أمرائه أثر عظيم ، فلم تعد بغداد مركز الحضارات وحدها ، على حين فاقتها بعض العواصم البويهية — فانتقل ركب الحضارة — كما يحدثنا الاستاذ — بارتولد الروسى — إلى هذه العواصم الجديدة رويدا رويدا (١) .

وهكذا انتقل سوق العلم والأدب فى الرى وأصفهان وشيراز وجرجان وكان الصاحب بن عباد — وزير هذا البلاط أشهر السباقين فى هذا الميدان . ثم كان لما بين أمراء البيت البويهى من تنافس أثر فعّال فى الأدب .

---

(١) تاريخ الحضارة لبارتولد ص٧٣ (ترجمة حمزة طاهر) .

الحيـــاة العقليـــة وأثرهـــا فـــى الأدب :

إنتشـرت المدارس والمكتبـات والعلوم فى القـرن الرابع ، وتعددت الثقافات وكـــثر الأساتـذة والطلاب ، وقامت الحلقات العلمية واللغوية والدينيـة فى المساجد والكتاتيب فـى كل مكان ، وكان للإسـلام أثره البالغ فـى حركـة الرقـى العلمى كما حض على المعرفـــة ، وكان لحركـة الترجمة عن اليونانيـة والهنديـة ، ولتنافس الأمـراء فى العالم الاسلامى فـــى رعايـة العلوم والثقافـة ، وللرحلات العلمية ، بين عواصم الخلافة الإسلاميـة ، ولإنشـــاء المكتبـات والمدارس ، وكـثرة حركة النسخ ، وتنافس العلماء فى خدمـة المعرفة ، وحظوتهم لـدى الملوك والأمراء ، ولكثرة الفرق وجدلهـا ومحاولـة كل منها الغلبـة على الفـــرق الأخـرى أثـره الكـبير فى الأدب .

وأخذت الحركة العقلية فى هذا العصر عن اليونان والفرس والعرب والهند وسواهـم مـن الأمم العريقـة فى الثقافـة والحضارة بالترجمة والاقتباس ، مما ظهـر فى الترجمات المختلفـه ، ثم فى الإقتباس من العلـوم والمعارف الأجنبيـة ، ثم فى تأليف العلماء والفلاسفة المسلمين .

وقـد أثـرت الحركة العقلية فى الأدب تأثـيرا كبيرا ، فالعلوم الإسلاميـة والمترجمة قـد أمـدت الأدب بكثير من المعانى والأفكـار والأخيلـة والموضوعات والأساليـب .
وقد ظهـرت كذلك فنـون النقـد والموازنـة ، وإعجـاز القرآن والبلاغـة . فأثـرت فى نمـو الأدب وازدهاره تأثيرا كبيرا ، وابتكرت فنون أدبيـة جديدة نشأت بتأثـير نمـو الثقافـــة والحركـة العقلية كالأدب الفلسفى ، الذى كان منـه لزوميـات المعرى ، وكأدب الزهـــد والتصوف وأدب الطبيعيـة ، وسوى ذلك ، ولا شك أن الأدب القصصى ومنـه فـن المقامـات مديـن لنمو الثقافـة والعلوم ومتأثر بالحركـة العقليـة فى هـذا القرن . هذا بالاضافـــة إلى ظهـور مصطلحـات العلوم الجديدة وذيوعهـا فى أساليـب بعض الأدباء والكتـــاب مما أثـر فى أساليـب الأدب وألفاظـة تأثـيرا واضحـا .

وقـد فتحـت هـذه العلوم مجالات واسعة أمام الكتاب والأدبـاء والشعراء للحديـــث عـن مشكـلات المجتمـع والأخـلاق والسياسـة المدنيـة وتدبـير الملك والفلسفـة وسـوى ذلك من مسائل الحضارة ومباحثات التفكير ، على أن كثيرا من الأدباء قد اشتغـل بعلـوم

الفلسفة والعلوم الجديدة ، كما أن كثيرا من العلماء قد كان الأدب هوايته ، وبذلك أصبح الفاصل بين الأدب والعلم ضئيلا ، ونشأ أثرا لذلك الشعر الفلسفى الذى يتجلى واضحا فى لزوميات المعرى ، وهو ديوان من الشعر ضمنه نتائج عزلته الفكرية خلال أربعين سنة ، من آراء فى الإلهيات والنبوات والمعجزات والأديان والوجود والزمان والمكان والمادة والصورة والقدم والخلود والأفلاك والنجوم والروح والجسد والحدوث والفناء ، والطبائع والأخلاق ، وسواها .

وكان التدوين سائرا فى منهج التقدم فى هذا العصر ، وتعددت أغراضه وموضوعات علومه ، وتنوعت أشكال كتبه من مبسوطات مفصلة ومختصرات مجملة ووسائط بينهما معتدلة ، ورغب العلماء والمصنفون فى الإفادة والإستفادة من وجود عدة دول متجاورة متنافسة كل منها تحرص أن تفوق الأخرى فى إحراز وسائل القوة ، وعتاد الملك وترفيه العيش ، ولا يكون ذلك إلا بتعضيد العلم والحضارة ، وأغدق ملوك هذه الدول ووزراؤها على العلماء والأدباء وتنافسوا فى ضمهم إلى مجالسهم ، وأغراهم هؤلاء بتأليف الكتب بأسمائهم واستنباط دقائق العلوم لفائدتهم ، فكثرت الكتب والمصنفات فى العلوم وما اشتق منها كعلوم الأخلاق وآداب الملوك ، وسياسة الملك ، وقيادة الحرب ، وتعبئة الجيوش ، واستعمال الأسلحة وتدبير المال وتصرف وجوه الكسب فى التجارة وتدبير المنزل والبحث فى معرفة أسباب العمران ، كما اتسع مجال البحث فى الطب والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة والفلك والجغرافيا وفن الحيل والكلام والمنطق وسائر العلوم الحكمية ، فتثبتت أصولها وتشعبت فروعها ، وتعددت المذاهب ، وأصبحت بعيدة الشبه بأصولها اليونانية ، وانصبغت بصبغة إسلاميه ، وامتزجت بكل فن حتى الأدب. ومن العلوم التى ألف فيها فى هذا العصر علوم الأدب ، فقد انقضى العصر العباسى الأول وقد فرغ العلماء والرواة من جمع أخبار العرب ونوادرها وأيامها وأشعارها وخطبها وأودعوها بطون الكتب وأوعية الصدور ، كما انضم إليها أخبار الفتوح والمغازى وسير الخلفاء والقواد والبلغاء ، فينعت بها قرائح الأدباء ، ولهجت بها ألسنة الندماء والسمار ، وفاضت أقلام الكتاب ، وبقيت أخبار المحدثين وبلاغة المولدين ونوادرهم وأشعارهم وحدهم وهزلهم مجالا لعناية مصنفى الأدب ، وتلك سلسلة لا تنقطع ما دام للغة حياة ، وللأمة سلطان وحضارة . وللعلماء مكانة ، وبعض ذلك

قد كان بالمشرق وظل حتى أواسط القرن الخامس .

ولا غرو أن جاء القرن الرابع وللأدب أقلام سيالة فى أيدى كتاب هم ثمرة الماضى ونقلة آثاره للعصور الخالفة ، ضموا ما كتبه سلفهم من كتب أو حدثوه من روايات إلى ما عرفوه وشاهدوه وسمعوه ، وأودعوا الجميع كتبا مطولة جامعة لكثير من فنون الأدب المتنوعة أو رسائل قاصرة على فن منه ، وكثير من الكتب المطولة لم يكن لجامعيها كتابة كثيرة منها فوق الربط بين العبارات المنقولة والشواهد الموردة ككتاب الأغانى وأكثر كتب أبى منصور الثعالبى ، ومنها ما هو ابتداع بحت ككتب المقامات للبديع، وكتب نقد الشعر والموازنة بين الشعراء وكتب الأدب الممزوجة بمباحث البلاغة .

ومن توابع كتب الأدب المبتدعة كتب الأسمار والخرافات والأساطير والقصص الحكمية المحكية على ألسنة الحيوان وسير الأبطال والشجعان وكان من سبب اهتمام الأدباء واعتناؤهم أن المنادمة والسمر صارت صناعة فريق عظيم منهم ، وصارت مجالسهم تمتاز بجاذبة أسباب اللهو ، والجلوس إلى الندماء والسمار ومطالعة القصص والخرافات واللعب بالشطرنج أو النرد ونحوها . وصار كل سامر ونديم يزيد فى أصل قصة نادرة طريفة أو شعرا ينا سبها ويزخرفها بأنواع الغرائب والتهاويل ، وأخبار الجن والسحرة ، وأفعال الشجعان التى تخرج عن الطوق .

منزلة أصبهان الأدبية :

إستطاع الصاحب بن عباد بشخصيته السياسية والأدبية أن ينهض فى شرق الدولة الاسلامية ، وأن ينقل زعامة الأدب من بغداد إلى أصفهان وما جاورها فى القرن الرابع الهجرى .

واذا كان الأستاذ بارتولد الروسى يرى أن الحياة الحضرية انتقلت رويدا رويدا من مراكز الحضارة القديمة ببغداد والبصرة إلى المدن الإيرانية الجديدة أمثال الرى وأصفهان وشيراز (١) فان لأصبهان أعظم الأثر فى النهوض بالجانب الأدبى من هذة الحضارة ففيها رفع الصاحب قواعد الأدب وأقام منابر الشعراء واحتف به كما يقول الثعالبى من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربوا عددهم على شعراء الرشيد من فحول الشعراء المذكورين كأبى نواس وأبى العتاهية ، والعتابى ، ومسلم بن الوليد ، وأبى الشيص ، وابن أبى حفصة ومحمد بن منازر (٢) .

فقد وجد الشعراء عند ابن عباد سوقا لبضائعهم فأهدوا إلى حضرته نتائج أفكارهم ، وساقوها نحوه سوقا . ومدحه خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين (٣) وطرز أسمه بآلاف القصائد ، حتى كان يقول مدحت — والعلم عند الله — بمائة الف قصيدة شعر عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ... (٤) ولم يكن هؤلاء الشعراء إلا دليلا يوضح لنا مقدار تشجيع الصاحب بن عباد للأدب ، وعنايته بالشعراء الذين كانوا يفدون على بابه ، كما يوضح مكانة أصبهان الأدبية فى القرن الرابع ، ونهوضها بالأدب .

وبفضل هذه النهضة الأدبية التى أقام الصاحب بن عباد دعائمها أصبح رئيس حلبة الشعراء والأدباء فى الدولة البويهية ، ومن ثم صار زعيم النهضة الأدبية فى النصف الثانى من القرن الرابع .

---

(١) تاريخ الحضارة لبارتولد ص ٧٣ .
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ / ٣٢ .
(٣) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ / ٢٥٧ .
(٤) المرجع السابق نفس الصحيفة .

الشعـــراء فـى أصبهـــان :

كان بـلاط الصاحب بن عباد مثابة للشعراء ، وملجأ للكتـاب والأدبـاء . وكان من شعرائه جماعـة لا يكادون يفارقون بابـه منهم : أبو سعيـد الرستمى ، وابو الحسن السلامـــى ، وأبو الحسن الجوهـرى ، وأبو الحســن الغويـرى ، وأبو طالب المكى المأمونـى ، وأبو القاسم بن أبى العـلاء ، وابن القاشانى ، وأبو محمد الخـازن ، وأبو العلاء الأسدى ، وأبـــو الفيـاض الطـبرى ، وأبو هاشـم العلـوى ، وأبـو معمـر الإسماعيلـى .

ورحـل إلى أصبهـان جماعة من الشعـراء الطارئين على حضرة الصاحـب منهـم : أبو القاسـم عمر بن إبراهـيم الزعفرانى أحد كبار شعرائـة (١) وأبو القاسم عبد الصمد بـن بابـك (٢) وأبو الحسن على بن محمد البديهى (٣) وأبو دلف الخزرجى البينوعى الـذى كان يشرك الصاحب فى الملح والطرف وحفظ مناكاة بنى ساسان (٤) وأبو حفص الشهرزورى أحد ظرفـاء الشعراء (٥) كما قصده شعراء بنى المنجم (٦) الذين نالوا اعجاب الصاحب بـن عبـاد ، وأبو الفـرج الساوى أحد ناسخى كتبة (٧) وأبو طاهر بن الربيع (٨) وأبو الفـرج ابن هندو أحـد الشعراء الذين تخرجوا على يديـه (٩) .

المجالس الأدبيـة فى أصبهـــان :

كـان الصاحب بن عباد يقيم لهؤلاء الشعراء المجالس الأدبية ، فكان لهم منبر يتبـارون عليـه وينالـون مـن خيره الكثير وفيضـه الوافـر .

حدث أبو عبد الله محمد بن حامد الحامدى قال : عهـدى بأبى محمـد ماثـلا بين يـدى الصاحب ينشـده قصيـدة أولهـا :

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/ ١٦٥ : ١٧٠
(٢) يتيمة الدهر جـ٣/ ١٩٤
(٣) يتيمة الدهر جـ٣/ ١٦٣
(٤) يتيمة الدهر جـ٣/ ١٧٤ : ١٧٥
(٥) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٠٦
(٦) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢٠٦ : ٢٠٩
(٧) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢١١
(٨) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢١٠
(٩) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢١٢ : ٢١٤

هـذا فؤادك نهبة بين أهـواء ... وذاك رأيك شورى بين آراء
هواك بين عيون النجل مقتسم ... داء لعمرك ما أبلاه من داء
لا تستقر بأرض أو تسير إلى ... أخرى بشخص قريب غربه نائي
يوما بخزوى ويوما بالعقيق ويو ... ما بالعذيب ويوما بالخليصاء
وتارة تنتحي نجدا وآونة ... شعب العقيق وطورا قصر تيماء

قال : فرأيت الصاحب مقبلا عليه بمجامعه ، حسن الإصغاء إلى انشاده ، مستعيدا لأكثر أبياته ، مظهرا من الإعجاب به والاهتزاز له ما يعجب الحاضرين ، فلما بلغ إلى قوله :

أدعى بأسماء نبزا في قبائلها ... كأن أسماء أضحت بعض أسمائي
أطلعت شعري فألقت شعرها طربا ... فألفا بين إصباح وإمساء

زحف عن دسته طربا له ، فلما بلغ إلى قوله في المدح :

لو أن سحبان باراه لا سحبه ... على خطابته أذيال فأفاء
أرى الأقاليم قد ألقت مقالدها ... إليه مستبقات أي القاء
فساس سبعتها منه بأربعة ... أمر ونهي وتثبيت وإمضاء
كذاك توحيده ألوى بأربعة ... كفر وجبر وتشبيه وارجاء

فجعل يحرك رأسه ويقول : " أحسنت .. أحسنت " فلما انتهى من القصيدة أمر له بجائزة وخلع(١).

المعارضات الشعرية :

كان يقام في أصبهان مجالس خاصة للمناظرة في الأغراض الشعرية يصح أن نطلق عليها المعارضات الشعرية يلقى فيها كل شاعر من الشعراء قصيدة يختارها من أجود ما أبدعته قريحته ، وسطرها قلمه ليباهي بها إخوانه ، وينافس أقرانه ، ويكاثر خلانه في مجلس مهيب قد انتظمه أبلغ شعراء العصر كالرستمي ، والخازن ، والزعفراني ، والضبي ، وغير هؤلاء من أعلام الشعراء.

---

(١) معجم الأدباء (ارشاد الاديب) جـ٢ / ٣٢١ ، ٣٢٢ (مطبعة هنديه).

وكانوا ينشدون فى الغرض الواحد ما يربو على عشرين قصيدة يختارونها من وزن واحد وقافية واحدة . ولقد كانت هذه المعارضات الشعرية مشهودة فى تاريخ الأدب . حتى لنرى الثعالبى يسردها علينا الواحدة تلو الأخرى ، وقد أشار إلى أغراضها ، وما قاله الشعراء فيها .

ورأى أن هذه المعارضات كثيرة جدا ولم يصل إلينا منها إلا ما أورده الثعالبى فى اليتيمة فذكر لنا ما قيل فى وصف الدار الجديدة التى بناها الصاحب، وما قيل فى ابن بنته أبى الحسن عباد الحسينى ، وما قيل فى برذون ابن المنجم ، وما قيل فى وصف الفيل الخراسانى الذى نالـه الصاحب فى وقعة جرجان .

وصدر الثعالبى هذه المعارضات بذكر ما قاله الشعراء فى وصف الدار الجديدة التى بناها الصاحب سنة ٣٧٣هـ . ومن بين الشعراء الذين وصفوها أبو العباس الضبى وأبو محمد الخازن . وفيها يقول الضبى .

دار الوزارة مسدود سرادقها ... ولا حق بذرى الجوزاء لاحقها
والأرض قد واصلت غيظ السماء بها ... فقطرها أدمع تجرى سوابقها
يودها أنها من أرض عرصتها ... وأن انجمها فيها طوابقها
فمن مجالس يخلفن الطواوس قد ... ابرزن فى حلل شاقت شقائقها (١) .

السبطيات :

ولما أتت الصاحب البشارة بسبطه أبى الحسن عباد بن على الحسينى أنشأ يقول :

احمد الله لبشرى ... اقبلت غدو العشى
اذ حبانى الله سبطا ... هو سبط للنبى
مرحبا ثمة اهلا ... بغلام هو شمسى
نبوى علوى ... حسنى صاحبى

ثم قال :

الحمد لله حمدا دائما أبدا ... اذ صار سبط رسول الله لى ولدا

وجعل هذا البيت أساسا للمعارضة ، فتلاحق الشعراء يبشرونه بهذا المولود (٢) .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣/ ١٨٣ (مطبعة الصاوى ط. سنة ١٣٥٣ هـ) .
(٢) المرجع السابق جـ٣/ ٢١٥ : ٢١٨ .

أما البرذونيات :

ففيها يقول الثعالبى : لما نفق برذون أبى عيس ابن المنجم بأصبهان ، وكانت صحبة أبى عيسى قد طالت عند الصاحب أوعز الصاحب إلى الندماء المقيمين فى مجلسه أن يعزوا أبا عيس فقال كل منهم قصيدة فريدة ، وكان المجلس زاخرا بالشعراء كأبى محمد الخازن وأبى سعيد الرستمى ، وأبى القاسم الزعفرانى ، وأبى القاسم ابن أبى العلاء ، وأبى الحسن السلامى ، وأبى العباس الضبى ، وأبى الحسن ابن عبد العزيز الجرجانى ، وأبى محمد محمود ، وأبى دولف الخزرجى ، وأبى عيسى بن المنجم . وألقى كل واحد من هؤلاء الشعراء قصيدة رائعة وإن لم يشترط الوزن والقافية (١) .

أما الفيليات :

لما حصل الصاحب فى وقعة جرجان على الفيل الذى كان فى عسكر خراسان سنة ٣٧١هـ . أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه فى تشبيب قصيدة على وزن وقافية قول عمرو بن معدى يكرب :

أعددت للحدثان سا بغة وعداء علندى (٢) .

فقام كل شاعر منهم بإلقاء قصيدته مراعيا الوزن والقافية ، وتعد قصائدهم فيها من أروع ما قيل فى المعارضات وأدقه لضيق المعنى وبعد المرمى الذى يريدون القرض فيه (٣) .

هذه هى المجالس الأدبية فى أصبهان ، وهذه هى معارضاتهم ، وهى تمثل لنا جانبا من جوانب النهضة الأدبية فى أصبهان ، كما أنها تدل دلالة قاطعة على استعداد الشعراء فيها للقول فى كل ما يعن لهم من أغراض . وليس أدل على ذلك من قول الثعالبى فى البرذونيان : " فأوعز الصاحب إلى الندماء المقيمين فى مجالسه أن يعزوا أبا عيسى ... فنحن نستنتج من هذه النصوص التى سجلها الثعالبى فى اليتيمة معانى كثيرة منها :

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣/١٩٤ : ٢٠٨ (مطبعة الصاوى ط٠ سنة ١٣٥٣ هـ) .
(٢) العلندى : الغليظ من كل شىء .
(٣) اليتيمة للثعالبى جـ٣ / ٢٠٨ : ٢١٥ .

أولا :
إن هؤلاء الشعراء والندماء في أصبهان في القرن الرابع كانوا على استعداد تام لنظم القصائد حتى في أوهن الأغراض وأتفهها معنى ، واضيقها خيالا وأقلها أفكارا .

ثانيا :
لا بد أنهم أنشدوا أضعاف هذه القصائد في مناسبات أخرى قد خفي علينا ذكرها ، وأمحت روايتها ، ودرست آثارها .

ثالثا :
هناك نقطة أخرى وهي أن الصاحب يمثل طبقة كبيرة ، ويعتبر هو نفسه رأس هذه الطبقة وأستاذها ، وأن هؤلاء الندماء — والشعراء يمثلون هذه الحلبة . ولعلها أول حلبة عرفت بالمجالس الأدبية والمناظرات الشعرية على هذا النمط الدقيق في القرن الرابع ، ويؤيد هذا التضافر الغريب وذلك الاتحاد العجيب في تواطؤ أذواقهم على القول في غرض واحد ، إلى جانب سهولة المأخذ واتحاد الروح والمشرب . وهذا شيء ، وقولهم في المعارضة التي نقلها لنا الثعالبي باسم الفيليات شيء آخر .
فنرى أنهم كانوا جميعا على نمط واحد من قصيدة عمرو بن معد يكرب مع الاتفاق التام في ركن الشعر (١) — الركن المعنوي بما فيه من وصف دقيق يبدؤه الجميع بالغزل ، والجانب اللفظي بما فيه من وزن وقافية — مع ما في ذلك من المشقة في الأداء حيث اشترط كل شاعر نفس الوزن والقافية في قصيدته .

---

(١) انظر يتيمة الدهر ج٣/٢٠٨ : ٢١٥ (ط. الصاوي ١٣٥٣ هـ).

الباب الأول

الشعر في أصبهان

الفصـــل الأول
بيئة أصبهان بـين الكتابـة والشعـــر

أولا : تمهيـــــد

لعبت أصبهان دورا هاما في تاريخ الفكر العربي والاسلامي ، منذ أن فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٩ أو ٢٢ هـ ، فقد كانت مركزا من مراكز الحركة العلمية والأدبية في العالم الاسلامي ، ولا سيما وقت أن كانت تحت حكم آل بويه " ٣٢١ - ٤٤٧ هـ " الذين نشّطوا الحركات الفكرية في البلاد التي حكموها ، وشجعوا العلماء والأدباء والفلاسفة ، حتى لقد نبغ في عهدهم من يعد بحق فخر الدولة الاسلامية في العصور المختلفة .

وقد نبغ في أصبهان خلق لا يحصون من العلماء في كل علم وفن ، ولا سيما الحفاظ ورجال الحديث وحفلت كتب التراجم والطبقات بأسماء الكثير من العلماء الذين ينسبون إليها (١) .

وقد خرج من أصبهان من العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن وعلى الخصوص علو الإسناد ، فإن أعمار أهلها تطول ، ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث ، وبها من الحفاظ خلق لا يحصون ، ولها عدة تواريخ (٢).
كما أكد ذلك المقدسي حيث قال : " وأما أصبهان فأخذت بحظ من فارس وحظ من الجبال ، وقصبتها اليهودية ، وهي كبيرة وعامرة ، آهلة كثيرة الخيرات ، أهل سنة وجماعة ، وأدب وبلاغة ، وكم أخرجت من مقرئ وأديب ، وفقيه ولبيب (٣) .
وقال حمزة الأصبهاني : " ولمكانة أصبهان العلمية ، وكثرة من تخرج فيها من علماء في كل فن ألفت في تاريخها كتب خاصة ، اشتملت على أوصافها وأخبارها (٤) .

ومن كتب في تاريخ أصبهان حمزة ، وابن حيان ، وابن منده ، وابن مردويه ، وأبو نعيم .

---

(١) الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة تحقيق عبد المجيد قطامش جـ١ / ١٠ ط. سنة ١٩٧١م دار المعارف.
(٢) معجم البلدان (أصبهان).
(٣) أحسن التقاسيم ٣٨٩ (ليدن ١٩٠٦م)
(٤) الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة جـ١ / ١١ ط. سنة ١٩٧١م .

فى هـذه البيئـة التى توافرت فيها كل أسباب العلم والثقافـة ، مـن أساتـذة أعـلام ، وكتـب ومكتبـات ، عـاش كثير من الشعراء والأدباء تتغذى عقولهـم بثمـار العلم والمعرفـة بعـد أن نضج الفكر العربـى والاسلامـى ، وبعـد أن وضعـت أسس العلوم والفنـون ، ودونت المدونـات الأصيلـة علـى أيدى الأئمة مـن العلماء ، وأصبـح فـى متنـاول الباحثين المصادر الرئيسيـة فى كل علـم وفن . وقـد انتشـرت مجالـس الشعر والأدب فى كل مكـان ، ففى قصـور الملوك والامـراء والحكام والوزراء والولاة ، وفـى بيـوت الأدبـاء والعلماء والشعراء وفـى الرياض والحدائـق والمنتزهـات ، وفى حلقـات العلم وحجـر الدراسـة ، وفى كـل مكـان عـام أو خاص ، كانـت تقـام مجالس تناقـش فيها مسائـل الأدب ، وتنشد فيهـا روائـع الشعـر ، ويتحدث المشتركون فيهـا فى النقـد والموازنـة وتفضيـل شاعر ، أو أديـب علـى أديب ، مما أثـر فى ازدهـار الشعـر فى القرن الرابـع فى أصبهـان ازدهارا لم يصـل إلـى مداه فى عصـر مـن العصـور .

فـترى الصاحـب بن عباد أشهـر وزراء بنى بويـه يقول للإنسان إذا قدم عليه من أهـل العلـم يا أخى تكلم واستأنـس واقترح وانبسـط ولا تـرع واحسبنى فى جـوف مربعـة ولا يروعك هـذا الحشـم والخدم والغاشيـة والحاشيـة وهـذه المرتبة والمصطبـة وهذا الطاق والرواق وهذه المجالس والطنافـس فإن سلطان العلم فوق سلطان الولاية . فليفيج روعك ولينعم بالـك وقـل ما شئـت وأبصـر ما أردت فلسـت تجـد عندنـا إلا الإنصـاف والإسعاف والإتحـاف والأطـراف والمواهبـة والمقاربـة والمؤانسـة (١) .

وقال صاحب اليتيمـة كان الصاحب يقول بالليالى لجلسائـه إذا أراد أن يبسطهـم ويؤنسهـم : نحـن بالنهـار سلطـان وبالليـل إخـوان (٢) واحتـف به من يربى عددهـم على شعـراء الرشيـد ، ولا يقصرون عنهـم فـى الأخـذ برقـاب القوافـى وملـك رقـاب المعانـى : فإنـه لـم يجتمـع ببـاب أحـد مـن الخلفاء والملـوك مثـل ما اجتمـع بهـاب الرشيـد مـن فحولـة الشعراء المذكوريـن كأبـى نواس ، وأبـى العتاهيـة والعتابـى ، والنميرى ومسلـم بـن الوليـد ، وأبـى الشيصى ، ومروان بن ابى حفصـة ، ومحمد بـن مناذر ، وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والرى وجرجان مثـل أبـى الحسـين السلامـى ،

---

(١) ارشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٢٨٨ .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣ الطبعة الاولى سنة ١٣٥٣ هـ مطبعة الصاوى ص١٧٦

وأبـى بكـر الخوارزمـى ، وأبى طالب المأمونـى ، وأبى الحسن البديهى ، وأبـى سعيـد الرستمـى ، وأبى القاسم الزعفرانى ، وابـى العباس الضبى ، وابـى الحسـن بن عبد العزيز الجرجانـى ، وأبـى القاسـم بن ابى العلاء ، وأبى محمـد الخازن ، وأبى هاشم العلـوى ، وأبـى الحسن الجوهرى ، وبـنى المنجم ، وابـن بابـك ، وابن القاشانـى وابى الفضـل الهمذانـى ، واسماعيـل الشاشـى وأبـى العلاء الأسـدى ، وابى الحسـن الغويـرى ، وأبـى دلـف الخزرجـى ، وأبـى حفـص الشهزورى ، وأبـى معمـر الإسماعيلـى ، وأبـى الفياض الطبرى ، وغيرهـم (١) .

وعـرفـت أصبهـان بمنتدياتهـا الأدبيـة والعلميـة ، ونزح إليهـا جماعـة مـن العلماء والأدبـاء المذكوريـن ، كمـا خرجـت جماعـة أخـرى مـن مشهـوريهم .. قال ياقـوت: " وقد خرج مـن أصبهـان مـن العلماء والأئمـة فى كـل فـن ما لم يخرج من مدينة من المدن . ومن نـزح إليهـا فى مطلـع القرن الثالـث أحمد بن حاتم الباهلى صاحب الأصمعى ، ونقـل معـه مصنفـات الأصمعـى ، وأشعـار شعـراء الجاهليـة والإسـلام مقروءة علـى الأصمعى (٢)

وخـرج منهـا حمـزة الأصبهانـى العالم المشهور ، وعلى بن حمـزة . وعاصر ابن طباطبا أبو عبيـد الله حمـزة بن الحسن الأصبهانـى وعلـى بن مهدى بن علـى الكسروى ، ومحمـد بن بحـر الأصفهانـى الكاتـب المعتزلـى . ووفـد إليها جماعـة منهم أبو حيان التوحيدى (٣)

وفى هذا الفصـل سنتنـاول ترجمة مختصرة لبعض النابغين منهـم ممن كان لهـم أثـر واضح على الأدب والشعر فى أصبهـان ، وذكرت ما خلفوه مـن الكتب ، ووصفت أهم تلـك الكتـب وقيمتها بالنسبة لسواها ، وأشرت إلى المطبوع منها مع سنة الطبع ومكانه . وما لم يطبـع ذكرت مكان وجوده فى أشهر المكتبات الكبرى بمصر أو الآستانة أو أوربـا أو غيرهـا من دور الكتب العامة أو الخاصة . وربما فاتـنى ذكر كتب لا توجـد إلا فى بعض المكتبـات الخاصة الـتى لـم يصلـنى خبرهـا .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣/ ١٦٩ ، ١٧٠ (مطبعة الصاوى ١٣٥٣هـ) وانظر أيضا ارشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٣٢٦

(٢) معجم البلدان جـ١ / ١٩٥ ، وانظر مقدمة عيار الشعر تحقيق د /زغلول سلام ، ومعجـم الأدباء ٢ / ٢٨٥ .

(٣) انظر مقدمة عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق د . زغلـول سـلام .

وذيلت كل ترجمة بأشهر المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى تفصيل تلك الترجمة أو التوسع فى ذلك . وبعد هذه الترجمة الموجزة اخترت علمين كان لهما الأثر الأكبر فى هذه البيئة الأدبية وقمت بالوقوف كثيرا عند هما لما لهما من أثر عظيم على الكتابة والشعر .

* الأدب والأدباء *

نضج الأدب فى القرن الرابع وزاد استقلالا عن سائر العلوم ، ومال فى الأكثر إلى النظر فى الشعر والشعراء من شرح أو تلخيص أو انتقاد .
وقد نضج الشعر وتعددت أبوابه وموضوعاته ، فتعود الأدباء بعد شيوع المنطق والفلسفة وعلم الكلام النظر فى الأدب نظر الناقد الممحص بالمقابلة والموازنة . وإن أنكروا الفلسفة على أصحابها واتهموهم بالكفر أحيانا . فإن روح النقد والنظر الفلسفى دبت فى عروقهم وهم لا يعلمون ، فنبغ منهم نقاد الشعر كابن طباطبا . ومنهم من انتقد الرواية والأخبار كأبى الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الاغانى .

ونظروا إلى فحول الشعراء ، فشرحوا أقوالهم فى الجاهلية والاسلام كشروح الحماسة والمعلقات . وجمعوا أقوال الشعراء ومحصوها وجمعوا بينها . وانتقدوا آداب المجالسة ، ووضعوا للندماء شروطا (١) وغير ذلك ، كما سيظهر فى تراجم الأدباء . وهاك أشهرهم ممن نشأ فى أصبهان أو نزح إليها حسب سنى الوفاة .

١ - ابن كيغلغ
توفى سنة ٣٢٣ هـ

هو أحمد بن إبراهيم بن كيغلغ ، أبو العباس : من أمراء العصر العباسى تركى الأصل . ولد ونشأ ببغداد ، وارتقى إلى مرتبة القواد ، فكان مع محمد بن سليمان فى قتاله القرامطة بالشام سنة ٢٨٣هـ فى عهد المكتفى ، وقدم مصر سنة ٢٩٢ ، ٣٠٢هـ فى بعض الجيوش الخاصة بالمكتفى لقمع ثورات نشبت فيها . وكان أميرا على دمشق والأردن سنة ٣٠٠هـ واستقر فى بغداد سنة ٣٠٣ هـ وولاه المقتدر إمرة مصر سنة ٣١١ فأقام فيها نحو سبعة أشهر ، واضطربت عليه فصرف عنها وولى أصبهان سنة ٣١٩هـ

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ٢ / ٢٨٣ (ط. دار الهلال) .

قال الثعالبي في اليتيمة : " أحمد بن كيغلغ من أولاد أمراء الشام ، شاعر أديب" وأورد له أبياتا رقيقة (١) .

وترجمته في الأعلام جـ١ / ٨٥ ، النجوم الزاهرة جـ٣/ ١٠٩ ، ٢٠٦ واليتيمة جـ١ / ٦٥ وابن الأثير ٨/ ١٠٥ ، الولاة والقضاة ٢٧٩ - ٢٨٦ ، ودائرة البستاني ٢/ ٥٨١ .

٢ - أبو الفرج الاصبهاني

توفي سنة ٣٥٦ هـ

هو أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي الأصبهاني عربي ، أموي يتصل نسبة بمروان بن الحكم ، شيعي المذهب ، أصبهاني المولد ، بغدادي النشأة ، أحد أعيان الأدب والعلم في عاصمة الرشيد في القرن العاشر للميلاد بعد أن آل إليها نشاط البصرة والكوفة الثقافي ، ومن الأئمة العلماء واللغويين الثقاة في عصره . كان حافظا للشعر ، جامعا لشتاته ، واسع الاطلاع على علوم العصر . أتقن علوم عصره في النحو واللغة ، والفقه والأنساب ، والسير والحديث ، واستجمع إلى ذلك شيئا من علوم الطب والنجامة ، والبيطرة والغناء والموسيقى . وروى عن عالم كثير من العلماء يطول تعدادهم . وكان عالما بأيام الناس والأنساب والسير (٢) .

وهذا ما سهل له الانتقال والتجول بين بلاط بغداد وحلب وقواعد بلاط فارس بعد أن تقلص ظل الخلافة العباسية ، ملتحقا بملوك الدول الاسلامية ولا سيما الدولة البويهية ، والصاحب بن عباد والوزير المهلبي (٣) .

دون معارفه في كتب أدبية وتاريخية كثيرة فقد معظمها ، أهمها على الاطلاق كتاب الأغاني . وهذا الكتاب أشهر من أن يُعرّف ، فأجمع الكل على أنه لم يعمل مثله في بابه .

---

(١) انظر يتيمة الدهر للثعالبي جـ١ / ٦٥

(٢) انظر شذرات الذهب لابن العماد جـ٣/ ١٩ (مطبعة القدس سنة ١٣٥٠ هـ) .

(٣) انظر مصادر الدراسة الأدبية - تأليف يوسف أسعد داغر جـ١ / ١٦٤ (مطبعة دير المخلص - صيدا - لبنان ط٠ سنة ١٩٥٠م ٠) .

وهو أساسى شهرة أبى الفرج .. وتبدو قيمة هذا الكتاب وفائدته العظيمة بما فيه من المعلومات الأدبية والتاريخية والجغرافية والفنية التى يأخذ بعضها برقاب البعض فى معرض السرد .

وهذا مايجعل الكتاب غزير المادة وثيقها لتاريخ الأدب العربى فى الجاهلية والقرون الاسلامية الثلاثة الأولى . وأما الوجهة الثانية من قيمته ، فتقوّم بما فيه من فنية خاصة من حيث أسلوب العرض والسرد الذى انتهجه أبو الفرج وسار عليه وهو أسلوب القصة الوجيزة .

وعلى الإجمال ، فهو كتاب لا يعدله أى كتاب آخر فى أحوال العرب الاجتماعية والأدبية وهو أعظم مصدر لتاريخ الحضارة الاسلامية منذ الجاهلية حتى أواسط القرن الرابع . ولذا لم تر الملوك والأمراء يتنافسون فى اقتناء كتاب تنافسهم باقتناء هذا الكتاب .

ومن الأمور التى تعطى الكتاب ميزة خاصة أنه من الكتب المسندة بحيث لا ينقل خبرا إلا ويعزّف صاحبه ويرده إلى قائله على نحو ما يفعل رجال الحديث . فهو كما وصفه ابن خلدون " ديوان العرب وجامع أشتات العلوم التى اجتمعت لهم ".

أثره فى الأدب :

كان من أعيان الأدباء ، وأفراد المصنفين فى القرن الرابع . روى عن كثيرين وطالع كثيرا من الكتب . وكان قوى الحافظة ، فوعى فى ذاكرته ألوفا من الأشعار والأغانى والأخبار والآثار والأحاديث والأنساب بأسانيدها وأسماء قائليها ورواتها .

فضلا عن توسعه فى اللغة والنحو والسير والمغازى وعلوم الجوارح والبيطرة والطب والنجوم والأشربة وغير ذلك (١) .

ولم يقتصر من العلم على الحفظ والاختزان كما يفعل كثيرون ، لكنه تدبر تلك المعارف وأخرج فيها كتبا نافعة أشهرها كتاب الأغانى وبه اشتهر . ولولاه لضاع كثير

---

(١) شذرات الذهب ج٣/ ١٩ .

من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بنى أمية .
وألف أيضا كتاب القيان ، وكتاب الإماء الشواعر ، وكتاب دعوة الأطباء وكتاب جرد الأغانى ، وكتاب أخبار رجحظة البرمكى ومقاتل الطالبيين ، وكتاب الحانات وآداب الغرباء (١) .

وحصل له ببلاد الأندلس كتب صنفها لبنى أمية ملوك الأندلس يوم ذاك وسيرها إليهم سرا . وجاءه الإنعام منهم سرا ، فمن ذلك كتاب نسب بنى عبد شمس وكتاب أيام العرب ألف وسبعمائة يوم ، وكتاب التعديل والانتصاف فى مآثر العرب ومثالبها ، وكتاب جمهرة النسب ، وكتاب جمهرة بنى شيبان ، وكتاب نسب المهالبة ، وكتاب نسب بنى تغلب ونسب بنى كلاب ، وكتاب الغلمان والمغنين وغيرها (٢) . وهى كثيرة ، لكن أكثرها فقد بتوالى الزمن . فنأتى على ذكر ما وصلنا خبره منها :—

١ — كتاب الأغانى : أهم كتبه وأشهر المؤلفات الموضوعة فى أخبار الشعراء والمغنين والأدباء ، لا بل هو أحد الأصول المنقطعة النظير فى اللغة العربية ، خاص بتاريخ الغناء والأطوار التى أعشرت الصناعة وحدود تأثيرها فى الطرائق وطبقات المغنين ومذاهبهم . جرى على جمعه فى خمسين سنة على ما يقال ، وكتبه مرة واحدة فى عمره (٣) .

وهو أجزاء كثيرة وصل لنا منها أربعة وعشرون جزءا ، واسمه يدل على المراد بوصفه فى الأصل ، أى الغناء . بدأه بذكر المائة صوت التى اختارها للرشيد مغنيه إبراهيم الموصلى . فسار أبو الفرج على هذه الخطة معولا على ما اختاره غيره أيضا من أهل العلم بصناعة الغناء ، فجمع فيه الأغانى العربية ، قديمها وحديثها ما أمكنه جمعه ، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وشاعر لحنه وطريقته من إيقاعه ، متصرف فى كل ذلك بين جد وهزل ، وآثار وأخبار وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء والإسلام .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ٢ / ٢٨٣ .
(٢) انظر تاريخ آداب اللغه العربية " المرجع السابق " ص٢٨٤ .
(٣) انظر مصادر الدراسة الأدبية جـ١ / ١٦٥ .

وقد يعترض بعضهم على وضع هذا الكتاب بين كتب الأدب إذ يجد ريبه أن يكون بين كتب الموسيقى . لكن أهميته قائمة بما فيه من الأخبار والأشعار ، لأن المؤلف إذ يتذكر أبياتا عن لحن ، عين نغمها ومن غناها واستطرد إلى ذكر ناظمها وترجمته والأحوال التى قيلت فيها . من حرب وحب فى الجاهلية والإسلام ، أو من غناها ومن شهد ذلك . وأسبابه وأحواله ، فيورد تفاصيل ذلك بالدقة والإسناد ، فاحتوى الكتاب على أخبار ٤١٤ رجلا من الأدباء والشعراء والمغنين ، وغيرهم من العشاق والخلفاء والقواد ، وأكثر أيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابهم ووقائعهم وغزواتهم .

ودون فيه من مفردات اللغة كثيرا مما خلا منه أكبر معاجم اللغة . وفيه من تنوع المواضيع مالا تجده فى غيره من الكتب فهو عمدة الأدباء ومرجعهم الأول .

طبع الأغانى بمصر فى عشرين جزءا وطبع الجزء الحادى والعشرون المستشرق رودلف برونو فى ليدن ، عام ١٣٠٥ ، أولاهما طبعة سنة ١٢٨٥ هـ ووضع له المستشرق الإيطالى غويدى فهرسا عاما أبجديا مطولا بالفرنسية سنة ١٨٩٥ يعرف بـ"جدول الأغانى الكبير" وقد أعادت طبعه مؤخرا دار الكتب المصرية طبعا ممتازا تضم حوالى ثمانية آلاف صفحة .

وقد لخص الأغانى بين من لخصه ، الأب صالحانى اليسوعى ، فجرده من الأسانيد والأغانى وأبقى الروايات على حده فى كتاب سماه : " روايات الأغانى " ، ويقع فى جزئين الأول فى الروايات الأدبية ، والثانى فى الروايات التاريخية ، ظهر فى بيروت عام ١٨٨٨ ، ١٩٠٨م (١) .

وقد وقع الاتفاق على أن كتاب الأغانى لم يعمل فى بابه مثله . وحكى عن الصاحب ابن عباد أنه كان إذا سافر حمل كتبه على عشرات من الجمال ، فلما اقتنى كتاب الأغانى استغنى به عنها (٢) .

٢ ـ **مقاتل الطالبيين** :ـ طبع فى الهند سنة ١٣٠٧ ، وطبع فى مصر أيضا . وتوفى أبو الفرج الأصفهانى سنة ست وخمسين وثلاثمائة فى ذى الحجة عن ثلاث وسبعين سنة (٣) .

---

(١) انظر مصادر الدراسة الأدبية ليوسف داغر جـ١ / ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ٢ / ٢٨٤ .
(٣) شذرات الذهب لابن العماد جـ٣ / ١٩ .

وترجمة الأصفهانى فى ابن خلكان جـ١ / ٣٣٤ ، واليتيمة جـ٢ / ٢٧٨ ، وراجع أيضا : تاريخ بغداد جـ١١ / ٣٩٨ فى أبى الفرج الأصبهانى ، ومعجم الأدباء جـ١٣ / ٩٤ ، وتاريخ أصبهان جـ١ / ٢٢ ، والنجوم الزاهرة جـ٤ / ١٥ ، ولسان الميزان جـ٤ / ٢٢١ ، ومرآة الجنان جـ٢ / ٣٥٩ وانظر أيضا إرشاد الأريب جـ٥ / ١٤٩ — ١٦٨ ، والأعلام جـ٤ / ٢٧٨ .

٣ — أبو الحسن الجرجانى
توفى سنة ٣٩٢ هـ

على بن عبد العزيز بن الحسن الجرجانى أبو الحسن . قاض من العلماء بالأدب كثير الرحلات . ولد بجرجان وولى قضاءها ، ثم قضاء الرىّ ، فقضاء القضاة . ذكره الشيخ أبو اسحق فى طبقاته فقال كان فقيها أديبا شاعرا . وذكره الثعالبى فى اليتيمة فقال : حسنة جرجان وفرد الزمان ونادرة الملك وإنسان حدقة العلم ودرة تاج الأدب وفارس عسكر الشعر جمع خط ابن مقلة ونثر الجاحظ ونظم البحترى وفيه يقول الصاحب بن عباد : (١) .

إذا نحن سلمنا لك العلم كله ... فدع هذه الألفاظ ننظم شذورها .

أثره فى الأدب :

كان القاضى الجرجانى من العلماء بالأدب ، وطاف فى صباه الأقاليم ولقى العلماء وصنف كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه أبان فيه عن فضل كبير وعلم غزير . وله تفسير للقرآن ، ومن كتبه أيضا تهذيب التاريخ ، وديوان شعر ورسائل مدونة ، وكان خطه يشبه بخط ابن مقلة . وهو صاحب الأبيات التى أولها :

يقولون لى فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما (١) .

وتوفى بنيابور ، وهو دون السبعين ، فحمل تابوته إلى جرجان وفى وفاة الجرجانى روايتان أحداهما سنة ٣٦٦ هـ ورجحها ابن خلكان . ولكن إذا اطلعنا على قول الثعالبى :

---

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد جـ٣ / ٥٦ .

" أنه تصرفت به الأحوال فى حياة الصاحب بن عباد وبعد وفاته " والثعالبى معاصر لهما . والصاحب توفى سنة ٣٨٥ هـ فترجمت الرواية الثانية . وأول من نبه إلى هذا الخطأ الإمام الذهبى فى سير النبلاء ـ الطبعة الحادية والعشرون ولكنه ذكر وفاته سنة ٣٩٦ وقال : " ووهم ابن خلكان ، فصح أنه توفى سنة ٣٦٦ هـ وإنما ذلك جرجانى آخر ، وهو المحدث أبو الحسن على بن أحمد بن عبد العزيز الجرجانى " ورجحت رواية ابن خلكان الثانية فى وفاته سنة ٣٩٢ لأخذ السبكى بها فى طبقات الشافعية ٢/ ٣٠٨ ـ ٣١٠ لاتفاقها مع رواية ياقوت فى إرشاد الأريب جـ ٥ / ٢٤٩ .

وترجمته فى البداية والنهاية جـ ١١ / ٣٣١ ، وشذرات الذهب جـ ٣/ ٥٦ ، الأعلام جـ ٤/ ٣٠٠ ، اليتيمة جـ ٣ / ٢٣٨ ، وفيات الأعيان جـ ١/ ٣٢٤ .

٤ ـ أبو هلال العسكرى
توفى سنة ٣٩٥ هـ

هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكرى ، تلقى العلم فى بغداد والبصرة وأصبهان (١) . وهو غير أبى أحمد العسكرى اللغوى (٢) فكثيرا ما يقع الالتباس بينهما ، وكانا متعاصرين . وأبو هلال تلميذ أبى أحمد وتوفى هذا سنة ٣٨٢ هـ .

أثره فى الأدب :

خلف أبو هلال العسكرى كثيرا من الكتب والتى كان لها أثرها فى الأدب العربى ، وأهم مابلغنا خبره منها :

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ ٢/ ٢٨٦ .

(٢) هو أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى اللغوى نسبه إلى عسكر مكرم فى الأهواز وترجمته فى ابن خلكان جـ ١/ ١٣٢ ، ومعجم الأدباء جـ ٣/ ١٢٦ ، وشذرات الذهب جـ ٣/ ٢٠١ ، والنجوم الزاهرة جـ ٤/ ٦٣ ، وخزانة الأدب جـ ١/ ٩٧ وتوفى سنة ٣٨٢ هـ .

١ — كتاب الصناعتين النظم والنثر : منه نسخة فى باريس وكوبرلى وطبع فى الأستانة سنة ١٣٢٠ ، وهو مفيد جدا فى بابه ، كما أنه طبع فى سنة ١٩٥٢م فى مطبعة الحلبى طبعة محققة جيدة .

٢ — كتاب جمهرة الأمثال : طبع فى بومباى سنة ١٣٠٦ ، وفى مصر على هامش أمثال الميدانى سنة ١٣١٠ .

٣ — ديوان المعانى : هو معجم لمعانى الشعر مرتب حسب الموضوعات . قال فى مقدمته أنه جعله ١٢ بابا فى ٥٠٠ ورقه ، ثم رأى أن ذلك يكبر حجمه فجعل كل باب منها كتابا . منه نسخة فى المتحف البريطانى . وفى كتب الشنقيطى فى المكتبة الخديوية كتاب خطى بهذا الاسم مؤلف من ٣٤٢ صفحة ، يشتمل على الباب السابع ، وفيه وصف السحاب والمطر والبرق والرعد والمياه والرياض والنبات والنسيم وغيرها . والثامن ، فى وصف الحرب والسلاح . والتاسع فى وصف الدواة والبلاغة . والعاشر ، فى صفات الخيل والإبل والفلوات والوحوش والطيور . والحادى عشر ، فى الخضاب والعلل والموت والزهد والباقى معان متفرقة . وهو جزيل الفائدة لطلاب المعانى الشعرية . ونشر فى القاهرة .

٤ — التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم : طبع الأستانة .

٥ — كتاب المصون فى الأدب : فى الاسكوريال .

٦ — كتاب الأوائل : اختصره السيوطى فى كتاب الوسائل وهو أول من ألف فيه ..

٧ — روى ديوان أبى محجن : فى أيا صوفيا .

وأخبار أبى هلال فى معجم الأدباء ج٣/ ١٣٥ وانظر فى أبى هلال العسكرى بغية الوعاة ص ٢٢١ .

٥ — المرزوقى

توفى سنة ٤٢١ هـ

هو أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى ، أبو على من أهل أصبهان ، كان غاية فى الذكاء والفطنة وحسن التصنيف وإقامة الحجج وحسن الاختيار ، وتصانيفه لا مزيد عليها فى الجودة (١) .

(١) انظر إرشاد الأريب لياقوت ج٢/ ١٠٣ (مطبعة هندية بمصر) .

وقال الصاحب بن عباد : " فاز بالعلم من أصبهان ثلاثة حائك وحلاج واسكاف فالحائك هو المرزوقي والحلاج أبو منصور بن ماشده والاسكاف أبو عبد الله الخطيب بالرى صاحب التصانيف فى اللغة (١) .

مات فيما ذكره أبا زكريا يحيى بن منده فى ذى الحجة سنة ٤٢١ هـ قال : وكتب عنه سعيد البقال وأخرجه فى معجمه : وجدت خطه على كتاب شرح الحماسة من تصنيفه وقد قرأ عليه فى شعبان سنة ٤١٧ وكان قد قرأ كتاب سيبويه على أبى على الفارسى وتتلمذ له بعد أن كان راسا بنفسه وهو يتفاصح فى تصانيفه كابن جنى وكان مُعلم أولاد بنى بويه بأصبهان ودخل إليه الصاحب فما قام له فلما أفضت الوزارة إلى الصاحب جفاه (٢) .

أثره وتصانيفه :

للمرزوقي من الكتب والمصنفات كتاب شرح الفصيح . وكتاب شرح الموجز ،وكتاب شرح المفضليات ، وكتاب شرح الحماسة ، وكتاب شرح النحو . وكتاب الأزمنه ، وكتاب شرح أشعار هذيل .

وترجمته فى أرشاد الأريب جـ٢ / ١٠٣ ، ١٠٤ .

---

(١) معجم الأدباء ط. فريد الرفاعى جـ٣/ ٢٨

(٢) انظر إرشاد الأريب جـ٢ / ١٠٣ ، ١٠٤ (مطبعة هندية) .

الإنشـــــاء والترســـــل

تمكنت الحضارة من أسلوب الترسل فى القرن الرابع، ونعنى بالترسل إنشاء المراسلات على الخصوص . ومعرفة أحوال الكاتب والمكتوب إليه من حيث الأدب والمصطلحات الخاصة الملائمة لكل طائفة وهو الذى يتغير مع العصور . ويشتمل على المراسلات والخطب ومقدمات الكتب لأن أساليبها متشابهة . أما إنشاء الكتب أى عبارة المؤلفات التاريخية والعلمية التى يراد بها تقرير الحقائق بغير إرهاب أو تهديد أو تنبيه أو تحريض ، فهذه قلما يعتورها تغيير لأن تقرير الحقائق العلمية أو التاريخية قلما تؤثر فيه الانفعالات النفسية فهو أقل مجاراة للأحوال الاجتماعية .

ولذلك نرى عبارة البلغاء من المؤلفين متشابهة يندر الاختلاف فيها ، إلا فيما يختص بنفس الكاتب وأسلوب تفكيره وموضوع كتابه . إذ إن لكل كاتب طريقة يعبر عنها بالذوق ، كما أن لكل فن مصطلحات خاصة تجعل للكتابة فيه نسقا خاصا ، فعبارة المؤرخ تختلف عن عبارة الفقيه ، وهذه تختلف عن عبارة الرياضى أو الحكيم . وقد يختلف أسلوب المؤلف الواحد باختلاف الموضوع الذى يكتب فيه . ولكنها ترجع كلها إلى أسلوب خاص يختلف عن أسلوب الترسل .

والكاتب فى الموضوعات العلمية لا يزال على أسلوب المؤلفين المتناسق المرسل حتى يقتضى الموضوع مخاطبة القارئ ، فينتقل إلى أسلوب الترسل بالتشجيع أو نحوه حسب العصور . فإذا فرغ من الخطاب عاد إلى الإنشاء المرسل البسيط إلا طائفة من المؤلفين أرادوا زيادة التأنق فى مؤلفاتهم فجعلوا عباراتها كلها مسجعة . وذلك نادر .

أسلـــــوب الترســـــل

لما كان المراد بالمراسلات والخطب التعبير عن العواطف والميول وسائر الأحوال ، وهذه تختلف فى الناس باختلاف آدابهم الاجتماعية وأحوالهم الأدبية ، وهى تتغير بتغير الأحوال .. كان الترسل أكثر تعرضا للتغيير فى أسلوبه وعباراته .

وعلمنا ما يمتاز به القرن الرابع من التوسع بأسباب الحضارة والترف ، وما صار إليه الأدباء والمنشئون من سعة ورخاء وتبسط فى الرزق .. لا يخافون مزاحمة أو فقرا

لتعدد مصادر الارتزاق فى دور الأمراء والوزراء والخلفاء.

والرخاء يدعو إلى التأنق .. فتطرق ذلك إلى إنشائهم فصاروا يتأنقون فيه كما يتأنقون فى لباسهم وأثاثهم وطعامهم ، فأطالوا العبارة وتوسعوا فى التنميق . ونبغ جماعة من أصحاب القرائح حتى صار للإنشاء فى هذا العصر طريقة اتخذها أهل العصور التالية نموذجا نسجوا على منواله.

المنشئون أو المترسلون

تكاثر المنشئون فى القرن الرابع مثل تكاثر الشعراء ، واشتهر بعضهم بالصناعتين جميعا حتى لقد تتولانا الحيرة فى جعل أحدهم من الكتاب أو من الشعراء.

واشتهر من المترسلين فى العصر طائفة من الوزراء والكبراء ورجال الدولة ، شرفت بهم الصناعة وارتفعت قيمتها لأنهم كانوا عدتها ووجوه كتابها بل هم أقوى أركان تلك النهضة فى النظم والنثر وسائر أسباب العلم والأدب . وإليك أشهرهم حسب سنى الوفاة.

١ — أبو بكر الخوارزمى
توفى سنة ٣٨٣ هـ

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب الشاعر. ويقال له أيضا الطبرخزى لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان . وهو ابن اخت محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ . وكان الخوارزمى إماما فى اللغة والنسب ، أقام بالشام مدة وسكن نواحى حلب . وكان يشار إليه فى عصره وقصد الصاحب بن عباد وجالسه وباسطه (١). واشتهر بكثرة حفظه الأشعار.

لم يصل إلينا من آثار أبى بكر الخوارزمى إلا مجموعة رسائل تعرف باسمه ، وهى مطبوعة فى مصر ، وفى الأستانة سنة ١٢٩٧ ، وفى بومباى سنة ١٣٠١ ، وغيرها.

ومنها نسخ خطية فى برلين وفينّا وليدين وكوبرلى . وفى الجزء الرابع من يتيمة الدهر أمثلة كثيرة من نثره ونظمه . وفيه طائفة حسنة من المدائح والمراثى والأهاجى وطرق مختلفة. وترجمته فى ابن خلكان جـ١ / ٥٢٣، ويتيمة الدهر جـ٤ / ١١٤.

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ٢ / ٢٧٤.

٢ — بديع الزمان الهمذانى
توفى سنة ٣٩٨ هـ

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى ، ويلقب ببديع الزمان ، كان شاعرا ولغويا ، واشتهر على الخصوص بقوة الحافظة . كان يسمع القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يغير حرفا ولا يخل بمعنى وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة خفيفة ، ثم يتلوها عن ظهر قلب (١) .

وكان سريع الخاطر قوى البديهة يقترح عليه نظم القصيدة أو إنشاء الرسالة فى معنى بديع فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها . وربما كان يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره ثم هلم جرا إلى الأول ويخرجه كأحسن شئ وأملحه (٢) .

تتلمذ على أبى الحسين بن فارس اللغوى الشهير، طوّف ، وهو فى مقتبل العمر فى بلدان أسيا الوسطى . خراسان ، وجرجان ، وسجستان وأفغانستان ، واتصل بالصاحب بن عباد وبغيره من كبار زمانه ، وبمشاهير العصر (٣) .

ثم ناظر أبا بكر الخوارزمى فغلبه مع أنه ما كان يظهر أن أحدا يتجرأ على مجاراته وبذلك طار صيته فى الآفاق ،وأدر الله تعالى له أخلاف الرزق . وقد صاهر أبا على الحسين بن محمد الخشنامى الفاضل الكريم الأصل ، فانتظمت أحوال أبى الفضل واقتنى بمعونته ضياعا فاخرة وعاش عيشة راضية (٤) .

وأبو الفضل أحد أئمة الكتاب . له مقامات مطبوعة أخذ الحريرى أسلوب مقاماته عنها . وكان شاعرا وطبقته فى الشعر دون طبقته فى النثر كما كان قوى الحافظة يضرب المثل

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ٢ / ٢٧٧
(٢) انظر كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان لابراهيم الأحدب ص٥
(دار التراث — بيروت) .
(٣) انظر مصادر الدراسة الأدبية ليوسف داغر ص ١٨٦ (ط سنة ١٩٥٠) .
(٤) انظر كشف المعانى والبيان لابراهيم الاحدب ص٥

بحفظه . ويذكر أن أكثر مقاماته إرتجال . وحين أربى سنه على الأربعين توفاه الله تعالى فى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة حادى عشره جمادى الأخيرة . فقيل مات مسموما ، وقيل عرض له داء السكتة فعجل دفنه وأنه أفاق فى قبره وسمع صوته بالليل ونهش قبره فوجد أنه قد مات وقد قبض على لحيته (١) . فقامت نوادب الأدب ورثته الأفاضل بالفضائل على أنه ما مات من بقى ذكره . وخلد على جبهة الأيام نظمه ونثره (٢) .

الهمذانى وأثره فى الأدب :

تنوعت آثار الهمذانى من شعر ونثر .. أهمها مجموعتان : الأولى المقامات والثانية الرسائل . ويعود الفضل إلى بديع الزمان بأنه هو المنشئ الحقيقى لفن المقامات . فجعل من المقامة رواية حية تدور حوادثها حول رجل فكه ظريف يعظ تارة ويعلم طورا ، يضحك حينا وحينا يبكى ، وغايته من ذلك كله التكسب . وله من المؤلفات :

١ — مقامات تعرف باسمه : وهى أقدم كتاب وصل إلينا فى هذا الفن من فنون اللغة . وهو أول من وفاه حقه وجعله علما ، وقد اقتبس نسقه من أستاذه ابن فارس اللغوى (٣) وغذه أخذ الحريرى نسق مقاماته . والمقامة قطعة لغوية ، أدبية مبنية على السجع تدور وقائعها على حكاية صغيرة ، موضوعه على لسان رجل خيالى ، تنتهى بعبرة أوعظة أو نكتة . والمراد بها فى الأكثر التفنن بالإنشاء وتضمينها الأمثال والحكم . فقد كانت المقامة مداد تلك الاجتماعات التى كثيرا ما كانت تعقد فى بلاطات الأمراء ومجالسهم ، يتبارى فيها اللغويون والشعراء والأدباء والمحدثون وطبعت مقامات الهمذانى فى الآستانة سنة ١٢٩٨ ، ثم فى بيروت مشروحة شرحا مختصرا للشيخ محمد عبده سنة ٨٨٦ .

---

(١) انظر مصادر الدراسة الأدبية ص١٨٦ ، ومقدمه كشف المعانى والبيان للأحدب .
(٢) انظر ترجمة البديع فى شرح مقامات الحريرى للشريشى جـ١ / ١٠ ، ١١
(٣) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد حبيب الرازى كان اماما فى علوم شتى وخصوصا اللغة . انظر ترجمته ابن خلكان جـ١ / ٣٥ ، ومعجم الأدباء جـ٢ / ٦ ، شذرات الذهب جـ٣ / ١٣٢ ، واليتيمة جـ٣ / ٣٦٥ .

٢ــ أما مجموعة مؤلفاته الثانية فهي " الرسائل " ورسائل الهمذاني تجاوز المائتين بين قصيرة وطويلة ، أرسلها الى من اتصل بهم من السراة والعلماء ، والأدباء والعظماء . وهي من الطراز العالي ، تدور على موضوعات مختلفة ، متنوعة الأغراض من علم وأدب وشكوى وعتاب ، وتعزية وتذمر وتهنئة ــ طبعت مرارا هي أيضا في الأستانة سنة ١٢٩٨ ، وفي بيروت مع شرح للمرحوم إبراهيم الأحدب ، بعناية يوسف الفاخوري ، في المطبعة اليسوعية في بيروت .

٣ــ ديوان شعر : منه نسخة خطية في مكتبة باريس ، وقد طبع بمصر سنة ١٣٢١هـ . وترجمه بديع الزمان في إبن خلكان جـ١ / ٣٩ ، ومعجم الأدباء جـ١ / ٩٤ ، ويتيمة الدهر جـ٤ / ١٦٧ ، والأعلام ١ / ١١٥ .

٣ ــ الضبي
توفي سنة ٣٩٨ هـ

أحمد بن إبراهيم الضبي ، أبو العباس ، الملقب بالكافي الأوحد ، الوزير بعد الصاحب أبي القاسم بن عباد ، لفخر الدولة أبي الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه ، كان من العقلاء الفضلاء ، ذكره الثعالبي فقال : هو جذوة من نار الصاحب أبي القاسم ، ونهر من بحره وخليفته النائب منابه في حياته ، القائم مقامه بعد وفاته ، وكان الصاحب استصحبه منذ الصبا ، واجتمع فيه الرأي والهوى ، فاصطنعه (١) لنفسه ، وأدبه بآدابه ، وقدمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندمائه (٢) وحقق قول القائل : (٣)

تزهى بأترابها كما زهيت ... ضبة بالماجد ابن ماجدها
سمائها شمسها غمامتها ... هلالها بدرها عطاردها
يروى كتاب الفخار أجمع عن ... كافي كفاة الورى وواحدها

وقد كانت بلاغة العصر بعد الصاحب بن عباد وأبو اسحاق الصابئ بقيت متماسكة بأبي العباس ، فأشرفت على التهاتف بموته ، وكادت تشيب بعده لمم (٤)

---

(١) اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمره .
(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ٢ / ١٠٦ الطبعة الأخيرة مطبوعات دار المأمون .
(٣) المرجع السابق ص١٠٧ .
(٤) جمع لمة ــ الشعر يلم بالمنكب أي يقرب . والجمع لمام ولمم وذلك كناية عن ضعف الكناية الإنشائية .

الأقلام وتجف غدر (١) محاسن الكلام ، لولا أن الله سد ببقاء الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد ثلم (٢) الآداب والكتابه ، ثم وصفه بكلام كثير (٣) .

ومات في صفر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ببروجرد ، من آعمال بدر بن حسنويه ، وقال ياقوت : وأما سبب هربه إلى بروجرد ، فإن أم مجد الدولة اتهمته أنه سم ابن أختها ، وطلبت منه مائتي ألف دينار ، نفقة في مأتمه فلم يفعل ، والتجأ إلى بروجرد ، وهي من أعمال بدر بن حسنويه الكردي ، ثم بداله في الرجوع إلى الوزارة ، فبذل مائتي ألف دينار ليعاد إلى وزارته لمجد الدولة ، فلم يجب إلى ذلك ، فلما مات احتوى ابنه أبو القاسم سعد على تركته ، وكانت عظيمة ومات بعده بشهور ، فاحتوى أبو بكر محمد ابن عبد العزيز بن رافع على المال ، وورد تابوت أبي العباس إلى بغداد مع أحد حجابه (٤) ودفن في مشهد الحسين ، بوصيه منه (٥) .

وللضبي شعر رقيق ، ومن جيد شعره :

لا تَرْكَنَنَّ إلى الفِرا ... ق فإنَّهُ مُرُّ المذاقْ
والشمسُ عندَ غُروبها ... تصفرُّ من ألم الفِرا قْ

وكتب إلى الصاحب كافي الكفاة : (٦)

أكافي كفاة الأرض ملكك خالد ... وعزك موصول فأعظم بها نعمى
نثرت على القرطاس درا (٧) مبددا ... وآخر نظما قد فرعت (٨) به النجما
جواهرُ لو كانت جَواهرُ نُظِّمَتْ ... ولكنها الأعراضُ لا تقبلُ النَّظما

---

(١) غدر : جمع غدير . ماء غير جار فيه عشب وقصب يجمع على غدرات أيضا . وقد ورد في الطبعة الثانية للثعالبي محاسن غرر .
(٢) الثلم : جمع ثلمة . والثلمة في الحائط وغيره الخلل والنقب .
(٣) انظر معجم الأدباء لياقوت جـ٢ / ١٠٨ .
(٤) المرجع السابق ص ١١٠
(٥) انظر ترجمته في : الكامل لابن الأثير ٩/٧٢ ، يتيمة الدهر ٣/١١٨ — ١٢٤ وارشاد الأريب ١ / ٦٥ — ٧٤ .
(٦) معجم الأدباء لياقوت جـ٢ / ١٠٨ ، ١٠٩ .
(٧) درا مبددا : أي كتبت نثر : وفي الكلام استعارة مصرحة .
(٨) نظما : أي شعرا . وفيه ما في الذي قبله من المجاز ، وفرعت : علوت .

ولمهيار الديلمي وغيره مدائح فيه ، ومراث منها (١)

أبكيكَ لي ولمن بُلينَ بفُرقة الـ ... أيتامِ بَعْدَكَ والنِّساءُ أَراملُ
ولمستجيرٍ والخطوبُ تَنُوشُهُ ... مُستطعمٍ والدهرُ فيه آكلُ
ولمعشرٍ طُرقُ العلومِ ذُنُوبُهم ... في الناس وهي لهمْ إليكَ وسائلُ
قد كنتُ ملتحفاً بمدحَكَ حُلَّةً ... فخراً تُجرَّ لها عليَّ ذلا ذ لُ
فاليومَ أشكرُكَ الصَّنيعَ مراثياً ... خَرِسَ المُشبِّبُ عِنْدها والغازِ لُ

وترجمته في يتيمة الدهر ج٣/١١٨ ـ ١٢٤ ، الكامل لابن الأثير ٩/٧٢ وارشاد الأريب ١/٦٥ ـ ٧٤ ، والأعلام ١/٨٦.

(١) انظر معجم الأدباء ج٢/١١٣.

الشعـــــر والشعـــــراء

إن ما قدمنـاه عـن الأحوال السياسيـة والاقتصاديـة والاجتماعيـة والعقلية ظهـــر تأثيره في الشعر أكثر مما في سائـر الأدب ٠٠ لأن الشعر مرآة أحوال الأمـــة ٠

كان الشعـر في الجاهلية ديوان العرب ومعرض آدابهـم وأخلاقهـم ، يمثلـون فيـــه الشجاعـة والفروسيـة والأنفـة والوفـاء والضيافـة ٠٠ لا يبـا لغـون ولا يتكلفون ٠ فصـاروا في أيـام بني أميـة وأكـثر نظمهم في السياسـة ٠ كما ظهر التشبيب بكثرة الجواري والسـراري ، وكـثر الهجو لاختـلاف الأحـزاب مع المحافظـة على الصبغـة البدويـة ٠

فلمـا استبحـر عمـران العباسيين وأوى النـاس إلى القصور ، وتنزهوا فـي الحدائـق وشربـوا الخمـر واقتنـوا الغلمان ظهـر ذلك في أشعارهـم ٠ ثم زادوا على ذلك شكـــوى الزمـان في العصـر العباسي الثانـي لاشتغـال الخلفاء والوزراء عن الشعـر والشعـــراء

ونحـن الآن في القـرن الرابـع الهجـري عصـر تسابـق فيـه ولاة الأمـر إلى تقديـم أهـل الأدب فـلا غرو إذا تعـدد الشعـراء وطالت قصائدهم وتفرعـت الأساليـب ٠ ولا يتسـع المقـام لتراجمهـم ٠ فنأتـي بأشهرهـم حسـب سـني الوفـاة ٠

١ ـ ابـــن الحجـــاج

توفي سنة ٣٩١ هـ

هـو أبو عبد اللـه الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن الحجـــاج البغـدادي ، الشيعـي الشاعـر المشهور ٠ غلب على شعره المجون والخلاعة والسخـف كان فرد زمانه في فنـه ٠ فإنـه لم يسبـق إلى تلك الطريقـة مـع عذوبـة ألفاظـه وسلامـة شعـره من التكلـف ٠ وهـو شاعـر فحل ، من كتاب العصر البويهي غلب عليه الهزل ٠ ويقـال أنـه في الشعـر في درجـة امرئ القيـس وأنـه لم يكـن بينهما مثلهما لأن كل واحد منهما مخـترع طريقـه ٠

قـال الذهـبي " شاعر العصر وسفيـه الأدب وأسير الفحـش ٠كان أمـة وحده فـي نظـم القبائـح وخفـة الروح " وقال صاحب النجوم الزاهرة : " يضـرب بـه المثل في السخـف

والمداعبة والأهاجي " (١) وقال أبو حيان : " بعيد من الجد ، قريع في الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، على أنه قويم اللفظ سهل الكلام " . وقال الخطيب البغدادي: " سرد أبو الحسن الموسوي ، المعروف بالرضي من شعره في المديح والغزل وغيرهما ، ما جانب السخف فكان شعرا حسنا متخيرا جيدا " . وقال ابن كثير جمع الشريف الرضي أشعاره الجيدة على حده في ديوان مفرد ، ورثاه حين توفي .. له معرفة بالتاريخ واللغات. اتصل بالوزير المهلبي وعضد الدولة والصاحب بن عباد وابن العميد . وله ديوان كبير يبلغ عشر مجلدات الغالب عليه الهزل والمجون والهجو والرفث ، وخدم بالكتابة في جهات متعددة . وولي حسبة بغداد مدة ، وعزل عنها . نسبته إلى قرية النيل " على الفرات بين بغداد والكوفة " ووفاته فيها ودفن في بغداد (٢) عند مشهد موسى بن جعفر رضي الله عنهما وكان أوصى أن يدفن عند رجليه ويكتب على قبره" وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد " (٣) و رآه بعد موته بعض أصحابه في المنام فسأله عن حاله فأنشد : (٤) .

أفسد سوء مذهبي ... في الشعر حسن مذهبي
لم يرض مولاي علي ... سبي لأصحاب النبي

ورثاه الشريف الرضي بقصيده من جملتها : (٥) .

نعوه على حسن ظني به ... فلله ماذا نعى الناعيان
رضيع ولاء له شعبة ... من القلب مثل رضيع اللبان
وما كنت أحسب أن الزما ... ن يفل مضارب ذاك اللسان
بكيتك للشرد السائرات ... تفتق ألفاظها بالمعان
لبيك الزمان طويلا عليك ... فقد كنت خفة روح الزمان

وله ترجمه في وفيات الأعيان في ابن الحجاج ، شذرات الذهب ج٣/ ١٣٦ ، والنجوم الزاهرة ج٤/ ٢٠٤ ، الأعلام ج٢/ ٢٣١ ، اليتيمة ج٢/ ٢١١ .

---

(١) انظر الاعلام للزركلي ج٢/ ٢٣١ .
(٢) انظر شذرات الذهب لابن العماد ج٣/ ١٣٦ ، ١٣٧ ، الأعلام ج٢/ ٢٣١ .
(٣) مآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي تحقيق عبد الستار فراج ج١/ ٣٢١ (عالم الكتب)
(٤) شذرات الذهب ج٣/ ١٣٧ (مطبعة القدس ط. سنة ١٣٥٠ هـ) .
(٥) المرجع السابق ص١٣٧ .

٢ - السلامى
توفى سنة ٣٩٣ هـ

محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد أبوالحسن القرشى المخزومى السلامى ، وسمى السلامى نسبة إلى دار السلام ، ولد فى كرخ بغداد سنة ٣٣٦ هـ ، ورحل منها إلى الموصل وهو صبى ينظم الشعر .. ولقى جماعة بالموصل من الأدباء منهم البيغا وأبو على عثمان الخالدى وأبو الحسن التلعفرى وأعجبتهم براعته على حداثة سنه ، ثم إنتقل إلى أصبهان ، فاتصل بالصاحب بن عباد فرفع منزلته وجعله فى خاصته . وبالغ فى إكرامه وكان يقول : " إذا رأيته فى مجلس ظننته عطارد نزل من الفلك إلىّ ووقف بين يدى " (١) ثم قصد السلامى عضد الدولة بشيراز فحظى عنده ونادمه وأقام فى حضرته إلى أن مات ، فضعفت أحوال السلامى بعده . ومات رقيق الحال فى جمادى الأولى سنة ثلاثة وتسعين وثلثمائة ، وهو من ولد الوليد بن المغيرة أخى خالد بن الوليد - رضى الله عنهما - قال الثعالبى : هو من أشعر أهل العراق قولا بالإطلاق ، وأول شعر قاله فى المكتب :

بدايع الحسن فيه مفترقة ... وأعين الناس فيه متفقه
سهام الحاظه مفوقة ... فكل من رام لحظة رشقه
قد كتب الحسن فوق وجنته ... هذا مليح وحق من خلقه

واتهمته الجماعة المذكورون أولا فى ترجمته لحداثة سنه فيما ينشدهم فصنع الخالدى دعوة للشعراء وفيهم السلامى فلم يلبثوا أن جاء مطر شديد وبرد حتى غطى وجه الأرض فألقى الخالدى نارنجا كان هناك وقال : صفوا هذا ، فقال السلامى ارتجالا : (٢)

لله در الخالدى ... الأوحد الندب الخطير
أهدى لماء المزن عند ... جموده نار السعير
لا تعذلوه فإنما ... بعث الخدود إلى الثغور

---

(١) انظر الوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى جـ ٣ / ٣١٧ (المطبعة الهاشمية - دمشق - ط سنة ١٩٥٣)
(٢) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ ٢ / ٢٥٧

فلما رأوا ذلك منه أمسكوا عنه إلا التلعفرى فإنه أقام على قوله فيه حتى قال السلامى فيه :

سيا التلعفرى إلى وصالى ... ونفس الكلب تكبر عن وصاله
تنافى خلقه خلقى وتأبى ... فعالى أن تضاف إلى فعاله
فصنعتى النفيسة فى لسانى ... وصنعته الخسيسة فى قذاله
فإن أشعر فما هو من رجالى ... وإن يصفع فما أنا من رجاله

وله فيه أهاجى كثيرة ، ومدح الصاحب بن عباد وهو بأصبهان بقصيدته البائية التى منها :

تبسطنا على الآثان لما ... رأينا العفو من ثمر الذنوب(١) .

وللسلامى ديوان شعر مطبوع جمعه صبيح رديف ببغداد .

وترجمته فى : وفيات الأعيان جـ١ / ٥٢٤ ، والامتاع والمؤانسة ١ / ١٣٤ ، والبداية والنهاية ١١ / ٣٣٣ ، القاموس ماده سلم ، والاعلام ٦ / ٢٢٦ ، وتاريخ بغداد ٢ / ٣٣٥ وله فى يتيمة الدهر الجزء الثانى طائفة من أحسن أشعاره .

---

(١) المرجع السابق ص٢٥٨ .

التاريـــــخ والمؤرخـــــون

إتخـذ التاريـخ في القرن الرابع وجهـا آخر ، فتكاثـرت فيه التواريـخ الخاصـة للأمم أو المدن الاسلاميـة أو الأشخاص . وذلك طبيعي بعد استبحار العمران وظهور الـدول المتنافسـة في السيادة والشهرة وفي ترقيـة المملكة الإسلاميـة . وأكثرهـم يقربون الكتـــاب ويغرونهـم على تدوين محامدهـم ، وقد دعا إلى تدوين تواريـخ الدول المستقلة ما حـدث في ذلـك العصر من الانقـلابات السيا سيـة . وتاريـخ الدولة أو الأمـة يدون غالبا فـي أواخـر أيامها أو بعد انقضائهـا ، أما تراجـم الأفـراد فيغلـب تدوينها في حيـاة أصحابهـا بإيجاز منهـم .

وفـي هذا القـرن تولد ضرب من التاريـخ سمـوة " علم الأوائل " ومنه يعرف أوائـل الوقائـع والحوادث بحسب الموطن . وأول من ألف فيه تأليفا مستقلا أبو هـلال العسكـري ، وقـد تقـدم ذكره . أمـا التاريـخ العام فقد خالـط بعضه في هـذا العصر صبغة الرحلـة لكـثرة ما كان من توالـي الرحـلات فيـه .

ونلاحـظ أن النقـد التاريخي لم ينضج في تواريخ هذا القرن لأن معظمها كتب ولا سيما التواريـخ الخاصة تحت سيطـرة الامراء والملـوك لإرضائهـم . وقـد يمتنعـون عن الإنتقا د تفاديـا للتعرض للأحزاب الدينيـة إلا ما كان بين الشيعـة والسنـة .

وهـاك تراجـم لاشهـر المؤرخين ممن نشأ في أصبهـان أو نـزح إليها في القـــرن الرابـع حسـب سـنى الوفـــاة .

١ - حمـــزة الأصبهانـــي
توفـي سنـة ٣٥٠ هـ

هو حمـزة بن حسن الأصبهانـي ، كان مقيما ببغداد في أوائل القرن الرابع وأصلـه من أصبهان . كان يتعصب لغير العرب ، وعول فيما كتبـه علـى المصادر الفارسيـة . وسنترجـم لـه فيما بعـد (١)

(١) انظر ترجمة في ص ٦٦ وما بعدها من هـذا البحث .

٢ - مسكويه
توفى سنة ٤٢١ هـ

أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، أبو على : باحث ، مؤرخ . أصله من الرى ، وسكن أصفهان ، وتوفى بها فى تاسع صفر سنة ٤٢١ هـ . واشتغل بالكيمياء ، والفلسفة ، والمنطق مدة طويلة ، ثم أولع بالأدب ، والتاريخ والإنشاء ، وكان نفوذه عظيما بالرى . كان قيما على خزانة كتب ابن العميد ثم كتب عضد الدولة ابن بويه فلقب بالخازن ، ثم أختص ببهاء الدولة البويهى ، وعظم شأنه عنده (١) .

قال أبو حيان فى كتاب الإمتاع : وقد ذكر طائفة من متكلمى زمانه ثم قال : " وأما مسكويه فقصير بين أغنياء ، وغنى بين أنبياء (٢) " . وقال أيضا فى جملة وصفه : لطيف الألفاظ ، سهل المأخذ ، مشهور المعانى ، شديد التوقى ، ضعيف الترقى ، يتطاول جهده ثم يقصر ، وله مآخذ وغرائب من الكذب . وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء (٣) . بيد أننا لا نوافقه فيما نسبه إليه من الوصفين الأخيرين .

وقال أبو منصور الثعالبى : كان فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر وكان فى ريعان شبابه متصلا بابن العميد مختصا به وفيه يقول .

لا يعجبنك حسن القصر تنزله ... فضيلة الشمس ليست فى منازلها
لو زيدت الشمس فى أبراجها مائة ... مازاد ذلك شيئا فى فضائلها (٤) .

ثم تنقلت به أحوال جليلة فى خدمة بنى بويه والاختصاص ببهاء الدولة وعظم شأنه ، وارتفع مقداره فترفع عن خدمة الصاحب ولم ير نفسه دونه . ولم يخل من نوائب الدهر حتى قال ما هو متنازع بينه وبين نفر من الفضلاء .

---

(١) انظر مقدمة تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكوية تحقيق ابن الخطيب ط ١ سنة ١٩٢٤م .
(٢) كتاب ارشاد الاريب لياقوت الرومى جـ٢ / ٨٩ .
(٣) انظر الأعلام للزركلى ٢ / ٢١١ .
(٤) ارشاد الأريب ٢ / ٩٠

من غدير من حادثات الزمـــان وجفـاء الإخـوان والخـــلان .

وجاء فى ارشاد اللبيب : أنـه كان مجوسيا وأسلم (١) وهو لا يعيبـه الإسلام بعد التمجس. إن لم يكن يشرفـه إذ اهتدى بعد الضـلال ، ونجا بنفسـه من شروره . وقال عنه أيضـا : إنـه مـن كبار فضـلاء العجـم ، وأجـلاء فارس . وقد جـزم بعضهـم أن مسكويه جـده لا أبـــوه .

وعـاش عـمراطويـلا . فـنراه يشكو سـوء أثر الهـرم وبلوغـه إلى أرذل العمـر يقـــول :

وقـد بلغت إلى أقصى مدى عمـرى وكُـلّ عربَ وأستأنسـت بالنـــوب
إذا تمـلأت من غيظ على زمـــنى وجدتُنى نافخـاً فى جذوة اللهـب

مصنفاتـــه : (٢) وآثـــاره :

كان مسكويـه عارفا بعلـوم الأوائل معرفـة جيدة ولـه فى ذلك كتاب " الفوز الأكـبر " وكتـاب " الفـوز الأصغر " فى علـم النفس . وصنف كتـاب " تجـارب الأمم وتعاقب الهـمم " فى التاريخ ابتداؤه من بعـد الطوفان وإلى سنـه ٣٦٩ . وله كتاب " انس الفريد " وهـو مجموع يتضمـن أخبـارا وأشعـارا وحكما وأمثالا غير مبوب. وكتاب "ترتيب السعادات" فـى الأخـلاق ، وكتـاب " المستوفى أشعار مختارة " وكتـاب " الجامـع " وكتاب " جاويدان خرد " (فارسى) مخطوطة برقم (٤٠٨ عربى) فى الفاتيكان كتبـت سنة ١٢٤١ اسمـه فيهـــا (جاويدان خرد) جاء فى أوله : نقله أو شهنج الملك لخلفـه كنجور ابـن اسفنديـــار وزير ملك إيران ، من اللسان القديم إلى الفارسى ، ونقلـه إلى العربيـة الحسن بن سهـل أخـو ذى الرياستين ، وتممه أحمد بن مسكويـه اذ أضـاف إليه حكم الفرس والهند والعـرب والـروم .

وكتاب " السـير " أجاده .. ذكر فيه ما يسـير به الرجل نفسه من أمـور دنياه مزجـــه بالأثـر والآيـة والحكمة والشعر . وله أيضـا " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعـراق " وكـــل

---

(١) المرجـع السابق ٢/٩١
(٢) انظر الأعلام للزركلى جـ٢/٢١١ ، ٢١٢ . وانظر أيضا : ارشاد الأريب جـ٢/٩١ ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق تحقيق ابن الخطيب ط. الأولى سنة ١٩٢٤م ص٣ ، ٤ ، والامتاع والمؤانسه جـ١/١٤٢ ، ١٣٦ ، تاريخ آداب اللغه العربية لجرجى زيدان جـ٢/١٩ ، ٣ .

ما نأخذه عليه فى هذا الكتاب ضعف تعبيره رغم ارتفاعه بالمعانى ، التى بلغ فيها شأوا بعيدا : لم يدانه فيه كاتب. وله أيضا " طهارة النفس " ، " وآداب العرب والفرس " وله أيضا " رسالة فى ماهية العدل " ، " ونديم الأحباب وجليس الأصحاب " مخطوط فى مغنيسا برقم ١٢١٠ " و " الحكمة الخالدة " و " الأدوية المفردة " و " الأشربة " و " فوز النجاة " فى الأخلاق وكتاب (" السياسة ومختار الأشعار " وله أيضا " نزهة نامه علائى " فارسى كتبه باسم علاء الدولة الديلمى . وغير ذلك : مما لم نستطيع الوصول إليه .

وترجمته فى معجم الأدباء جـ٢ / ٨٨ ، انظر فوات الوفيات جـ٢ / ٢٦٩ .

٣ ـ السهمى
توفى سنة ٤٢٧ هـ

هو حمزة بن يوسف بن ابراهيم السهمى القرشى الجرجانى ، أبو القاسم : مؤرخ من الحفاظ ، من أهل جرجان . تولى بها الخطابة والوعظ ، ورحل إلى أصبهان والرى ونيسابور وغزنه وغيرها من بلاد خراسان والأهواز . كما دخل العراق والشام ومصر والحجاز .

من مصنفاته وآثاره : كتاب تاريخ جرجان ويسمى كتاب معرفة علماء أهل جرجان ومعجم شيوخه ، " سؤلات " وأوراق منه فى المكتبة الظاهرية ، وله كتاب الأربعين فى فضائل العباسى . وقيل وفاته سنة ٤٢٨ هـ . عاش نيفا وثمانين عاما (١)

٤ ـ أبو نعيم
توفى سنة ٤٣٠ هـ

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى : حافظ ، من الثقات فى الحفظ والرواية ، ولد ومات فى أصبهان ..

من أهم مصنفاته وآثاره : تاريخ أصبهان ، وحلية الأولياء ، معرفة الصحابة ودلائل النبوة (٢) .

---

(١) الأعلام جـ٢ / ٢٨٠ ، ٢٨١ ، مقدمة تاريخ جرجان ، اللباب ١ / ٥٨٠

(٢) الأعلام جـ١ / ٤٧

اللغـــــة واللغويـــــون

يمتـاز القـرن الرابـــع بأن علوم اللغة نضجت فيه ٠٠ وتم نشـوء المعاجـم اللغويـــة فنبغ من علمـاء اللغـة طائفـة اهتمـت بضبـط الألفاظ وتدوينهـا وتعريـف معانيهـــا وترتيبهـا على حروف المعجـم أو على المعانى ٠ وهم أصحاب المعاجـم ، وهـــاك أشهرهـم حســب سـنى الوفـــاة :

١ ـ الطبرانـــــــــى

توفى سنـــــة ٣٦٠ هـ

هـو أبـو القاسـم سليمان بن أحمـد بن أيوب بن مطير اللخمى ، كان ثقة صدوقـا ، واسع الحفـظ بصيرا بالعلل والرجال والأبواب ، كثير التصانيف ، وأول سماعه فـــى سنـة ثلاث وسبعين ومائتين بطبريـة المنسوب إليهـا ، ورحل أولا إلى القدس سنـة أربع وسبعـين ، ثم رحـل إلى قيسارية سنـه خمس وسبعـين فسمع من أصحـــاب محمـد بن يوسف الفريابـى ، ثم رحل إلـى حمص وجبلة ومـدائن الشام ، وحـــج ودخـل اليمن ، ورد إلى مصـــر ثم رحـل إلى العراق وأصبهـــان ٠

روى عن أبى زرعة الدمشقى وإسحق الديزى وطبقتهـا كالنسائى وعنـــه من شيوخـة أبـو خليفـة الجمحـى وابن عقـدة وأبو نعـيم الحافـظ وأبـوا لحسـين بن فاذشـاه وغيرهـــــم ٠

آثـاره ومصنفاتـــــه :

ولـه المصنفـات الممتعـة النافعـة الغزيرة ٠ منهـا المعاجم الثلاثة الكـــبير والأوسـط والصغـير وهو أشهـر كتبـه ، وروى عنـه الحافـظ أبو نعيم ، والخلق الكثـير ٠ ومولـده سنة ستين ومائتـين بطبرية الشام وسكن أصبهـان إلى أن توفى بها نهـار السبت ثامن عشـر ذى القعـدة سنـة ستـين وثلثمائـــة (١) ٠

---

(١) انظـر شـذرات الذهب لابن العمـاد جـ ٣٠/٣ (مطبعة القدسى ط سنه ١٣٥٠هـ)

٢ - ابـــن المقـــرى
توفى سنـــه ٣٨١ هـ

هـو أبـو بكـر محمد بن ابراهيم بن علـى الأصبهانـى ، الحافظ الثقة ، صاحـب الرحلـة الواسعـة . أول سماعـة بعد الثلثمائـة فأدرك محمد بن نصير المديـنى ومحمد بن على الفرقـدى صاحبى اسماعيل بن عمرو البجلى ثم رحل ولقى آبا يعلـى وعبـد ان وطبقتهما . قال أبو نعيم الحافـظ كان محدثا كبيرا ثقـة صاحب مسانيـد سمـع مالا يحصـى كـثره . وقـال ابن ناصـر الدين كان محدثا ثقـة كبيرا مـن المكثريـن .

ومـن مصنفاتـه : المعجـم الكبيروكتاب الأربعـين . وتوفى فى شـوال عـن ست وتسعـين سنـة (١) .

٣ - الخطيـب الأسكافـى
توفى سنـه ٤٢٠ هـ

هـو محمـد بن عبدالله الخطيـب الأسكافى ، أبو عبدالله : عالـم بالأدب واللغـة ، صاحـب التصانيـف ، أحد أصحاب الصاحب بن عباد وكان من أهل أصبهـان وخطيبـا بالـرى (٢) قـال الصاحـب : فـاز بالعلـم من أصبهان ثلاثة حائـك وحـلاج واسكـاف فالحائـك أبو على المرزوفـى والحـلاج أبو منصوريـن ماشـده والاسكـاف أبو عبد اللـه الخطيـب . حيث عمـل اسكافـا ، ثم خطيبـا بالـرى .

مصنفاتـه :

وله من الكتب " كتاب الغرة " يتضمن شيئا من غلط أهل الأدب ، وكتاب غلـط كتاب العين ، وكتاب مبادىء اللغة وهو أشهر كتبه ، وكتاب شواهد سيبوية ، وكتاب نقـد الشعر ، وكتاب درة التنزيل وغرة التأويل ، وكتاب لطف التدبير فى سياسات الملـوك . وترجمته فى بغيـة الوعاة ٦٣ ، ارشاد الأريب ٢٠/٧ ، الأعلام ٢٢٧/٦ وفهرسـت المؤلفين ٢٥٣ ، والوافـى بالوفيـات ٣٣٧/٣ .

---

(١) شـذرات الذهـب جـ ٣ / ١٠١

(٢) الوافى بالوفيات للصفدى جـ٣٣٧/٣ (المطبعة الهاشمية - دمشق ط سنه ١٩٥٣م)

العلـــــوم الاسلاميـــــة

تفرغت العلوم الإسلامية فى أوائل الإسلام إلى القراءة والحديث والتفسير، ثم ظهر الفقه وأخذت هذه العلوم تنمو بنمو التمدن ، ورسخت قواعد الفقه والحديث فى العصر العباسى الأول ونشأت فى أثناء ذلك فروع أخرى من علوم القرآن أو العلوم الإسلامية الدينية على أثر إنتشار الفلسفة وغيرها من علوم الأقدمين والعلوم الدخيلة .

ومن يتدبر اشتغال المسلمين فى العلوم الإسلامية ، يعجب لما استخدموه فيها من إعمال الفكرة ... ولا سيما الفقه فإنه من ثمار عقولهم واجتهادهم لادخل فيه لأمة أخرى ، اذ لا علاقة له بالعلوم القديمة، أما الفلسفة أو المنطق مما نقلوه عن اليونان ، فقد ساعد فى إنشاء بعض فروعه والتوسع فى نمو البعض الآخر كعلم الكلام . و نبغ فى القرن الرابع غير واحد من العلماء ، ممن صنف فى العلوم الاسلامية والشرعية ...

١ - أبو مسلم الأصفهانى
توفى سنة ٣٢٢ هـ

هو محمد بن بحر الأصفهانى ، أبو مسلم : وال ، من أهل أصفهان ، معتزلى من كبار الكتاب . كان عالما بالتفسير وبغيره من صنوف العلم ، وله شعر . ولى أصفهان وبلاد فارس ، للمقتدر العباسى ، واستمر إلى أن دخل ابن بويه أصفهان سنه ٣٢١ هـ ، فعزل (١)

مصنفاته وأثره :

صنف كثيرا من الكتب منها " جامع التأويل " فى التفسير ، أربعة عشر مجلدا جمع سعيد الأنصارى الهندى نصوصا منه وردت فى " مفاتيح الغيب " المعروف بتفسير الفخر الرازى ، وسماها " ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل " فى جزء صغير .

---

(١) الأعلام ٦/ ٥٠

ومن كتبه كتاب فى " النحو " ، و" مجموع رسائله " ، ومن كتبه أيضا " الناسخ والمنسوخ " . وترجمته فى إرشاد الاريب ٦/ ٤٢٠ ، مقدمة جامع التأويل، الفهرست ١٣٦ .

٢ ـ ابن أشته
توفى سنة ٣٦٠ هـ

هو محمد بن عبد الله بن أشته ، أبو بكر الأصبهانى .. عالم بالعربية والقراآت حسن التصنيف ، من أهل أصبهان . رحل إلى مصر ، وتوفى بها (١)

من مصنفاته .

كتاب " المحبر " ، " المفيد " فى شواذ القراآت وترجمته فى غاية النهاية ٢/ ١٨٤

٣ ـ عبدالله بن أحمد الأصبهانى
توفى سنه ٣٦٥ هـ

هو عبد الله بن أحمد بن اسحق بن محمد الأصبهانى والد أبى نعيم ، الحافظ ، رحل وعنى بالحديث وروى عن أبى خليفة الجمحى وطبقته ، وكانت رحلته فى سنة ثلثمائة . توفى وله أربع وثمانون سنة (٢) .

٤ ـ أبو القاسم الدارکى
توفى سنه ٣٧٥ هـ

هو أبو القاسم عبد العزيز بن عبد الله بن محمد بن عبد العزيز الدارکى ـ بفتح الراء نسبة إلى دارك من قرى أصبهان ـ درس بنيسابور مدة ثم سكن بغداد وكانت له حلقة للفتوى ، وانتهت إليه رياسة المذهب ببغداد ، تفقه على أبى اسحق المروزى ، وتفقه عليه الشيخ أبو حامد الاسفراييني بعد موت شيخه أبى الحسين بن المرزبان وقال : ما رأيت أفقه منه .

---

(١) الأعلام للزركلى ٦/ ٢٢٤ ، وانظر أيضا غاية النهاية ٢/ ١٨٤

(٢) شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ / ٥٠

وهو صاحب وجه فى المذهب الاعتزالى ، وحدث عن جده لأمه الحسن بن محمد الداركى وتوفى فى شوال (١) .

٥ - أبو على الأصبهانى
توفى سنة ٣٩٣ هـ

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين بن سعيد أبو على ، الأصبهان المقرئ صنف تصانيف فى القراآت ، وقرأ القرآن على أبى القاسم زيد بن على بن أحمد بن أبى بلال الكوفى ، وأبى بكر النقاش وأبى عبد الله صالح ابن مسلم بن عبيد الله بن المقرئ . وله ترجمة فى إرشاد الأريب جـ ٢ / ٧٩

٦ - ابن منده
توفى سنة ٣٩٥ هـ

هو أبو عبدالله بن منده الحافظ العلم محمد بن اسحق بن محمد بن يحيى العبدى الأصبهانى الجوال صاحب التصانيف طوف الدنيا وجمع وكتب مالا ينحصر وسمع من ألف وسبعمائة شيخ وأول سماعة ببلده فى سنه ثمان عشرة وثلثمائة ومات فى ذى القعدة . وبقى فى الرحلة بضعا وثلاثين سنة . قال أبو اسحق بن حمزة الحافظ ما رأيت مثله ، وقال عبد الرحمن بن منده كتب أبى عن أبى سعيد بن الأعرابى ألف جزء وعن خيثمة ألف جزء وعن الأصم ألف جزء وعن الهيثم الشاشى ألف جزء وقال شيخ الإسلام الانصارى : أبو عبدالله ابن منده سيد أهل زمانه قاله جميعه فى العبر وقال ابن ناصر الدين : أبو عبد الله الإمام أحد شيوخ الاسلام وهو إمام حافظ جيل من الجيال . ولما رجع من رحلته كانت كتبه أربعين حملا على الجمال حتى قيل أن أحدا من الحفاظ لم يسمع ما سمع ولا جمع ما جمع .

وقال ابن خلكان : أبو عبد الله محمد بن يحيى بن منده العبدى الحافظ المشهور صاحب كتاب تاريخ أصبهان كان أوحد الحفاظ الثقات وهم أهل بيت

---

(١) المرجع السابق ص ٨٥

كبير خرج منهم جماعة من العلماء ولم يكونوا عبديين وإنما أم الحافظ أبو عبد الله المذكور واسمها برة بنت محمد كانت من بني عبد ياليل فنسب إلى أخواله (١)

٧ ـ ابن باكويه
توفي سنة ٤٢٨ هـ

هو محمد بن عبد الله عبيد الله بن أحمد الشيرازى ، أبو عبد الله بن باكويه : صوفي من أهل شيراز ، من كبار المشايخ فى عصره . عنى بالحديث . ورحل إلى بغداد والبصرة وجرجان وهراه وبلخ وأصبهان ودمشق وبخارى والكوفة فأخذ عن جماعة ، وأخذ عنه آخرون منهم أبو القاسم القشيرى (٢)

من تصانيفه :

كتاب أخبار العارفين ، بداية الحلاج ونهايته . وترجمته فى الوافى ٣/٣٢٢ ، وهدية العارفين ٢/٦٥ ، واللباب ١/٩١

---

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد ج٣/١٤٦ .
(٢) الأعلام للزركلى ٦ / ٢٢٧

××× حمـــــزة الأصبهانـــــى ×××

مولـــــده ووفاتـــــه :

ولـد أبو عبدالله حمـزه بـن الحسن بأصبهـان من بـلاد فارس ، وعاش بهـــا حياته ، فهو أصبهانى مولدا وموطنا . وقد سكتت المصادر العربية القديمة عن تاريـــخ مولده وتاريخ وفاته ، ولم تذكر عنهما شيئا ، بل أكثر من هذا أنها لـم تذكر معلومـــات ذات قيمة عن حياته ، وكذلك فعلت المصادر الحديثة . ومن ثم فإن الذيـن درســوا حياتـه ومكانتـه العلميـة من المستشرقين والعرب ، قد اعتمـدوا كل الإعتماد على كتبـه ، وما وردبهـا مـن نصـوص وإشـارات .

والحق أن كتب حمزه غنية بالنصوص التى ترسم كثيرا من ملامح حياتـه ، ولاسيمـا حياته العلمية . وفى كتابه "تاريـخ سنى ملـوك الأرض والأنبياء" نصوص يمكـــن أن نتعـرف منهـا على تاريخ مولده وتاريخ وفاتـه ، على وجـه التقريب لاعلى وجـــه التحديـد . أما عن تاريخ مولده فقد ينفعنا فى تحديده قول حمـزه : "والذى أذكـر أنا بأصبهان مـن الأحـداث الخارجـة عن العادة ثمانية أنواع ، ما بين إحـــدى وتسعـين ومائتـين إلى سنة أربع وأربعين وثلثمائـة ، منها سنة إحدى وتسعين ومائتـين كانت الغـلات سابقـت الحصـاد ، فأصابهـا ضـر ذهب بها كلهـا ، فحصدت خاويـة لاحـب فيهـا ، وهـذا حادث لم يعهد الناس مثله فى زمان الدفء ، وهجوم الحـر ، ولا سمعـوا بـه" (١) .

ونستنتـج من هذا النص أنه ولد حوالـى سنة ٢٨٠ هـ ، ذلك أن قوله : "والـذى أذكـر" يشعر أن هذه الحادثة التى وقعت بأصبهـان سنة ٢٩١ هـ هى آخر ما يتذكـره مـن أحداث مرت عليه ، كما يشعـر أنه كان وقتئـذ حدث السـن ، ولذلك نقـــدر تقديـرا أن عمره كان حوالـى عشـر سنـوات . ويؤيـد ذلك أن حمزة كان فـــى بغداد سنـة ٣٠٨ هـ ، كما صـرح بذلـك فى قوله : "لقيت ببغداد فى سنة ثمـــان وثلثمائـة رجـلا مـن علماء اليهـود ، كان يدعى أنه يؤدى أسفار التـــــوراة حفظـــا ..." (٢) .

---

(١) تاريـخ سـنى ملوك الأرض والأنبياء طبعـة بـيروت ص ١٤٧
(٢) المرجـــع السابـــق ٧٦

ورأى ذلك أيضا المستشرقان الألمانيان بروكلمان ومتفوخ ، حيث قرر بروكلمان أن حمزة قد ولد فى حدود سنة ٢٨٠ هـ وأن حياته قد أمتدت ما بين الثمانينيات من القرن الثالث والخمسينات من القرن الرابع الهجرى (١) .

وأما عن وفاته فقد انفرد أبو سعد السمعانى بالاشارة إلى تاريخها فقال فى ترجمته : " وتوفى قبل الستين وثلثمائة (٢) .

وهى عبارة واسعة المدلول جدا ، وفى كتابه تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، ثلاثة نصوص تؤكد أنه كان يعيش فى أوائل سنة ٣٥١ هـ ، وترجح بعضها أنه توفى فى هذا العام نفسه ، أذكر منها هذا النص : فقال فى الفصل الذى عقده لبيان تاريخ النواريز ، وفى أى يوم من شهور العرب كان كل نيروز منها : " كان النيروز يوم الاثنين السابع عشر من صفر سنة خمسين وثلثمائة ، كان النيروز يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر صفر " (٣)

فهذا النص يؤكد أنه كان يعيش فى شهر صفر من سنة ٣٥١ هـ ، كما يرجح أنه توفى فى العام نفسه ، لأنه لم يذكر تاريخ هذا العام الأخير .

كما نستدل على ذلك أيضا من قوله فى مقدمة الكتاب : " ثم أكر على اقتصاص ما فى الأبواب التى قدمت ذكرها ، وأقفو الأبواب العشرة بباب يحوى فنونا من أسباب التواريخ لم يصلح أن يلتبس بما فى الأبواب المتقدمة إن شاء الله عز وجل " (٤) .

وقد أتم حمزة كتابه هذا فى سنة ٣٥٠ هـ كما صرح بذلك فى نهايته ، ولم يذكر الباب الحادى عشر الذى وعد بكتابته ، فإذا أضفنا مدلول هذا النص إلى مدلول النص السابق أكد أنه كان يعيش أوائل سنة ٣٥١ هـ وأمكن أن نستنتج أنه توفى هذا العام (٣٥١هـ) إذ لو امتدت حياته إلى ما بعده لأنجز ما وعد به فى مقدمة الكتاب .

---

(١) تاريخ الأدب العربى (المترجم ٣ / ٦٠)
(٢) الانساب ص ٤١ أ
(٣) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ١٤٣
(٤) المرجع السابق ١٠

مكانتـــــه الأدبيـــــة :

إن الـذى يطلع على كتب حمزة يلاحـظ غـزارة العلم ، واتساع الثقافة ، وخصوبـة الفكر ، وكيف لا ؟ فقد عاش حمزة فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، بعـــد أن نضجـت العلـوم والفنون ، وتنوعت الثقافات ، وزخرت الحيـاة العربية بألوان مـــن المعـارف والأفكـــار . (١)

وقـد تثقف حمزة بجميع هذه الثقافات ، وقرأ أمهات الكتب ، وتتلمـذ على أعـــلام العلماء ولم تكن قراءاته مقصورة على علوم اللغة والأدب والتاريخ ، وهى الفنون التى ألـــف فيها ، وإنما امتدت إلى جميع أنـواع العلـوم والمعـارف ، فكان يقرأ كتب الفلسفـــة والطب وغيرهـا ، ويتثقـف بكل ذلـك ، فقد ذكر أن لأبى على أحمد بن عبد الرحمـن بن مندويه الأصبهانـى ، وهـو من مشاهـير الأطباء فى القـرن الرابع الهجـــرى — رسائل فى الطب والفلسفة أرسـل بها إلى حمزه الأصبهانى وهى : رسالة فى طبقـــات العين ، رسالة فى أن الماء لا يغـذو ، رسالة فى النفـس والروح على رأى اليونانيـين ، رسالـة فى الاعتـذار عن اعتلال الأطباء ، رسالة فى الرد على من أنكر حاجة الطبيـب إلـى اللغـــة (٢) .

هذا بالاضافـة إلى أن حمزة من أصل فارسى ، وله معرفة تامة باللغـة الفارسيـــة ، مكنتـه من الاطلاع على آدابهـا وعلومهـا ، ومن الوقوف على العلاقـات التى بينهـا وبـين اللغة العربيـة ، بل أكثر من هذا أمكنتـه هذه المعرفة من أن يؤلف كتابا فـــى الموازنـــة بـــين اللغتـــين .

واستطـاع حمـزة بثقافتـه الرفيعة ، ومعارفـه المنوعة أن يقف شامـخ الرأس بـين علمـاء عصره ، وأن يؤلف أربعة عشـر كتابا أصيلا فى علوم اللغة والأدب والتاريـــخ ، وأخيرا رفعته هذه المكانة العلمية إلى منزلـة " المؤدبـين " . (٣) .

---

(١) انظر الحضارة العربية الاسلامية لادم متز (ترجمة أبو ريـــدة)
(٢) انظر : عيون الأنباء ٣/٣١ (طبعة بيروت) ، وانظر أيضا : اخبار العلمـــاء بأخبار الحكمـاء للقفـطى ص ٢٨٥
(٣) وصفة بالمؤدب السخاوى فى الاعلان بالتوبيخ ١٢٢ ، كما وصفة بها كل مـــن أبى نعيم والسمعانى والقفطى عنـد الكلام عـن ترجمتـــه .

وهذه المنزلة لم يكن يرتقى إليها إلا كل متضلع فى شتى العلوم والفنون . وقد مالت كتب التراجم القديمة إلى اعتبار حمزة أديبا ، إذ وصفه السمعانى بانه " كان من فضلاء الأدباء " ووصفه أبو نعيم بقوله : "أبو عبد الله الأديب " وقال عنه القفطى : " وتصانيفه فى الأدب جميلة "

أما المستشرقون الذين درسوا حياته وآثاره فقد مالوا إلى اعتباره مؤرخا ، وذلك لاشتهاره بينهم بكتابه " تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء " الذى قام بعضهم بنشره لأول مرة عام ١٨٤٠ م ، وقد كان ذلك سببا فى أن يعده بروكلمان من المؤرخين ، وأن يترجم له فى القسم الخاص بالتاريخ من كتابه (١) .

كما عده الثعالبى من ظرفاء الأدباء الذين جمعوا فصاحة العرب البلغاء إلى اتقان العلماء ، ووعورة اللغة إلى سهولة البلاغة ، وقرنه بالصاحب بن عباد والخوارزمى ، وأبى الفتح المراغى ، والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ، وأحمد بن فارس القزوينى (٢) .

وعده ياقوت لغويا ، حيث قال عنه : " وهو صاحب لغة ومعنى بها " (٣) .

والحق أن حمزة يجمع هذه الأوصاف الثلاثة ، فهو أديب ، لغوى ، مؤرخ ، كما تشهد بذلك كتبه وما تناولته من موضوعات .

ويعد حمزة من أعلام المصنفين ، ومن أبرز مؤلفى القرن الرابع الهجرى ، وتمتاز مصنفاته ومؤلفاته بدقة المنهج وروعة التنظيم والتقسيم ، كما تمتاز بالمقدمات الوافية التى يلقى كل منها أقوى الأضواء على موضوع الكتاب ، وفى كتبه تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، والتنبيه على حدوث التصحيف ، والدرة الفاخرة ، وديوان أبى نواس ، مقدمات وافية بارعة ، يمكن أن يعد كل منها بحثا قائما بذاته ، ولعل أبرز خط فى تأليفه هو الاعتماد على الرواية والنقل عن أئمة العلم وأساطين اللغة ، يدعم بآرائهم آراءه ، ويقوى بمذاهبهم المختلفة المسائل التى يتعرض لها فى كتبه .

---

(١) الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة تحقيق عبد المجيد قطامش جـ١ / ٢٣ دار المعارف ط سنة ١٩٧١م

(٢) الدرة الفاخرة فى الامثال السائر تحقيق عبد المجيد قطامش جـ١ / ٢٣ ، ٢٤

(٣) معجم البلدان ١ / ٢٥ (طبعة بيروت) .

وقد استفاد من كتب حمزة ونقل عنها جماعة من مشاهير العلماء والمؤلفين ، مثل أبى هلال العسكرى ، وأبى الفضل الميدانى ، وأبى القاسم الزمخشرى ، فقد نقل هؤلاء العلماء الثلاثة أمثال حمزة برمتها إلى كتبهم فى الأمثال ، مصرحين بذلك فى مقدمات هذه الكتب (١)

ومثل أبى منصور الثعالبى الذى نقل عن حمزة فى ثمار القلوب ، الصفدى الذى نقل عنه فى الغيث المسجم ، ياقوت الحموى الذى نقل كثيرا عن كتاب الموازنة فى معجمى الأدباء والبلدان ، وأبى الريحان البيرونى الذى نقل عنه فى الآثار الباقية ، وعبد القادر البغدادى ، وقد نقل عنه كثيرا فى خزانة الأدب ، وغيرهم من العلماء .

وقد نوه بمكانة حمزه العلمية والأدبية بعض معاصريه ، فكتب إليه مهلهل بن يموت بن المزرع : " أما بعد ، أدام الله فى أرغد عيش ، وأتم السرور ، وأمد العمر ، وأجل القدر عزك ، وجد الزمان ببقائك ، ووهب للآداب دوام سلامتك وتطاول أمرك ، فإنى لما رأيتك حريصا على شعر أبى نواس ، حتى أربيت على أكثر الناس فى تعظيمه وتقديمه ، وإن كنت خارجا عن طبقة من يغلو فى أمره بلا تحديد ، ويميل عن الحجة فيه إلى التقليد ... " (٢)

وكتب إليه عبدان بن أبى عبد الرحمن الأصبهانى قصيدة يقول فيها :

أبن لى أيها المفتن علما ... ومن أضحى الغداة بلا نظير
ومن مهما عويص الشعر أدجى ... وحير كل ذى علم غزير
كفانا حيرة فيه برأى ... يضىء كدارة القمر المنير

رحلات حمزة إلى بغداد :ـ

كانت بغداد أهم المراكز العلمية فى العالم العربى ، وحفلت بالكثير من العلماء والأدباء ، وأصبحت منارة يشع منها نور العلم والفكر ، وكعبة يقصدها العلماء والطلاب من كل صوب . بعد أن انتقل إليها النشاط الفكرى من البصرة والكوفة .

---

(١) الدرة الفاخرة الجزء الأول ص ٢٢
(٢) سرقات أبى نواس ٣١ (تحقيق د / محمد مصطفى هدارة)

وقد رحل حمزة إليها عدة مرات ، فكان طبيعيا أن يتردد عليها لينهل من ينابيع علمها ، وأدبها ، شأن علماء عصرة من أصبهان وغيرها الذين حفل بهم تاريخها .

وقد حدد حمزة تاريخ رحلتين من رحلاته إلى بغداد فقال عن الأولى . " لقيت ببغداد في سنة ثمان وثلثمائة رجلا من علماء اليهود ... (١) " .

وقال عن الثانية وهو يتحدث عن مهلهل بن يموت بن المزرع : " فلما وردت بغداد ثالث مرة ، وذلك في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، وطلبت شعر أبي نواس من عند النيبختيين فقضيت وطرى من النظر فيه دلوني على هذا الرجل " (٢) .

ويبدو أن حمزة كان كثير القصد لبغداد ، طويل الإقامة بها ، إذ أن أكثر أساتذته الذين ذكرهم في كتبه ، أو الذين ذكرهم أبو نعيم والسمعاني في ترجمته كانوا من سكانها ، يضاف إلى ذلك انه كان معنيا بجمع شعر أبي نواس ، وقد قضى أبو نواس معظم حياته في بغداد ، وتوفي دون أن يجمع شعره ، بل تركة مبعثرا في الأهواز والبصرة ومصر وبغداد ، فكان من الضروري أن يكرر حمزة الذهاب إلى بغداد ، وأن يطيل إقامته بها ، ليتسنى له أن يتتبع شعر هذا الشاعر في مظانه المختلفة ، وذكر حمزة أسماء بعض العلماء الذين التقى بهم في هذه المدينة ، واستمد منهم بعض قصائد أبي نواس وأخباره . منهم علي بن سليمان الأخفش ، وابن الأنباري ، مهلهل بن يموت بن المزرع ، وبعض آل نوبخت الذين كان أبو نواس على اتصال وثيق بهم (٣)

أثره في الأدب :

ألف حمزة في ثلاثة من فنون العلم ، هي اللغة والأدب والتاريخ ، وأجاد في كل ما ألف وأوفى على الغاية ، وخلف لنا أربعة عشر كتابا يعد بعضها من الأصول والأمهات ، ومن أوثق المصادر التي اعتمد عليها من جاء بعده من العلماء . وقد بحث حمزة في هذه الكتب موضوعات جديدة لم يسبق إليها ،

---

(١) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ٧٦
(٢) ديوان أبي نواس ١٢٣
(٣) انظر كتاب الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة ج ١ / ١٢ (ط سنه ١٩٧١م)

مثل تاريخ أصبهان ، حدوث التصحيف ، والموازنه بين العربية والفارسية ، وفيما يلى أسماء هذه الكتب :

١ ـ تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، وقد نشر فى برلين سنة ١٨٤٠ ، وفى ليبزج سنة ١٨٤٤ مع ترجمة لاتينية له ، بتحقيق المستشرق الألمانى جوتوالد ، وأعيد طبع القسم العربى منه بمطبعة كاويانى ببرلين سنه ١٣٤٠ هـ ، ونشر مترجما إلى الإنجليزية فى بومباى سنة ١٩٣٢ ، ثم نشر أخيرا فى بيروت سنة ١٩٦١ م .

٢ ـ تاريخ أصبهان ، وهو كتاب مفقود ، وقد ذكره فى ترجمة حمزة كل من السمعانى ، وابن النديم ، وأبى نعيم ، وحاجى خليفه والقفطى ، كما أشار إليه حمزة فى كتابه " تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء (١) .
ووصفه القفطى بقولة : " وله كتاب تاريخ أصبهان ، وهو من الكتب المفيدة العجيبة الوضع ، الكثيرة الغرائب (٢) . "

٣ ـ التنبيه على حدوث التصحيف : وتوجد منه نسخة خطية بالخزانة التيمورية رقم (٨٩٦ أدب يتمور) كما توجد ثلاث نسخ أخرى منه بطهران ، ونسخة خامسة بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، وقد تعرض للرد على حمزة فى هذا الكتاب أبو نصر إسحاق بن أحمد بن شيث بن نصر بن شيث البخارى (٤٠٥ هـ) وصنف فى ذلك كتابه " الرد على حمزة فى حدوث التصحيف (٣) "

٤ ـ ديوان أبى نواس ، وقد طبع برواية حمزة فى القاهرة بعناية اسكندر آصاف عام ١٨٩٨ م وأعيد طبعه بالمطبعة الحميدية عام ١٣٢٢ هـ ، وهما طبعتان ناقصتان مختلتان ، وقد نشر الجزء الأول منه محققا على خمس نسخ خطية المستشرق الألمانى ايفالد فاغنر ، وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٨ ، ومنه مصورات بجامعة الدول العربية

---

(١) انظر : ص ١٤٤ (ط . بيروت)
(٢) انظر : انباه الرواة جـ ١ / ٣٦٦
(٣) الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة تحقيق عبد المجيد قطامش جـ ١ / ١٨
وانظر أيضا معجم الأدباء جـ ٦ / ٦٩١ .

عن مخطوطتى مكتبتى الفاتح وكوبريلى أرقامها ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، وقد ذكر كل من بروكلمان وفاغنر عده نسخ لرواية حمزة متفرقة فى أنحاء العالم (١).

٥ ـ الخصائص أو الموازنة بين العربية والفارسية، والموجود منه قطعة محفوظة بدار الكتب المصرية (برقم ٩٠ لغة) وتقع فى خمسين ورقة، وبها خروم، وأوراقها بالية، وصورت بدار الكتب بالفوتستات تحت رقم ٦٨٠١ هـ) واستنتج بعض العلماء منها نسخة بخط حديث تحت رقم (٨٠٨ لغة) ويظهر أن هذا الكتاب كان فريدا فى موضوعه، غريبا فى بابه، وقد وصفه القفطى حيث قال: "وهو كتاب جليل، دل على اطلاعه على اللغة وأصولها، لم يأت أحد بمثله، صنفه للملك عضد الدولة فناخسرو ابن بويه" (٢)

٦ ـ الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر، وذكره ابن النديم ووصفه حاجى خليفة بقوله: "الأمثال الصادرة عن بيوت الشعر لأبى عبد الله حمزة بن الحسن الأصبهانى، وهو مرتب على الحروف، أوله: الحمد لله حق حمده" (٣) ومنه نسخة خطية فى برلين (برقم ١١٢٥) (٤).

٧ ـ ردود على علماء اللغة وعلى رواة الشعر والشعراء، وهو كتاب مفقود، وهذه الردود ليست لحمزة، وإنما هى لأبى على لغدة الأصبهانى، وقد قام حمزة بجمعها، يدل على ذلك ما صرح به حمزة من قوله فيما نقله عنه ياقوت فى ترجمة أبى على لغدة: "وله ردود على علماء اللغة، وعلى رواة الشعر والشعراء، قد جمعناها نحن فى كتاب، وأنفذناه إلى أبى إسحاق الزجاج، رحمه الله" (٥).

---

(١) انظر الدرة الفاخرة تحقيق عبد المجيد قطامش ج ١ / ١٩، مقدمه ديوان أبى نواس بتحقيق فاغنر، تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (المترجم ٢/ ٣٠).
(٢) انباه الرواة ١/ ٣٣٥.
(٣) كشف الظنون ١/ ١٦٨.
(٤) الدرة الفاخرة تحقيق عبد المجيد قطامش ج ١ / ٢٠
(٥) المصدر السابق ص ٢٠، ٢١، وانظر أيضا معجم الأدباء ٨/ ١٤٢

٨ ـ التشبيهات ، لم يذكره إلا ابن النديم ، وهو من الكتب المفقودة .

٩ ـ أنواع الدعاء ، وذكرة ابن النديم وحده .

١٠ ـ التماثيل فى تباشير السرور ، وانفرد بذكره ابن النديم ، وهو مفقود أيضا وهناك كتاب آخر يحمل هذا الاسم ، من تأليف عبد الله بن المعتز

١١ ـ رسائل ، ذكرها ابن النديم ضمن مصنفات حمزة ، وقد نقل البيرونى فى كتابه " الآثار الباقية " نصاً طويلا يتضمن بعض الشعر الذى قيل فى النيروز والمهرجان ، ونسبه إلى حمزة فى " رسالته فى الأشعار السائرة فى النيروز والمهرجان (١) .

كما ذكر القسطلانى أن لحمزة رسالة بعنوان " الرسالة المعربة عن شرف الإعراب " (٢) .

وعلى ذلك تكون هاتان الرسالتان من هذه الرسائل ، ويبدو أنها مجموعة رسائل ومقالات فى بعض الموضوعات الأدبية واللغوية .

١٢ ـ الدرة الفاخرة فى أمثال أفعل ، وقد أختلف العلماء الذين ترجموا له ، أونقلوا عن كتابه هذا ، فأطلقوا عليه عده أسماء ، فابن النديم سماه " كتاب الأمثال على أفعل " (٣) .

وأطلق عليه عبد القادر البغدادى اسم " الدرة الفاخرة " وتارة اسم أمثال حمزة وتاره آخرى اسم الأمثال التى على وزن أفعل (٤) ويوجد منه نسخة محفوظة بمتحف ميونخ بألمانيا (تحت رقم ٦٤٢) وأخرى محفوظة بمكتبة تيمور بدار الكتب القومية ، تحت رقم (٨٠٦ أدب) ، وأخرى محفوظة بمكتبة تولبه بدار الكتب القومية تحت رقم (٤٠ أدب تولبه) ونسخة رابعة بخط مغربى حديث محفوظة بقسم المخطوطات بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم (٧٤٤٢ أدب) . وقام بتحقيق الجزء الأول من الكتاب عبد المجيد قطامش سنة ١٩٧١ م .

---

(١) الآثار الباقية ٣١

(٢) ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى ٣١/٨

(٣) الفهرست ١٣٩

(٤) أنظر خزانه الأدب جـ ٢ / ١١ ، ١٧ وأنظر أيضا جـ١ / ١٢ ، ٦٥

١٣ - مضاحك الأشعار ، ولم يذكره أحدممن ترجم له ، وإنما ذكره الثعالبي " في ثمار القلوب " (١) ووصفه بأنه مرتب على حروف الهجا ونقل عنه مقطوعات من الشعر .

١٤ - كتاب الفصول المختاره من كتب الجاحظ ، ذكره العلامة المحقق عبدالعزيز الميمنى ، وذكر ما يدل على أنه يمتلك نسخه خطيه منه (٢) .

::*:*:*:*:*:*:*

---

(١) أنظر خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٦٧ بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

(٢) الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة بتحقيق عبد المجيد قطامش جـ ١/٢١

الصاحب بن عباد

مولده ووفاته :

ولد أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس الطالقانى ، بالطالقان ، واختلف المؤرخون فى تعيين البقعة التى ولد بها الصاحب فى هذا الموطن العام وقيل " ولد باصطخر " (١) واضطرب المحققون بين الرأيين .

قال ياقوت : قال الخليلى كان عندنا أنه ولد بالطقان . وقال لنا يوما باصطخر (٢) والرأى المرجح أن مولده بالطالقان لأن نسبة مولده إلى بلده وبلد أهله وعشيرته ، أرجح من نسبة مولده إلى بلد أخرى . وطالقان ولاية بين قزوين وأبهر ، وتتكون من عدة قرى يقع عليها هذا الاسم (٣) . وهى إحدى بلاد الديلم المشهورة مثل بروان وخشم ود ولاب وكهنى روز وموفكان وغيرها (٤) .

ووصفها المقدسى فقال : " والطالقان كبيرة عامرة نبيلة ، ليس فى الكورة مثلها . وقد كان يجب أن تكون حضرة السلطان . وعندى أنهم كرهوا ذلك لتطرفها بها علماء أجلة وفيهم ظرف (٥) .

وكانت أسرة الصاحب بن عباد من الأسر القديمة التى عاشت فى كنف الدولة البويهية ، ومنتهى اصولها إلى الدم الفارسى ، وجميع المصادر التاريخية (٦) رغم قلتها - تدل على صحة هذا النسب ، فلا جدال حول فارسية الصاحب شأنه فى ذلك شأن عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن العميد ، وغيرهم من أئمة الكتاب الذين استولوا على مقاليد الكتابة خلال العصر العباسى . وكانت ولادة الصاحب اسماعيل بن عباد بالطالقان ، سنة ٣٢٦ هـ ست وعشرين وثلاثمائة (٧)

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦ / ١٧٠ ، سلم الوصول لحاجى خليفه .
(٢) معجم الأدباء لياقوت (ط. دار المأمون) ٢٠٩
(٣) معجم البلدان لياقوت جـ ٦ ص ٧
(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٣٦٠
(٥) المرجع السابق ص ٣٦٠
(٦) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ / ١٩٩
(٧) المرجع السابق جـ ٢ / ٣١٤ (ط مرجليوس)

لأربع عشرة ليلة بقين من ذى القعدة وأكثر المؤرخين مجمعون على تحديد هذا العام - إلا السيوطى فقد ذهب أن مولده سنة ٣٢٤ هـ (١) .

وأسرة الصاحب رغم شهرتها واعراقها فى السياسة والعلم والأدب لا نعرف الكثير عن حياة أعلامها ، وما كانوا يقومون به من أعمال فى البلاط البويهى . كما أننا لا نعرف الأصول التى امتدت منها هذه الأسرة ، فقد تنتهى إلى ما تنتهى إليه أسرة آل بويه فى الجدود والنسب . وقد تكون أسرة ديلمية تنتهى إلى أصل فارسى آخر . وقد تكون غير هذا وذاك . ولكن الشئ الذى لا نستطيع أن ننكره أو نشك فيه أنها أسرة عريقة كان لها بالأسرة الشريفة العلوية فى أصبهان رحم ونسب (٢) كما كان لها بالأسرة المالكة وشائج .

ونشأ الصاحب فى بيت كتابة ووزارة ومعرفة بالأدب ، وكان معقل العلم منذ جدوده الأوائل . فأبوه عباد كان كاتبا عظيما . كما كان وزيرا لبنى بويه قال أبو نعيم الأصبهانى : " عباد بن العباس كان يلى الوزارة للحسن بن بويه (٣) وكان يكنى بأبى الحسن ، وكان من أهل العلم والفضل سمع أبا خليفة الفضل بن الحباب وغيره من البغداديين والأصفهانيين والرازيين . وصنف كتبا فى أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه ، روى عنه ابنه الوزير أبوالقاسم ابن عباد وابن مردويه الأصفهانى ... (٤) .

وعاش الصاحب فى كنف والده ناشئا ويافعا وكاتبا ووزيرا ، حتى توفى ... (٥) الوالد وابنه فى عام واحد . قال ياقوت : " ومات عباد فى السنة التى مات فيها ابنه سنة خمس وثمانين وثلاثمائة " (٦) .

---

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢٩٦
(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ / ٢٤٠
(٣) ذكر اخبار أصبهان لابى نعيم جـ ٢ / ١٣٨
(٤) المنتظم - لابن الجوزى جـ ٧ / ١٨٤
(٥) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ / ١٧٠
(٦) المرجع السابق جـ ٦ / ١٧٢

وأخطأ أبو القاسم القوبائى ، وأبو نعيم الأصفهانى فى تحديد السنة التى توفى فيها والده عباد فظن الأول أنه توفى سنة ٣٢٩ هـ (١) .

وظن الثانى أنه توفى سنه ٣٣٥ هـ (٢) والرواية الأولى هى التى صحت عندى لسببين (الأول) اختلاف القوبائى وأبو نعيم فى تحديد تلك السنة : (و الثانى) اتفاق ياقوت وسبط بن الجوزى (٣) وغيرهما من كبار المؤرخين على تحديد هذا .

وإذا كنا نعلم أن الدولة البويهيه - بدأت فى الظهور منذ سنة ٣١٢ هـ وانتهت سنة ٤٤٨ هـ علمنا أن الصاحب ولد وعاش ومات فى ظلال هذه الدولة .

ومع أن المصادر التاريخية لم توافنا بأعلام هذه الأسرة ولا تحدثت لنا عن أصولها ، فإن كتب التاريخ تكاد تكون مجمعة على هذه الحلقات من نسب الصاحب فتقول : هو - الصاحب اسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد ابن أحمد بن ادريس الطالقانى (٤) الأصفهانى الديلمى ويكنى أبا القاسم . ونسبته الطالقانى والأصفهانى نسبة إلى مسقط رأسه وبلده . ويلقب بالصاحب وكافى الكفاة .

وفى سبب تلقبه بالصاحب آراء كثيرة . ورغم اختلافها لاتتعارض فهو لم يلقب بالصاحب إلا لما تحقق فيه معنى الصحبة سواء فى ذلك صحبة مؤيد الدولة أو صحبة ابن العميد .

ولا نعلم عن طفولة الصاحب إلا أنه ولد بالطالقان . والظاهر أنه لم يمكث فيها طويلا إذ انتقل إلى أصفهان ليقضى فيها مرحلة حداثته ويتلقى مبادىء القراءة والكتابة ، ولعل أقوال المؤرخين وخاصة الشيعة منهم لمما يعيننا على إثبات هذه الحقيقة . قال القوبائى : " وأما منزله ففى أصبهان ... (٥) .

---

(١) رسالة الارشاد للقوبائى ص٤
(٢) ذكر أخبار أصفهان لابى نعيم جـ ٢ / ١٣٨
(٣) مرآة الزمان لسبط بن الجوزى ج ١ ح ورقة ١٨١ أسى ٢ صورة شمسية رقم ٥٥١ تاريخ بدار الكتب المصرية
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ / ٢١٦ (طـدار المأمون)
(٥) معجم البلدان جـ ١ / ٢٧٢ ، رسالة الارشاد للقوبائى ص ٥

وكانت وفاة الصاحب ليلة الجمعة رابع عشر من صفر بالرى ثم نقل إلى أصبهان ، ومن أخباره أنه لم يسعد أحد بعد وفاته كما كان فى حياته غير الصاحب فإنه لما توفى أغلقت له مدينة الرى واجتمع الناس على باب القصر ينتظرون خروج جنازته وحضر مخدومه فخر الدولة وسائر القواد وتدفيروا لباسهم ، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أياما (١) .

مكانته الأدبية :

كان الصاحب ثالث الثلاثة الذين نافس عضد الدولة فيهم أخاه مؤيد الدولة وحسده عليهم وهو أن العضد كان كثيرا ما يقول قولا معناه قد حبيت بغايات الأمانى وأوتيت أقاصى المبانى فلا أحسد ملكا من الملوك على شئ غير أنى على أبى القاسم الثلاثة أبى القاسم اسماعيل بن عباد وأبى القاسم فضل بن سهل وأبى القاسم بن جعفر القاضى المعروف باليزدى وكان كل واحد منهم فى فنه نسيج وحده ، وقريع زمانه منيفا على أهل صناعته وأقرانه . وقول البحترى ثلاثة جلّة إن شوروا نصحو أو استعينوا كفوا أو سلطوا عدلوا يوهم أنه لم يمدح به غيرهم (٢) .

وشهرة الصاحب لا ترجع إلى كونه وزيرا بقدر ما ترجع إلى أنه كان يعد أديبا كبيرا وواحدا من كبار المشتغلين بالعلم والثقافة ، وبلغ من اهتمامه بالثقافة أنهم حدثوا بأن كتبه كانت تنقل على أربعمائة جمل ، وأنه كان يجتمع على بابه من العلماء والأدباء والشعراء مالا يجتمع على أبواب الخلفاء والسلاطين ، وكانت له معهم مناظرات ومساجلات . وو زر لمؤيد الدولة أبى منصور بن بويه وفخر الدولة وصحب أبا الفضل الو زير بن العميد وأخذ عنه الأدب والشعر والترسل وبصحبته لقب بالصاحب .

وكان من رجال الدهر حزما وعزما وسؤددا ونبلا وسخاء وحشمة وأفضالا وعدلا (٣) .

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد جـ٣/ ١١٥ ط سنه ١٣٥٠ هـ مطبعة القدسى .
(٢) محاسن أصفهان لمفضل بن سعد المافروخى ص ١٤
(٣) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٣ / ١١٤ ط سنه ١٣٥٠ هـ مطبعة القدسى .

وقال فى حقه صاحب اليتيمة : ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب ، وجلالة شأنه فى الجود والكرم . وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر . لأن همة تولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه (١) . ثم وصف بعض محاسنه وطرفاً من أحواله . كما قال أبو بكر الخوارزمى فى حقه : الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ووضع أفاويق درها وورثها عن آبائه (٢) .

وقال عنه صاحب اليتيمة : هو صدر المشرق وتاريخ المجد ، وفرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . ومن لا حرج فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولو لاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق . وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء . وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومتزع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم . وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده . وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه (٣) .

كما قال أبو سعيد الرستمى فى حقه :

ورث الوزارة كابرا عن كابر ... موصولة الاسناد بالاسناد
يروى عن العباس عباد وزا ... رته واسماعيل عن عباد

واجتمع عند الصاحب من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره ، ومدحوه بغرر المدائح ، وكان حسن الأجوبة . كتب إليه بعضهم رقعة أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها : " هذه بضاعتنا ردت إلينا " (٤)

وأنشده أبو القاسم الزعفرانى يوماً أبياتاً نونية من جملتها :

أيا من عطاياه تهدى الغنى ... إلى راحتى من نأى أودنا
كموت المقيمين والزائرين ... ن كسالم تحل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون فى ... صفوف من الخز إلا أنا

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣/ ١٦٩ ط الأولى سنه ١٣٥٣ هـ مطبعة الصاوى
تحقيق على محمد عبد اللطيف
(٢) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٣/ ١١٤ ط سنه ١٣٥٠ هـ مطبعة القدس
(٣) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣ / ١٦٩ ط الأولى سنه ١٣٥٣ هـ مطبعة الصاوى بتحقيق على محمد
(٤) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٣ / ١١٤

فقال الصاحب قرأت فى أخبار معن بن زائدة الشيبانى أن رجلا قال : له احملنى أيها الأمير فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ثم قال : لو علمت أن الله تعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه . وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص وعمامة ودراعة وسراويل ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وكيس ولو علمنا لباسا آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه (١) .

وقال عنه الثعالبى: كان نادرة عطارد فى البلاغة ، وواسطة عقد الدهر فى السماحة . جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول فصل . وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام وبدائع الإفهام . وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول . وذوب العلوم ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعد فى السحر ، ويكاد يدخل فى حد الاعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب (٢) .

وحكى أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسى النحوى أن نوح بن منصور أحد ملوك بنى سامان كتب إليه ورقة فى السر يستدعيه ليفوض إليه وزارته وتدبير مملكته وكان من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج فى نقل كتبه خاصة إلى أربعمائة جمل فما الظن بما يليق بها من التجمل (٣) .

محاسن الصاحب :

كان الصاحب بن عباد من أصحاب الشخصيات متعددة الجوانب ، وقد جمع بين رياستى الدين والدنيا ، واستطاعت المؤثرات الوراثية وعوامل البيئة والتيارات المختلفة فى حياته أن تجعل منه رجلا عجيبا فى تكوينه يجد فيه الكثيرون مع العلماء والأدباء ورجال الدين وأرباب الأقلام صورا واضحة لأنفسهم يستريحون إليها . إذ كان فكها مع المتفكهين المتأدبين ، وعالما مع العلماء يصول حيث صالوا ، وجدليا مناظرا من الطراز الأول مع من يساجلونه بألسنتهم أو أقلامهم (٤) إلى جانب ذلك

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج٣/ ١١٤ ط. سنة ١٣٥٠هـ مطبعة القدس.
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ج٣/ ١٦٩ ط. الأولى سنة ١٣٥٣هـ مطبعة الصاوى.
(٣) شذرات الذهب لابن العماد ج٣/ ١١٥.
(٤) الصاحب بن عباد حياته وأدبه ص٤٨ (ماجستير مخطوطه بجامعة عين شمس باسم حامد حنفى داود .

كان فظا غليظ القلب قوى الشكيمة واسع الحيلة فى مواضع الغلبة ومواطن الانتقام، كان جامعا لأشتات الفضائل .

وقال ياقوت : كان الصاحب كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان قد نتف من كل أدب شيئا وأخذ من كل فن طرفا ... حسن القيام بالعروض والقوافى ويقول الشعر وليس بذاك . وبديهته غزّارة . وأما رويته فخوّارة (١)

واشتهر الصاحب بعلو النفس ونزاهتها حيث كان يقف موقف القادر الذى يرتفع عن الأخذ بالثأر . قال ياقوت : ومما وجدت فى بعض الكتب من مكارم الأخلاق للصاحب أنه استدعى يوما شرابا من شراب السُّكر فجىء بقدح منه فلما أراد شربه قال له بعض خواصه لا تشربه فإنه مسموم فقال له وما الشاهد على صحة ذلك قال : بأن تجرّبه على من أعطاكه قال لا استجيز ذلك ولا استحله قال فجرّبه على دجاجة قال إن التمثيل بالحيوان لا يجوز وأمر بصب ما فى القدح وقال للغلام أنصرف عنى ولا تدخل دارى بعدها . وأقر رزقه عليه وقال لا تدفع اليقين بالشك ، والعقوبة بقطع الرزق ندالة (٢) .

وقد طبق الصاحب هذا الخلق الرفيع على الرعية فكان براً رحيما بها ، يعطف على ضعفائها ، ويأخذ للمظلوم حقه من الظالم وله فى ذلك قصص طويلة تدل على مبلغ عدله وإنصافه .

وكان بارا بعشيرته . صبورا على إيذاء الناس . قال المافروخى : بلغ من عناية الصاحب الجليل كافى الكفاة بعامتهم فضلا عن خاصتهم وخفض جناح الذل لهم وسحب ذيل العفو على ما كان منهم وتمييزهم من سائر رعايا البلاد . فقد حكى أنه كان فى أيام صباه بأصفهان إسكاف ، وكان يمر بباب دكان هذا الاسكاف وهو فى طريقه إلى المدرسة . فكان الاسكاف كلما مر به الصاحب تسفه عليه وأوسعه لعنا وسبا وتنقيصا وثلبا وتعييرا بالاعتزال ورميا بالكفر والضلال وكان الصاحب يتغافل عما يتلفظ به . ومضت السنون ونال الصاحب مرتبه الوزارة واحتاج الاسكاف فقصد حضرته وعرفه الصاحب وعفا عنه وقضى حاجته بأن وقع إلى الأستاذ

---

(١) انظر ارشاد الاريب لياقوت الرومى جـ٢ / ٢٧٦

(٢) ارشاد الاريب لياقوت الرومى جـ٢ / ٢٨١ .

للرئيس أبى العباسى الضبى توقيعا بقضاء حاجته واسعافه بالمسئول من أوعاجه فى ضمنه ما معناه • فإن لرافعها حقا لا يسع إغفالا وحرمة لا تقتضى إهمالا • أو جبنا تسبّبه إلينا بسبّه إيانا (١) •

وكان الصاحب يبالغ فى إكرام العلماء وسائر من يفد إليه من الشعراء والأدباء والخاصة والعامة على السواء • يغدق العطاء على سائر قاصديه وكان ما يخرج لكافى الكفاة فى السنة فى وجوه البر والصدقات والمبرات وصلات الأشراف وأهل العلم والغرباء الزوار ومن يجرى مجرى ذلك مما يتكلفه ويريد به صيت الدنيا وأجر الآخرة يزيد على مائة ألف دينار (٢) •

وأخذ عليه المتأخرون تثاقله عن القيام للناس • قال السيوطى : ولم يكن يقوم لأحد من الناس ولا يشير إلى القيام ولا يطمع أحد منهم فى ذلك كائنا من كان (٣) •

ومع هذا كان يحترم رجال الدين ويقف إجلالا لهم دون غيرهم فنراه وقد نزل بالصيمرة عند عوده من الأهواز فدخل عليه شيخ من زهاد المعتزلة يعرف بعبد الله بن اسحاق فقام له فلما خرج التفت كافى الكفاة وقال : ما قمت لاحد مثل هذا القيام منذ عشرين سنة وإنما فعل ذلك به لزهده فإنه كان أحد ابدال دهره (٤) •

ومن طريف ما ذكره الثعالبى من محاسنه مع من يحضرون مجلسه أن أحد الفقهاء ويعرف بابن الخضيرى ، كان يحضر مجلس الصاحب بالليالى ، فغلبته عيناه ليله فنام وخرجت منه ريح

---

(١) محاسن أصفهان للمافروخى ص ٩٨ •
(٢) ارشاد الأريب لياقوت الرومى جـ ٢ / ٣١٠
(٣) بغية الوعاة للسيوطى ص ١٩٦ •
(٤) ارشاد الأريب جـ ٢ / ٣٠٩

لهـا صـوت ، فخجـل وانقطـع عـن المجلـس فقـال الصاحـب أبلغـوه عـنى (١) .

يا ابـن الخضيرى لا تذهـب على خجل ... لحادث منك مثل النا ى والعود
فإنها الريح لا تستطيـع تحبسهـا ... إذ أنت لست سليمان بـن داود

وليس أدل على قـدر شخصيـة الصاحب مما كان له من مكانة مرموقـة فى نفس مؤيـد الدولة وفخـر الدولـة . فكانا لا يحـلان أمرا ولا يعقـد انه إلا بحضرته وإشارته وتوجيهه وكان الوزراء إذا أرادوا الدخول عليه يقبلون الأرض بين يديه مرارا . ومنهم الأمـراء وأعيـان الدولـة وأكابرهـم مثل أولاد مؤيد الدولة ، وابن عز الدولـة ، وفـولاذ ابـن ما نـادر ، ونصـر بن الحسـن بـن الفيـروزان وغيرهـم وكان فى يد كـل واحـد مـن هـؤلاء من الاقطـاع ما يبلـغ ارتفاعه خمسـين ألـف دينار (٢) .

مصنفاتـه وأثـره فى الأدب :

درس الصاحـب الأدب على أحمـد بـن فارس اللغـوى ، أمـا اتجاهـه فى أصول العقائـد فلا شـك أنه كان من كبار مناصـرى المعتزلة ، وكان يلجأ إلى الترغيب والإغراء فـلا يوظـف أحد إلا من جاراه فى مذهبـه ، وكان متضلعـا فى مذهـب الاعـتزال ، فقـد درس على الشيـخ أبى عبد الله البصـرى ، وناقـش عـدد كبيرا من رجـال الاعـتزال وعلى رأسهـم القاضـى عبد الجبـار ليمسكـوا بزمـام الـدولة (٣) .

ثـم أنه كان فى بدء امره من صغار الكتاب يخدم أبا الفضـل ابن العميد على خاصـة فترقـت بـه الحال (٤) فهـو من تلاميذ ابـن العميـد .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ / ١٧٨ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٣ هـ مطبعة الصاوى ، أنظـر أيضا ارشاد الأريب جـ ٢/٣١٣ وفيـة .

يابن الخضيرى لا تذهب على خجـل ... لحادث كان مثل الناى فى العـود
فانها الريح لا تستطيع تحبسهـا ... إذ لست أنت سليمان بـن داود

(٢) ارشـاد الأريـب جـ ٢ / ٣٠٨
(٣) انظر بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار، د / عبد الفتاح لاشين ص ٥٥، ٥٦
(٤) كتـاب ارشـاد الأريـب جـ ٢ / ٢٧٤

وخلف لنا الصاحب مؤلفات ضخمة وعديدة فى نصرة مذهب الاعتزال منها الإبانة عن مذهب أهل العدل بحجج القرآن والعدل ، والتذكرة فى الأصول الخمسة ، وصنف فى اللغة كتابا سماه المحيط فى سبع مجلدات ، وكتاب الكافى فى الرسائل ، وكتاب الأعياد وفضائل النيروز وكتاب الإمامة يذكر فيه فضائل على رضى الله عنه ويثبت إمامته على من تقدمه لأنه كان شيعيا وله غير ذلك. وله رسائل بديعة ونظم جيد . ومن كتبه الجيدة فى الاعتزال أيضا : كتاب علم الكلام ، وكتاب القضاء والقدر ، وكتاب الشواهد ، وكتاب التذكرة وكتاب التحليل ، وكتاب نهج السبيل فى الأصول وغيرها (١) .

ومن تصانيفه : كتاب ديوان رسائله عشر مجلدات . وكتاب الزيدية وكتاب الوزراء . وكتاب عنوان المعارف فى التاريخ . كتاب الكشف عن مساوئ المتنبى . كتاب مختصر اسماء الله تعالى وصفاته . كتاب العروض الكافى . وكتاب جوهرة الجمهرة . وكتاب نهج السبيل فى الأصول . وكتاب أخبار أبى العيناء . وكتاب نقض العروض . وكتاب تاريخ الملك واختلاف الدول . كتاب الزيدين . كتاب ديوان شعره (٢) وغيرها .

ومن جيد نظمه :

وشادن جمالة ... تقصر عنه صفتى
أهوى لتقبيل يدى ... فقلت قبل شفتى (٣)

وترجمته فى ابن خلكان جـ ١ / ٧٥ وطبقات الأدباء ٣٩٧ ، يتيمة الدهر جـ ٣ / ٣١ ، المرجع نفسه جـ ٤ / ١٥٧ ، معجم الأدباء جـ ٢ / ٢٧٣ ، والفهرست ١٣٥ .

---

(١) الصاحب بن عباد حياته وأدبه ص ٥٤
(٢) ارشاد الأريب لياقوت الرومى جـ ٢ / ٣١٥ ، ٣١٦
(٣) شذرات الذهب لابن العماد جـ ٣ / ١١٥ ط سنه ١٣٥٠ مطبعة القدسى

الفصل الثانى

موضوعات الشعر وفنونه

كان للقـرن الرابع وما حـدث فيـه من اضطراب سياسـي ومذهـبي أثره السيء فـي الحيـاة الاجتماعيـة والذى أثـر بدوره في الشعـر ، فكان مرآة ناصعـة ، وصـورة واضحـة ينعكـس على صفحتهـا هذا التهلهـل الذى مني بـه المجتمـع في أخلاقـه ، وما كـان يشيـع من لهـو ومجـون راجـت سوقـه في هذا العصـر. وتحرر الشعـر من الروح التقليدية ، وتحـول بعض الشعراء في أواسـط هذا القرن إلـى شعـراء بـلاط متعددين.

وكانـت دواعي الشعر لا تقـل عن دواعـي النشر. ومـن هنا اتسـع الشعر وتضخمـت الأغـراض الشعرية. حتى لم يتركـوا غرضـا إلا طرقـوه ولعل ذلك راجع إلـى اتسـاع الميدان الفكـرى. وفاقت عنايتهـم بالمدح والرثـاء كل عنايـة أخرى ، ونالـت مـن الشعراء أعظـم اهتمـام فـنرى المتنبي يقـول في مـدح بدر بن عـمار (١) :

لو كان علمك بالإله مقسمـا ... في الناس ما بعث الإله رسـولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ ... ـقرآن والتوراة والإنجيـلا (٢).

كمـا اهتم الشعراء بالوصـف اهتماما كبيرا فوصفـوا القصور ، وآلات اللهو ، والطـرب ، وأدوات الكتابـة ، كما وصفـوا المقراض والسكـين ، حتى ليخيل إلىّ أنهـم لم يدعـوا شيئـا دون أن يصفـوه.

وانتعشـت الأغراض المجونيـة فتشبيـوا بالنسـاء وأسرفـوا إسرافـا كبيرا في الغـزل بالمذكـر ، ووصفوا الخمـر ومجالسهـا ومنتدياتهـا ، وساقيهـا وشاربهـا ولم يمنعهـم الحيـاء من ذكر العورات أو ما تشمئز النفـس من ذكره أو سماعـه ، وهكذا أسرفوا كـل الإسراف في تناول الأدب المكشوف ولم يسلم معظم الشعراء من شر هذه العـدوى.

---

(١) ديوان المتنبي ص١٢٥ (طبعة بيروت سنة ١٩٢٥م)، الصبح المنبي طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٣ ص ٣٨٢ وفيـه
أو كان لفظك فيهم ما انزل التـ ... ـوراة والفرقان والإنجيلا
وهما من قصيدته التي مطلعها : في الخد إن عـزم الخليط رحيلا.

(٢) في البيتين يتضح ضعف عقيدة المتنبي ، وقلة دينه ، وإفراطه الشديد فيهما. لأن الإسلام من حقه الإجلال الذى لا يسوغ إلا خلال به قولا وفعلا ونظما ونثرا. ولا يجب الاستهانة بأمـره.

وانصرف بعض الشعراء إلى الطبيعة يستجلى معالمها ، فوصفوا الرياض والورود والأزهار والأشجار وتفننوا فى وصف الفواكه والرياض . واهتم كثيرا من الشعراء بالأفكار العلمية ، وظهرت المعانى الروحية البحته كالمعانى الصوفية والفقهية ، كما شاعت المعانى العلمية ، حتى إنك لتقرأ فى أشعارهم أبعد المعانى احتمالا كالمعانى الطبية فى قول أبى الفتح البستى (١) .

إن الجهول تضر فى أخلاقه ضرر السُّعال بمن به استسقاءُ

وظهر من بين الشعراء جماعة مغلقون امتازوا على غيرهم بالروح التقليدية فلم يستهوهم المجون . بقدر ما كانت تستهويهم الضروب والمعارك أمام شعراء ذلك العصر ، وفى القرن الرابع بلغ الشعراء حدا عظيما حتى ليخيل للإنسان وهو يطالع الأدب فيه أن جلّ المتأدبين كانوا من الشعراء .

وتنافست العواصم الإسلامية فى تكريم هؤلاء الشعراء والحفاوة بهم فى ذلك العصر . وقد حدث بسبب هذا التنافس صراع أدبى بين الميدان الشعرى ببغداد والميدان الشعرى ببلاط بنى بويه . وتغلب — بطبيعة الحال — الميدان الشرقى البويهى بما صار إليه من حضارة عظيمة تعززها القوة وتحميها السياسة وينميها الفن الفارسى (٢) .

ومن دراستنا لأغراض الشعر المعاصر وأساليبه نعرف أن شعراء أصبهان فى ذلك العصر كانوا يسيرون على قدمين متناقضين .. فكنت تراهم بثوب الوقار والاحتشام تارة والمجون والاستهتار المزرى تارة أخرى ، وذلك مما جعل أدبهم صورة جامعة تمثل اختلاف عواطف الناس واضطراب أهوائهم .

وسنذكر بعض الأغراض الشعرية التى طرقها الشعراء محللين طرائقها ، معللين شيوع بعض هذه الأغراض وندرة البعض الآخر . ونحن فى غضون ذلك نأتى بالشاهد والشاهدين فى الغرض الواحد .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ج٢ / ٢٣٨

(٢) انظر تاريخ الحضارة لبارتولد ص ٧٣

وقد نظم الشعراء قصائدهم فى هذا العصر فى كل غرض ، وجالوا فى كل مجال ، ومن ثم نجد أغراض الشعر تتناول بابين واسعين من أبوابه .

(أ) أغراض تقليدية :

نظم فيها الشعراء كما نظم فيها الشعراء من قبلهم ، ولكنهم امتازوا فيها فى أحيان كثيرة بتجويد الأسلوب ، وتهذيب المعنى ، ورقة الخيال ، ومن هذه الأغراض .

١ — الغزل

باب متسع ، قد أكثر الشعراء القول فيه ، وتنوعوا فى أساليبه ومعانيه ، ولو استقصيناه لطال به هذا التصنيف ، واقتصرنا منه على ما رق معناه وراق ، وارتاحت إليه النفوس والخواطر .

والغزل كل حديث يديره الشاعر حول محبوبته . وما تثيره ذكراها فى نفسه من مشاعر وأحاسيس ، أو تصوير لمفاتنها الحسية والمعنوية ، وهجرها أو انصرافها ، وطيفها . أو الحديث عن الحب ذاته . وكلها معان تدور فى الشعر وقد تنوع الشعراء فى الغزل . فتغزلوا فى المحبوب باسمه .. قال ابن عباد : (١) .

على كالغزال وكالغزاله ... رأيت به هلالا فى غلاله
كأن بياض غرته رشاد ... كأن سواد طرته ضلاله
كأن الله أرسله نبيا ... وصير حسنه أقوى دلاله
اذا مازدت وصلا زدت خبلا ... كأن حبال وصلك لى خباله

وكنوا عن المحبوب واستعاروا له .. كقول الصاحب : (٢) .

أبا شجاع ياشجاع الورى ... ومن غدا فى حسنه قبله
قبل فمى ان كنت لى مؤثرا ... فاليد لا تعرف القبله

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٣/ ١ ٢٣ .
(٢) المرجع السابق نفس الصحيفة .

ووصفوا أعضاءه وشبهوها بأشياء ، فشبهوا العيون بالنرجس وأفعالها بالخمر والسهام ، والحواجب بالقسيّ ، والجبين بالصباح ، والشعور بالليالي ، والوجه بالشمس والقمر كما أنهم شبهوا القوام بالغصون والأرداف بالكثبان والثغاء بالعقيق والأسنان باللؤلؤ ، والريق بالشهد والخمر .. يقول الصاحب (١)

تسحب ما أُردت على الصباح ... فهم ليل وأنت أخو الصباح
لقد أُولاك ربك كل حسن ... وقد ولاك مملكة الملاح
وبعد فليس يحضرني شراب ... فانعم من رضابك لي براح
وليس لدى نقل فارتهنّي ... بنقل من ثناياك الوضاح

وقال : (٢)

رشا غدا وجدي عليه كردفه ... وغدا اصطباري في هواه كخصره
وكأن يوم وصاله من وجهه ... وكأن ليلة هجره من شعره
إن ذقت خمرًا خلتها من ريقه ... أو رمت مسكا نلته من نشره
واذا تكبر واستطال بحسنه ... فعذار عارضه يقوم بعذره

وشبهوا الخدود بالتفاح والورد كقول الصاحب (٣) .

خداه وردٌ وصدغه سبجٌ ... ومقلتاه الغناءُ والسراح
إن هز أطرافه على نغم ... شقت جيوبٌ وطاح أرواح

وقال في الصدغ: (٤)

وعهدي بالعقارب حين تشتو ... تخفف لدغها وتقلّ ضرّا
فما بال الشتاء أتى ، وهذا ... عقاربُ صدغه يزددن شرّا ؟

وشبهوا الثغور بالأقحوان يقول التهامي (٥) .

قلت لخلّيّ وثغور الرُّبى ... مبتسماتٌ وثغور الملاحْ
أيها أحلى ، تُرى منظرًا ؟ ... فقال : لا أعلمُ ، كل أقاحْ !

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٣ ص ٢٣ .
(٢) اليتيمة للثعالبي جـ ٣/ ٢٣٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥ .
(٤) نهاية الإرب للنويري جـ ٢ / ٧٥ (ط دار الكتب سنة ١٣٤٢ هـ) .
(٥) ديوان الشعر العربي جـ ٢ / ٤٦٩ على أحمد سعيد (أدونيس) منشورات المكتبة العصرية صيدا - بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤م .

وتغزلوا أيضا فى أصناف الفواكه المأكولة ، وتغزلوا فى الرياض والأزهار والغزل عند الصاحب بن عباد يشمل السواد الأعظم فى شعره ، نقرؤه فنراه يعنى أحيانا بجانب اللفظ فيكثر من المحسنات البديعية ، من سجع وجناس وتورية ، ويعنى فيه أحيانا بالمعنى ويتفنن فى تصوره فيعرض أمامنا الغزل الرقيق ، ويسرف أحيانا فيتبذل ويبالغ حتى يلوح فيه جانب المجون واضحا .

ونجد فى الأحوال الثلاث الصنعة التى تتغلب على كل شئ عنده كقوله : (١) .

بدا لنا كالبدر فى شروقه ... يشكو غزالا لج فى عقوقه

يا عجبًا والدهرُ فى طروقه ... من عاشق أحسن من معشوقه

فها هو ذا التشبيه فى قوله " كالبدر " والاستعارة فى قوله " يشكو غزالا " ثم ها هى ذى المبالغة المجسمة فى قوله " من عاشق أحسن من معشوقه ونجد الصنعة مع إحكام التشبيه فى قوله (٢) .

انظر اليه كأنه ... شمس وبدر حين أشرف

والحظ محاسن خده ... تعذر دموعى حين تذرف

ويصل بنا إلى منتهى الاحكام فى التشبيه حين يختم هذه المقطوعة بقوله .

فكأنها الواواتُ حين ... يخطها قلمٌ محرَّف

وأما عن العناية والتفنن فى أداء المعنى فانظر إلى الابتذال فى قوله : (٣) .

وشادن ذى غنج ... طاوى الحشى معتدل

أنشدته شعرا بديع ... ما حسنا من علمى

فقال فيمن ولعن ... فقلت هذا فيك لى

فطار فى وجنته ... شعاعُ نار الخجل

فنرى الابتذال فى قوله " ذى غنج " وتراه يأبى أن يترك صناعته اللفظية فيعيد ذكرها ويحرص عليها كل الحرص فيقول " فيك لى " كما نشاهد جمال الاستعارة فى

---

(١) إرشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٣٣٩ ، انظر يتيمة الدهر جـ٣ / ٢٣٣

(٢) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص٢٣٢ .

البيت الأخير . ونلمح الإسراف فى الهذر عند قول الصاحب: (١).

وشادن قلت له ما اسمكا ... فقال لى بالغنج عساك
فصرت من لثغته الثغا ... فقلت أين الكاث والطساك

ومع أنه كان ما جنا فى هذين البيتين إلا أنه متفكه طريف المناسبة . وكقوله: (٢).

راسلت من أهواه أطلب زورة ... فأجابنى أو لست فى رمضان ؟
فأجبته والقلب يخفق صبوة ... الصوم عن بر وعن إحسان .

ونراه متهتكا فى قوله .

صم إن أردت تحرجا وتعففا ... عن أن تكد الصب بالهجران
أولا فزُرنى والظلامُ مجلل ... واحسبهُ يوما مرَّ فى شعبان

ونلمس ذلك فى قوله : (٣).

وشادن جمالـه ... يقصر عنه صفتى
أهوى لتقبيل يدى ... فقلت لابل شفتى

وقال ابن طباطبا : (٤).

يالذتى بعناق من ... روى فمى رشفا ولثما
فى ليلة ضمت على جنا ... حيها الغريب ضما
فلو استطعت جعلت بيـ ... ـن ظلامها والصبح ردما

وله أيضا : (٥) .

طال اشتياقى وأنت عندى ... فى سُورة قد نعمتَ بالا
مللت لما أطلتَ مكثى ... وسمت غلمانك الملالا
فقال لى خادم شريف ... أتيته الآن ؟ قلت : لالا
دعنى فإنى أنام أيضا ... لعلّنا نلتقى حلالا

---

(١) أرشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٣٤٠.
(٢) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٤٨.
(٣) ارشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٣١٦ (مطبعة هندية).
(٤) محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى تهذيب واختصار إبراهيم زيدان ص٢٩٧ (دار التراث)
(٥) لطائف اللطف تحقيق د /عمر الأسعد ص١٤٣.

ونرى الشاعر أحيانا يجمع بين الصناعتين اللفظية والمعنوية كقول الصاحب: (١).

أتاني البدر باكيا خجلا ... فقلت ماذا دهاك يا قمر
قال غزال أتى ليعزلني ... بحسنه فالفؤاد منفطر
فقلت قبل ترابه عجلا ... واسجد له قال كل ذا غرر
قد بايعت انجم السماء لهُ ... فليس لي مفزع ولا وزر

وقول ابن طباطبا: (٢).

نفسي الفداء لغائب عن ناظري ... ومحله في القلب دون حجابه
لولا تمتع مقلتي بقدومه ... لوهبتها لمبشري بلقائه

ومن هذا الصنف ما استحسنه ابن فضل الله العمري واعتبره من بديع غزليات الصاحب بن عباد قوله: (٣).

تبسم اذ تبسم عن أقاح ... وأسفر حين أسفر عن صباح
وألحقني بكأسي من رضاب ... وكأس من جنى ورد وراح
له وجه يدل به على ... يمزغه فيسكر كل صاح

وأرى أن الصاحب قد بلغ في هذه الأبيات منتهى الصنعة وجمال التصوير.

وتفنن الشعراء في هذا الضرب الأخير حتى نراهم قد اقتبسوا فيه من الأحاديث النبوية الشريفة كقول الصاحب: (٤).

قال لي: إن رقيبي ... سيء الخلق فقد اره
قلت دعني وجهك الـ ... جنة حفت بالمكاره

وفيها اقتبس قول الرسول الكريم " حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره. وتنوع الغزل عند الشعراء حتى قالوا في الخط والعذار وفي صباح الحاجب يقول الصاحب في الخط: (٥).

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٣٣
(٢) لطائف اللطف ص١٤٢ ، البيتان في الإعجاز والإيجاز ص٢٥٣ ومعهما ثالث:
فالحمد لله الذي قمع العدى ... وأقرأ عيننا بعود ركابه
(٣) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري جـ١٠/ ٢٠١.
(٤) إرشاد الأريب جـ٢/ ٣١٦.
(٥) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٣٥.

وخطّ كأن الله قال لحسنه ... تشبهْ بمن قد خطك اليومَ فأتمرْ
وهيهات أين الخطُّ من حسن وجهه ... وأين ظلام الليل من صفحة القمر

وقال السلامى فى العذار: (١).

عذارُكَ جادتْ عليه الرِّبا ... ضُ بأجفانها وبآماقها
وطال غرامُ الغوانى به ... فقد طرّزتْهُ بأحداقها

ومن ذلك قول الصاحب: (٢).

دب العذار على ميدان وجنته ... حتى إذا كاد أن يسعى به وقفا
كأنه كاتب غرّ المداد له ... أراد يكتب لاماً فابتدا ألفا

وقوله فى صباح الحاجب: (٣).

خداهُ وردٌ وصدغه سبحٌ ... ومقلتاه الغناء والسراح
ان هز أطرافهُ على نغم ... شقت جيوبٌ وطاح أرواح
وجملة القول فى محاسنه ... أن أمير الصباح صباح

وأفاض الشعراء فى التغزل بالنساء الجوارى منهم والحرائر يقول التهامى: (٤).

اهتزّ غصنٌ تمنى وصلها طربا ... وربّ أمنية أحلى من الظفر
وراعها حرُّ أنفاسى فقلت لها ... هواى نارٌ وأنفاسى من الشرر
وللمجرّة فوق الأفق معترضٌ ... كأنها حببٌ يطفو على نهر
وللثريّا ركودٌ فوق أرجلنا ... كأنها قطعة من جلدة النمر
وأدهَمُ الليل نحو الغرب منهزمٌ ... وأشقرُ الفجر يتلوه على الأثر

وقال السلامى: (٥).

يا ربّ غانيةٍ بيضاء تصحبنى ... من العتاب كؤوسا ليسَ تنساغ
أشتاق طرتها أو صُدْغَها ومعى ... من كلّها طررٌ سود وأصداغ!
كأننا لا أتاح الله فرقتنا ... يا كعبة المسك يازنجيةً زاغُ

---

(١) نهاية الأرب للنويرى السفر الثانى ص٨٧، ٨٨ (ط٠ سنة ١٣٤٢ هـ دار الكتب).
(٢) إرشاد الأريب جـ٢/ ٢٤٠
(٣) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٣٥، ٢٣٦
(٤) ديوان الشعر العربى جـ٢/ ٤٧٠
(٥) نهاية الأرب جـ٢/ ٤١ (ط٠ دار الكتب سنة ١٣٤٢ هـ).

وقـال ابن طباطبـا : (١)٠

وفى خمسةٍ منى حلتْ خمسةٌ ... فريقك منها فى فمى أطيب الرشف
ووجهك فى عينى ولمسك فى يدى ... ونطقك فى سمعى وعرفك فى أنفى

ويقـول أبو محمـد الخـازن : (٢)٠

حث المطىّ فهـذه نجـدُ ... بلـغ المدى وتزايـدَ الوجـدُ
يا حبذا نجدٌ وساكنهـا ... لو كان ينفـع حبـذا نجـدُ
ويمنحنى الوادى لنا رشـأ ... قد ضلّ حيث الضـالُ والرّنـد
هندٌ ترى بسيوف مقلتهـا ... مالا ترى بسيوفهـا الهنـد

ومن هذا الضرب ما قاله أبو القاسم غانم بن أبى العلاء الأصبهانى : (٣)٠

المستغاث من الهوى باللـه ... من شادن فتن الورى تيـاه
ما كنت أعلم قبله حر الهـوى ... والوجد ما هو والصبابة ما هـى
حتى بليت به أغنّ مدلـلا ... كالريم يعصى فى هواه الناهـى
فمدامعى عَبرى وقلبى والـه ... وجوانحى حرّى وصبرى واهـى

وكثيرا ما جعل الشعراء الغزل لحنا يفتتحون به قصائدهم ، تعبيرا عن الوفاء للمحبوبة وتلمس مواطنها التى كانت تقيم بهـا أو التى شهدت مولد الحب ونمائه٠ يقول أبو محمد الخـازن من قصيـدة طويلـه : (٤)٠

ما زلت أعتسف المهامة والفـلا ... وأواصل الأغوار بالإنجـاد
حتى نأيت عن الحواضر ملقيـا ... رحلى بواد فى تخوم بـوادى
فإذا بسعدى وهى بدر طالـع ... من فوق غصن فى نقـا منهـاد
وطرقتها وعداتها رقباؤ هـا ... فى صورة المرتاب لا المرتـاد
فحللت منها حيث كان وشاحهـا ... درعى وساعدها الوثير وسـادى
وجناؤ ها حصنى وساحر طرفهـا ... سيفى وفاحمها الأثيب نجـادى
وعقاصها الموصول زهرة روضـتى ... ورضابها المعسـول صوب عهادى

---

(١) لطائف اللطف ص١٤٣ ، الإعجاز والإيجاز ص٢٥٤ ، خاص الخاص ص١٣٢٠
(٢) يتيمة الدهر جـ٣/٢٩٦٠
(٣) المرجع السابـق ص١ ٢٩٠
(٤) يتيمة الدهر جـ٣/١ ٣٠٠

وأثرت الحياة الاجتماعية وما صاحبها من استهتار الشعراء في الفجور ، واسترسالهم في المجون ، أن نقلوا الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر . فتغزلوا بالغلمان .

قال السلامي : (١).

ومختصر الخصر ، من بعده ... هويت فألقيت في صده !
وقابلني وجهه مقبلا ... بحد الحسام وإفرنده
فما زلت أعصر من خمره ... وأقطف من مجتني وردة
وأظمأ فأرشف من ريقه ... فيا حر صدري من بوده !

ولابن حجاج : (٢).

ومذلل ! أما القضيب فقده ... شكلا وأما ردفه فكثيب !
يمشي وقد فعل الصبا بقوامه ... فعل الصبا بالغصن وهو رطيب
متلوّن يبدي ويخفي شخصه ... كالبدر يطلع تارة ويغيب
أرمي مقاتله فتخطئ أسهمي ... غرضي ، ويرمي مهجتي فيصيب !
نفسي فداؤك ! إن نفسي لم تزل ... مالي ومالك لا أراك تزورني
مالي ومالك لا أراك تزورني ... إلا ودونك كاشح ورقيب !

ومن قول أبي حفص الشَّهْرَزُوريّ في غلام مختط : (٣).

الآن أحسن ما كان بستانه ... طابت فواكهه فيه وريحانه
فيه من الورد محمرّ جوانبه ... ونرجس كحلت بالغنج أجفانه
غطت عذا قيد أصداغ مهدلة ... تفاح حسن به قد زين بستانه
خاف القطاف على بستان وجنته ... فشوكت حذر السّراق حيطانه

وقال أبو العباسي الضبي : (٤).

ترفق أيها المولى بعبدٍ ... فقد فتنت لواحظك النفوسا
وأسكرت العقول فليس ندري ... أسحرًا ما تسقي أم كؤوسا

---

(١) نهاية الأرب ج٢ / ٢٣٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٣) يتيمة الدهر ج٣ / ٣٥٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٦٤ .

وهكذا أغرم شعراء أصبهان بالغزل فى القرن الرابع حتى كاد غزلهم يشبه فى رقته وشدة مجونه ، وخروجه عن الوقار الدينى بغزل أبى نواس فى القرن الثانى . ومع ذلك فلهم بعض الغزل العنيف ، والجميل السهل والرقيق المحتشم مما يصح أن يستشهد به الصوفية ويتغنون به فى حالات سكرهم .. أو يعدونه من الغزل اللاهوتى . ومنه قول الصاحب: (١).

لقد قلت لما أتو بالطبيب ... وصادفنى فى أحر اللهيب
وداوى فلم انتفع بالدوا ... ء دعونى فإنّ طبيبى حبيبى
ولست أريد طبيب الجسو ... م ولكن أريد طبيب القلوب
وليس يزيلُ سقامى سوى ... حضور الحبيب وبعد الرقيب

فهل استطاع الشعراء فى أصبهان فى القرن الرابع أن يسموا بالغزل أكثر من ذلك ؟؟؟ والحق أنهم لم يستطيعوا أن يحققوا فى غزلهم إلا عنصرا واحدا من عناصر الجودة الشعرية . " وهو عنصر الذاتية " ولكن فى الوقت نفسه لا نصيب لهم كبير فى فلسفة الغزل لأنهم عجزوا عن أن يفلسفوه فيرتفعوا بمعاينه ويسموا بأغراضه من المادة إلى الروح .

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣ ص٢٤٧ .

٢ - المـــــــــــدح

أكثـر الشعراء من المـدح لأنه قـد كان يتنافس عليه الملوك والأمراء والولاة ، ليكسبوا حمـدا ، وليناللـوا مجـدا ، ولتذيع مآثرهـم على الأفـــــواه .

وشعـراء هذه المرحلـة حين يمـدحون يخلعـون على ممدوحيهـم الصفات المحببـة لديهـم . فالممـدوح عندهم ليـس مثله أحد فى كرمه ، وجـوده يقول السلامـى : (١)

اذا زرته لم تلق من دون بابـه	حجابا ولم تدخل عليه بشافـــع
كماء الفرات الجمّ أعرض وِرْدَه	لكلّ أناس فهو سهل الشرائـع
تـراه إذا ما جئتـه متهـــللا	تهلّل أبكار الغيوث الهوامـــع

وقـال أبـو القاسـم الزعفرانـى فى مـدح الصاحـب بـن عبـاد : (٢)

وصرت إلى الباب الذى ليس دونه	حجاب ولا كف ترد من اجتـنى
فما شمت إلا بارقا كان صادقـا	ولا رحت حتى عمت فى أبحر الغنا

وقـــال الصاحـــب : (٣)

أيّها الآملون حُطوّا سريعـــا	برفيع العماد وأرى الزنـــادِ
فهو إن جاد ذم حاتم طـــيءٍ	وهو إن قال فلّ قُسّ إيـــادِ
وإذا ماربا فأيـن زيـــادٌ	من عُلاه وأين آل زيـــادِ

وهو حسن الجوار يحمى من يحتمـى بحماه ، ويعين من يلوذ بظله ، ونلمس ذلك فـــى مدح أبو الفرج الأصبهانى للوزير المهلبى يقـول : (٤)

ولما انتجعنا لائذيـن بظلـــه	أعان وماعنى ومـن ومامنـــا
ورد نا عليه مقتريـن فراشنـــا	وردنا نداه مجدبين فأخصبنـــا

---

(١) نهايـة الأرب جـ ٣ / ١٩٢
(٢) يتيمـــة الدهر جـ ٣ / ٣١٥
(٣) نهاية الأرب ص ١٩٥ ، ١٩٦
(٤) شـذرات الذهب لابـن العمـاد جـ ٣ / ٢٠

ونرى أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن فى شوقة إلى مجلس الصاحب بن عباد والذى كان سببا فى إبعاد النوم عن عينه يقول : (١)

ولرب ليل لم أنمه ومقلتى ... مطروفة مطوقة بسهاد
شوقا إلى نادٍ جنى ريحانة ... لمعُ القريض ونغمة الانشاد
نادٍ تجلى عن مقرّ سريره ... قمر أناف على البسيطة بادى
كافى الكفاه المستجار بظله ... والمستضاءُ بعزمه الوقاد
ملك محبته سلافة مزنةٍ ... سلكت مع الأرواق فى الاجساد
ملك يقال له جمادُ اذا التقتْ ... قحمُ السنين و لايقال جماد

كما أن الممدوح من بناة المجد المحبين للخير ، صاحب رأى بصير ، وله معرفة بالأمور قال أبو سعيد الرستمى من قصيدة فى مدح مؤيد الدولة : (٢)

فأقسمت ما فى الأرض غيرك ماجد ... يزار ولا فى الأرض غيرىَ شاعر
بقيت مدى الدنيا وملكك راسخ ... وظلك ممدود وبابك عامر
يرد سناك البدر والبدر زاهر ... ويقفو نداك البحر والبحر زاخر
وهنئت أعيادًا توالت سعودها ... كما يتوالى فى العقود جواهر

فنراه يقسم أن ما فى الأرض غيره من ماجد يزار .. ويدعو له ببقاء ملكه وأن تظل ديار خصبة عامرة . وله من أخرى فيه أيضا يقول : (٣)

أيها ملكا فاق الملوك وبذهم ... فراح سنانًا والملوك عوامل
اذا نحن أثنينا عليه بما درت ... فأثنيت كما نثنى القنا والقنابل
يغير الدجى من وجهة وهو حالك ... ويندى الثرى من كفه وهو ماحل
وذو لحظات كلهنّ فواضل ... وذو حركات كلهنّ فضائل
دهاءٌ لديه رأى أكثم قائل ... وجود لديه حاتمُ الجود باخل
وحلم لديه زكن يذبل ذابل ... وعزم لديه فارس الخطب راجل

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٣ / ٣٠٢
(٢) يتيمة الدهر جـ ٣ / ٢٧٤
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٥

فالممدوح عنده فاق الملوك فى كل شىء .. لحظاته فواضل ، كما أن حركاته فضائل ، قوى العزيمة ، حليم جواد .

والممدوح عند الصاحب لا يستطيع أحد أن يصل إليه فيما يفعل من وجوه الإحسان والخير . أو يصف أعماله ولو بلغ الطاقة وبذل الوسع فى وصف نعمائه ، لأن أقل ما يعطيهم يوصلهم ويوفى على متمناهم ، وأحقر ما يعطيه يستوعب الحمد والثناء . فكيف يقدرون أن يصفوا فعله الجميل بإحسانه الجزيل ؟ يقول :(١)

ولن تبلغ الأقوام ما أنت فاعل ... ولو بلغوا فى وصف آلائك الجهدا
فأنزر ما تعطيه يوفى على المنى ... وأيسر ما توليه يستغرق الحمدا

ويمدح الرستمى الصاحب ، ويصف حبه الشديد له ، ويذم الأيام التى ابتعد فيها عنه . فليله فيها طويل ، وقبله عليل يقول من قصيدة طويلة :

وأذم أيام الفراق فإنها ... عللٌ وإن خفيتْ على العوّاد

فهو المعين له على نوائب الدهر وأحداثه يقول :

قل للزمان اذا تمر ساخطا ... وعدا على يوجه ليث عادى
أبرق وارعدْ ليس يرتعد الحشى ... لى منك بالابراق والارعاد
الصاحب العالى الصنائع صاحبى ... فى النائبات وعدتى وعتادى

كما أن ممدوحه صاحب شرف رفيع .. وأصول ثابته عريقة فقد ورث الوزارة عن أبيه ، وأبيه عن أبيه . وهو كما حدث أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى فى كتاب مشارب التجارب وذكر الصاحب فقال : أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن عباس الوزير ابن الوزير ابن الوزير (٢) وقد وهبه الله المكارم كلها ، وهو أهلا لها يقول :

---

(١) شرح المضنون به على غير أهله لعبيد الله بن الكافى العبيدى ص ٢١٧ (مكتبة دار البيان بغداد — دار صعب بيروت)

(٢) ارشاد الاريب لياقوت جـ ٢ / ٣١٤

ورث الوزارة كابرا عن كابر ... موصولة الإسناد بالإسناد
يروى عن العباس عباد وزا ... رته واسماعيل عن عباد
شرف كعقد الدر واصل بعضه ... بعضا كأنبوب القنا المنآد
وعلا كأيام السنين تزادفت ... آياتها بمكرر ومعاد
لا كالذين اذا سموا لكريمة ... ضحكت جدودهم من الأجداد
أعلى المكارم ما تقادم عهده ... والمجد موروث عن الأمجاد
لا والذى جعل المكارم كلها ... لك والعلاقى مبدأ ومعاد
ورآك أهلا للرشاد وللهدى ... وكساك آيات الامام الهادى
لوكان غير الله يعبد ما أنثنت ... إلا اليك أعنةَ العبّاد (١)

وهذا معنى قد أكثر الشعراء فيه ، وأظن السابق إليه ابن أبى البغل ، حيث قال فى الرشيد :

(لو عبد الناس سوى ربهم ... أصبحت دون الله معبودا)

وله فيه أيضا : (٢)

يا من نعوذ من المكارم باسمه ... ونعزه وهو الأعز الأشرف
ونجل عن خطر اليمين حياته ... فبفضل نعمته علينا نحلف
وعظيم ما اوليتنى من نعمة ... ما للسماح سواك رب يعرف
يا ابن الذين اذا بنوا شادوا وان ... أسد وايد اعادوا وان يغدوا وفوا
ان حاربوا لم يحجموا أو قاربوا ... لم يندموا أو عاقبوا لم يشتفوا
ومتى استجيروا أسعفوا ومتى استنير ... لوا أسرفوا ومتى استعيدوا أضعفوا
إن عاهدوا لم يخفروا أوعاقدوا ... لم يغدروا أو ملكوا لم يعسفوا

وللصاحب بن عباد فى ابن العميد مدائح كثيرة ، وكان ابن العميد قد قدم أصبهان والصاحب بها فكتب إليه يقول (٣)

---

(١) يتيمه الدهر ج ٣/ ٢٧٨ ، ٢٧٩
(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨
(٣) شذرات الذهب ج ٣ / ٣٤ (ط سنه ١٣٥٠ هـ " مطبعة القدسى ")

قالوا ربيعك قد قدم ... قلت البشارة إن سلم
أهو الربيع أخو الشتا ... ء أم الربيع أخو الكرم
قالوا الذى بنوا له ... أمن المقل من العدم
قلت الرئيس ابن العمي ... د إذا فقالوا لى نعم

فالصاحب فى هذه الأبيات جعل ابن العميد ربيعا لما بينه وبين الربيع من تشابه فى الكرم والعطاء .

ويكتب أبو العباس الضبى إلى الصاحب بن عباد : (١)

أكافى كفاة الأرض ملكك خالد ... وعزك موصول فأعظم بها نعمى !
نثرت على القرطاس درا مبددا ... وآخر نظما قد فرعت به النجما
جواهر لو كانت جواهر نظمت ... ولكنها الأعراض لا تقبل النظما

ويمدح أبو القاسم الزعفرانى الصاحب بن عباد فيقول فيه وقد أزمع الورود عليه والطريق مخيفة وهى قصيدة طويلة منها :

وإذا لقيت الصاحب الـ ... ـمأمون أدركت الوطر
واذا جلست على وسا ... دته باجا وسائده بدر
واذا ركبت مشى عبيـ ... ـدى فى المناطق والحرير
وأقيم مبتسما إقا ... مة من يزاد إذا شكر
فى نعمة تصفو علىّ ... به وأخرى تنتظر
ذكروا فساد طريقنا ... واستشعروا منه الحذر
قلت اركبوه على الذى ... فيه وإن عظم الخطر
فالله خير حافظا ... واسم الوزير لنا وزر
إن كان غاب فخوفه ... فى كل قلب قد حضر
ملك تخرّ له العلا ... ك الصيّد من مد البصر
فالطيب فوق لحاهم ... وجباههم تحت العفر
وأجلهم من جدّ منـ ... ـه إليه فى وقت النظر
لولا ابنُ عباد رأيـ ... ـتُ الصبر أفضل مُدّخر
وسلكت فى زهد عن الـ ... ـدنيا سبيلَ من انزجر (٢)

---

(١) معجم الادباء لياقوت جـ ٢/ ١٠٨ ، ١٠٩ (طبعة دار المأمون)
(٢) يتيمه الدهر جـ ٣ / ٣١٧

وقال أبو القاسم عبد الصمد بن بابك فى أبى على الحسن بن أحمد لما تقلد الوزارة هو وأبو العباس الضبى على سبيل المشاركة والمشاطرة قصيدة منها

برق الثناء وشق ذاك القسطل ... وجرى عنانك والسماك الأعزل
ورآك للتشريف أهلا فاجتبى ... بوفائه ملك يقول ويفعل
فأعرت شطر الملك ثوب كماله ... والبدر فى شطر المسافة يكمل (١)

وكان الصاحب بن عباد شديد الميل لعضد الدولة ، معجبا بسلطانه العريض وثقافته الواسعة ، ومن أجل ذلك استنفد فيه أكثر مدائحه . وقد قال يمدحه ويتغنى بسلطانه الواسع :

سعود يحار المشترى فى طريقها ... ولا تتأتى فى حساب المنجم
وكم عالم أحييت من بعد عالم ... على حين صاروا كالهشيم المحطم
فوالله لولا الله قال لك الورى ... مقال النصارى فى المسيح ابن مريم
محامد لو فضت ففاضت على الورى ... لما أبصرت عيناك وجه مذمّم
وكلا ولكن لوحظوا بزكاتها ... لما سمعت أذناك ذكر ملوم
ولو قلت إن الله لم يخلق الورى ... لغيرك لم أحرج ولم أتأثم (٢)

فرغم تكرار الصاحب كلمة " الورى " فى صدر الأبيات الأخيرة فإن المدح قوى رصين لأنه صادر عن إيمان بالممدوح ، ونفس منجذبة إليه . وقال أيضا يثنى عليه ويقدمه على غيره :

همام رأى الدنيا سواما فحاطها ... ليالىَ فى غير الزمان وقورُ
ولم يخطب الدنيا احتفالا بقدرها ... فموقعها من راحتيه يسير

وقد وصف فى هذه القطعة نباهته وذكاءه وبصره بالأمور حيث قال :

ولكن له طبع إلى الخير سابقٌ ... ورأى بأبناء الرجال بصيرُ
وإن لم يلاحظهم بعين حميمة ... فتلك أمور لا تزال تمور (٣)

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ / ٣٤٩
(٢) المرجع السابق ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، وانظر أيضا أعيان الشيعة للعاملى ج ١١
(٣) يتيمة الدهر جـ ٣ / ٢٤١

وأستطيع أن أقول إن الشاعر العظيم لا يمدح إنسانا إلا بهواه ، كما أنه لا يمدح إلا صاحب ملك عظيم ودنيا واسعة ، ويأنف من مدح سوى هؤلاء .. وقد كانت مدائح الشعراء فى أصبهان من هذا الصنف ، فنرى كل شاعر يقصر مدائحه على الذين يحبهم من خواص جلسائه . كما كان الشعراء فى هذه المرحلة حين يمدحون يخلعون على ممدوحهم الصفات المحببة لديهم . واستفدوا أكثرها فى الثناء على أمراء بنى بويه ووزرائهم ، وهم رجال دولتهم وأولياء نعمتهم . فلا غروأن يمدحوهم ويبالغوا فى إطرائهم . وكانت مدائحهم عن رضى ورغبة لا عن كره ورهبة .

::*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*

٣ - الرثـــــــاء

والرثـاء : كالمـــدح ، ينتهيـان إلى أصل واحـد . الأول ذكر مآثر الشخـص بعد وفاته والثانى ذكر مآثره فى حياتـه . لذلك كان من الطبيعى أن تسمو المعانـى فى الرثـاء ، ويقوى نسج العبارات كما كان فى المديح تمامـا .

ومـن الرثـاء الذاتى قـول التهامـى فى رثـاء ولـده : (١)

ومُكلّف الأيام ضدّ طباعهـا	متطلـبٌ فى الماء جـذوة نـار
فالعيش نور ، والمنية يقظة	والمرء بينهما خيـال سـار
ياكوكبا ما كان أقصـر عمـره	وكـذا تكون كواكـبُ الأسحـار
فكأنّ قلبىَ قبره ، وكأنـه	فى طيّه سرّ مـن الأسـرار
أبكيه ، ثم أقول معتذرا لـه	وفقت حين تركـت ألأم دار
ولقد جريت كما جريت لغاية	فبلغتهـا وأبـوك فى المضمـار
فاذا نطقتُ فأنت أول منطق	وإذا سكت فأنت فى إضمـارى
أُخفى من البُرَحاء نارا مثلما	يُخفى من النار الزنادُ الـوارى
أُحيى ليالى التّمّ وهى تُعيدُنى	ويُمِتُهنّ تبلـجُ الأنـوار
حتى رأيت الصبح يرفع كفُـه	بالضوء رفرفَ خيمة مـن قـار
وتُلهب الأحشاء شيبٌ مفرق	هـذا الضياء شواظ تلـك النـار

وقولـه فى أخـرى : (٢)

مضى بأبى الفضل شطرُ الحياة	وما مر أنفَسُ مما بقـى
ولما قضى دون أترابـه	تيقنت أن الردَّى ينتقـى
وماالنومُ إلا التقاء الجفـون	فكيف أنام وما تلتقـى ؟

وفيهـا نرى الشاعر يصور لنا فجيعته فى ابنه ، وطول وجده عليه ، والأسى يدق الشعور ، ويرق العاطفة ، ويفتق القريحـة فى الرجـل .

---

(١) ديوان الشعر العربى الكتاب الثانى لعلى أحمد سعيد ص ٤٦٨ (صيدا - بيروت ط ١ سنـة ١٩٦٤

(٢) المرجـع السابـق ص ٤٦٩ .

ومن أمثلة الرثاء الغيرى قول الصاحب يرثى أبا منصور كثير بن أحمد :

يقولون لى أودى كثير بن أحمد ... وذلك رزءٌ فى الأنام جليل
فقلت دعونى والعلانيكه معا ... فمثل كثير فى الرجال قليل (١)

ومنه ما قاله أبو سعيد الرستمى فى رثاء الصاحب :

أبعد ابن عباس يَهَشُّ إلى السُّرى ... أخو أملٍ أو يُستماحُ جوادُ
أبى الله إلا أن يموتا بموته ... فما لهما حتى المعاد معاد (٢)

وقال أبو القاسم بن أبى العلاء الأصبهانى فى رثاء الصاحب :

يا كافى الملك ما وفيت حظك من ... وصف وإن طال تجيد وتبيين
فتّ الصفات فما يرثيك من أحد ... إلا وتزيينه إياك تهجين
ما مت وحدك لكن مات من ولدت ... حواء طرّا بل الدنيا بل الدين
هذى نواعى العلا مذ مت نادبة ... من بعد ما ندبتك الخردُ العين
تبكى عليك العطايا والصلات كما ... تبكى عليك الرعايا والسلاطين
قام السعاةُ وكان الخوف أقعدَهم ... فاستيقظوا بعد ما مت الملاعين
لا يعجب الناس منهم إن هم انتشروا ... مضى سليمان وانحل الشياطين (٣).

فما أحسن هذا المثل وأمكن موقعه. وقد أتى الشاعر فى رثائه بالمعجب المعجز. ولعل أبلغ ما قيل فى الرثاء لما أنفق برذون أبى عيسى بن المنجم بأصبهان وكان أصدى قد حمله الصاحب عليه وطالت صحبته له وأوعز الصاحب إلى الندماء المقيمين فى جملته أن يعزوا أبا عيسى ويرثوا أصداء.. قصيدة أبو الحسن السلامى التى مطلعها :

فدى لك بعد رزئك من ينام ... ومن يصبو إذا سجع الحمام
ونفسى بالفداء عنيتُ لا من ... ينام عن الحقوق ولا يلام
ألا نفق الجواد فلا عجاجٌ ... تقوم به الحروب ولا ضرام
وكان إذا طغت حربٌ عوانٌ ... جرى ورسيله الموت الزؤام
إذا رُميَتْ به الغاباتُ صلت ... صفوف الخيل وهو لها إمام

---

(١) ارشاد الأريب جـ٢ / ٣١٤ ، اليتيمة جـ٣ / ٢٤٨.
(٢) شذرات الذهب جـ٣ / ١١٥ مطبعة القدس ط. سنة ١٣٥٠ هـ.
(٣) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ارشاد الأريب جـ٢ / ٣٣٣.

تمهّر فى الوقائع وهو مهـــر ... ولا سـرج عليه ولا لجـام
فلما لم يدعْ فى الأرض قرنـــاً ... تخونه فعاجله الحِمـــام .. (١)

وهى قصيدة طويلة ، قوية النسج ، جامعة لأشتات الفضائل ، بليغة التراكيب. ومن أروع ما قيل فى رثاء الصاحب بن عباد قصيدة صديقه وشاعره الأكبر السيد الشريف الرضى التى مطلعها :

أكذا المنون يقطّر الأبطـال ؟ ... أكذا الزمان يضعضع الأجبالا ؟
أكذا تصاب الاسد وهى مدلـة ... تحمى الشبول وتمنع الأغيالا ؟
أكذا تقام عن الفرائس بعد مـا ... ملأت هماهما الورى اوجالا ؟
أكذا تحط الزّهرات عن العـلا ... من بعدما ساق العيون منالا ؟
أكذا تكب البزل وهى مصاعـب ... تطوى البعيد وتحمل الأثقالا ؟
أكذا تغاض الزاخرات وقد طفت ... لججا وأوردت الظماء زلالا ؟ .. (٢)

وهذه القصيدة تعد من عيون المراثى فى تاريخ الأدب ، وتقع فى مائة واثنى عشر بيتا . وفى هذا الرثاء من الشريف الرضى وما تضمنته هذه القصيدة الفريدة دلالة واضحة على ما للصاحب من المكانة الرفيعة فى كل فضيلة واكرومة . فالشريف الرضى لم يكن يصفه إلا بما هو فيه . فإنه لم يقل ذلك لطلب جدوى ولا لعرض دنيا لا سيما بعد وفاة الصاحب. ونعرج بعد ذلك إلى معاملة الشعراء مع الزمن من خلال عنصرى الشباب والشيب فنرى الصاحب عندما بلغت سنه الثامنة والخمسين واعترته آفة الكمال وانتابته أمراض الكبر جعل ينشد قوله :

أناخ الشيب ضيفا لم أرده ... ولكن لا أطيق له صدودا
رداءٌ للردى فيه دليـلٌ ... تردى من به يوما تـردى .. (٣)

وقال أبو العباس الضبى فى الشيب :

قالوا أكتهلت فقلت ليـل لا بس بُرْدَى نهـار
هلْ حسنُ كافور كمـل ... ك فى حكومة ذى اعتبـار

---

(١) يتيمه الدهر جـ٣/١٩٨ .
(٢) المرجع السابق ص٢٥٦ .
(٣) المرجع السابق ص٢٥٢ .

وشهوبه في غبر ... كشبيهة في لون قار
وفضيلة للشيب احـ ... ـرى وهي أبهة الوقار (١) .

ويقول عبدان الأصبهاني المعروف بالخوزي :

في مشيبي شماتةٌ لعداتي ... وهو ناع منغصٌ لحياتي
ويعيب الخضاب قومٌ وفيه ... لي أنسٌ إلى حضور وفاتي
لا ومن يعلمُ السرائر مني ... ما به رمتُ خلة الغانيات
إنما رمت أن أغيّب عني ... ما ترينيه كلّ يوم مراتي (٢)
فهو ناع إليّ نفسي ومن ذا ... سره أن يرى وجوه النعاة (٣)

والشاعر في هذه الأبيات خفيف روح الشعر ، ظريف الجملة والتفصيل يقول فيه الثعالبي " كثير الملح والظرف ، يقول في الخضاب ، ما لم أسمع أحسن منه ، ولا أظرف ، ولا أعذب منه ولا أخف " (٤) .

وكان الصاحب بن عباد يتوقع وفاته في نفس السنة التي توفي فيها . ولعل ذلك راجع إلى أخذه بأقوال المنجمين ، واعتقاده في الكهانة والتنجيم يقول الثعالبي : ولماكنى المنجمون عما يعرض له في سنة موته : قال الصاحب:

يا مالك الأرواح والأجسام ... وخالقَ النجوم والأحكام
مدبّر الضياء والظلام ... لا المشترى أرجوه للإنعام
ولا أخافُ الضرّ من بَهْرام ... وانما النجومُ كالأعلام
والعلمُ عند الملك العلام ... يا ربِّ فاحفظني من الأسقام
ووقني حوادث الأيام ... وهجنةَ الأوزار والآثام (٥)

فلما يئس من أقوال المنجمين كتب بخطه على تحويل السنة التي دلت على انقضاء عمره .

أرى سنتي قد ضمنتْ بعجائب ... وربيَ يكفيني جميع النوائب
ويدفعُ عني ما أخاف بمنه ... ويؤ من ما قد خوّفوا من عواقب

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٦٦ .
(٢) يريد : مراتي .
(٣) نهاية الأرب للنويري جـ٢/ ٣١ (طبعه دار الكتب سنة ١٣٤٢ هـ).
(٤) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢٦٨
(٥) المرجع السابق ص٢ ٢٥ .

اذا كان من أجرى الكواكب أمـرُه　　معينى فما أخشى صروف الكواكب
عليك أيا ربَّ السماء توكلـــى　　فحطنى من شر الخطوب الحوارب
وكم سنة حذرتها فتزحزحـــت　　بخير وإقبال وجـدٍ مصاحـــب (١)

ولبلغـه أثنـاء مرضـه عـن بعض أصحابـه شماتـة فقـال :

وكم شامت بى بعد موتى جاهـلا　　بظلمـى يسل السيف بعد وفاتـى
ولو علـم المسكين ماذا ينالـــه　　من الظلم بعد ى مات قبل مماتـى (٢)

وجملـة القول إن الشعـراء فى أصبهـان تناولـوا الرثـاء الذاتى المتمثل فـى رثاء الأهـل والأقـارب ، ونظموا كذلـك فى الرثـاء الغيرى للأجواد وعليّـة القـوم ممن كان لهم بهم صلـة أو ود أو صداقـة . وأعتبرت كذلك معاملة الشاعـر مع الزمن من خـلال عنصرى الشباب والشيـب من الرثاء فإن لهم فيـه قصائـد بديعـة .

وللشعـراء فى أصبهـان قصائـد تعـد من عيـون المراثـى فى تاريـخ الأدب العربـى ، وفيها نراهـم لا يصفـون الشخص إلا بما هـو فيـه . كما كانـت قصائدهـم فى الرثـاء طويلـة ، قويـة النسـج ، بليغـة التركيـب ، جامعة لأشتـات الفضائـل ، رقيقـة فى ألفاظها ، رائعـة فى معانيها ، مؤثـرة فى سامعيهـا . وكيف لا ؟ وهم يذكرون مآثر الشخص بعـد وفاتـه ، ولم ينظموهـا لطلـب جـدوى أو لعـرض دنيـا .
لذلـك كـان من الطبيعى أن تسمـو المعانـى ويقوى نسـج العبـارات.

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/٢٥٢ ، ٢٥٣ .
(٢) ارشاد الأريب جـ٢/٣٣٩ .

٤ — الهجـــــــــــاء

تـدور مجمل معانـى الهجاء على كل ما يناقض مُثل المجتمع وفضائله كالشجاعـــة ، والكـرم وحمايـة الجار ، والوفاء ، والنجدة . فما إن يبدأ الشاعـر فى الهجاء حتى يحـاول جاهدا أن يجرد خصومه مـن هـذه المُثـل جميعـا .

قـال بديـع الزمان : كنت عند الصاحب كافى الكفاة يومـا ودخـل عليه شاعر من شعـــرا العجـم فأنشـد قصيـدة يفضـل فيها قومه على العرب ويذمهم مطلعهـا :

غنينـا بالطبـولِ عـن الطلُول ... وعن عنس غـدا فرة ذمـــولِ
وأذهلنى عقـارٌ عن عقـــارٍ ... ففى إست أم القضاة مع العـدولِ

فقال الصاحب يا أبا الفضل أجب عـن ثـلاثتـك فقلـت : وما هـى ؟ قال . أدبك ونسبـــك ومذهبـك . فأنشـدت أقـول : (١)

أراكَ على شفـا خطر مهـــول ... بما أودعت لفظك من فضـــولِ
تريد على مكارمنـا دليـــلاً ... متى احتاج النهار إلى دليـلِ؟
ألسنا الضاربينَ جـزى عليكـم ... وإن الجزى أولى بالذَّليـــلِ
متى قرع المنابر فارسـيّ ... متى عَرف الأغرَّ من الحجـــول
متى عَرفـت — وأنت بها زعيم — ... أكفُّ الفُرس أعراف الخيـــول
فخرتَ بملْءِ ما ضغتيكَ هُجْـرًا ... على قحطان والبيـت الأصيـلِ
وتفخر أنَّ مأكولاً ولبســـاً ... وذلك فخرُ ربّاتِ الحُجـــولِ
ففاخرهـن فى خـدٍّ أسيـــل ... وفرع فى مفارقهـا رَسيـــلِ
وأمجـدُ من أبيك إذا تزيّـــا ... عُراةً كالليوث على الخيـــولِ

وقال البديع : فلما أتممت إنشـاد ى التفت إليـه الصاحب وقـال : كيـف رأيت ، قال لو سمعت بـه ما صدقـت . قال : فإذا جائزتـك جوازك إن رأيتك بعد هذا ضربـت عنقـك (٢) .

ولا يكتفى الشعراء بذلك ، بل يتعرضون لمخازى أعدائهـم ، فهم لا يكرمـون الجـــار ولا يحمونـه ، وهم بخـلاء لا يكرمـون ضيوفهـــم .

---

(١) بلوغ الأرب للسيد محمود شكرى الألوس البغدادى شرح بهجة الأثرى جـ١ / ١٦١ ، ١٦٢ (الطبعة الثالثة — دار الكتاب العربى سنة ١٣٤٢ هـ)
(٢) المرجع السابق ص١٦٢ .

قال أبو الحسن الغويرى فى هجاء الصاحب:

ان كان إسماعيل لم يدعنى ... لأن أكل الخبز صعب لديه
فإننى آكل فى منزلى ... إذا دعانى ثم أمضى إليه (١)

وقال عبدان الأصبهانى فى رجل بخيل :

رغيفك فى الأمن ياسيدى ... يحلُّ محل حمام الحرمْ
فلله درُّك من سيد ... حرام الرغيف حلال الحرم (٢)

وليس هذا فحسب بل كانوا يقذفون فى الأعراض ، ويطعنون فى الأنساب ويتهكمون عليهم من أى باب وجدوه . وكان أبو العلاء الأسدى عرضه لأهاجى عبدان الأصبهانى ومن ملح قوله فيه :

أضحى الملوم أبا العلاء يسبنى ... وأنا أبوه يعقنى ويعادى
والمنتمون إليه من أولاده ... والله يعلم أنهم أولادى
ولو أنه يسخو علىَّ بواحدٍ ... عند التكاثر زينة للنادى
ألصقته بى واقتديت بمن رأى ... بأبيه الصاق الدَّعىِّ زياد (٣)

والهجاء عند الشعراء فى أصبهان كالفخر فى قوة النسج ، وجمال السبك تتمثل فيه ذاتية الشعراء . فاذا ما نظرنا إلى الهجاء عند الصاحب بن عباد فإننا نلمس به نفسا أبيه لا تعترف بشئ أرفع منها درجة أو أعلى مرتبة . إلا أننا ندرك فى أهاجيه القوة فى ثياب الضعف . أعنى أنه ضعيف فى قصده وغرضه قوى فى أسلوبه ونسجه . نراه يعرض فى الهجاء لكل ما يحسن لفظه وقبح ذكره حتى أنه لا يتعفف عن ذكر ما ينبغى التستر فيه . ونظرة واحدة فى مقطوعاته التى هجا فيها ابن ثوبة ، والغويرى وأبا العباس وغيرهم ممن ناقضوه فى العقيدة تقف بنا على صدق هذا القول . ومن ذلك قوله فى أبى العباس :

هذا الأديب الذى وافى يفاخرُنا ... أضحى إلى كُمرِ السودان مشتاقا
فما يفارق طوماراً يعالجهُ ... إلا بآخر يحشى فيه أغلاقا

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٠ .

كأنما هو حرباء ببيضته ... لا يرسل الساق إلا ممسكا ساقا (١)

وقال فى رجل كثير الشرب بطئ السكر:

يقالُ لماذا ليس يسكرُ بعد ما ... توالتْ عليه من نداماه قرقف

فقلت سبيل الخمر أن تنقص الحجى ... فإن لم تجد عقلا فماذا تحيّف (٢)

فنراه فى هذين البيتين لازع الهجاء لكنه جميل فى إبتداع المعنى وإصابة المرمى وتصوّر العلة.

والهجاء أمثلته كثيرة فى هذا العصر ومنها قول الخوارزمى فى الصاحب:

صاحبنا أحواله عاليه ... لكنما غرفته خاليه

وإن عرفت السر من دائه ... لم تسأل الله سوى العافيه (٣)

وقد هجا السلامى أبا دُلف الخزرجى الينبوعى مسعر بن مهلهل بالأبيات التى أولها:

قال يوما لنا أبو دلف ... أبرد من تطرق الهموم فؤاده

لى شعر كالماء قلت أصاب الـ ... شيخ لكنَّ لفظهُ بارده

أنت شيخ المنجمين ولكن ... لست فى حكمهم تنال السعاده

وطبيب مجرّب مالهُ بالحذ ... ق فى كل من يجرب عاده

مر يوما إلى مريض فقلنا ... قرعينا فقد رزقت الشهاده

وقال أبو دلف:

ظل السلامى يهجونى فقلت له ... حبيب قلبى ومعشوقى وأستاذى

إن لم تكن ذاكرا بالرى صحبتنا ... فاذكر ضراطك من تحتى ببغداد (٤).

وللصاحب هجاء مقزع تأنف النفوس الوقورة عن ذكره لسوء مذهبه الأخلاقى — لا الفنى — فيه. وقد أسرف فى الابتذال وأمعن فى ذكر عورات الرجال والنساء وكل ما ينبو اللسان عن ذكره، ويترفع القلم عن كتابته. وليس شئ فى الهجاء أقبح من التعرض للعورات التى تعف عن ذكرها النفوس وكان ابن مثوبة المسكين ضحية من ضحايا

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٤٦.
(٢) ارشاد الأريب جـ٢/ ٣٤٢.
(٣) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢٥٢.
(٤) المرجع السابق ص ٣٢٢.

أهاجيه المقذعة الخليعة ، سبَّه فى عدة مقطوعات تعد أقبح ما قيل فى الهجاء المكشوف وأشده ابتذالا (١) .

وأحسب أن رقة شعوره ودقة إحساسه دعته إلى التأثر بأتفه الأشياء ، وإلى الغضب لأهوى الأسباب فنراه يهجو كل مالا يروقه فهو يهجو الغويرى لا لشئ إلا لنتن نكهته . وهو شئ لا إرادى ما كان ينبغى التعرض له يقول :

إن الغويرى له نكهة ... نتنتها أُربت على الكنف

يا ليته كان بلا نكهة ... أو ليتنى كنت بلا أنف (٢)

وفى هذين البيتين يتجلى أمامنا غرضه الردئ ، وفنه الجميل فى آن واحد وليس بعد المقابلة الجميلة فى البيت الأخير من دليل على فنه الجميل .

وهناك جانب طيب معتدل من الهجاء يصور المساوئ فى هذا العصر كهجاء الصاحب للقضاة الذين لا يعملون بما يعلمون ، فهو يسب فى قاض ويعرض به يقول :

إن قاضينا لأعمى ... ام على عمدٍ تعامى

سرقَ العبدَ كأن الـ ... ـعبد من مال اليتامى

فتصويره جميل فى هذين البيتين لأن العلماء غير العاملين لما كانوا مشهورين بأكل أموال اليتامى حسن أن يشبه سرقة العبد بأكل أموال اليتامى ، بالاضافة إلى ما فى ذلك من معانى التعريض .

كما نراه أيضا يهجو إفطارهم شهر رمضان على حين يفتون للناس بضد ذلك ويعلمون أن ذلك حرام . ولكنهم يقولون مالا يفعلون قال فى قاض أفطر فى رمضان :

يا قاضيا بات أعمى ... عن الهلال السعيد

أفطرت فى رمضان ... وصمت فى يوم عيد (٣)

ومن الهجاء العف المعتدل قول الصاحب فى أبى بكر الخوارزمى بعد أن هجاه وبلغ الصاحب وفاته :

---

(١) انظر يتيمة الدهر ج ٣/ ٢٤٣ — ٢٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٥ .

أقول لركب من خراسان رائـــح　　أمات خوارزميكم قيل لى نعـم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره　　ألا لعن الرحمن من كفر النعم (١) .

ومن الهجاء العف البعيد عن التبذل والسباب المكشوف قولـه أيضـــا :

نبئت أنك منشد ما قلتـــــه　　فى سبّ عرضك لا تخاف وعيـــدى
والكلب لا يخزى إذا أخسأتـــه　　والقارُ لا يخشى من التسويـــد (٢) .

فهـو وان كان بالغا من الهجاء حده إلا أن شرعـه فيـه مقبـول وأداؤه معقـول . وأراهـم بهـذا بلغـوا فى الهجـاء حـدا من الافتنـان لم يبلغـوه فى غـيره . وهو عندهم كالفخـر فى جمـال السبـك ، وقوة النسج ، كما تتمثل فيـه ذاتيـة الشعـراء . فإذا مـا نظرنـا إلى الهجـاء عنـد الصاحب بن عباد مثـلا فإننـا نلمس به نفسا أبيّة لا تعترف بشئ أعلـى منهـا مرتبـة أو أرفـع منهـا درجـة .

إلا أننـا ندرك فى أهاجيهم القوة فى ثيـاب الضعف . أعنى أنـه ضعيف فى قصده وغرضـــه قوى فى أسلوبـــه ونسجـه .. نراهـم يعرضون فى الهجـاء لكل ما يحسن لفظـه وقبح ذكـره حتى أنهـم لا يتعففون عن ذكر ما ينبغى التستر فيـه ، والترفـع عنـه .

---

(١) ارشاد الاريب جـ٢/٣١٤ (مطبعة هندية بالموسكى)
(٢) اليتيمة　　جـ٣/٢٤٦

٥ ـ الشكـــــــــوى

والشاعـر الأصبهانـى رقيق الشكـوى ، وقد يتغزل إذا اشتكـى ـ كما يصف الخمـــر إذا تغـزل ـ وقلما نجده لا يتغزل عند شكواه . وقـد تشتد بـه الشكـوى وتستحيـــل فى نفسـه إلى ما يشبـه المعانـى الكلية العامـة التى يصـح الاستشهـاد بهـا . كقـول الصاحـب .

أناخ الشيـب ضيفا لـم أرده ... ولكن لا أطيق له مـــردّا
ردا لّلرّدى فيه دليـــلٌ ... تردّى من بـه يوما تـــردّى (١)

وأنشـد أبو القاسم بن أبـى العـلاء :

المستغاث من الهوى باللـه ... من شادن فتن الورى تيـــاه
ما كنتُ أعلم قبله حر الهـــوى ... والوجد ما هو والصبابة ما هـى
حتى بليت به أغنّ مدلـــلا ... كالريم يعصى فى هواه الناهـى
فمدا معى عبرى وقلبى والـــهٌ ... وجوانحى حرّى وصبرى واهـــى (٢) .

وقال عبد الصمد بن بابك من أبيـات فى غـلام يشتكـى من قـروح بـه :

يا أيها الرشأ الموفى على شرف ... ماذا دعاك ولم أذنب إلى تلفى
لا تشكونّ قروحاً آلمتك فقـــد ... سرقتها من فؤادى الهائم الدنف
أحب منك وإن لج العواذل فى ... لومى دلال الرضى فى نخوة الصلف (٣)

ومن جيـد الشكـوى قول الصاحـب يصف فـراق حبيـب :

أقول وقد رأيت له سحابـــاً ... من الهجران مقبلـة الينـــا
وقد سحت عز اليها بسكـــب ... حوالينـا الصدود ولا علينـا (٤)

فهو يشكو ويتغزل ، وقد أحسن الاقتباس من الحديـث النبـوى فى قولـه " حوالينا الصـدود ولا علينـا " .

ولعل اخلاص الصاحب بن عباد فى صداقته وتعلـق قلبه بمن حوله هو الـذى جعل منه شاكيا

---

(١) يتيمة الدهـر جـ٣/٢٥٢ .
(٢) المرجع السابق ص١ ٢٩ .
(٣) المرجع السابق ص٣٥٠ .
(٤) ارشاد الأريب جـ٢ / ٣١٦ .

ناجحـا . ومن هذا الصنف قوله يصور لنـا الهجران تصويـرا جميـلايتفق مع ثقافتـه الواسعـة وتوليـده المعانـى بما لـم يسبـق إليـه :

ولما تناءت بالأحبة دارهـــم ... وصرنا جميعا من عيان إلى وهـم
تمكن منى الشوق غير مسامـــح ... كمعتزلى قد تمكن من خصـــم (١)

فتشبيـه الشـوق فى إلحاحه وتمكنـه من قلبه للمعشوق بالمعتزلى الـذى نال خصمه حتى يلزمـه الحجـة تشبيـه قويـم .

وهنـاك عدة مقطوعـات جيده فى الشكوى منها قول أبو إبراهـيم إسماعيل بن أحمد الشاشـى من قصيـدة شبـب فيها بشكايـة الإخـوان :

أبيت أنادى الدهر جدلى بصاحب ... وجلّ طلاب الدهر ما أنا طالـبُ
فما جادلى منـه بغير مجانـب ... وآخر خير منه ذاك المجانـب
خليلٌ تحامتهُ الأباعد والتـوت ... على مهج الآدنـين منه العقارب
عقارب لا يجرحن غيرَ مـودة ... فهنَّ لحبات القلوب لواسـب (٢)
وما كان ظنى أن تهين شبيبتى ... وإن بان جيران وشطّت أقـارب
فمذ راعنى شرخ الشباب بفرقـة ... تيقنت أن لا يستدام مصاحـب
أخلّاى أمثال الكواكب كـثرة ... وما كل ما يرمى بـه الأفق ثاقـب
بلى كلهـم مثـل الزمـان تلونـا ... إذا سرَّ منهم جانب ساء جانـب
مضى الود والانصاف والعهد منهم ... فما بقيت إلا الظنون الكـواذب (٣)

ومنها قول عبـد ان الأصبهانـى :

هيهات نجمى آفـلٌ شـارد ... ولىّ فما يخرقُ أبراجَـه
أظل أخفـى حججاً أدبـرتْ ... والسبع والسبعون محتاجـه
وشرُّ أيـام الفتى آخـرٌ ... فيه يسعى للشقاء خواجـهْ (٤)

ولعل شكوى الشعراء فى هذه المقطوعات جيده وأشد قوة وجمالا لأنها قيلت فى أواخر حياتهـم حين تقدم بهم السن . ونراهم يندبون أيام الشباب واللهو بعد أن تفرق عنهـم الأصحاب والخلان .

---

(١) ارشاد الأريب جـ٢/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
(٢) اللصـب : اللدغ ، هو عام فى الحية وغيرهـا .
(٣) يتيمة الدهر جـ٣/ ١ ٣٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

٦ — الاخوانيـــــــــات

يـراد بالإخوانيـات مثلا ما ينظم فى الاخـوان أو الأصدقـاء من أسبـاب التقـارب كقـول بعضهـم :

وأخٍ إذا ماشـط عنى رَحْلَـهُ ... أدنى إلىَّ على النَّوى معروفَـهْ
كالكرْم لم يمنعه بُعْدُ عريشـهِ ... من أن يقرِّبَ للجُناة قُطوفـه

والمداعبـات مثـل :

أبا جعفر هل فضضتَ الصَّـدَفْ ... وهل إذ رميتَ أصبت الهـدفْ
وهل جئت ليلا بلا حشمـةٍ ... لهول السُّرى سُدَفاً فى سُـدَفْ (١) .

والإخوانيات كثيرة فى الشعر فى هذه الفـترة لأن هذا الغرض يتفق مع طابعهم الاجتماعى وما كانـوا يقيمونـه من منتديـات أدبية تذخـر بالشعـراء والأدبـاء والعلماء والنقـاد والحُكماء. فلا عجـب أن يكون شطـر عظيم مـن أشعارهـم فى هذا الغـرض.

ولعل من أبدع هذه الاخوانيـات والتى ذكرهـا صاحب خزانة الأدب ما كتبـه الصاحب إلـى أبـى أحمـد الحسن بن عبد الله العسكرى (٢) يتشـوق إليـه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلـتم ... ضعفنا فما نقوى على الرجفـان
اتيناكـم من بعد أرض نزوركـم ... على منزل بكر لنـا وعـوان
نسائلكم هل من ترى لنزيلكـم ... بملء جفـون لا بملء جفـان (٣)

وكان الصاحـب قريبا من مـنزل آبى أحمد . فلما قرأ أبو أحمد الكتاب أرسل إليـه الجوابـ فـى ورقـة :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمـتى ... تعود أعضائى من الرجفـان
فضمنت بيت ابن الرشيد كأنمـا ... تعمد تشبيهى بـه وعنانـى
أهم بأمر الحزم لو استطيعُـه ... وقد حيل بـين العير والنَّزَوان

فلما بلغت الصاحب استحسنها ووقعت منه موقعا عظيما . وقال : لو عرفتُ أن هذا المصراع يقع فى هذه القافية لم أتعرض لها (٤) .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ٢ / ٢٣٩ .
(٢) هو أبو هلال العسكرى — توفى عام ٣٨٢ هـ .
(٣) خزانة الأدب للبغدادى جـ١ / ٢٩٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٩٦ .

ومنهـا ما كتبـه أبو العباس الضبى إلى الصاحب بن عبـاد :

أكافى كفاة الأرض ملكك خالـــد ... وعزك موصولٌ فأعظم بها نعمى
نثرت على القرطاس درا مبـددا ... وآخر نظما قد فرعت به النجمـا
جواهر لو كانت جواهر نظمـت ... ولكنها الأعراض لا تقبل النظما (١)

وما كتبـه إلى أبى مسلم محمد بن الحسـين :

يا أبا مسلم سلمت على الدهـر ... ـر خَدين العلا أمينَ الجليس
بعض إخواننا تشهى علينـا ... كرمـاً منه مستطاب الهريس
وقد يد السكباج بالأكبر العـذ ... ب ومغمومة منًّ للجليس
واتخذنا الجميع وهى كما تـذ ... كر نِعم الفراش للخندريس
وإذا شئت أن تساعدَ فيهـا ... كنت فينا الرئيس وابن الرئيس (٢)

ولعل من أجمل هذه الاخوانيات ما جرى بين الصاحب وبين القاضى عبد العزيـز الجرجانى ، والشيـخ أبو أحمد العسكرى ، والقاضـى العميرى . ومنها ما كتبـه إلى القاضى أبـى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى فى رقعة يـوم عيد مـع عطر الفطـر :

يا أيها القاضى الذى نفسى لـه ... مع قرب عهد لقائه مشتاقـه
أهديت عطرا أمثل طيب ثنائـه ... فكأنما اهـدى له اخلاقـه

وكان الصاحب شديد الحفاوة بهذا القاضى ، وقـد استعفاه من فرط حفاوتـه بـه ، وتواضعـه لـه فأنشـده :

أكرم أخاك بأرض مولـد ... وأمده من فعلك الحسـن
فالعـز مطلوب وملتمـس ... وأعزه ما نيل فى الوطـن (٣)

ويمكن أن يدخل فى هذا الباب ما قاله أبو سعيد الرستمى يهنىء الصاحب بنزوله داره الجديدة حيـث قـال :

نزلت على السعادة خـير دار ... لها فلكُ السعادة خيرُ جـار
تَهَنَّ بنعمتين جديد حـول ... أتتك سعوده وجديـد دار

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٦٥ .
(٢) المرجع السابق ص٢٦٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٧٩ .

يتحويلين مسعودين فاقـــا بضوئهما على الزُّهر الـــدَّراري
وأعلام السعادة خافقـــاتٌ على الدنيا وزندُ الانـــس وارى (١)

وفى الأبيـات نرى الشاعـر يقـول للصاحـب : تهن بنعمتين مع تحويلـين مسعوديـن أى فـى زمان سعد ووقت جيد ، انتقالك إلى دارك الجديدة ، زاد التحويلان بالضيـاء والنور علـى الكواكب النيرة والنجوم المضيئـة المسعودة . وأعلام السعادة مرتفعات على الدنيا بعلامتـك .

ونستطيـع أن نذكـر فى هـذا الموضوع أنموذجا مما قيل فى الاستعطاف والاعتـذار ومن أبدع ما قيل فى ذلـك ما قالـه أبو محمد الخازن من قصائـد يعتذر فيهـا إلى الصاحب بن عبـاد من هفـوات الشبيبة وسقطـات الحداثـة التى لم يرتضهـا الصاحب . . وأوجبت عقابـه وتأديبـه ، فهـرب وترامت بـه أطـراف البلدان ، وتغيرت حاله وطالت أسفـاره . فرجع يطلـب الشفاعـة إليـه ، ويرجو البراءة عنـده مقدما بين يديه مع شفيعيه تلك القصائـد الخالـدة فى الاعتـذار . يقـول فى إحداهـا :

لِنار الهم فى قلبى لهيـــبُ فعفوًا أيها الملـك المهيـــبُ
فقد جاز العقاب عقاب ذنـبى وضج الشعر واستعدى النسيب
وفاضت عبرة مهج القوافـــى وغصصها التذلـل والنحيـــب
وقد قصمت عراها واعتراهـــا بسخطـك بعد نضرتها شحـوب
وقالت ما لعفوك ليس ينـــدى لنا وسماء مجدك لا تصـــوب
ومن يك شوط همتـه بعيـــدا فمثنى عطفه سهل قريـــب
تجاوزت العقوبـة منتهاهـــا فهب ذنبى لعفوك يا وهـــو ب
وأحسن إننى أحسنت ظـــنى وأرجو أن ظنى لا يخيـــب
أترضى أن أكون لقًا مقيمـــا على خسف أذوب ولا تثـــوب
أبيت ومقلتى أبقّى كراهـــا وفى ألحاظها صاب صبيـــب
وقيـذًا لا يلائـمنى طعامـى ولا ينساغ لى الماء الشـــروب

(١) شرح المضنون به على غير أهله لعبيد الله بن الكافى ص٣١٧ ، ٣١٨ .

صببت علىّ سوطا من عذاب ... يذل لبأسه الدهر الغلوب
وأرهقنى نكيرك لى صعودا ... من الأشجان ليس له صبوب
وما عونى على بلوى إلا ... رجائى فيك والدمع السكوب
فإن تعطف على رجل غريب ... فإنى ذلك الرجل الغريب
عليك أنيخ آمالى فرحّب ... بها وإليك من ذنبى أتوب
وأخطر ما يريب إذا دهتنى ... غوامضه إلى ما لا يريب
فأيّة طرقة للعفو أن الـ ... ـكريم وأنت معناه طروب
فإنى نشو دارك والمعذى ... بسيبك والصنيعة والربيب
وأبت إليك من عفو مدلا ... بما يقضى علاك لمن يؤوب
ولذت ببابك المعمور علما ... بأن ذراك لى مرعى خصيب
وأن شعابه أندى شعاب ... إليها يلجأ الرجل الأديب
وسقت نبات آمالى إليها ... وقد حفيت وأنضاها الدءوب
فبوّئنى اختصاصك حيث تجنى ... ثمار العز والعيش الرطيب
ولكن كادنى خب حقود ... لعقرب كيده نحوى دبيب
وما لجموح ألفته جنيب ... وما لشمال فرقته جنوب
ولا يشفيه منى لو رآنى ... وقد أخذت بحلقومى شعوب
بلوت الناس من نأى ودان ... وخالطنى القبائل والشعوب
فكل عند مغمزه ركيك ... وكل عندى مشربه مشوب
فجد لى بالرضى وأقبل متابى ... وعذرى إننى أسف كئيب
طريح فى فنائك مستضام ... غريب لا يكلمنى غريب
أأمنع من بوادى العلم منعا ... كأنى ليس لى فيها نصيب
وأحرم من كلامك كلّ بدع ... تناهيه النواظر والقلوب
فلم لا ينتهى ويكف عنى ... عقابك بعد ما انتهت الذنوب
وغاية ما يصير إليه شعر ... إذا استعطفت أو مدح مصيب
ومن سقيا سحابك جاد طبعى ... ولو لا الغيث لم ينبع قليب .. (١)

---

(١) يتيمة الدهر ج٣/ ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

وهى قصيدة طويلة يقول صاحب اليتيمة : " هى أحسن عندى من اعتذارات النابغة إلى النعمان وابراهيم بن المهدى إلى المأمون وعلى بن الجهم إلى المتوكل " وأما العتاب فلهم فيه شأن بعيد كشأن الشعراء الاجتماعيين المغرمين بالغزل الملحين فى الشكوى . فنرى أبا هلال العسكرى يأبى إلا أن يفضل للصاحب بن عباد هذين البيتين فى الاستزادة والعتاب على سائر شعره .

قال : وللصاحب فى الاستزادة والعتاب أبيات لم يمر بى من شعره أجود منها :

سيشهد أبناء المفاخر كلهم ... بأن مطيع الأكرمين مطيع
يزعزعك الوشوان عن حومة العلا ... وكان بعيدا أن يزعزع لمنع

وكتب الصاحب لأبى القاسم القاشانى أحد شعرائه المقربين .

يا أبا القاسم قل لى ... قل لماذا لا تزور؟
كنت قد قدمتُ وعدا ... فإذا وعدك زور
وبذرت الود بالقو ... ل فلم تزكو البزور
ونحرت الود بالهجـ ... ـركما يهدى الجزور
إن أم الصدق فى الـ ... ـود لقلاةٌ نزور (١) .

والعتاب كالشكوى يجود ويحلو حين يعظم الإخلاص ويزداد الود وتقوى الروابط . ومن بديع عتابه ما كتب به إلى أبى الفضل بن شعيب :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا ... فأسأنا بحسن عهدك ظنّا
كم تمنت نفسى صديقا صدوقا ... فإذا أنت ذلك المتمنّى
فبغصن الشباب لما تثنّى ... وبعهد الصبا وإن بان منّا
كن جوابى إذا قرأت كتابى ... لا تقل للرسول كان وكنّا (٢) .

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٣ / ٢٣٩ .
(٢) ارشاد الأريب جـ ٢ / ٣٤١ .

ب : **الأغـراض التجديديـــــة** ٠

وهى كثيرة ، كثرة جدة الحياة نفسها فى هذا العصر ومنها :

١ ـ الوصـــــف

الوصف كلمة عامة تندرج تحتها معان كثيرة ، ولذلك صدق ابن رشيق حين قال : " الشعر كله إلا أقله راجع إلى باب الوصف (١) " ٠ وأصل الوصف فى اللغة الكشف والاظهار ، يقال قد وصف الثوب الجسم إذا نسم عليه ولم يستره (٢) ٠

ولهذا يمكن وصف كل ما يقع تحت الحواس ، بل إن الأفكار غير المحسوسة وأحوال النفس يمكن للإنسان وصفها أيضا (٣) ٠

وما دام للوصف هذه الدائرة المتسعة الشاملة فإن من الطبيعى أن يكون من أول أبواب الشعر نشأة فى كل زمان ومكان ، ولكن من الطبيعى أيضا أن يتغير لتغير المحسوسات وغير المحسوسات من عصر لعصر ، ومن بيئة لأخرى ٠ ولهذا جعلناه من الفنون الشعرية المجددة فى القرن الرابع ٠

والوصف من الفنون والأغراض المشهورة التى فاق فيها شعراء أصبهان ، ولا سيما وصف المناظر الطبيعية وجمال الكون ٠ فقد وهب الله بيئة أصبهان كل مظاهر الجمال ومشاهده ، فمن نهر زرنروز الجارى ، إلى مراع ومزروعات واسعة ، إلى جو جميل ساحر ، إلى طبيعة فاتنة أسره ٠ فالمنتزهات اللاصقة بالبلد لا تنحصر كثرة إلا أنى أذكر من مشهوراتها عدة كل واحدة منها تخيل أنها الموصوفة بأبيات أبى العلاء السروى :

أو ما ترى البستان كيف تجاوبت ... أطياره وزها لنا ريحانه
وتضاحكت أنواره وتسلسلت ... أنهاره وتعارضت أغصانه
وكأنما يغترّ غبّ القطر عن ... حللٍ نشرن رياضه وجنانه

---

(١) العمدة فى صناعة الشعر ونقده ٠ لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى جـ١ / ٢٢٦ (نشر مكتبة الخانجى ـ القاهرة ـ ١٩٠٧م ٠

(٢) انظر لسان العرب ، مادة وصف ٠

(٣) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د /محمد مصطفى هداره ص ٤٨ الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ (المكتب الإسلامى) ٠

كحصن ماربين المعروف ببيت النار المشرف على الفردوس المحفوف بمنى النفس والحائز لجوامع الأنس ، وكلو ذكرت ونفاده العديمتى النظير والمثل ، العزيزتى الشبيه والشكل فى الجمال والحسن ، وكقصر مغيرة الذى فيه ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وكنبذ مهرارت الذى لم يسمع بمثله وغيرها (١) إلى مظاهر تفتن العقول وتأسر الألباب. فى كل ذلك وفى بعض ذلك ما يفتح مغالق النفس .. ويبعث فيها البهجة والأنس ، ويشيع فيها بسمة الأمل ، ويقظة الشعور. وفى كل ذلك وفى بعض ذلك ما يستوقف الشاعر فيقول له : أنا الخيال والجمال ، والسحر والالهام ، فاستوحنى . وما يمسك بغير الشاعر فيقول له : أنا الشعر فكن شاعرا . ولأبى منصور بن بزرجوميد بن آذرجشنس من قصيدة ينعت أصبهان يقول : (٢)

أشرف عليها من سرابراز وقل ... هذى الجنان بدت من الاستار
كجنان خلد فى جميع صفاتها ... تمت محاسنها بلطف البارى
سقيًا لقرية ماربا نان إلى ... باب المدينة مقسم الأنهار
ولقلعةٍ فى ماربين (٣) تريك تحـ ... ـتك جنّة من حيث بيت النار
ومفارس لا شعب بوّان و لا ... اوند همذان لها بمبار
ومنابتٍ ومزارع وحدائقٍ ... ومذانب لمياهها ومجار
ومناظرٍ فى كوذ كرت (٤) علية ال ... أنفاس من نفحاتها معطار
وبها يوانّا احبّ ليلة ثلةٍ هو ... منظر الفردوس غير ثمار
وربىً تضاحكها الوهاد يزهرها ... وشعار وشى نباتها ودثار
من قد رأى بدمشق غوطة قد رأى ... ما بين ديمرت إلى وادار
يا حسن كرداباذ نرسة موطنا ... موهوب ثوب الحسن غير معار
كم ثمّ من غصنٍ وريقٍ مال فى ... ماءٍ معينٍ فى الحصا مرّار
دمث الجناب مريعة ساحاتها ... عطر الرّياع مضاعف الأبرار
دانى القطوف مطيعةٌ شجراتها ... حلو الجنا مترادف الأثمار

(١) انظر كتاب محاسن اصفهان للمافروخى ص٥٢ ، ٥٣
(٢) المرجع السابق ص ٥٩.
(٣) حصن من حصون أصبهان وهو المعروف ببيت النار.
(٤) كوذ كرت : من باغات أصبهان العديمة المثل والنظير فى الجمال والحسن.

فينان ريّانٌ انيقٌ زاهرٌ ... غضّ الثوابت جنّةُ الزوّار
كم من جنانٍ حول جيّ محيطةٍ ... منظومةٍ بجواهر الأشجار
بفصوص ياقوت وبيض لآلئٍ ... وزمرّدٍ فى فضةٍ ونضار
وبكل فاكهةٍ يذاق بطعمها ... طعمُ الشهاد تشاب بالمصطار

إن عظمة الطبيعة هناك أنطلقت الشعراء ببليغ الكلام ور وائع القصيد ، وافتن الشعراء فى أوصاف الطبيعة ، فوصفوا مظاهرها وألوانها ، وصفوا الطبيعية الصامتة والحية .

يقول أبو سعيد الرستمى فى وصف مدينة جى (١) .

لله عيش بالمدينة فاتنى ... أيام لى قصر المغيرة ما لف
حجّى إلى باب الحديد وكعبتى ... باب العتيق وبالمصلّى الموقف
والله لو عرف الحجيج مكاننا ... من زرنر وذ وجسره ما عرّفوا
أو شاهدوا زمن الربيع طوافنا ... بالخندقين عشية ما طوّفوا
زار الحجيج منى نعم وذووالحجى ... جسر الحسين وشعبه فاستشرفوا
ورأو اظباءَ الخيف فى جنباته ... فربوا هنالك بالجمار وخيفوا
أرض حصاها لؤلؤٌ وترابها ... مسك وماءُ المدّ فيها قرقف

فنرى الشاعر يصف المدينة .. ففيها من المقامات الكريمة ، والمساجد الذكية ، والمشاهد الشريفة ، والبقاع المباركة ، والأماكن العلية والأراضى المقدسة التى إذا لزمها المرء أظله الغفران والرضوان ، ولهذا جعل حجه إلى باب الحديد كما جعل باب المدينة المسمى العتيق كعبة له ، ووقفه بالمصلى والجبيلة ويقسم لو عرف الحجيج هذه الأماكن من نهر زرنر وذ وجسره ، ولو طافوا ذات عشية فى أيام الربيع بالخندقين أو زاروا جسر الحسين وشعبه لاستشرقت نفوسهم ولزموا هذه الأماكن تنسكا ، وبعروتها الوثقى تمسكوا .

وقد تجلت فتنة الشعراء بالطبيعة من خلال مظهر جديد من مظاهرها الحضارية يتمثل فى الرياض والبساتين والمنتزهات . فأصبحنا نرى الصور الحضارية والخيال المدنى الترف

(١) محاسن أصفهان للمافروخى ص٩٤، ٩٥ .

وقد كانت الرياض منتشرة بأصبهان انتشارا واسعا حيث كان يجتمع فيها الشعراء للمنادمة .. وقد صوروها فى نتاجهم . يقول أبو عيسى النوشجان بن عبد المسيح الأصفهانى يصف أصفهان فى فصل الربيع: (١) .

حسن الربيع وبهجة النيروز ... حنّا الرّياض وزهرها بالبروز
وسرت إليها ديمةٌ بملابسٍ ... منسوجةٍ بالعسجد الابريز
فغدت إلينا فى حلىّ عرائسٍ ... من بعد ما اشتملت بثوب عجوز
وبدت تلألؤ فى ملابس سندسٍ ... ومحبّرٍ من وشيها وخزوز
وبدائع تنشو باكناف الثرى ... وطوالع من نورها المكنوز
فاهنأ بنيروز أتاك مهشراً ... بربيعه وبيوم هرمز روز
وبمنادمين ومزهرٍ ومدامةٍ ... وصنوف ريحان وهرماخوز
وبشادنٍ متماجنٍ يسقيكها ... بكؤوسه وبطاسه والكوز

وللزعفرانى من قصيدة فصلية يصور الأرض فى اختيالها أيام الربيع بفتاة جميلة ترتدى أجمل الثياب الحريرية والطيور على الغصون ترسل أنغاما عذبة فى طرب ونشوة يقول: (٢)

وفصل فيه للأرض اختيال ... لأن جميع ما لبست حرير
وللاغصان من طرب تثنى ... إذا جعلت تغنيها الطيور

وأظهر أبو بكر الخوارزمى إعجابا شديدا بهذين البيتين . ويتضح من الصورة فيهما أن الزعفرانى ركز على عنصرى الصوت والحركة فى رسم صورته الفنية .

ويصور أبو منصور بن برزجويد بن اذرچشنسن جمال الرياض المحيطة بجبى بزهورها البيضاء التى تفوق رياط السندسى حسنا كأنه وشى مذهب ومديج للتمتع به رؤية وليس للملبس . فحينا ترى فيها عيون نراجس أجفانها فضية مضيئة ، وأحداقها ذهبية لهبية . وساعة تعرض بنفسجها كآثار العض فى البدن الغض ، وآونه تجلو

---

(١) كتاب محاسن أصفهان ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) يتيمة الدهر ج ٣/٣٢١ .

تفاحا كخد الخجل إحمرارا ، وزمانا تهدى رمانا كثدى الكواعب نهودا ، وأعنابا أشبهت ذنوجا وهنودا ، ومرة ترى من ورق الزعفران رايات بنفسجية يذيع نشرها نشر المسك سجية ، لهن عذبات فاقعات من العقيان إلى أخوات قانيات من المرجان أو شفاه عشاق ليس تتصاعد من زفراتها ألسنة نار صفر ، وتطاير أثناءها شرار حمر يقول : (١)

كم من جنان حول جىّ محيطةٍ ... منظومةٍ بجواهر الأشجار
بفصوص ياقوت وبيض لآلىٍ ... و زمرّدٍ فى فضةٍ ونضار
وبكل فاكهة يذاق بطعمها ... طعم الشهاد تشاب بالمصطار
قد رصّعت أيدى السحاب نحورها ... بقلائدٍ ونحورها بعمار
وكأن نرجسها عيون أشبهت ... وكأن حنوتها شرار النار
فى اقحوان ناصع وبنفسجٍ ... وشقائق أحداقها كالقار
يا مرجبا بقرارها الخمرى وال ... شمعى والكحلىّ والزنجارى
مفتوح سوسنها كهامة تذرجٍ ... والجنبذ المضموم كالمنقار
ويكايد الخيرىّ مرز نجوشها ... غد افترار الصبح بالاسفار
يبدو بكلّ فجاجه ومروجه ... اغصان سروٍ فى قدود جوار
بعلائل كسيت بها ابدانها ... خصر وساقاتٍ لهنّ عوار
وصنوبرٍ ميدانه بمقابل ال ... ميدان من آس ومن شمشار
تضحى مغردة على أشجارها ... خلل الغصون نواطق الأطيار

وتبدو فى الأبيات قدرة الشاعر الفائقة واضحة فى استخدامه للألوان وتنسيقه بينها وتصويره لجمال العيون التى تطرب لها النفس .

ووصف الشعراء الثمار ، ووجدوا فيها مادة تشبيهية جديدة ، ويتقدم التفاح ألوان الثمار الأخرى لمكانته عند ذوى الظرف والعشاق وذوى الاشتياق فيه تهدأ أشجانهم وهو عندهم بمنزلة الحبيب والأنيس . ولذلك فقد وجد فيه الصاحب لون الخدود المودة والوجنات المضرجة يقول : (٢) .

---

(١) محاسن اصفهان ص٥٩ ، ٦٠ .
(٢) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات تحقيق د /زغلول سلام ، مصطفى الصاوى ص١٠٦ ، اليتيمة جـ٣/ ٢٣٦ .

ولمّا بدا التفاحُ أحمر مشرقـــاً دعوت بكأسى وهى ملأى من الشَّفَـــقْ
وقلت لساقيها أدرها فإنهـــا خدود عذارى قد جُمعن على طبـــقْ

وقد وصف الشعراء ألوانـا أخـرى من الفواكـه والثمار قال الصاحـب فى حبـة عنـب: (١)

وحبةٍ من عنـبٍ قطفتُهـــــا تحسُدُهـا العُقود فـى التَّرائـــبِ
كأنهـا من بعد تمييزى لهـــا لؤلؤةٌ مثقوبـةٌ من جانـــــبِ

وقـال فـى التـــين : (٢)

تين يزين رواؤه مخبـــــوره متخير فـى وصفـه يتحـــــير
عسل اللعاب لديه مما يحتـوى وجنى النخيـل لديه مر مقـــر
وكأنما هـو فى ذرى اغصانـه قطع النضار أدارهـن مـــدوِّر
ويقول ذائقـه لطيب مذاقـه الله أكـبر والخليفـة جعفـــر

وقـال فـى النارنـــج : (٣)

بعثنا من النارنج ما طاب عَرْفُـه ونمّتْ على الأغصان منـهُ نوافـــجُ
كرات من العقيان أحكم خرطهـا وأيدى النَّدامى حولهنَّ صوالـــجُ

وهكـذا كانت الفواكه والثمـار من الميادين الطبيعية التى وجد فيها الشعراء مجالا خصبـا للوصف ، وربطـوا بينهما وبين الحب والخمر . لـذا فقـد جـاءت ألفاظهـم وصورهـم تؤكـد صـدق مشاعرهـم .

واهتم الشعراء بأشياء لم تكن تهم الشعراء القدمـاء ولم يفكروا فى أن ينظموا فيها الشعـر. قال أبو سعيـد الرستمى مجـددا فى وصـف المـاء الجارى وهـو من أجمل ما قيل فيـه (٤)

هواء كأيام الهوى فـرط رقـة وقد فقد العشاق فيها العواذلا
وماء على الرضراض يجرى كأنـه صفائح تبر قد سُبكن جـــداولا
كأن بها من شدة الجرى جنـه فقد البستهـن الرياح سلاسـلا

---

(١) غرائب التنبيهات ص١٠٨ .
(٢) يتيمة الدهر جـ٣/٢٣٨ .
(٣) المرجع السابق ص٢٣٧ ، معاهد التنصيص جـ٢/١٥٩ .
(٤) يتيمة الدهر جـ٣/١٨٦ ، ١٨٧ .

ووصف ابن طباطبا بركة ماء فقال : (١).

كم ليلةٍ ساهرْتُ انجمها لدى ... عرصات أرضٍ ماؤها كسمائها
قد سُيِّرت فيها النجوم كأنَّما ... فَلَكُ السماء يدور فى أرجائها
أحسِنْ بها بحرا إذا التبس الدُّجى ... كانتْ نجومُ الليل من حصبائها
ترنو إلى الجوزاء وهى غريقةٌ ... تبغى النّجاءَ ولاتَ حين نجائها
تطفو وترسب فى اصطفاق مياهها ... لا مُستعان لها سوى أسمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنّه ... قلبٌ لها قد رِيعَ فى أحشائها

وقال الصاحب فى وصف الثلج والبرد : (٢).

أقبل الثلجُ فى غلائل نورٍ ... تتهادى بلؤلؤ منثور
فكأنّ السماءَ صاهرت الأر ... ض فصار النثار من كافور

ووصف ابن طباطبا هرّة بلقاء فقال : (٣).

فتنتنى بظلمةٍ وضياءٍ ... إذ تبدّت بالعاج والأبنوس
تتلقى الظلامَ من مقلتيها ... بشعاعٍ يحكى شعاع الشموس
ذاتُ دَلٍ قصيرةٌ كلما قا ... مت تهادت ، طويلةٌ فى الجلوس
لم تزل تسبغ الوضوء وتنقى ... كلَّ عضو لها من التنجيس
دأبُها ساعة الطهارة دفن ال ... عنبر الرَّطب فى الحنوط اليبيس

وقد أثرت هذه الطبيعة السمحة ، وما استتبعته من ثراء ورخاء وسعة فراغ فى الأدب. فألهمت الشعراء بأروع ما ابتكروا من أدب الطبيعة ، وبأبلغ ما أثر من روائع الخيال وأثرت فى الأدب تأثيرا واضحا تجلى فى رقة ألفاظه ، وسهولة أسلوبه ، وبدائع معانيه ، وغرر تشبيهاته ، وكناياته ومجازاته.

فنراهم وقد وصفوا الرياض والبساتين والأزهار والأشجار والثمار والطيور ، ووصفوا البرق والرعد والسحاب ، والمطر وقوس قزح ، والبحار والأنهار والبحيرات

---

(١) نهاية الأرب جـ١ / ٢٧٥ (مطبعة دار الكتب - الطبعة الثانية سنة ١٣٤٧هـ)
(٢) المرجع السابق ص٨٤.
(٣) نهاية الأرب جـ ٩/ ١ ٢٩ (طبعة دار الكتب سنة ١٣٥١ هـ الطبعه الأولى).

والسبرك — وتوسعوا فى ذلك حتى أحلوه محل النسيب فى صدور القصائد .

وللوصف عندهم طريقتان :

١ — طريقة غلب عليها الغزل .. فلا ترى الشاعر يصف إلا حيث يتغزل ، ولا تراه يتغزل إلا حيث يصف . وانظر إلى جمال التصوير فى وصف الصاحب للشيب حيث يقول : (١)

تصدُّ أميمةُ لما رأت ... مشيباً على عارضى قد فرش
فقلت لها الشيب نقش الشبا ... ب فقالت آلا ليته ما نقش

ومن هذا الضرب قوله يصف الثلج فى مجلس الشرب: (٢)

هات المدامة يا غلامُ مصيرا ... نقلى عليها قبلة أو عضه
أو ما ترى كانونُ ينشرُ وردهُ ... وكأنما الدنيا سبيكة فضه

٢ — والطريقة الأخرى أو الضرب الآخر نجد فيه الوصف التحليلى كوصف الفاكهة ، وإننا لنراهم يكثرون من وصفها حتى إن الباحث يستطيع أن يتتبع ذلك فى شعرهم فيطرح مجموعة شعرية رائعة فى وصف الفاكهة . فقد وصفوا التفاح والتين والعنب والنارنج . ويعجبنى من ذلك قول الصاحب يصف حبة عنب: (٣) .

وحبة من عنب ... من المنى متخذه
كأنها لؤلؤة ... فى وسطها زمرده

وقوله فى النارنج : (٤) .

كرات من العقيان احكم خرطها ... وايدى الندامى حولهن صوالج

كما برع الشعراء فى وصف ما سوى ذلك مما لا يذكر إلا نادرا فوصف أبو الفتح السَّاوىُّ البرغوث فقال : (٥) .

واصهب فى قدّ شونيزه ... اقفز من فهد على خشف
يسهرنى تخميشة دائبا ... وعيشهُ يعمل فى حتفى

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/٢٤٧
(٢) المرجع السابق ص٢٣٧
(٣) المرجع السابق ص٢٣٨
(٤) المرجع السابق ص٢٣٧
(٥) اليتيمة جـ٣/٢٦٢

وأفاض الشعراء فى وصف الفيل الذى كان فى عسكر خراسان ، وحصل عليه الصاحب فى وقعة جرجان ، وأمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه فى تشبيب قصيدة على وزن وقافية قول عمرو بن معد يكرب

أعددت للحدثان سا بغةً وعدّاءً علندى (١).

ونظموا فيه قصائد طوال (٢). ووصفوا الند والشمع واللفظ فنرى الصاحب فى وصفه للند يقول: (٣)

ند لفخر الدولة استعماله قد زاد عرفا من نسيم يديه
فكأنما عجنوه من اخلاقه وكأنه طيب الثناء عليه

فالصناعة واضحة فى الوصف كما كانت واضحة فى الغزل. ولتعمق الشعراء فيهما استطاعوا أن يصوروا لنا أبعد الأشياء عن مدارك الشعراء. وليس بعد قول الصاحب يصف الوحل من دليل يصور ذلك:

أنىّ ركبت فكفّ الأرض كاتبةٌ على ثيابى سطوراً ليس تنكتمُ
فالأرض محبرةٌ والحبرُ من لثقٍ والطرّسُ ثوبى ويُمنَى الأشهب القلمُ (٤)

فرغم تزاحم المعانى وكثرة أجزاء المشبه والمشبه به فإن الصورة التى تخيلها فنية رائعة لم يضعفها تتابع التشبيهات:

على هذا النحو يتضح لنا أن هذا الفن تطور فى هذا العصر تطورا كبيرا باتساع المشاهدات ومظاهر الحياة والبيئة والحضارة فوصف الشعراء كل شئ رأوه بأبصارهم أو جال فى خلدهم. جليلا كان أو حقيرا، كبيرا كان أو صغيرا.

---

(١) العلندى: الغليظ من كل شئ
(٢) انظر اليتيمة جـ٣ ص٢٠٨ — ٢١٥
(٣) المرجع السابق ص٢٣٧
(٤) نهاية الارب جـ١ / ١٧١ (الطبعة الثانية — دار الكتب سنة ١٣٤٧ هـ).

٢ — : وصف الطبيعة العمرانية :

وأجاد أهل هذا العصر في الوصف الشعري وتوسعوا فيه . والوصف قديم في الشعر العربي ، لكنه اتسع وطال بزيادة العمارة وصار له في هذا العصر باب خاص من أبواب الشعر الكبرى (١) .

وتوسعوا في ذلك حتى أحلوه محل النسيب في صدور القصائد ، وتصدوا لوصف القصور وبيان مظاهر الترف فيها ، وتعرضوا لفنها المعماري وما أشبهه . فكانت قصور أصبهان من الكثرة بمكان فنرى قصر فرقد بباب المدينة وقصر هرون ذي الأبواب السبعة بدير مرتين وقصر الخصيب بطرف جسر الحسين وقصر عبد ويه بن حبة بشط زرنروذ وباب رحى نصرويه بغناد شته وقصر كوهان بمارپين وقصر صخر بن سدوس بطيران وقصر المغيرة وما ينتظم بكل منها وينضم إليها من قرارة نادٍ ، وسرارة وادٍ (٢) التي لم يعد وصفها قول أبي عبادة البحتري :

قصورٌ كالكواعب لا معاتٌ ... يكدن يضئن للسّاري الظلاما
وبردٌ مثل برد الوشي فيه ... جنا الحو ذان ينشر والخزامى
غرائب من فنون الروض فيها ... جنى الزهر الفرادى والتؤامى
يضاحكها الضحى طورا وطورا ... عليها الغيث ينسجم انسجاما

وقد أطنب الشعراء في شرحها فمنهم أبو سعيد الرستمي وقد قال في قصيدة (٣)

سقى قصر المغيرة كل دانٍ ... اجش الرّعد منهمر العزالى
إلى جسر الحسين فشعب تيمٍ ... فأكناف المصلّى فالتلال
فجزعى زرنروذ فقصر يحيى ... فمج الخندقين فذات ضال
فكردا باذ بويه فمسرى ... نسيم الروض في تلك الرّمال
فمستنّ السيول بحافتيه ... فمجرى ذلك العذب الزّلال
يحيّيها الحيا دون المواقى ... و تشملها الصّبا دون الشمال

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج٢ / ٢٤١
(٢) انظر محاسن أصفهان ص٥٦
(٣) المرجع السابق ص٥٧

وقد عرض أبو سعيد الرستمى فى قصيدة وصف بها الدار التى بناها الصاحب بأصبهان وانتقل إليها ، واقترح على أصحابه وصفها ، وفيها أشار إلى عظمة البناء الذى يفوق إيوان كسرى فى الأبهة والشموخ والأصالة . ولو أبصرته إرم ذات العماد لانهارت خجلا وحياءا من حسنها وعظمتها ، يفوق ضياؤها وبريقها النجم ، كما أنها تفوق جنات تدمر فى الروعة والبهاء يقول : (١)

وسامية الأعلام تلحظ دونها ... سنا النجم فى آفاقها متضائلا
نسخت بها إيوان كسرى بن هُرمز ... فأصبح فى أرض المدائن عاطلا
فلو أبصرت ذات العماد عمادها ... لأمست أعاليها حياءً أسافلا
ولو لحظت جناتُ تدمر حسنها ... درت كيف تبنى بعد هُنَّ الجلائلا
متى تراها خلتَ السماءَ مُرادِقا ... عليها وأعلام النجوم تماثلا

وينتقل بنا أبو محمد بن المنجم إلى وصف الدار وفيه تعرض لفنها المعمارى فذكر الصحون وهى من الاتساع بمكان ، ثم ذكر القباب والشرفات والسطح ، فأما القبة فهى عالية شاهقة الارتفاع الأمر الذى يجعل نورها يُرى من بعيد ، يقول : (٢)

وتبدو صحون كالظنون فسيحة ... تقدرها حلما فتنعتها حرزا
وفى القبة العلياء زهر كواكب ... من الضرب المضروب والذهب المجرى
اذا ما سما الطرف المحلق نحوها ... رأها سماءً صحف أنجمها تقرا

وأما الشرفات فحلاه بالفسيفساء بطريقة تزيد من رونقها ، وهى كالغلمان المصطفة فى أجمل الثياب ، فبدين فى أجمل الصور وأجلاها ، يقول الشيخ أبو الحسن صاحب البريد وابن عمة الصاحب من قصيدة فى وصف الدار (٣)

من فوقها شرفات طال أدناها ... يد الثريا فقل لى كيف اقصاها
كأنها غلمة مصطفه لبست ... بيض الغلائل أمثالا وأشباها
انظر إلى القبة الخضراء مذهبة ... كأنما الشمس أعطتها محياها

---

(١) نهاية الأرب جـ١ / ٣٩٢ (الطبعة الثانية سنة ١٣٤٧هـ . دار الكتب) ، اليتيمة جـ٣ / ١٨٦ .
(٢) اليتيمة جـ٣ / ١٨٩ .
(٣) المرجع السابق ص١٨٤ .

ومن قصيدة أبى القاسم الزعفرانى : (١)

فتناهى البنيانُ وارتفع الا ... يوان حتى أناف بالتشييد
وتبدّت من فوقه شرفاتٌ ... كنساءٍ أشرفن فى يوم عيد

فنراه قد صور الشرفات بصورة النساء وهن يرتدين أجمل الثياب وأحلاها فى يوم عيد ، فيظهرن فى أبهى صور مختلفات الهيئة ، يُسَرُّ من ينظر إليهن .

ويخرج الشاعر إلى ساحة الدار حيث يوجد فوارة تقذف بالماء نحو السماء ملحة فى ذلك وكأنها تريد أن تغرق الأفق يقول ابن حجلج : (٢)

علمت فى دارك فوّارةً ... غرّقت الأفْقَ بها الأنْجُما
فاض على نجم السما ماؤها ... فأصبحت أرضك تسقى السما

وأنشد أبو بكر الخوارزمى قصيدة فى دار الصاحب عارض بها قصيدة الرستمى فى الوزن والقافية وهى من أجود القصائد : (٣)

أكلّ بناء أنت بانيه معجزٌ ... بنيت المعالى أم بنيت المنازلا
فلا الأنس تبنى مثلهن معالماً ... و لا الجن تبنى مثلهن معاقلا
كنائس أضحت للغمام عمائما ... علوّا وأمست فى الظلام قناديلا
رحاب كأن قد شاكلت صدر ربها ... وبيضٌ كأن قد نازعته الشمائلا
وبهوٍ تباهى الأرض منه سماءها ... بأوسعَ منها آخرا وأوائلا
وصحن يسير الطرف فيه ولم يكن ... ليقطعهُ بالسير إلا مراحلا
تلوح نقوش الجص فى جدرانه ... كما زين الوشم الدقيق الانامِلا
وماءٍ إذا أبصرت منه صفاءَه ... حسبتَ نجوم الليل ذابت سوائلا
رأيت سيوفاً قد سللن على الثرى ... وصارت لها أيدى الرياح صياقلا
وروض كعيش السائليك نضارة ... ووجهك بشرًا حين تلحظ آملا
أصائله للنور أضحت هواجرا ... هواجره للطيف أضحت أصائلا

وهذه القصيدة تعد من البراعة الفنية فيبدو من خلالها الخوارزمى فنانا يفصل أجزاء

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣ / ١٨٩ .
(٢) نهاية الأرب جـ١ / ٢٧٦ (ط. الثانية سنة ١٣٤٧ هـ دار الكتب) .
(٣) يتيمة الدهر جـ٣ / ١٩٣ ، ١٩٤ .

القصر تفصيلا ، نلمح فيه ذوق صاحبه الرفيع الراقى ، ففيها يتحدث عن الجانب المعمارى فى القصر ، فهو من الارتفاع والعلو والعظمة الأمر الذى يجعله معجزا فى بنائه فلا يستطيع إنس ولا جان أن يشيد مثله ، وهو بناء فريد لا مثيل له فيما بناه الناس ولا الجان ، فهو غاية فى الحسن والاتقان ، ثم يعرض لنا حيطانه مبينا ما بها من نقوش وزخارف جميلة ظاهرة فى أصل البناء بألوان طبيعية جذابه تجلب الراحة للنفس.

ثم يخرج بنا إلى خارج القصر حيث يوجد البستان والحديقة المورقة الناضرة ، فيها الأشجار المثمرة ذات الورق الأخضر ، والأغصان الطويلة ، وقد تخللتها المياة الصافية التى تداعبها الرياح فى الغدران التى يبرق فيها الماء فتخيل للرائى أنها سيوف مصقولة موضوعة فوق الأرض .

وكانوا يلحقون بقصورهم البساتين ويقيمون الحدائق الخاصه بهم ، هذا بالاضافة إلى الحدائق العامة . وكانت هذه الحدائق تقام على مساحة من الأرض ، يحيط بها الأسوار من الخارج ، أما من الداخل فهى عبارة عن ممرات ومتنزهات مستقيمة بآخرها الجوسق أو البيت الصيفى . وبها البرك المختلفة الشكل فمنها المربعة والمستديرة أو المستطيلة أو المثمنة الأضلاع ، وأحيانا يتخذون لها شكل الصليب أو هيئة النبات مثلث الأوراق (١) .

وقد تعرض أبو الرجا الحسن بن محمد بن عوذ فى موضع من قصيدة ينعت قصر المغيرة وفى هذا الوصف إشارة واضحة إلى مقدار الترف والأبهة والجمال الذى يخيم على هذه القصور . وكذلك عرض لأنوار القصر والحدائق من حوله تفوح بأطيب الروائح وأذكاها . وكانوا يتخذون من هذه الحدائق وبساتينها أماكن للشراب فهى كجنات عدن التى وعد بها المتقون يقول : (٢)

ظللنا اليوم فى قصر المغيره وأنوار الحدائق مستنيره

---

(١) تراث فارسى ص٣٤١ الى ٣٤٣ (بحث الحدائق الفارسية) ف ساكفيل وست — ترجمة أحمد الساداتى ، الطبعة الأولى ، مطبعة الحلبى ، القاهرة سنة ١٩٥٩م .

(٢) محاسن أصفهان ص٦١ .

وهبت أعين النوّار فيه ... متى هبّ الصّبا جلبت عبيره
وأكؤس راحه بالرّاح راحت ... على غرر الندامى مستديره
فلو جنات دنيانا جنودٌ ... لهاتيك الجنان لها أميره
ولو قبل الممات وقبل نشر ... سألنا الله ذا النعم الغزيره
عيان الخلد أو جنات عدن ... لارشدنا إلى قصر المغيره

ووصف الشعراء كل ما وقعت عليه أعينهم فى تلك القصور فنرى الصاحب يصف الشمعة والشمعدان يقول : (١)

وشمعةٍ قُدِّمَتْ إلينا ... تَجْمَعُ أوصافَ كُلِّ صَبِّ
صُفْرَةَ لونٍ وذَوْبَ جسم ... وفيضَ دَمْعٍ وحَرَّ قلب

وكان القوم يجتمعون فيشترون الجزور بينهم ، فيفصلونها على عشرة أجزاء ، ثم يؤتى بالحُرْضَة وهو رجل يتألّه عندهم لم يأكل لحما قط بثمن ، ويؤتى بالقداح وهو أحد عشر قدحا ، سبعة منها لها حظ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خابت ، بقدر ما لها من الحظ إن فازت ، وأربعة ينقل بها القداح ، لاحظ لها إن فازت ولا غرم عليها إن خابت . وقد جمع الصاحب بن عباد اسماء القداح هذه ونظمها فى أبيات فقال : (٢) .

إنّ القداحَ أمرها عجيبُ ... الفذُّ ، والتوأمُ ، والرقيبُ ،
والحلسُ ثم النّافِسُ المصيبُ ... والمُصْفَحُ المشتهر النجيبُ ،
ثم المعلّى حظه الترغيبُ ... هاك فقد جاء بها الترتيبُ

ويوضح الصاحب فى هذه الأبيات اسماء القداح التى لها الحظ فأولها الفذ فى صدره حزّ واحد ، فإن خرج أخذ نصيبا ، وإن خاب غرم صاحبه ثمن نصيب ، ثم التوأم ، وله نصيبان إن فاز ، وعليه ثمن نصيبين إن خاب ، ثم الضريب ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحلس وله أربعة ، ثم النافس ، وله خمسة ، ثم المسبل وله ستة ، ثم المُعَلّى وله سبعة . قالوا : والمسبل يسمى : المصفح ، والضريب يقال له : الرقيب . أما الأربعة التى ينقل بها القداح فهى السَّفيح ، والمنيح ، والمُضْعَف والوغد (٣)

---

(١) نهاية الأرب جـ١ / ١٢٣ (طبعة سنة ١٣٤١هـ سنة ١٩٢٣م دار الكتب) .
(٢) المرجع السابق جـ٣ / ١١٨ (ط . سنة ١٣٤٢ هـ) .
(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .

كما كان الوصف أقرب موضوعات الشعر فى القرن الرابع إلى التنوع والتجديد فى المعانى فنرى الشاعر يصف مجالس اللهو وآلاته ، والطرب والسمر ، ووصف الخمر وساقيها وشاربها .

ومع شيوع الخمر وانتشارها فى القرن الرابع زاد أقبال الشعراء على وصفها واهتموا بها لا بوصفها موضوعا تقليديا يخوضون فيه ولكن لأن شربها أصبح جزءا من حياتهم المتحضرة يألفونه ويلتذون به . لذلك فهم يعبرون عن هذه الألفه وتلك اللذة بهذا الوصف للخمر ومجالسها وما يتصل بها من ندامى وسقاة ومجون وكؤوس. ومن هؤلاء الشعراء أبو الحسين الغويرى الذى يصف لنا فى إحدى قصائده مجلس شراب بين الزهور والورود والغصون وجداول الماء ، وهم فى هذه المجالس يتجنبون مجالسة الثقيل ويحرصون على ألا يجلس بينهم . يقول مخاطبا الصاحب(١) .

أيها الصاحبُ الربيعُ تجلى ... فى رياضٍ تحارُ فيها العقول
نرجسٌ ناضر وأحمر ورد ... وشقيق يزينهُ التكحيل
وغصون تجرُّ أذيالَ نور ... فى حواشى جداول وتميل
للزرازير فى خلال الأزاهر ... ير صفير وللحمام هديل
فأقم رسمنا صبيحة نيروز ... بسه ريح أنسنا مأهول
بكؤوس مملوءة من مدام ... أنت فيها لمن حساها عذول
واجتنبْ جلسة الثقيل إليها ... فعلى الشرب لا يخف الثقيل

والنديم تشترط فيه عدة خصال ليكون لطيف المنادمة وفى ذلك يقول أبو عيسى ابن المنجم : (٢) .

لوم النديم منغص ... طيب المجالس والندام
وسماحة الحر الكريم ... تزيد فى طيب المدام
فإذا شربت الراح فاشـ ... ـرب بها مع النفر الكرام

---

(١) اليتيمة جـ٣/٣٠٧ ، ٣٠٨ .
(٢) المرجع السابق ص٣٥٩ .

وأماكن الشراب غالبا ما تكون على شواطئ الأنهار حيث الطبيعة بمناظرها الجذابة التى ترتاح إليها النفس أو فى حدائق الأديرة المنتشرة فى كل مكان . والمتفق على أنها كانت تقام فى أجمل المواقع وأنزه البقاع . أو فى الحانات المشهورة التى خلدها التاريخ فى عداد ما خلد من الاسماء (١)

ولأبى القاسم الزعفرانى من قصيدة فى فخر الدولة :

لو عاينتْ عيناك بركة زلزل ... و نزلت من عرصاتها فى منزل
وعمرت دور قيانها بك جامعا ... بين الغزالة والغزال الاكحل
وبسطت كفّىَ بازل متخرق ... فاقمت غير محلئ عن منهل
وسمعت مايدعو النفوس إلى الهوى ... طرباً ويفتح كل قلب مقفل
وشربت صافية كأن شعاعها ... لهبُ الحريق من الرحيق السلسل
وغدوت مخمورا جنيب هوى إلى ... حجر الجوارى غدوة المتغزل
فسرحت بين قدودها وخدودها ... ونهودها طرف الشجى المتأمل
وملكت منهن التى لو أنها ... طيف لفزت بقربه المتخيل
وثويت فى قفر بشاطئ دجلةٍ ... ما بين مزمار وعود معمل
متنقلا من روضة مهضوبة ... حلت إلى الروض الذى لم يحلل
ورقدت بالنجوىّ رقدة شارب ... تحت الغصون وحملها المتهدل
وسباك صوت خرير ماء سائح ... وشجاك تغريدُ الحمام المهدل
وصرير ارخاء السرير بمسمعى ... احلى بقلبى من صرير المحمل
فالكرخ دار اللهو اعذب مشرع ... من مشرع يختص دارة جلجل (٢)

وقد وردت فى شعره اشارة إلى ضاحية الكرخ ببغداد التى اشتهرت بجودة خمورها . وهو يشير إلى تعدد ألوان المتعة وضروب اللهو المتاحة فى حاناتها من الخمور الصافية المحببة إلى نفوس زوارها . وبيّن كيف كان يتاح للنازلين فى هذه الدور من الحرية واللهو والعبث بالجوارى والغلمان .

---

(١) انظر ألحان الحان لعبد الرحمن صدقى ص٢٦ ، ٢٧ ، ٤٤ (الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧م) .
(٢) يتيمة الدهر ج٣/ ١٣ ٣ ، ١٤ ٣ .

وقد عرض الصاحب لرقة الخمر وصفائها ، وصفاء الإناء ، فهي عنده صافية جدا في إناء رقيق صافٍ فهما متشابهان في الرقة والصفاء . فكأنها خمر بغير إناء أو إناء بلا خمر يقول : (١)

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشابها وتشاكل الامر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

ووصفوا السقاة والساقيات ، وقد كانوا من اليهود أو المجوس أو أهل الكتاب ، وكانوا يعقدون الزنار كحمائل السيف ، ويتزينون بوضع أكاليل الورود على رؤوسهم ويهتمون بتصفيف شعورهم ولوى أصداغهم على هيئة حرف النون ، ويتعطرون بأجمل أنواع العطور حتى يبدو الساقي وكأنه قبس من نور في رقته وشفافيته . فيبعث في النفس النشاط ويحثها على طلب الكأس (٢) .

ولعبدان الأصبهاني المعروف بالخوزي في ساقي :

سقيتُ وفي كف الحبيبة وردة ... وأترجه تغرى النفوس بصوتها
مداماً فلما قابلتني بوجهها ... شربتُ فحيتني بلوني ولونها (٣) .

وقال هبة الله بن المنجم في ساقي :

يا أيها الظبي الذي ... ألحاظه ترى الأسد
أما لأسراك فدى ... أما لقتلاك قَوَد
الراح في إبريقها ... أحسن روح في جسد
فهاتها نصلحُ بها ... من الزمان ما فسد (٤) .

ومن أجمل ما قيل في وصف الساقي وتشبيهه ما قاله أبو الأسعد الأصبهاني :

ومحبوب يطوف بكأس راح ... وباقة نرجس فسقى وحيّا
هَلموا فانظروا قمرا منيراً ... سقى شمساً وحيّا بالثريا (٥) .

---

(١) شذرات الذهب جـ٣/ ١١٥ (ط٠سنة ١٣٥٠هـ مطبعة القدسي) ، وانظر المضنون به على غير اهله شرح ابن الكافي ص ٢٧٥ .
(٢) صور الحضارة العباسية في بغداد في شعر القرن الثالث الهجري ماجستير مخطوطة جامعة طنطا سنة ١٩٨٤م ـ جمال محمود عيسى ص١ ١٣ .
(٣) يتيمة الدهر جـ٣/ ٢٧٢ .
(٤) المرجع السابق ص٣٥٨ .
(٥) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ص ١٣٥

وقولـــه : (١)

هذى المدامُ وهذه التُّحـف والكأسُ بين الشَّرْب تختلـف
فكأنهم وكأن ساقيهـم سين ترى قدّ امهـا ألـف

وهـو يشـير فى الأولى إلى صورتـه العامة وحرصـه على الظهـور بأطيب وأجمـل مظهـر ، وهذا الساقـى يعـد نموذج لجنس السقـاة فـى أناقتـه وظرفـه فهو يطوف بكأس الراح وباقـات الزهور .. وهو كالقمر فى بهائـه .

وفى الأخـرى نلاحظ أن مادة التشبيه قـد أصابها بعض التجديد ، فقد شبه الشارب بعـد أن لعبت الخمر بعقلـه بحرف السين والساقـى وهـو يقف أمامـه بالألـف .

ومن المقطوعـات الـتى تصـور مجالس الأنـس والشـراب للسلامـى : (٢) .

نبهتُ ندمائى وقـد عـبرتْ بنا الشعرى العَبُـورُ
والبدر فى أفق السمـا ءِ كروضـةٍ فيها غديـرُ
هُبّوا فقد غنّى الرقيـ ـبُ ونام وانتبـه السـرورُ
وأشـار ابليسُ فقـل نا كلنا نعـم المشـيرُ
صرعـى بمعركـة يـعـ ـفىّ الوحـشُ عنهـا والنسـورُ
نوارُ روضتنـا خـدو دٌ والغصـون بهـا خصـورُ
طاف السقاة بهـا كمـا أهدتْ لك الصيدَ الصُقـورُ
عذراءُ يكتمها الحـزا جُ كأنها فيـه ضميـرُ
ويظن تحت حبابهـا خدٌّ تقبّلـه ثغـور
حتى سجدنـا والامـا م أما منا بَـمٍّ وزيـرُ

ومع ضعف الوازع الدينى الذى يحـد من شهـوة الناس لتنـاول الخمر ، لـم يعد من الغريب أن تُشَاهَـد جماعات السكارى تترنـح فى الطرقـات والشوارع من فعل الخمر . وأصبح البعـض يجاهرون بمعاقرة الكأس دون حشمة ولا حياء يقول ابـن حجـاج :

---

(١) نفـس الصحيفـة .
(٢) الوافى بالوفيات للصفدى جـ ٣ / ٣١٩ (ط . سنة ١٩٥٣م المطبعة الهاشمية) .

يا خليليّ قد عطشت وفى الخمـــرة ريٌّ للهائم العطشـــانِ
فاسقيانى محضَ التى نطق الوحـىُ بتحريمها من القـــرآنِ
والتى ليس للتأويـل فيهـــا مذهب غير طاعـة الشيطان
اسقيانى ، فقد رأيت بعيـــنى فى قرار الجحيم أين مكانـى (١)

ومن ذلـك قـول أبو الحسـن البديهـى : (٢) .

زينى أواصل لذتى قبل فوتهـــا و شيكاً لتوديع الشباب الفارقِ (٣)
فما العيشُ إلاصحةٌ وشبيبـــة وكأس وقرب من حبيب موافـقِ
ومن عرفَ الأيام لم يغترر بهـــا وبادَرَ باللذات قبلَ العوائقِ

وهكـذا نجـد أن شعـر الخمريات كـان يقترن — بحسب طبيعـة العصـر — بالمجون والغـزل بالمذكـر وأحيانـا بالزندقـة كمـا سبـق أن ذكرنـا ، وبوصـف البساتـين الـتى كانـت مجالس طيبـة للشـراب وغـير ذلك مما سبـق لنـا تبيانـه .

وعلى هـذا فإننـا نكـون قد أعددنا الفن الخمرى جزءا من فـن الوصـف بصـورة عامـة .

ويتضـح لنـا مما قدمنـاه من أمثله أن الوصف كان من فنون الشعر التى تجددت فـى القرن الرابع واتسعـت دائرتهـا فى وصف الماديات والمعنويـات على السواء . ووصف المحسوس وغير المحسوس ، وأن مظاهـر الحضـارة الجديـدة قد انعكسـت بأجلى صورهـا وأدق جزئياتهـا فى شعـر هذا القـرن ، كمـا اتخـذ الوصـف ألوانـا كثـيرة ، منها شمـول النظـرة والاستقصـاء والميل إلى السخريـة والفكاهـة ، والنزوع إلى المجـون أحيانـا . يضـاف إلى ذلك تطور شعـر الطبيعة تطـورا ظاهـرا . فبعد أن كان وصفـا تقليديـا أصبح وصفـا وجدانيـا يصـور جميـع نواحيها وبخاصـة الجانب الرقيق الباسم الهـادى الفواح بالعطـر والشـذى .

وليس الوصـف هو كل ما ذكرنـاه فحسب ، ولكنـه كان يتضمن أيضـا وصف الخمر وما يتصل بها .

---

(١) ديوان الشعر العربى الكتاب الثانى ص ٤١٩ (على أحمد سعيد — ط. الأولى سنة ١٩٦٤)
(٢) يتيمة الدهر جـ ٣/٣١١ .
(٣) الوشيك : السريع العاجل .

التشيع في الشعر

ونراه أكثر وضوحا وأعظم دلالة في شعر الصاحب بن عباد ، فقد كان في قصائده الشيعية مهتما بالصناعة الشعرية أكثر من غيرها . وله في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سبع وعشرون قصيدة كل قصيدة أخلى منها حرفا من حروف المعجم ، وبقيت عليه خالية الواو . وأول هذه القصائد قصيدته الخالية من حرف الألف وتبلغ ستين بيتا وأولها

بلغت نفسي مناها ... بالموالي آل طه
برسول الله من ... حاز المعالي وحواها
وببنت المصطفى من ... أشبهت فضل أباها

ثم أتم قصيدته في مدح علي :

من كمولاي علي ... والوغى تحمى لظاها
من له في كل يوم ... وقعاتٍ لا تناها
كم وكم حرب ضروس ... سد بالمرعف فاها
أذكروا أفعال بدر ... لست أبغي ما سواها
اذكروا غزوة أحد ... إنه شمس ضحاها .

ثم أخذ يذكر مواقع علي ويصف بلاءه وحروبه في نصرة الاسلام في قصيدة بلغت ثلاثين بيتا (١) غير ما له فيه من قصائد أخرى .

وهو من أجل حب علي وآله يهجو معاوية والأمويين ألد أعدائه فيقول :

برئتَ من الأرجاس رهط أمية ... كما صح عندي من قبيح غدائهم

ثم أخذ في قصيدة أخرى يؤنب الخارجين على علي كرم الله وجهه ويسفه المحاربين له . كما يعاتب الزبير بن العوام لأنه نسي حديث الرسول في علي وما نصحه النبي باتباعه فقال :

أتى القول للزبير محذرا ... تحاربه بالظلم حين تحاربه

---

(١) انظر أعيان الشيعة للعاملي ج١١ / ٤٦٢ .

ونـراه فى هـذه القصيـدة يعتبر الخارجين على علـى بن أبى طالـب فى ضـلال مبـيـن لأنهم خالفـوا نص الرسـول فقـال :

أيا أمة أعمى الضـلالُ عيونها وأخطأها نهج من الرشد لاحـب

وهو يرى أن الخلافـة الصحيحة لا تكون إلا لعلى ولأولاده الأئمـة مـن نسل الحسين مـن بعـده . وأن الخلافـة حق من حقوقهـم الطبيعيـة انتزعـه الأمويـون منهـم ظلمـا وعدوانـا . ولـم يكتف بذلك بل أخـذ يندد بهـم معتبرا فعلهـم هذا سفـه علـى الاسـلام ، ووصمـة لا تغتفـر فى تاريخهـم وعـار قبيـح يندى له جبين الفضيلة ويستحى الاسـلام من فعلـه فقـال :

ألا ساء ذاعارا على الدين ظاهرا يشير اليه الأجنبى المحـارب

اذا كانت الدنيا لأل محمـد وأولاده غرثى يليها المحارب (١)

وفى قصيـدة أخرى من شعـره يصف صفـين ويـذم تحكيم أبى موسـى وعمرو بن العاص ويعتبر هـذا التحكيم سبب انقسـام المسلمـين إلى طوائـف عـده ، كما يعتـبره سببـا فى قتـل الحسين رضـى اللـه عنـه :

فمضى أبو موسى وعمـرو جالـب الشـر الـبراح

بابـان قـد فتحا الـى شريـدوم على انفتـاح

هم وكـدوا أمـر الدهـى يزيد ملفـوظ السفـاح

قنطا على روح الحسـ ـن وأهله جـم الحجـاح

أسـد ولكـن الكـلا ب تعاونتـه بالنبـاح (٢)

وهو لا ينسى فى سائـر قصائـده الشيعيـة ذكـر الأئمـة جميعـا ، يمدحهـم ويتوسـل بهـم وفى ذلـك يقـول :

بمحمد ووصيـه وابنيهمـا وبما يمدوبهـا قريـن وكاظم

ثم الرضا وبمحمد ثم أبنـه والعسكرى المتقى والقائـم

أرجو النجاة من المواقف كلها حـتى أصيرَ الى نعيم دائـم (٣) .

---

(١) أعيان الشيعة للعاملى جـ١١ / ٤٦٧ ، ٤٦٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٧٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٧٨ .

وبعد فهذه صورة واضحة موجزة لما أورده مؤرخوا الشيعة من شعر فى التشيع للصاحب بن عباد . وهو بهذا القدر يعتبر مرجعا قيما من مراجع التشيع سواء غد من يريد الدراسة الصحيحة لتطور التشيع فى القرن الرابع أو يريد أن يدرس الأشخاص ويقف على حياة رجال الشيعة وأحوالهم فى هذا القرن .

وقد يشك بعض الباحثين فى شعر الصاحب الشيعى ، ويعده من باب المنتحل أو المحمول عليه ، وقد يكون دليلهم على ذلك كثرة ما ورد له من هذا الصنف أو انفراد الشيعة بذكره دون غيرهم . والحق الذى يجب أن يراعى أن الشك فى شعره الشيعى لا يكون إلا بدليل نقلى أو عقلى .

وما دمنا لم نعثر على دليل نقلى يثبت خلاف ما أورده علماء الشيعة فإننا نعتبر هذا الشعر من إنشاء الصاحب نفسه ، ويؤيد هذه الظاهرة فى الشعر ما نلمسه فى نثره من آثار التشيع التى لا نستطيع دفعها .

أما الدليل العقلى الذى يؤيد ويرشح أن هذا الشعر للصاحب بن عباد وليس منتحلا أو محمولا عليه أن الصاحب زعيم من زعماء التشيع المشهورين فى القرن الرابع وله عدد ضخم من المؤلفات التى تصور لنا تشيعه بل وتعصبه للشيعة . ودراسته لمعتقداتهم وعاداتهم وعلى هذا فقصائده الشيعية مقبولة عقلا لما بينها وبين نفسه وشخصيته من صلات نفسية .

وليس بعد ذلك دليل على صحة نسبة هذا الشعر الشيعى إليه دون غيره .

قيمة الشعر في أصبهان

بعد أن عرضنا الأغراض الشعرية التي طرقها الشعراء نستطيع أن نقول في جلاء أن شعرهم يعتبر شعر مناسبات من وجه وشعر بلاط من وجه آخر. فهو شعر مناسبات لأنهم صوروا فيه أغراضا شتى لامت طبيعة عصرهم فمدحوا وهجوا وعاتبوا وشكوا وتغزلوا ووصفوا ولم يتقيدوا بقيود معينة بل كانوا أحرارا في وصفهم واختيارهم.

وهو شعر بلاط لأنهم مدحوا أمراء البيت البويهي وبالغوا في مدحهم والثناء عليهم ولكنهم مع هذا كله لم يكونوا شعراء موضوعيين متيدين بل كانت لهم ذاتيتهم الخاصة فآثروا بعض الممدوحين على سواهم، وأطنبوا في البعض على حين قصروا في مدح الآخرين.

ومع ذلك فإن معظم شعرهم لا يعتبر من الطبقة الأولى من شعراء عصرهم الفحول فلم ينهض به أحد إلى مرتبة المتنبي وأبي فراس والشريف الرضي وهم أعلام شعراء هذا العصر. هذا لأنهم لم يطبعوا شعرهم بطابع معين.. فلم يكن بينهم مداح ماهرا كالمتنبي ولا حماسي بارعا كأبي فراس ولا طويل النفس كالشريف الرضي. بل نراهم وقد وزعوا جهودهم على أغراض الشعر دون أن يطبع أحد منهم شعره بطابع معين أو يلونه بصفة تميزه عن غيره من الشعراء.

وذلك هو السبب القريب أما السبب البعيد فلأن معظمهم من الكتاب. والكتاب لا يستطيعون أن يجمعوا بين جودتي الشعر والنثر. وقد دل تاريخ الأدب على عدم الاجادة فيهما معا. وأريد بالاجادة فيهما أن يكون شعر الأديب ونثره معا في الطبقة الأولى.

نعم قد تفوقوا بنوع خاص في الغزل والوصف واستطاعوا أن يبرزوا صناعاتهم اللفظية والمعنوية — كما قدمنا في هذين الغرضين.

فقد استطاع الصاحب بن عباد أن يضرب في فنون الغزل كل مضرب ويطرق فيه كل باب. ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يطبع شعره بروح معينه تشيع فيه. تفوّق في الغزل

والوصف متأثرا بأبي نواس في الأول . وبابن المعتز في الثاني . ولكنه رغم هذا التفوق لم يستطع إلا تحقيق عنصر واحد من عناصر الجودة الشعرية وهو عنصر الذاتية الذي لمسناه بشكل واضح في هجائه الشديد وغزله المتحرر . ولم يستطيع في الوقت نفسه أن يفلسف الغزل أو يطبع شعره به أو يلون به مزاجه الأدبي . ولو استطاع شيئا من ذلك لعددنا شعره في الطبقة الأولى من الفحول .

وقيمة الشعر في أصبهان تتجلى في صناعته اللفظية وصناعته المعنوية فنجد الصاحب معنيا بالناحية اللفظية بنوع خاص فنظم عدة قصائد بعدد الحروف الهجائية أخلى كل قصيدة فيها من حرف معين من حروف الهجاء وبقيت عليه القصيدة المعراة من حرف الواو أو خالية الواو التي أتمها سبطه أبو الحسين .

ويظن بعض مؤرخي الأدب أن الصاحب أخذ هذه الطريقة من واصل بن عطاء الذي كان يلثغ بالراء فأخلاها من كلامه وخطبه حتى قال فيه الشاعر :

نعم تجنُّبِ لا يرم العطاء كما تَجَنَّبَ ابن عطاء لثغة الراء

ونقل الدكتور زكي مبارك هذا الرأي في كتابه النثر الفني في القرن الرابع .

والحق أن هذه الصناعة الحرفية أتت إلى الصاحب من إيحاء الدروس النقدية التي كان يلقيها استاذه الرئيس ابن العميد في مجالسه التي كان يحضرها الصاحب يستمع فيها إليه .

وقد كان ابن العميد أعرف أهل زمانه بنقد الشعر حتى كان يتجاوز نقد الأبيات إلى الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن (١) وقد قال الصاحب في ابن العميد وعن مجلسه — أعلاه الله — أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحلى به من هذا الجنس (٢) .

---

(١) انظر الكشف عن مساوئ شعر المتنبي للصاحب ص ٣١ تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين مكتبة النهضة بغداد — الطبعة الأولى سنة ١٣٨٥ هـ .

(٢) المرجع السابق : نفس الصحيفة .

وأرى أن الصاحب لم يقلد واصلا بن عطاء لأنه لم يكن مجبرا على التقليد ولوكان مجبرا لاكتفى بحرف الراء أو غيره من المخارج التى يضطر إليها أصحاب العيوب الصوتية فى حناجرها . كذلك لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأى لأنه لايستند إلى دليل نقلى . ولو جاز أن يقال إن صنيع واصل كان سبب إيحاء له لما جاز إطلاقا أن يقال قلده .

وإذا ما نظرنا إلى الشعر فى هذا القرن نجده مليئاً بفنون الصناعة اللفظية . ولعل الذى حمل الشعراء على ذلك شيئان .

أولهما : إظهار القدرة الفنية على الاغراب وركوب الصعاب ، وشغف الشعراء بذلك فى شعرهم كما مالوا إليه فى نثرهم

ثانيهما : أراد كل منهم أن يكاثر معاصريه من الشعراء وأن يدلل لهم على سعة حيلته ومقدرته الفنية . كما أراد الصاحب بن عباد إلى جانب ذلك أن يتم النقص الذى لمسناه فى طبيعة شعره .

ويظن الدكتور زكى مبارك أن الصاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم (١)

وهو ظن خطأ لأن منهج اللزوميات يتعلق بالقوافى ومنهج الصاحب كان يتعلق بحروف البيت وشتان ما بين المنهجين والتعبير العلمى أن يقال هو الذى أوحى إليه بفكرة التزام ما لا يلزم .

ولم يقف الشعراء فى صناعتهم الشعرية عند الصناعة الحرفية التى سلكها بعضهم وحققوها فى أوسع وجوهها حتى أتوا فى صناعتهم الشعرية بكل جديد وغريب طريف فنقلوا إلى الشعر منهج الحوار فى شئ من التوسع . وإذا كنا لا نشك أن الشعر العربى لا يخلو من لغة الحوار قديما أو حديثا إلا أن الشئ الذى نشك فيه أن أحدا من الشعراء كان كالصاحب بن عباد فى تكلفه منهج الحوار واكثاره منه ومعالجته فى دائرة واسعة ، ولو أننا ألقينا نظرة سريعة على الأغراض

---

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع زكى مبارك جـ٢ / ٢٥٥ .

الشعرية التى طرقها ودرسنا تراكيب الأبيات لوجدنا فى كل غرض من أغراضه شاهدا على ذلك . فأسلوب قال وقلت وأقول ويقولون وتقولين نلمحه واضحا جليا فى جميع شعره . وليس لناقد أن يثبت خلاف ما ندعيه فى أى غرض من أغراضه . بعد أن دل الاستقراء التام على صحة ما ذكرت .

فقد كان الصاحب أكثر الشعراء اعتناءً بمنهج الحوار . وله قصائد كاملة كلها حوار خالص منها هذه القصيدة التى يمثل أمامنا فيها دورا مسرحيا من أدوار تشيعه . وهى من قصائده المشهورة نسبها إليه مؤرخوا الشيعة تسمى المنظومة الفريدة وتعرف بلامية الصاحب . تقع فى خمسة وستين بيتا من الشعر (١) ، اختار العاملى منها اثنين وثلاثين بيتا . ويجدها الباحث فى أكثر الكتب التى أرخت لأدب الشيعة وتعتبر من أشهر المصادر الأدبية التى تدعو إلى التشيع واليك خلاصتها :

قالت : من صاحب الدين الحنيف أجب؟ — فقلت أحمد خير السادة الرسل
قالت : فمن بعده يشفى الولاء له ؟ — قلت : الوصى الذى أرجى على زحل
قالت : فهل أحد فى الفضل يقدمه ؟ — فقلت : هل هضبة توفى على جبل
قالت : فمن ذا لواء الحمد يحمله ؟ — فقلت : من لم يكن فى الروع بالوجل
قالت : أكل الذى قد قلت فى رجل ؟ — فقلت كل الذى قد قلت فى رجل
قالت : فمن هو هذا الفرد سمّ لنا ؟ — فقلت : ذاك أمير المؤمنين على (٢)

فإننا نرى الصناعة الحوارية واضحة كل الوضوح فى لامية الصاحب . ولا أشك فى أنها تمثل مع أخواتها من القصائد التى لم تصل إلى أيدينا جانبا آخر من الصناعة الشعرية التى عنى بها الشعراء ، وتبين لنا قيمة شعرهم ، وما يصح أن نعده حلقة من حلقات الشعر التمثيلى فى تاريخ الأدب .

---

(١) انظر المنظومة الفريدة للصاحب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦ ش تاريخ .
(٢) أعيان الشيعة للعاملى جـ١١ / ٤٦٩ .

وتجديد الشعراء وابتداعهم الشعرى لم يقف عند هذا الجانب بل أخرجوا لنا لونا من الإبداع الشعرى . تعمقوا فيه وبالغوا فى اصطناعه فى الأغراض الشعرية ذلك اللون الجديد هو (الرجز) . والقصائد الرجزية كثيرة فى الشعر وقد سبق إلى الكثير منها فى الجاهلية والإسلام ولكن الشئ الجديد الذى أدخله الشعراء عليها هو صبها فى أسلوب القصص فقد جعلها الصاحب بن عباد ذريعة لأداء مقالته فى التشيع يقول فى أرجوزة :

يا زائرين اجتمعوا جميعا ... وكلهم قد أجمعوا الرجوعا
اذا حللتم تربة المدينة ... بخير أرض وبخير طينة
فأبلغوا محمدَ الزكيا ... منى السلام طيبا ذكيا
حتى اذا عدتم على الغوى ... فسلموا منى على الوصى (١)

ويستمر على هذا النحو من الأداء فى سبعة عشر بيتا . كما أن له أخرى تقع فى ستة عشر بيتا (٢) ولسنا نشك أن له كثيرا غيرها من الأراجيز . وإن تأملنا هذه الأراجيز فى أدائها لعرفنا كيف كان الصاحب يمثل برقة من بوارق الشعر والقص الذى لا نجد منه فى الشعر إلا قليلا .

فقيمة شعرهم كما نرى تتجلى فى هذه النواحى من الصناعة اللفظية وهى لا تخرج عن الصناعة الحرفية وما يصح أن نسميه شعرا تمثيليا وشعرا قصصيا بلغ اختراعه وابتداعه فى هذه الأضرب الثلاثة .

ولو أن منهم من عكف على الاجادة فى هذه الأضرب الثلاثة لاستطاع أن يجعل لشعره طابعا به . وأن يحتل مكانه فى الصدر بين شعراء هذا العصر . ولكنها كانت خطرات جميلة ومضات سريعة جديرة بالوقوف عندها والاهتمام بها كما تقدم .

---

(١) انظر أعيان الشيعة للعاملى جـ١١ / ٤٧٧ .
(٢) نفس الصحيفة .

أما الصناعة المعنوية :

فلا نجد فى أشعارهم لونا من ألوان التجديد . والحق أنهم كانوا عالة على من سبقهم من شعراء البديع كمسلم بن الوليد وصريع الغوانى والبحترى وأبى تمام وابن المعتز وابن الرومى .

ولعلنا نرى ذلك واضحا فيما جاءوا به من تشبيهات واستعارات فى شعرهم وقد أحسنوا التقليد فيما أخذوا منهم . ومنهم من فرق فى بعض هذه النواحى حتى أن علماء البلاغة قد أعجب ببعض فقر الصاحب بن عباد ومن ذلك قوله :

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر (١)

يستشهدون به على اكتمال الطرفين فى وجه الشبه . وأن كلا منهما يصح أن يكون مشبها ومشبها به . وقوله إلى القاضى أبى الحسن :

يأيها القاضى الذى نفسى له مع قرب عهد لقائه مشتاقه

أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه (٢)

يستشهد به لوجه الشبه إذا كان تخييلا إلى غير ذلك من الفقرات التى نالت إعجاب البلاغيين فاستشهدوا بها .

وأكثر شعرهم مغرقا فى هذا القالب المحسوس ، مشكلا بهذه الصورة البيانية المعنوية المجسمة . وهو كما نراه من الشواهد التى أوردها القدماء يمض على التشبيه والاستعارة لا لذاتها وإنما لتمثيل المعنى أما منا فى صورة واضحة مجسمة .

وإذا كنا قد حكمنا على أنهم كانوا مجددين فى الصناعة اللفظية . مقلدين فى الصناعة المعنوية ، فإننا لا نعجب إطلاقا إذا عثرنا فى أشعارهم على كثير من السرقات الشعرية لأن هذه السرقات — كما نعلم — تقوم على نقل المعانى أكثر من الألفاظ (٣) .

---

(١) الايضاح للخطيب القزوينى ص١٣٧ (ط. دار الفكر العربى) .

(٢) المرجع السابق ص١٢٦ .

(٣) ونستثنى من ذلك النسخ . فإنه يقوم على الألفاظ أكثر من المعانى .

ومن ذلك ما نراه فى قول الرستمى من قصيدة رثاء: (١)

ان سار فى السهل هاج ساكنه ... أو سار فى الحَزْن صاح صاحبه
يوسعه أن رآه حاسده ... مدحا ويثنى عليه جاذبه

أخذه من قول أبى تمام (عوده الحاسد بخلا به).

وقول أبى طاهر بن أبى الربيع فى الربيع: (٢).

والنبت ريان المهزة مائل ... شرق محاجزُ زهره بالماء
مسحت بأجنحة الصبا أعرافه ... وجلت مداوسها متون اضاء
فترى الظباء اذا وردن حيالها ... ككواعب قابلنهن مرائى

مأخوذ من قول ابن المعتز:

وترى الرياح اذا مسحن غديره ... صفّينَه ونفين كل قذاة
ما ان يزال عليه ظبى كارع ... كتطلع الحسناء فى المرآة

ومن قصيدة أبى سعيد الرستمى فى مؤيد الدولة قولة: (٣)

بدور زهتهن الملاحةُ أن بدا ... لهن نقابٌ فالوجوه سوافر

سرقه من قول القائل:

ولما تنازعن الحديث واسفرت ... وجوه زهاها الحسن ان تتقنعا.

وقوله من قصيدة فى الصاحب بن عباد: (٤)

قل لباغى الندى خفِ اللهَ لا تسـ ... ـألهُ عسرا فانه موهوب

من قول أبى تمام:

ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

وقوله (٥) والله لو كانت الأزاهر والأ ... وتار ناسا وابصروا عشقوا
شانئ أيامه يذوب شجى ... من كمد والحسود يزدهق (٦)
كذلك النار حين أعوزها ... ما أحرقته تبيت تحترق

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣/٢٠١.
(٢) المرجع السابق ص٣٦١.
(٣) المرجع السابق ص٢٧٤.
(٤) المرجع السابق ص٢٧٧.
(٥) المرجع السابق ص٢٨٢.
(٦) زهق وازدهق سواء ومعناه اضمحلاله وخروج روحه.

أخذه من قول ابن المعتز حيث قال :

كالنار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله

ولأبي الحسن البديهي (١) من تشبيب قصيدة يقول : (٢)

ولم أر لي يوم الرحيل مساعدا على الوجد حتى أقبل الدمع مسعدا

وكان دما فابيض منه احمراره بنار التصابي حين فاض مصعّدا

أخذه من قول من قال :

أرابك دمعي اذ جرى فحملتني من الضرّ واللبوى على مركب صعب

فلا تنكرن تلك الدموع فانما يبيضها تصعيدها من دم القلب

وللمعروفي بالفارسية في معناه :

خون سيبد بارم بردورخان زردم آرى سبيذ باشا خون دل معد

وكان الخوارزمي يعجب بقول الصاحب :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له يسمح بترياق ريقه

ويقول فيه : وددت لو أنه لي بألف بيت من شعري (٣)

ولكن الثعالبي يأبى إلا أن يعتبر هذا البيت من سرقات الصاحب يقول :

أنشدت الأمير أبا الفضل عبيد الله الميكالي هذا البيت ، وحكيت له هذه الحكاية في المذاكرة فقال لي أتعرف من أين سرق الصاحب معنى هذا البيت ، فقلت لا والله قال إنما سرقه من قول القائل :

لدغت عينك قلبي إنما عينك عقرب

لكن المصّ من ريـ ـقك ترياقٌ مجرب

ونقل ذكر العين إلى ذكر الصدغ . فقلت لله در مولانا الأمير ، فقد أوتي حظا كثيرا من التخصص ، بمعرفة التلصص (٤) .

ونحن لو تصفحنا شعر الصاحب لوجدنا أمثلة كثيرة في أخذه معاني الآخرين فقوله في الثلج :

---

(١) علي بن محمد (ت ٣٨٠هـ) شاعر بغدادي كان سريع البديهة فنسب إليها اتصل بالصاحب بن عباد بأصفهان وله فيه شعر (اليتيمة جـ٣/ ٣٠٩) ، لطائف اللطف ص ١٢٩ .

(٢) يتيمة الدهر جـ٣/ ٣١٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٠ .

وكأن السماء صاهرت الأر ض فكان النثار من كافور

يشير إلى قول ابن المعتز :

وكأن الربيع يجلو عروسا وكأنا من قطره فى نثار (١)

ومن هذه السرقات الشعرية ما حدث به ياقوت الرومى :

قال بعض ندماء الصاحب له يوما أرى مولانا قد أغار فى قوله :

لبسن برود الوشى لا لتجمل ولكن لصون الحسن بين برود

على المتنبى فى قوله :

لبسن الوشى لا متجملات ولكن كى يصن به الجمالا

فقال كما أغار هو فى قوله :

ما بال هذى النجوم حائرة كأنها العُمْى ما لها قائد

على العباس بن الأحنف فى قوله :

والنجم فى كبد السماء كأنه اعمى تحيَّر ما لديه قائد (٢)

فكأن الصاحب أراد أن يقرر هذا الضرب من السرقات . وأن هذا ونحوه من الجائز المستساغ. مستدلا على ذلك بسبق الشعراء له . فكيف بنانؤ اخذه عليه !

وكان الشعراء يكثرون من السرقات الشعرية ويقرونها فى شعرهم ويجيزونها بذلك ولا يجدون فيها عيبا ولا غضاضة .

قال أبو بكر الخوارزمى أنشدنا الصاحب هذه القوافى فى ليلة وقال : هل تعرفون نظير لمعناها فى شعر المحدثين ؟ فقلت لا أعرف إلا قول البحترى :

ومن عجب الدهر أن الأمير أصبح أكتب من كاتبه

قال : فقال جودت وأحسنت هكذا فليكن الحفظ (٣)

ونحن لا نؤاخذهم على السرقات الشعرية ما دامت على هذا النمط المستحسن فما ترك الأوائل للأواخر معنى لم يطرقوه . وقد قال الشعراء الجاهليون من قبل على هذه الحقيقة

---

(١) نفس الصحيفة .
(٢) ارشاد الأريب لياقوت الرومى جـ٢/٣٣١
(٣) المرجع السابق ص٣٤٠ .

وأجازوا ذلك فى شعرهم قال عنترة العبسى :

هل غادر الشعراء من متردم

وقال آخر :

ما أرانا نقول إلا معادا .

والحق أن المعانى الشعرية محدودة من جيث أصولها الإنسانية الأولى ومن أجل هذا وجب أن تقتصر مآخذ النقاد على الشعراء على طريقة الأخذ نفسها . وهذه الظاهرة أدركها المتأخرون وأقروها كما أقرها الصاحب بن عباد إلا أنهم فندوها وسموها السرقات الشعرية . وحللوها إلى أصولها ثلاثة : السلخ ، والنسخ والمسخ (١)

وقالوا بأجازة السلخ وهجنوا النسخ وأنكروا المسخ وعلى هذا الأساس النقدى لا يحق لنا بحال أن نعيب على سرقاتهم الشعرية . إذ أن كل ما ذهبوا إليه معدود من الضرب الأول الذى أجازوه إلا الشاذ . فنراهم وإن أخذوا بعض معانى من سبقوهم إلا أنهم وضعوها فى قالب غير قالبهم . والبسوها رداء غير ردائهم وأرسلوها فى أسلوب غير أسلوبهم وأبدعوها فى طريقة غير طريقتهم .

وبعد فقد أدركنا قيمة شعرهم فى ألفاظه ومعانيه . وحق لنا أن نصدر حكمنا بعد ذلك فنقول إن الصناعة الشعرية عندهم ابتداعيه ابتكارية فى الألفاظ تقليدية فى المعانى .

---

(١) انظر المثل السائر لابن الأثير ص ٢٩٩ .

الباب الثانى

فنون النثر الأدبى فى أصبهان

مدخـــــــــل :

نهـض النثر الفنى فى أصبهان فى القرن الرابع الهجـرى نهضة لم يبلغهـا فى عصـر من العصور ، فازدان بالأعلام والبلغاء ، وأئمة الكتاب ، وحفل بكثير من روائـع النثر . وألفت أمهات الأدب وأصوله ، ولقى النثر عناية كبرى فى هذا القرن للحاجـة إليه فى شئون الملك والسياسة والثقافـة والاجتمـاع ، ولازدهـار الفكر الإسلامى وتأثـره بما حولـه من ثقافـات .

وازدهـرت الكتابـة الفنيـة ازدهـارا كبيرا ، تمثل فى منزلتهـا التى بلغتهـا وحدها من بين فنون الأدب ، وفى منزلة الكتاب الاجتماعيـة التى كانت لهم ، ومـدى ما وصلوا إليه من جاه ونفوذ وسلطان ، حتى كان الوزراء يختارون غالبا منهـم ، كابـن العميد ، والصاحب بن عباد ، وهم كذلك يحصلـون على ثروات طائلـة لا يحلم بهـا إنسان لما لهـم من مراتب ، ومنح وإعانـات وإنعامـات .

وقـد تعددت ألوان الكتابة وفنونهـا ، فمن كتابة ديوانيـة إلى كتابـة الرسائـل ، إلى كتابة إخوانية ، إلى كتابة القصـص والمقامات ، إلى الكتابة العلمية التى تمثلـت فى أسلـوب التأليـف .

ولما كانت الكتابة الأدبية من الرسائل والقصص والأخبار مثارا للخيـال ، ومظهـرا لحركات الوجدان والشعـور ، ومرآة لما يجيش فى الإنسان من الرغبـات والميول والأخلاق ، اختلفت كل الاختـلاف بجميع المؤثـرات التى أحدقت باللغـة .

وكانـت أسبـاب هذه النهضـة كثيرة متعددة ، ترجع فى جملـة الأمـر :ـ

١ ـ رقى صناعة الكتابة بجهود عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وإبراهيم الصولـى ، والجا حـظ وسـواهـم .

٢ ـ رقى الحياة الاجتماعيـة ، وازدهار الحضارة ، والمدنية فى ظلال البويهـيين .

٣ ـ إنتشـار الثقافـة الأدبية والعقلية انتشارا كان له أثره فى أذواق الكتاب وعقولهـم ، وكذلك كان للعلوم المترجمة أثرها فى أخيلتهـم ، وتفكيرهـم .

٤ ـ ذيوع وسائل الترف والوشى الفنى فى الأسلوب ، مما سماه النقاد (بديعـا) واهتمام الكتاب بصور هذا البديع وألوانه اهتماما يضارع اهتمـام الشعـراء .

٥ ـ نبوغ أكثر الكتاب فى الشعر والنثر معا ، وتمكنهم من صناعتى النظم والنثر جميعا كالصاحب بن عباد والخوارزمى وسواهما .. ولا شك أن ذلك أمد الكتابة بخيال الشعر وخصائصه وسماته .

٦ ـ كثرة الدول التى تتنافس فى تشجيع الكتابة ، ورعاية الكتاب .

ويقول الثعالبى : " ان الكتاب ـ وهم ألسنة الملوك ـ إنما يتراسلون فى جباية خراج ، أو سداد ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية فى رزية ، أو ماشاكلها من جلائل الخطوب ، وأعاظم الشئون ، التى يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ، ومعارف مفتنة " (١)

ثقافة الكتاب :ـ

تعددت ثقافة الكتاب فى القرن الرابع بتعدد العلوم والثقافات ، فشملت الثقافة الدينية واللغوية والأدبية ، وشملت العلوم الجديدة التى استحدثت ، والعلوم الدخيلة التى ترجمت ، وشملت الإلمام بسياسة الملك وتدبيره ، وبالنظم الاقتصادية التى تسير عليها الدولة من جباية للخراج ، وتحصيل للجزية ، وحساب للأموال وللمصاريف والوارد ، ومن ثم جرى الكتاب فى شتى ميادين الثقافة مسافات بعيدة ، فشاركوا كل طائفة فيما تخصصت فيه من علوم ، حتى الفلاسفة المنطقيين شاركوهم فى الإلمام بمسائل هذين العلمين ، وفى الإحاطة بفروعهما ، وكان الأدب فى رأيهم هو الأخذ من كل فن بطرف ، ويروى عن ابن العميد أنه كان متفوقا ـ مع الثقافة الأدبية الواسعة فى الفلسفة والمنطق ، والهندسة والطبيعة والإلهيات ، والتصوير وغيرها ، وكذلك كان الصاحب من المحدثين والمتكلمين من المعتزلين ، ومتجرا فى علوم اللغة ، وبصيرا بالنقد ومشاركا فى الطب ، يؤلف فى كل هذه الثقافات ، ويحاضر فيها ، ويحاور العلماء من أهلها .

وكذلك كان الأمر فى الخوارزمى والبديع وأبى حيان التوحيدى الذى كان يلقب بالجاحظ الثانى وسواهم .

---

(١) مقدمة كتاب (نثر النظم) للثعالبى ط . التجارية بمصر ١٣١٧ هـ

ويروى أن الخوارزمى استأذن على الصاحب بن عباد ـ قبل أن يعرفه ـ فبعث إليه حاجبه يقول : " إنى قد ألزمت نفسى ألا يدخل على أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فراجعه الخوارزمى يسأل عن هذا القدر .. من شعر الرجال هو أم من شعر النساء ؟ ".

فدخل الحاجب فأعاد عليه . فقال : " هذا يكون أبا بكر الخوارزمى " فأذن له فى الدخول (١).

ولو تتبعنا النثر فى أصبهان فى القرن الرابع لوجدناه شاملا لمعظم صور النثر الفنى ونستطيع أن نقسمه إلى قسمين رئيسين يعتبران شطرى هذا الباب وهما :

المبحث الأول : الرسائل :

وتشتمل على الرسائل الإخوانية والديوانية والعامة .

المبحث الثانى : فنون أخرى من النثر :

وتشتمل على المناظرات والتوقيعات والحكم والأمثال والمكاتبات .

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية تأليف جرجى زيدان ج ٢ / ٢٧٤ تعليق د / شوقى ضيف (ط دار الهلال) ، تاريخ الأداب العربى لاحمد حسن الزيات ص ١٦٩ (الطبعة الرابعة) مطبعة الاعتماد سنة ١٣٤٧ هـ

أولا : الرسائـــــــل

الرسائل أحد شطرى النثر الفنى ، وتمثل السواد الأعظم منه . ولها صفـــات وسمات عامة تميزهـا عن غيرها من أنـواع النثـر . فالرسائل فى صورتها العامـــة خطابـات أدبيـة يرسلهـا أشخاص إلى أخريـن ، بعد أن يفرغها كاتبوها فى صـورة أدبيـة خاصـة ، تنقسـم إلى : مقدمة وموضوع وخاتمـة . ولكل من هذه الأقسـام الثلاثـة سمات خـاصـة ، تمتاز بها وتختلف فى أدائها وأسلوبهـا باختلاف العصـور

وتنقسـم الرسائـل الأدبيـة — بهذا المعنى — إلى الأقسام الآتيـة : —

١ — **الرسائل الاخوانيـــــة :**

وتمتاز بأن كاتبها يعبر فيها عن أحوالـه ومشاعره ، لاعن موضوعات عامة . ولذلك يسميها الكثيرون من مؤرخـى الأدب بالرسائل الشخصية لأنهـا تصـور نفـــس كاتبهـا دون غيرهـا مـن الرسائـــــل

٢ — **الرسائل الديوانيـــــة :**

وهى التى يصدرها كتاب الدواويـن بلسان الخليفة أو الأمير إلى حكام الأقالـــيم وقواد الجيوش والقضـاة لإصلاح شئون الدولة . ويطلق عليها الرسائل الرسمية . فهـى ديوانية باعتبارها صادرة عن الديوان ، وهى رسمية باعتبارهـا تمثـــل الأمـور الرسميـة والعامـة فى الدولـــة .

٣ — **الرسائـل العامـــة :**

وهـى التى يتناول فيها كاتبها موضوعات عامة لا تمس شئون الدولة ، كمـــا أنها لا تصور الشئون الخاصة لكاتبها . ولذلك تتناول موضوعـات أخرى كوصـــف الأشياء . وفى هذا النوع من الرسائل تدخل الرسائل العلميـة وبدأت أولا بذكر الرسائل الإخوانية وسميتها باسم الرسائل الشخصية لما فى هذه التسمية من شمـول وعموم — وتسمتها تقسيما فنيا — فتحدثت عن الرسائل الشخصية المتعلقة بالإخـوان ثـم أتبعتهـا بالرسائـل الشخصيـة المتعلقـة بالمناسبـات ، ثـم الرسائـل الشخصيـــة الـــتى يغلـب فيهـا روح المـــرح وسميتهـا الرسائـل

المازجة • وختمتها بالرسائل الشخصية التى يغلب عليها جانب الوصف وسميتها رسائل الوصف — وليعلم الباحث — أن رسائل الوصف التى عنيتها فى هذا القسم غير الرسائل العامة ، لأن ما فيها من وصف ليس هو الأساس الأول فى الرسائل التى من هذا النوع •

ثم ذكرت ثانيا الرسائل الديوانية وسميت الرسائل الرسمية لما فى هذه التسمية أيضا من شمول وعموم • وتحدثت فيها عن الرسائل الإدارية ثم الرسائل السياسية والحربية • ثم الرسائل القضائية وهذه الأنواع الثلاثة غالبا ما تشتمل عليه الرسائل الرسمية •

ثم ذكرت ثالثا : الرسائل العامة ، واكتفيت منها بالرسالة الطيبة التى اشتهر بها الصاحب بن عباد • ليتضح لنا أن الصاحب استطاع أن يفتح لنا فتحا جديدا فى النثر الفنى فيخضع الرسائل العلمية للأساليب الأدبية برغم جفافها وبعدها عن أساليب الفن • واستطاع فيها أن يمزج العلم بالأدب وأن يعبر عن المعانى العلمية الجافة بأساليب أدبية تشوق القارئ وتستهويه إلى متابعة ما كتبه فيها • (١)

١ — الرسائل الشخصية

إن الفارق الأكبر بين الرسائل الشخصية والرسائل الرسمية هو أن الأولى تمثل روح الكاتب وتصور لنا نفسيته تماما لأنه لا دخل لأمير أو صاحب أمر فيها ، ولا يتقيد فيها كاتبها بمعنى معين أو غرض محدد • ولذلك فإننا نسمى هذا النوع من الرسائل " الرسائل الشخصية " لأنها تعبر عن شخصية الكاتب فى موضوعها وأسلوبها معا •

أما الثانية : فدونت بلسان الأمير أو صاحب الأمر ، ويعبر فيها الكاتب عن مشاعر الأمير وما يريده ويقصده بعد أن يضفى عليها قوة أسلوبه وبيانه • والأولى

---

(١) انظر الرسائل العامة ص ١٩٥ وما بعدها (من هذا البحث)

عندى أبلغ من الثانية وأوضح دلالة على منزلة الكاتب ومقدرته الفنية لتوافر عناصر الذاتية فيها . بالإضافة إلى ما يشيع بين سطورها من الحرية الفنية :

نريد أن نقول إن الرسائل الرسمية أسلوب فحسب ، بينما الرسائل الشخصية تعتبر أسلوبا وروحا معا لأن كاتبها يعبر فيها عن نفسه لاعن غيره وهو يشعر - خلال ذلك باكتمال الحرية الفنية .

ونستطيع أن نقسم الرسائل الشخصية إلى الأغراض الآتية :

الإخوانيات :

تعتبر الإخوانيات ضربا من النثر الوجدانى البليغ ، فهى أشبه بالقصائد المنثورة منها إلى النثر ، كتبت فى موضوعات طريفه تكاد تكون من صميم موضوعات الشعر وأغراضه . ذلك لأنها تتعلق بالعتاب والتهنئة والتعزية والشوق بعد الفراق ووصف الطبيعة ومجالس اللهو والشراب .

وأى أغراض هذه التى يصطنعها الكاتب فى نثره . إنها أغراض وجدانيه تمت إلى المعانى الكلية التى يشترك فيها الناس جميعا . ولذلك فإنك تقرأها فتهتز لها نفسك ، ويتحرك لها وجدانك .

يقرأها العاشق فيحس نفسه فيها ، والحزين فيتأسى بمعانيها . وهكذا فى سائر أغراضها .. يجد فيها كل إنسان ما يخالجه من إحساس لأنها تتناول شتى العواطف الإنسانية فنجد الكاتب يتحدث وكأنه يتحدث عن مشاعرنا وعواطفنا وأحاسيسنا وبيننا وبينه قرون طويلة .

فنرى الصاحب بن عباد فى إخوانياته إنسانا كاملا ووجدانيا دقيقا يفهم الصداقة ويقدر حق الصديق ، حتى لكأنها تتحول فى نفسه فى بعض المواضيع إلى عشق عميق نلمسه فى حديثه مع من يراسله أو يتحدث عنه من معاصريه (١) .

نراه إذا عاتب تنفس عن قلب العاشق ، وإذا هنأ عبر عن صدق فى الوفاء وإخلاص الطوية ، وإذا عزى كان كأنه يعزى نفسه أو يرثى أقرب الناس إليه .

---

(١) الصاحب بن عباد حياته وأدبه ص ٨٩

وذلك ما سنلمسه واضحا في رسائله الإخوانية في شتى صورها .. ومن أبدع هذه الرسائل ..

رسالته إلى ابن العميد جوابا عن رسالته إليه في وصف البحر (١) :ـ

" وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف ما شاهده ، من عجائبه ، وعاين من مراكبه ، ورآه من طاعة آلاته للرياح ، كيف أرادتها ، واستجابة أدواتها لها متى نادتها ، وركوب الناس أشباحها ، والخوف بمرأى ومسمع ، والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك ، والأرواح بين نجاة وهلك ، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم الخطر ، وإذا لاحت لهم غرر المطالب الكثيرة حبب إليهم الغرر ، وعرفت ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرته ، وحصولي على مساعدته ، ومن رأى بحر الأستاذ كيف يزخر بالفضل ، وتتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفيته من منظر البحر ، ولا فضيلة له عندي أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله ، واستعظامه لأهواله ، كما لا شيء أبلغ من مفاخره ، وأنفس في جواهره ، من وصف الأستاذ له فإني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال ، والبحر الحرام لا الحلال . وقد علم أنه كتب ولم يخطر بفكره سعة صدره ، فلو فعل ذلك لرأى البحر وشلالا لا يفضل عن التبرض وثمدا لا يكثر عن الترشف .

وكم من جبال تشهد أنك الـ جبال وبحر شاهد أنك البحر ".

قال صاحب اليتيمة : " وكان أبو بكر الخوارزمي يحفظ هذه الرسالة ، وكثيرا ما كان يقرأها ويعجب السامعون من فصاحتها ، ولم أراه يحفظ من الرسائل غيره (٢)

ومن إخوانياته التي أبدع فيها ما أورده أبو إسحاق الحصري في كتابه " زهر الآداب وثمر الألباب " رسالة الصاحب بن عباد إلى أبي سعيد الشبيبي :

" وقد رأى شيخ الدولتين كيف الكلف بسادتي من أهل ميكال ، أيدهم الله بين ود أصره على البعد ، وإيثار أظهره على تراخي المزار ، وتقريبظ يعليه على الملوان ، ومدح أنطق فيه بلسان الزمان ، حتى إن ذكرهم إذا جرى على لساني اهتزت له نفسي وفضلهم إذا جرى على سمعي انفرج له صدري ، فتلك عصبة خير فضلها باهر ، وشرفها

---

(١) يتيمه الدهر للثعالبي جـ ٣/ ٢٢٩ ، ٢٣٠

(٢) المرجع السابق جـ٣/ ٢٢٩

على شرف النماء زاهر ، وشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، والله يتمم اعدادها ، ولا يعدمنى ونادها ، وإذا كان إكبارى لهم هذا الاكبار فكل منتسب إلى جنبهم أسيرلديه ، كثير فى يديه ، وطرأ علىّ فلان منتسبا إلى جملتهم ، وحبذا الجميلة ، ومعتزيا إلى خدمتهم ، ونعمت الخدمة فقررتها عن طبع سمح ، ولفظ عذب وصله نثر ينظم ، فإن شاء قال أنا الوليد ، وإن شاء قال أنا عبد الحميد، ولم أعظم من خرجته تلك النعمة ونتجته تلك السدة أن يأخذ من كل حسنة بعروة ، ويقدح فى كل نار بجذوة ، وآنسنا بالمقام مدة، أكدتها شوافع عدة ، إلى أن تذكر معاهد رأى فيها الدهر طلقا ، والزمان غلاما والفضل رهنا ، والإفضال لزاما ، فحن حنين الركاب ، وركب عزيم الايباب (١) .

وتعتبر إخوانيات بديع الزمان ضربا آخر من النثر الوجدانى البليغ ، ومن عظيم إخوانياته .. كتابه إلى أبى بكر الخوارزمى الذى يقول فيه :

" أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر ، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصبهاء والبارد العذب ، ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغض الرطل .

فكيف نشاط الأستاذ بصديق طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان .(٢) بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان . وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جمال . وجلدة حمال .

رث الشمائل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو أيده الله ولى إنعامه . بانفاذ غلامة . إلى مستقرى . لأقضى إليه بسرى . إن شاء الله تعالى (٣) .

ومن جيد إخوانيات البديع أيضا رسالته إلى بعض الرؤساء ..(٤) .

" مرحبا بسلام الشيخ ولا كالسرور بطلعته وقد وصلت تحيته فشكرتها . وعِدَتُه الجميلة بالحضور غدا فانتظرتها . ودعوت الله أن يطوى ساعات النهار . ويوزج

---

(١) زهر الآداب للحصرى جـ ١/١١٢ (ط زكى مبارك)

(٢) القصبة هى المدينة أو معظم المدن . وقصبة خراسان كانت الرى . يريد أنه طوى إلى لقائه جميع المدن . فيسأله عن نشاطه لضيف صفته ما ذكر .

(٣) كشف المعانى البيان عن رسائل بديع الزمان لابراهيم الأحدب ـ دار التراث ـ بيروت ص ١٢٨ ، ١٢٩

(٤) المرجع السابق ص ١٤١ ، ١٤٢

الشمس فى المغار (١) ويقرب مسافة الفلك ويرفع البركة عن سيره . ويجهز الحركة إلى دوره . ويسرنى بوفد الظلام وقد نزل . ثم لا يلبث إلا ريثما رجل . وبعثت بما طلب سمعا وطاعة .

والنسخة أسقم من أجفان الغضبان . والشيخ سيدى أعزه الله إن يركض قلمه فى إصلاحها أتم معروفه وحسبذا فى غد هو وقد طلع كالصبح إذا سطع . والبرق إذا لمع :

يا مرحبا بغد ويا أهلا بـه إن كان إلمام الأحبة فى غد (٢)

ومن جيد إخوانيات الصاحب التى ذكرها ياقوت فى معجم الادباء " رسالته إلى القاضى أبى بشر الفضل بن محمد الجرجانى عند وروده باب الرى وافدا عليه :

تحدثت الركاب بسير أروى إلى بلد حططت به خيامى
فكدت أطير من شوقى إليها بقادمة كقادمة الحمام

أفحقا ما قيل من أمر القادم ؟ أم ظن كأمانى الحالم ؟ لا والله بل هو درك العيان . وإنه ونيل المنى وسيان ، فمرحبا أيها القاضى براحلتك ورحلتك ، بل أهلا بك وبكافة أهلك ، ويا سرعة ما فاح نسيم مسراك ، ووجدنا ريح يوسف من رؤياك فحث المطى نزل علتى برويّاك ، وتزح علتى بلقياك ، ونص على يوم الوصول تجعله عبدا مشرقا ، وتتخذه موسما ومعرفا ، ورد على الغلام أسرع من رجع الكلام فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، يترك الصبانى فى عقال وأسر "

سقى الله دارات مررت بأرضها فأدنتك نحوى يازياد بن عامر
أصائل قرب أرتجى أن أنالها بلقياك قد زحزحن حرّ الهواجر (٣)

ورسائل بديع الزمان الشخصية كثيرة منها كتابه إلى والده (٤) :

" كتابى أطال الله بقاء الشيخ وتواترت الأخبار من قبل أنه وارد لا محالة وتلقيت

---

(١) المغار : مكان الغور وهو بمعنى الغروب ، يزج الشمس بمعنى يدفعها فى محل غروبها .
(٢) هذا البيت للنابغة الذبيانى من قصيدة وصف بها المتجردة زوجة النعمان وقد غير بعض الفاظه فى تمثله به وأصله :
لامرحبا بغد ولا أهلا بـه إن كان تفريق الأحبة فى غد
(٣) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ / ٢٨٩
(٤) كشف المعانى والبيان ص ٢٤٧ ، ٢٤٨

هذه الحالة بمقتضاهـا شكرا وصدقة . ثم ورد كتابـه بأن الأمر فى ذلك فتر . لعـارض علة ذكـر . فقسمـت قلبى جزأيـن . وما حال الواحـد بين اثنين . أحدهما يبكيـه . والآخـر يشكيه . وقلت العافية . وألـزم الناحيـة .

ولـم يرد كتابه بعد بذكر السلامة وقد علم ما بين الجوانح من قلق . وتحت الترائـب من حُرقٍ . حتى أسمع بالسلامـة أفيضـت عليه . وقد خرج القاضى أبو ابراهيم حاجـا وإن رأى أو فعل . فمعـه إذا قفل . وإن أبـى وقعـد . فقد أقلته عمّا وعـد . لا يزعجـنى بعـدُ بوعـدٍ والسـلام .

ومن جميـل إخوانياتـه كتابـه إلى صديق يبين له أنه لا يعـيره كتابا لـه آخـر حتى يرد إليه الكتاب الذى استعير منه قبلا . فكتب إليـه (١) :

" حاجتى أطال الله بقاء الشيخ إلى أمثال أفعل (٢) شديدة ، وحسرتى علـى رد هذا الكتاب أشـد . لكن مولاى ألدّ . لا يعير حتى يَرُدّ . فإن رأى أن يردهمـا جميعـا جمـع فى الطول بين الروض والمطـر . وإلا فـرأيـه أولـى " .

وظاهـر هذه العبارة أن الشيخ هو المعير . لكن يفهم بعـده أنـه مستعـير ، وأن المعـير هـو أبـو الفضل . والجمع يرد الكتابين معا يكون بغاية الحسن لأن الجمـع بين الروض والمطـر فى غاية المناسبـة والحسن . لأن الروض لا يستغنى عن المطـر .

ومن رسائل الصاحب الإخوانية رسالة إلى أبى على الحسين بن أحمد فى شأن أبـى عبد الله محمد بن حامـد والتى قال الثعالبى بصددهـا سمعت الأمير أبا الفضل عبدالله ابن أحمد الميكالى يسردهـا فزادنـى جريها على لسانه وصدورها عن فمه إعجابا بهـا " أولهـا :

" كتابى هذا يا سيـدى صدر من سحنة (٣) وقد أرخى الليل سدولـه ، وسجـد الظلام ذيولـه ، ونحن على الرحيـل غـدا إن شاء الله إذا مـد الصبـاح غـرره

---

(١) كشف المعانـى والبيـان ص ١٤٢
(٢) أمثال أفعل : كتاب مؤلف بما كان على وزن أفعل من ألفـا ظ اللغـة .
(٣) سحنـة : موضـع بـين بغـداد وهمـذان .

قبل أن يسيغ حجوله ، ولولا ذلك لأطلته كوقوف الحجيج على المشاعر ولم أقتصر منه على زاد المسافر ... (١) ".

ومن الرسائل الشخصية للبديع رسالته إلى أخيه (٢) : وهذه نسختها :

" كتابي أطال الله بقاءك ونحن وإن بعدت الدار فرعا نبعة فلا تُحَيِّنَنَّ بعدي على قربك ولا تَمْحُوَنَّ ذكرى من قلبك . فالإخوان وإن كان أحدهم بخراسان ، والآخر بالحجاز ، مجتمعان على الحقيقة مفترقان على المجاز ، والاثنان في المعنى واحد وفي اللفظ اثنان وما بيني وبينك إلا سترٌ طوله فترٌ ، وإن صاحبني رفيق ، اسمه توفيق ، لنلتقينَّ سريعا ، ولنسعدنَّ جميعا ، والله ولي المأمول جُعِلت فداك ، الشقيق سيء الظن وما أحوجني إلى أن أراك ولا قرابة إلا الإخوة وتلك والله يعيذك نازلة الدهر ، وقاصمة الظهر ،

وإن يشاء الله يُسنِكَ سَنَاً ، وينبتك نباتا حسنا ، والله أولى بك من أخيك ، وهو حسبي فيك ، فأستعين بالله وحده ، أليس الله بكاف عبده ، والسلام " .

ومن إخوانيات أبي بكر الخوارزمي رسالته إلى صاحب البريد بالري كتبها من أصفهان (٣) :

" قد كنت أحسب الفراق يسير الخطب ، هين الوقع ، قليل العبء والثقل ، خفيف الكل والظل ، حتى دهيت بفراق سيدي ، فعلمت من مقدار الفراق ما كنت جهلته ، ووجدت من شخصه ما كنت أضللته ، وعلمته من طريق المطالعة والمعرفة ، وإنما كنت أراه من طريق التخيل والصفة ، وتذكرت قول جرير :

لو كنت أعلم ان آخر عهدكم هذا الفراق فعلت مالم أفعل .

ولكني لو علمت أني أقعد تحت أعباء الاشتياق ، وأتفسح تحت ثقل الفراق ، لصحبت

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٦ / ٢٨٧

(٢) كشف المعاني والبيان للأحدب ص ٢٤٥

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي الطبعة الأولى طبعت بمطبعة الجوائب في قسطنطينية سنة ١٢٩٧ ص ٥٣ إلى ٥٥

سيدى فراشا أو ركابيا ، أو طباخا أو شاكريا ، ولو وسعت أكثر من ذلك لقلت اصحبه كاتبا أو حاجبا ، أو نديما ، أو صاحبا ، أو مغنيا أو ضاربا .

ولكنى أخشى أن يتفضل سيدى بقبولى ، وينشط لحضورى ، ويحملنى عند المشاهدة على شرائط المحبة ، ويتقدم إلى بالخروج من العهدة ، ويقول أيها المبرز علينا نفسه فى معرض الدعوى العريضة ، دونك فأكشف عما ادعيت ، أو فاكشف عما جكيت ، وعد واضرب عما أظهرت وأبديت . فإذا بسيدى أبى بكر أخجل من نجراء تكلمت ، ومن نوهاء تبسمت ، قد جلس على قافية الدهش والتحير ، وفتح جراب الخجل والتشور ، وحك لحيته خجلا ، وعبث بلحيه ارتياذا وذهلا ، و أخذ يتشاغل بالحديث عن السدى ، وعن الحسن البصرى وعامر الشعبى وينشد :

فقانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل .

اللهم إنا نعوذ بك من مواقف الإ نخذال ، ومن سقطات المقال ، ومن دعاوى المحال ، سبحان الله ليت شعرى ما الذى جمح بى إلى كل هذا الهذيان ، وما الذى حملنى على أن أركض فى عرض هذا الميدان ، وما الذى مال بنا من ذكر الأشواق ، ومن حديث الفراق ، إلى كل هذا الحديث الغث ، والكلام الرث ، وهكذا من يركب الجواد وليس بفارس ، ويكاتب وليس بكاتب ، ويقرع باب صناعة لم يستوف حقوقها ، ولم يسلك طريقها ، ولم يختلف إلى أهليها ، ولم يعثر قدمه فيها ، قد خرجنا إلا من هذا الميدان ، ورجعنا إلى باب هدر اليوم والغربان ، وأنا والله أشوق إلى سيدى منه إلى إحراز خصل المجد ، وتحصيل قصب الحمد ، بل أشوق منه إلى الإحسان الذى هو أخوه وشقيقه ، والاتصال الذى هو شريكه ورفيقه .

بل أشوق منه إلى أصفهان ، وإلى فراق خراسان ، بعد ما عاين من تفاوت أحوالها ، وسخافة رجالها ، وحقارة أعمالها بل عمالها ، ولو لم يرسيدى فيها من طبقات التخلف غير كاتب هذا الكتاب . لكان كافيه فى هذا الباب المخلقون صانهم الله تعالى .. قد انفذت رسولى إليهم ، وعرضت مالى وقليل جاهى عليهم . فانقبضوا ولا ألومهم على ذلك . بعدما رأيت من انقباض

سيدى عمن كان لا يبخل عليه بملك خراسان ، وتاج أنو شروان ، وصرح هامان وطرازى قاشان وخوزستان . وبعدما عرض عليه ما يملك عرضا غير سابرى ، وبذله بذلا غير مجازى . والانقباض فى غير مكانه توكيد للحشمة ، وظلم للجود والثقة ، وقطع لعلائق المباسطة والخلطة . وكذلك الانبساط فى غير مكانه استهداف للهوان ، واكتساب للمقت والسنان ، وفتح لباب الهجران ، وتعرض لقطيعة الإخوان . والسلام ".

وأجود إخوانيات الصاحب ما كتبه فى آخر حياته ، ومنها رسالته إلى أبى العلاء الأسدى : أولها :

يقر بعينى أن يلم رسولها ببابى وتهدى بالعشى سلامها
ويذكر لى دون الرجال حديثها وينشر عندى نطقها وكلامها

ورد يا شيخى .. أطال الله بقاءك - رسولك بكتابك سبق الأفكار والظنون وحسدت عليه القلوب العيون ، وترك الواصفين بين قاصر ومقصر ، ومثل ليالينا بين اللوى فمحجر ، بكلام كالورق النضير ... (١) .

وهى رسالة طريفة تدلنا على أن الصاحب كتبها فى أواخر حياته متحسرا على الشباب الفائت وأيامه الرطيبة الغضة بدليل قوله فيها : " والله نسأل إعادة هاتيك الأحوال ، وتلك الأيام الخضراء والظلال ، وإن كان الله قد زادنا بعدل مناجح ومباهج ، وأيادى غوادى وروائح ، حتى فتحنا الفتوح وذللنا الصروح ...

وقوله : " ولا استكره ، وقد رميت بسهم الأربعين وأوفيت على شرف الخمسين ، مدفوع الأشغال والأثقال إلى متاعب ومصاعب لو منى بها ابن ثلاثين قويا أزره ، طريا جرحته ، لقام عجزه ، وقعدت به نفسة ، وأظن كنت قديما قلت :

وقائلة لم عرتك الهموم وأمرك ممتثل فى الأمم
فقلت وعينى وما قد عرا فإن الهموم بقدر الهمم ".

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ / ٣٦٥ - ٣٦٩

ومن رسائل العتاب عند بديع الزمان رسالته إلى بعض أصدقائه يعاتبه (١) . كتب فيها :

" الوحشة أطال الله بقاء الشيخ تقتدح فى الصدر . اقتداح النار فى الزَنْد . فإن اطفئت بارت وتلاشت . وإن عاشت طارت وطاشت . والقطر إذا تدارك على الإناء امتلأ وفاض . والعُثّ إذا ترك فتّ وباض (٢) .

ونحن أولو هذه الصنعة لا يطردنا سوط كالجفاء . ولا يعقلنا شَرَكٌ كالنداء . ثم على كل حال . ننظر من عال . على الكريم نظر إدلال . وعلى اللئيم نظر إزلال . فمن لقينا بأنف طويل . لقيناه بخرطوم فيل . ومن لحظنا بنظر شرر . بعناه بثمن نَزْرٍ (٣) .

وعندى أن الشيخ الرئيس لم يغرسنى ليقطعنى فتاه . ولا اشترانى ليبيعنى سواه . ويحك سلّمت عليه الغداة فرد جوابا يُرَدُّ مثله على الوكلاء . بشطر الايماء . واقتصر من البشاشة على تحريك الشاشة . ومن الاقبال .. على تعويج السبال (٤)

وعهدى بذلك الرئيس يخرق إلىّ بِسَاطَه عَدْوا . وسماطه حبوا . فهذا الفاضل أجل من والده الفقيه أيده الله يوصيه بحسن العشرة معى من بعد فللتيه يوم . وللجبروت قوم .

وما أريد بعد هذا الاعتاب اعتابا . ولا عن هذه الرقعة جوابا . فإنى لا أمكنه بعدها من أن يستهين . ولا أسلم عليه حتى يُهين . والحمد لله رب العالمين "

وهذه الرسالة البليغة التى أرسل بها إلى ابن اخته يحثه على طلب العلم والأدب منها :

" أنت والدى ما دمت والعلم شأنك . والمدرسة مكانك . والمحبرة حليفك . والدفتر

---

(١) كشف المعانى والبيان للأخدب ص ٢٦٤ — ٢٦٦
(٢) العث : بالضم هو دود يلمس الصوف واحدته عثة ، فإذا أهمل فى الثوب كثر .
(٣) النزر : هو القليل ، والنظر الشذر هو النظر بمؤخر العين .
(٤) السبال : جمع سبله . والشاشة يريد بها العمة ، وتحريكها امالتها .

أليفك . فإن قصرت ولا إخالك . فغيرى خالك . والسلام (١) " .

ومن رسائل التعازى عند الصاحب بن عباد هذه الرسالة التى أرسل بها إلى قابوس بن وشمكير ردا على تعزية له (٢) . منها

" وصل للأمير مولاى مانظمه بقلمه ، وأسهمة لى من نفائس قسمة ، بألفاظ هن عقد السحر ، وقلائد الدر ، فى تعزية هى التهنئة حقا ، وتسليمة هى التكرمة صدقا ، ولست أدرى لأى الحالين أخطب شاكرا ، وانتدب ناشرا ، ألما ظهر من شرف أخلاقه ووفور إشفاقه ، أم لتجشم يده فى تشريف عهده ، فقد أولانى به مكرمة لا أنفك من التجلى بفخرها ، ومنة لا أستطيع حملها لعظم قدرها ، فأما ما نحلته باديا من الأوصاف التى اشتقها من فضائله ، وانتزعها من كريم شمائله ، فأياد تمر تطوقتها وعوائد زهر تنطقتها ، لا أخلى الله أهل الفضل من فواضله ، وأرواهم بدر مخائله .. (٣)" .

ومن الرسائل البليغة أيضا رسالة الخوارزمى إلى أبى سعيد رجاء بن الوليد الأصفهانى ردا على خطاب أرسله إليه يقول فيها :

" وصل إلىّ كتاب الشيخ وعقته ، إذ لم أطر فرحا لما رأيته ، ولم أنطح الفلك فخرا وعجبا لما فككته ، ولقد استخفنى الفرح به واشتغلت بلحظه عن حفظه وتصرفت من فصوله فى رياض سقتها الخواطر ، لا الغيوث المواطر ، وطلعت على شمس البها ، لا شمس الضحى . لا بل روضة الخط أحسن من روضة النبات لأن روضة النبات مداس للخف والحافر ، وطريق للسابل والعابر ، وتلحظها أعين اللئام ، وتدوسها أرجل العامة والطغام . وهذه الروضة عن أكثر العيون مكنونة ، وعن أكثر الأيدى مصونة ، لا يرتع فيها إلا ناظر خاص ، ولا تمسها إلا يد نبيل سوى . قال ديك الجن .

لو كنت أملك للرياض صيانة ... يوما لما وطئ اللئام ترابها .

---

(١) كشف المعانى و البيان لابراهيم الأحدب ص ٢٣ ٥

(٢) هذه الرسالة وقعت بينهما فى أواخر حياة الصاحب وفى عهد مخدومة فخر الدولة حين انتهى النزاع الذى كان قائما بين قابوس وبين الملك عضد الدولة وأخية مؤيد الدولة .

(٣) رسائل قابوس وشمكير ص ٧٠ ـ ٧٢ (ط السلفية ١٣٤١ هـ)

رأيت الشيخ يرفعني في خطابه إلى غاية تتقاصر عنها قيمتي ، ولا تطمح نحوها همتي ، فعلمت أنه يسلفني نعمته لأدخل في غرامه ، وأصير واحدا من جملة انعامه ، وليكون قد تناولني بالبر من كل طرقه قولا وفعلا وجوهرا ، وعرضا ولسانا وبيانا والله تعالى يكافئه ويكفيه ، ويبقيه ويقيه ، ويرضيه كما ارتجيه ، ويهنيني ما أحب له فيه (١) .

ونرى من رسائل التعازي عند بديع الزمان هذه الرسالة التي ارتقى إلى الذروة العليا فيها بلطف مقاله والتي كتبها إلى الشيخ الامام أبي الطيب يعزيه وفيها يقول : (٢)

" و تالله ما يضرب الكلب . كما يضرب هذا القلب . ولا يقطر الشمع كما يقطر هذا الدمع . والنار أرفق بالزناد . من هذه المصيبة بالأكباد . ومالسم سلطان هذا الغم . ولا للخمر . طغيان هذا الأمر . ونفسي إلى القبر أعجل منها إلى الصبر . وأذناي بالموت . آنس منهما بهذا الصوت . أو لم يكفنا الجرح . حتى ذُرَّ عليه الملح . ألم أكن من أبي القاسم مثقل الظهر فما هذه العلاوة على الحمل . ولم هذه الزيادة على الثقل . من هراة وأنا بين القول والعمل . أعمل في السفا (٣) .

وأقول وا أسفا . والحمد لله الذي كدر وصفا . وصلواته على نبيه المصطفى . وآله المجتبى ، لولا أن يتطير (٤) الشيخ عن مقدمي فيقول : لا يأتيني إلا عند مصيبة لسقيت تربة هذا النجم الآفل من دموعي . وقدّمت أحداثه

---

(١) رسائل أبي بكر الخوارزمي ص ١٥٧

(٢) انظر كشف المعاني والبيان لابراهيم الاحدب ص ١٢٠ - ١٢٢

(٣) السفا : خفة الناصية والهزال وكل شيء له شوك ويطلق على السفه . ويقال السفا بالفتح والمد وهو انقطاع لبن الناقة . وككساء الدواء - وكأن أبا الفضل عنى بالسفا هذا المعنى الاخير . وقصرة لا زدواج السجع . أي أخذت أعمل فسي الدواء من هذا المصاب .

(٤) الطيرة بكسر ففتح والطيرة بكسر فسكون . والطورة بضم الطاء ما يتشاءم من الفعل الردى وتطير به ومنه .

بضلوعى . ولكنه ألقى فى روعى أن خدمتى هذه طِيَرَةٌ . وأن تأخرى عنها خيرة . فكلما استخفنى إليه الجزع . أقعدنى عنه الفزع . ولو كان أحد من البرية فوق أن يُذَكَّر بالله لكأنه الشيخ أدام الله عزه لما أوتى من تمام النفس وكمال الفضل والمعرفة بأحوال الدهر والعض على ناجذ الحلم . ولكن لفقد الكريم لوعة . ولفجأة المصيبة روعة . ليس لها إلا التدبر . والتذكير و التذكر . فأنا أذكر الله عز وجل الذى أنفذ فى مشارق الأرض أمره وأجرى بين اللحوم والجلود حكمه . وجعل أكثر هذا العالم دونه . وصان مع ذلك من الشوائب دينه . وأبقى له من صالح الأولاد من يقر عينه . ومن طيب النسل ما يقوى ظهره . ويغيظ عدوه . ولن يُنْسِىَ الكثيرَ من آلائه . القليل من بلائه . والله يجعل هذه المصيبة خاتمة المصائب ولا يُريه فى الأعزة سوءا أبدا "

وفى الشكوى يكتب بديع الزمان إلى الشيخ أبى النصر الميكالى يشكو إليه خليفته بهراة قائلا : (١)

" كتابى أطال الله بقاء الشيخ الجليل والماء إذا طال نكثه . ظهر خبثه . وإذا سكن متنه . تحرك نتنه . كذلك الضيف يسمج لقاؤه . إذا طال ثواؤه ويثقل ظله . إذا انتهى محله . قد حَلَبْتُ أشطرَ خمسةٍ أشهر بهراه ولم تكن دار مثلى لولا مُقَامُه . وما كانت تسعنى لولا إمامه .

ولى فى ثِنْتَيْنِ مَثَلَ صدقٍ . وإن صَدَرا مَصْدَرَ عِشْقِ

وأدنيتنى حتى اذا ما ملكتنى ... بقولٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهلُ الأباطحِ
تَجافيتِ عنى حيث لالِىَ حيلةٌ ... وغادَرْتِ ما غادَرْتِ بين الجوانحِ

نعم قنصتنى نعم الشيخ فلما علق الجناح . وقلق البراح . طار مطار الريح لا بل مطار الروح وتركنى بين قوم ينقض مسهم الطهارة . وتُوهِن أكفهم الحجارة وَحُدِّثْتُ عن هذا الخليفة . لا بل الجيفة . أنه قال قضيت لفلانٍ خمسين حاجة منذ ورد . هذا البلد وليس يقنع . فما أصنع .

---

(١) انظر كشف المعانى والبيان لابراهيم الأحدب ص ٢٥٣ ، ٢٥٤

فقلت يا أحمق إن استطعت أن ترانى محتاجا فأستطع أن أراك محتاجا إليك . أف لقولك وفعلك . ولدهر أحوج إلى مثلك . وأنا أسأل الشيخ أن يبيض وجهى بكتاب يسود وجهه ويعرفه قدره . ويملأ رعبا صدره . إلى أن يُبينَ على صفحات جَنْبِه . آثار ذنبه . وله فيما يفعل رأيُة الوفق إن شاء الله تعالى "

وله رسالة كتبها إلى أبى الفوارس الأصمّ ونراه يهزأ بالشيخ ويتهكم به ومنها (١) :

" يعجبنى أن يكون الشيخ فصيح اللسان طويلَهُ . حسن البيان جميلَه . ولا يعجبنى أن يطول لِسَانُه حتى يلحس به جبينه . ويضرب به صدره . فخير الأمور أوساطها . وأمام الساعة أشراطها . والغاية شوْم . والاستقصاء لوْم .... والسلام ".

وكتب أيضا رقعة إلى أشخاص فى رجل يمتنع من أداء ما عليه له من دين ويأمرهم أن يلزماه داره ، ويعرفاه مقداره . يأنه سخيف . ويمنعاه الطعام الطيب ، والهواء الجيد ، وبارد الماء . أى يمنعاه من الرفاهية حتى يوْدى ما وجب عليه أو يفعلا به كما يفعل بالكلب الميت فيجرّا برجليه .. منها (٢) :

" سيرا على اسم الله وعونه إلى الكلب ابن الكلبة . واليابس ابن الرطبة . والضيق ابن الرحبة . والزماه داره . وعرفاه مقداره . وامنعاه طيب الغذاء . وريح الهواء . وبارد الماء . حتى يوْدى ما عليه . أو تجرا برجليه (٣) ان شاء الله تعالى ".

ومن الرسائل الشخصية أو الإخوانية رسائل التهانى والتعازى وهى وان كانت من الإخوانيات إلا إنها كتبت فى مناسبات وأحداث خاصة دعت إليها .

---

(١) كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان للأ حدب ص ٥١٠
(٢) المرجع السابق ص ٣٢١
(٣) أو تجراً معطوف على يوْدى وهو منصوب بحذف النون لأن الخطاب مع اثنين .

ومنهـا رسالة الصاحب المشهورة تهنئـة بمولد بنت وفيهـا يقـــول (١) ٠

أهـلا وسهـلا بعقيلـة النساء ، وأم الأبنـاء ، وجالبـة الأصهـار ، والأولاد الأطهـار ، والمبشـرة بإخـوة يتناسقـون ، نجبـاء يتلاحقون :

فلو كان النساء كمثل هـذى ... لفضلت النساء على الرجـال
وماالتأنيث لاسم الشمس عيـب ... ولا التذكير فخر للهـلا ل

فادرع يا سيدى اغتباطا ، واستأنـف نشاطا ، فالدنيا مؤنثه والرجال يخدمونهـا ، والذكور يعبدونهـا ، والأرض مؤنثـة ومنهـا خلقت البرية ، وفيهـا كـثرت الذريـة ، والسماء مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقـب ، والنفس مؤنثـة ، وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ، ولولاها لن تنصرف الأجسـام ، ولا عـرف الأنام ، والجنة مؤنثـة ، وبها وعـد المتقـون ، ولهـا بعـث المرسلون ٠

فهنيئـا هنيئـا ما أوليـت ، وأو زعـك الله شكـر ما أعطيـت ، وأطال بقـاءك ما عرف النسل والولـد ، وما بقى الأمد ، وكما عمـر لبـد "٠

ومـن الرسائل الإخوانيـة رسائل العزاء ٠ ومن هذه الرسائـل ما كتبه بديـع الزمان إلى أبـى عامر عدنان بن عامر الضبى يعزية ببعـض أقاربـه ٠٠ ونصهـا :

إذا ما الدهر جر على أنـاس ... حوادثـه أناخ بآخرينـا
فقل للشامتين بنا أفيقـوا ... سيلقى الشامتون كما لقينـا

أحسـن ما فى الدهر عمومه بالنوائب ٠ وخصوصه بالرغائب ٠ فهو يدعو الجفلـى إذا سماء ٠ ويختص بالنعمة إذا شاء٠ فلينظـر الشامت فإن كان أفلـت فلـه أن يشمت٠ ولينظـر الإنسـان فى الدهـر وصروفـه (٢) ٠

---

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ٥/ ١٣٣ ، ١٣٤ (ط دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٥م
(٢) صروف الدهر أحداثه ونوائبه ، أفلت بمعنى تخلص من أنيابه ، والجفلى هـى الدعوة العامة ٠ يقال دعاهم الجفلى ٠ والاجفلى أى بجماعتهم وعامتهم ، والأجفلى الجماعة من كل شئ ٠ " أى يكون احسان الدهر خاصا وبلاؤه عاما لكـن لا يفلـت من نوائبـه أحـد "٠

والموت وصنوفه • من فاتحة أمره • إلى خاتمة عمره • هل يجد لنفسه أثرا فى نفسه أم لتدبيره • عونا على تصويره • أم لعمله • تقدما لأمله • أم لحيلته • تأخيرا لأجله •

كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا • خلق مقهورا • ورزق مقدورا • فهو يحيا جبرا • ويهلك صبرا • وليتأمل المرء كيف كان قبلا • فإن كان العدم أصلا • والوجود فضلا • فليعلم الموت عدلا • والعاقل من رفع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ما ضر بما نفع وإن أحب أن لا يحزن فلينظره يمينه • هل يرى إلا محنة • ثم ليعطف يسرة • هل يرى إلا حسرة •

ومثل الشيخ الرئيس من تفطن لهذه الأسرار • وعرف هذه الدار • فأعد لنعمتها صدرا لا يملأه فرحا • ولبوسها قلبا لا يطيره جزعا • وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة جدا • وللعارية ردا • ولقد نُعِىَ إلى أبى قبيصة قدس الله روحه • وبرد ضريحه • فعرضت علىَّ أمالى قعودا • وأمانىّ سودا • وبكيت والمخىُّ بما يملك • وضحكت وشر الشدائد ما يضحك • وغضضت الاصبع حتى أفنيته • وذممت الموت حتى تمنيته • والموت خطب قد عظم حتى هان • وأمر قد خسن حتى لان • ونكر قد عم حتى عاد عرفا • والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها • وجنت حتى صار أصغر ذنوبها • وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها • وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها • ولعل هذا السهم آخر ما فى كنانتها • وأزكى ما فى خزانتها • ونحن معاشر التبع نتعلم الأدب من أخلاقه • والجميل من أفعاله • فلا نحثه على الجميل وهو الصبر • ولا نرغبه فى الجزيل وهو الأجر • فليرفيهما رأيه إن شاء الله تعالى •" (١) •

وقد أحسن أبو الفضل التأبين فى هذه الرسالة بما هو مطلوب شرعا • والحق أن الصاحب بن عباد لايجارى فى فن الرسائل على العموم • فنراه قد وفق فى الرسائل الإخوانية • وبرع فيها • وقد ضاعف هذه البراعة ما وهب من نفس حساسة

---

(١) كشف المعانى والبيان لابراهيم الأحدب ص ٢١٢ : ٢١٤ •

تشعر بشعور إخوانه ومعاصريه ، نفس تحس بما ينتاب المجتمع من خير وشر وتتجاوب مع مشاعره ، وتتفاعل مع كيانه . بالإضافة إلى ما وهب من علو فى الفن ومقدرة فى التخلص ، وتصوير المعنى فى الصورة التى يريدها حتى تراه فى الرسالة الواحدة يجمع بين التهنئة والعزاء .

والكاتب لا يستطيع أن يجمع بين الفنين إلا إذا وهب حظا من الفن ومقدره خاصة على الأداء الأدبى .

ولعل من أروع الأمثلة لذلك رسالته إلى صديق له يهنئه بزواج أمه ويعزيه بموت أبيه . كتب إليه : (١)

" الأيام — أطال الله بقاءك — تجرى على أنحاء مختلفة ، وشعب متفرقة ، وأحكامها تتفاوت بيننا بما يسوء ويسر ، وينفع ويضر ، وبلغنى من نفوذ قضاء الله فى شيخك — رحمه الله — ما أزعجنى ، وأبهم طرق السلوة دونى ، وإن كان من خلفك غير خارج عن مزية الأحياء ، ولا حاصل فى زمرة الأموات ، والله يأسو كلمك ، ويسد ثلمك ، وقد فعل ذلك ، بأن أتاح الله لك بعد أبيك أبا لا يقصر عنه شفقة عليك وحنوا وإيثارا لك وبرا ، وقد لعمرى وفقت حين وصلت حبلك بحبله ، وأسكنت الكبيرة — حرسها الله تعالى — ظله ، لئلا تفقد من الماضى — عفا الله عنه — إلا شخصه ، فالحمد لله الذى أرشدك لما يعيد الشمل مجتمعا بعد فراقه ، والحدد موفورا بعد انتقاصه حمدا يقضى لك بالمسرة ، ويحسم دونك مراد الوحشة ، ويُلَقّيكَ ثواب ما قضيته من الحق ، وتحملته فيه من الأوْق (٢) ، انه فعال لما يريد ".

والصاحب فى هذه الرسالة عظيم المهارة واسع الحيلة حيث استطاع ببيانه أن يجمع بين غرضين متباعدين كل البعد . وذلك مالا يتيسر إلا لأديب فذ وحكيم أريب .

---

(١) نهاية الارب للنويرى جـ ٥ / ١٣٩ .
(٢) الأوق : الثقل .

الرسائل المازحة :-

تفنن الكتاب فى الرسائل الإخوانية حتى ابتكروا فيها لونا جديدا لم يسبقوا إلى الإجادة أو الإطناب فيه . وذلك ما عنيته وسميته بالرسائل المازحة . وربما كان هذا النوع من الرسائل أشد انطباقا على فنهم ، وأصدق من غيره حسا ، وأعظم تمثيلا لطريقتهم وأسلوبهم .

ومن أشهر الرسائل المازحة رسالة الصاحب بن عباد إلى الغضائرى ومنها (١) :-

" الغضائرى وما أدراك ما الغضائرى ، استزاد إلى الجمال جمالا ، وعاد بدار وكان هلالا ، فإن شئت فالغصن ميال ، وإن شئت فالدعص منهال .

كأن جميع الناس يلقون وجهه ... يناظرك المفتون والحب شامل
ويدك إن أحببت فالغصن مائل ... وإن تصب بعد الدّعص فالدّعص هائل

وهو يهدى إليك سلاما كرقة خده ، ونسيم عُرفه وغزارة دمعك من بعده .

سلاما كما رق النسيم على الصبا ... وجاء رسول الورد فى زمن الورد

تأبى أيها العبد الصالح إلا أن تغمسنا معك فى مزح المازح .

ألا ربَّ ذى مزح يحرك حبله ... وحبل التقى من قبله محسد شزر .. الخ

وهو فى هذه الرسالة يمزج بين نثره وشعره ، فضلا عن اصطناعه السجع فى التزام غير ممقوت أو تكلف مبغض .

ومن رسائل بديع الزمان المازحة رسالته إلى الخطيب يمازحه (٢) .

" المجلس أطال الله بقاء الخطيب لا يطيب إلا بالمساخرة . والخطيب فضيحة الدنيا ونكال الآخرة . وقد حضر الخطيب كان . فليحضر الخطيب الآن . لنحرث على فدانين . تصديقا لقول الله تعالى ومن البقر اثنين .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى . جـ٣/ ٢٢١ (الطبعة الأولى سنه ١٣٥٣هـ مطبعة الصاوى) .
(٢) كشف المعانى والبيان للأخضرى ص ٥١١

ومن هذا النوع رسائل أخرى ، ترى الكاتب فيها يقتبس شعر غيره فيمزج نثره بشعرهم ومن ذلك رسالة الصاحب إلى صديق (١) .

" وما الشأن إلا فى أنك تتنقل فى الهوى تنقل الأفياء ، وتتميل فى الحب كشارب الصهباء . فمرة الغضائرى حتى إذا حسبناك قد صرت له وصار لك . وعلق بك أمله وأملك بعت قديما بحديث ، وتليدا بطريف . واستهوتك حبائل القىّ فقمت تفتل فى حبله ، وتحرص على وصله . ثم تطمع أن تضم ضدا إلى ضد ، وتجمع سيفين فى غمد . وهيهات أن الغضائرى قد بلغه ذلك فازور وتنمر ، وغار وتنكر .

وقد كان له عزم فى المسير إلى أصبهان ، ففتر بفتور صبوتك ، وخف بظهور نبوتك .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وقد جعله بعض الشعراء للحبيب الآخر وأما نحن فننشد لكثير :

إذا ما أرادت خَلّةٌ أن تزيلنا أبينا وقلنا الحاجبية أول .

والله يسقى عهدك صوب العهاد ويحدينا وإياك على البعاد .

رسائل الوصف :

كان لتفوق الكتاب والأدباء فى الرسائل الشخصية بأنواعها السابقة ، وإمعانهم ومهارتهم فى صناعتها ونسجها أثر واضح فى نشأة نوع جديد من الرسائل لم يسبقوا إليه بهذا القدر . تلك رسائل الوصف .

تقرأ هذه الرسائل فترى رقة فى المعنى ، ودقة فى الخيال ... منها رسالة الصاحب فى تنوير باكورة خلاف قد نور (٢) .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ / ٢٢١ ، ٢٢٢

(٢) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣/ ٢٢٤ ، ٢٢٥

" لتنويـر الخلاف فضائل لا تحصى ، ومحاسن تطول أن تستقصى ، منهـا أنـه أول ثغر يبسم عنه الربيع ويضحك . ودر يعقد على القضبان ويسبك ، ولتمايلـه إدكـار بقـدود الأحباب ، وتهييج لسواكن الأطـراب ، وحمل إلى قضيب منـه ورداته متعادلـة ، ولذاته متقابلـة . فأنفـذته مع رقعـتى هذه إليك ، وسألت اللـه أن يعيـده ألـف حول عليـك ، وقلـت :

وقضيب من الخلاف بديـع	مستخص بأحسـن الترصيـع
قد نعى شدة الشتاء علينا	وسعى فى جلاء وجـه الربيـع
وحكى من أحب عرفا وظـرفا	واهتزازا يثير ماء ضلوعـى
رقة ما نظمت نحو بديع الـ	مجد حاكى الربيع حسن صنيعى . " .

فأنت ترى فى تفننـه فى الصنعة وإعجابه بالمحسنات البديعيـة وما فيها من أصبـاغ وألوان جـره إلـى التفـنن فى وصف جمال الطبيعـة ، ولعله رأى متسعا ومجـالا لفسحه لما حوتـه من ألوان براقـة ومناظـر خلابـة .

وهكـذا خلبتـه الطبيعـة بمناظرها الفاتنـة ، واتفقت مع ميوله فى هذه الصناعـة فهى تستهويه كما تستهوى الفنـان والمصـور تمامـا .

ومن أجل ذلك لم ينس الصاحب التغـنى بالطبيعـة والإعجاب بما فيها مـن جمال وجلال حـتى فى رسائلـه الإخوانيـة .

ولنقـرأ ما قيل فى وصف فصل الربيع وتشبيهـه فقد قال بعض فضلاء أصفهـان فى وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهانى فى الخريدة منهـا :

" أما بعد . فإن الزمان جسد وفصل الربيـع روحه ، وسر حكمـة إلهيـة وبه كشـفه ووضوحـه ، وعمـر مقدور وهو الشبيبـة فيه ، ومنهل جم وهـو نميره وصافيه ، ودوحـة خضـرة وهو ينعهـا وجناها ، وألفاظ مجموعـة وهو نتيجتها ومعناها ، فمن لم يستهـو طباعـه نسيم هوائـه ، ولم يدرك شفـاء دائه فى صفـاء دوائـه ، لـم يـذق لطعم حياته نفعا ، ولم يجد لخفض حظـه مـن أيامه رفعـا (١) " .

---

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ ١ / ١٦٤ (طدار الكتب الطبعة الثانيـة سنه ١٣٤٧هـ)

وكتب بديع الزمان يصف ما جرى بينه وبين الأستاذ أبي بكر الخوارزمي : (١)
" ... ما ألوم هذا الفاضل على بساط أنس طواه . وموقد حرب احتواه .
لكني ألومه على ما نواه (٢) " .

وأحيانا نرى الرسائل الإخوانية تستحيل إلى رسائل بليغة في وصف الطبيعة . منها رسالة الصاحب إلى صديق له يقول فيها :

" صرنا أيد الله مولانا في بستان كأنه من خلقه خلق . ومن خلقه سرق ، فرأينا أشجارا تتمايل فتذكر تبريح الأحباب ، وقد تداولتهم أيدي الشراب ، وأنهارا كأنها من يد مولانا تسيل ، أو من راحته تفيض ، وحضرنا فلان فعلا نجمنا وحُمد أمرنا وتسهل طريق الخير لنا ، فلما دبت الكئوس فيهم دبيب البرء في السَّقم ، والنار في الفحم . رأى أن نجعل أنسنا غدا عنده ، فقلت : سمعا ، ولم أستجز لأمره دفعا ، وألتمس أن أخلفه في تجشيم مولاي إلى المجمع ، ليقرب علينا ، متناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بمطالعته ، فإن رأى أن يشفعني أسعفني إن شاء الله تعالى (٣) " .

وهذا نثر وليس بشعر ، إلا أنه قارب الشعر أو كاد يكون — لولا الوزن — شعرا بما عمد إليه صاحبه من سجع متين الفقرات ، وقد يترك السجع بين الفقرات ، ولكن على قلة وندرة شديدتين . ومن العجيب أنه حينما يترك السجع سرعان ما يحل وزن الكلمات محله كقوله مثلا : " كأنها من يد مولانا تسيل ، أو من راحته تفيض " فهناك اتفاق موسيقي وزني بين كلمتي " تسيل وتفيض " في الحركات والسكنات .

---

(١) كشف المعاني والبيان للأحدب ص ١٨٤
(٢) يريد بالحرب ما حصل له معه من المناظرات التي اشتمل عليها . والمراد ببساط الأنس هو نشر أسباب الائتناس به . وطيها إخفاؤها وإزالتها . أي لا يلومه على طي البساط ووقود الحرب لكن يلومه على ما عقد ضميره عليه .
(٣) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ / ٢٢٣

٢ - الرسائل الديوانية :

وسميت بالرسائل الرسمية لما فى هذه التسمية من شمول وعموم وسأتحدث فيها عن الرسائل الإدارية ثم الرسائل السياسية والحربية وأعقبهما بالرسائل القضائية .

أ - الرسائل الإدارية :

وهى الرسائل التى تتعلق بأحوال عمال الأمير ، وتتحدث عما يقوم به العمال فى الأقاليم من أعمال مختلفة ، كما تتحدث عما يجب على المرؤسين نحو رؤسائهم ، وما لهؤلاء وهؤلاء من حقوق وما عليهم من واجبات ومثل هذا النوع من الرسائل أكثر من غيره اصطناعا وأبعدا نتشارا لأنه يتعلق بتفاصيل الأعمال ونظام الدولة الذى لا بد منه لإصلاح الأمور وتحقيق وجوه العدالة بين الأفراد .

لذلك فإننا نرى أن أكثر الرسائل الإدارية موجهة إلى عمال الأقاليم وحكام البلاد فى أجزاء المملكة . ومنها الكتاب الموجه إلى الحسين بن أحمد بن عبد الله بن هارون بتقليده الخراج بأصفهان (١) .

والعهد الموجه إلى محمد بن أحمد الكاتب (٢) . والرسالة الموجهة إلى اسفهلارا بن كوريكنج (٣) حين ولاه أعمال الصلاة والحرب والأحداث والمعادن وسائر وجوه الجبايات بقزوين ونواحيها ، إلى الأعمال التى كان يليها (٤) . والكتاب الموجه إلى إبراهيم بن محمد الحاجب (٥) .

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد (تصحيح وتقديم عبد الوهاب عزام ، وشوقى ضيف) الطبعة الأولى - دار الفكر العربى ص ٥٧ ، ٥٨

(٢) رسائل الصاحب بن عباد ص ٥٣ ، ٥٤

(٣) هو أبو منصور بن كوريكنج الملقب بالاسفهلار صاحب قزوين - انظر ابن الاثير ٩ / ٣٩

(٤) رسائل الصاحب ص ٤٦ - ٥٠

(٥) المرجع السابق ص ٥٥ - ٥٧

وللرسائل الإدارية صبغة إيجابية تقتضى من الوالى أو العامل تنفيذ ما تشتمل عليه من أوامر . ولعلهم لهذا السبب سموها بالعهود ، لما فى كلمة العهد من إلزام أحد الطرفين بأداء حق معين إلى الطرف الآخر . فهى عهد أو ميثاق بين الأمير البويهى والعامل التابع له . بحيث لا يعتبر العامل مطيعا لأوامر الأمير إلا بعد أن ينفذ مواد هذا العهد ، فإن هو أخل بشىء منها اعتبر عاقا خارجا على الأمير .

ومن هنا يتجلى لنا أن تسميتها بالعهود أمر مصطلح عليه عند كتاب القرن الرابع . ومنها :- عهد مؤيد الدولة إلى محمد بن أحمد الكاتب (١) وهو خاص بقسمة الماء فى بعض الأودية وفيه نرى الصاحب يأمر الحاكم بالعدل فى قسمة الماء بين أصحاب الضياع ، بحيث لا يقتطع أحد ماء فى غير حقه ، ولا يسد ماء النهر فى غير شربه ، وقد أمره أن يعاقب من يخالف ذلك حتى لو كانت ضيعته من خاص ضياع الدولة وخالص أملاكها ، وأن فى هذا ما يدل دلالة واضحة على عدل بنى بويه ، وهو عدل تنشر الدعوة إليه فى جميع صحف هذه الرسائل والعهود . بحيث يخيل إلى الإنسان أن بنى بوية كانوا من أعدل الحكام فى الشرق .

ومن الرسالات التى تفسره فى دقة .. الرسالة الخامسة من رسائل الأمان والإيمان ، والمواقفات والمناشير ، ومراعاة الكبيسة من السنين ، وما يجرى مجراه . فإننا نجد الصاحب فى هذه الرسالة يأمر الموظفين فى الدولة أن يزموا أنفسهم عن أن يطلبوا شيئا من الناس فوق الضرائب المقررة لهم ، و أن تكون العفة مقاصدهم . ومن يتجاوز ذلك يعاجله بالقبض عليه ، وعمل فيه بما تنفذ به الأوامر إليه (٢) .

ومن الرسائل الإدارية عهود الحسبة ، وفيها نتطلع على صفة المحتسب ، وأنه ينبغى أن يكون من الفقهاء ، كما نطلع فيها على عمله وأنه كان يقوم

---

(١) انظر رسائل الصاحب بن عباد الرسالة الثامنة ص ٥٤ ، ٥٥
(٢) المرجع السابق ص ٦١ ، ٦٢

بمراقبة السلع وحفظها من الغش ، كما كان يقوم بمراقبة المكاييل والموازين في السوق . وكذلك مراقبة النساء في الأسواق وأهل الذمة ولبسهم وعقدهم الزنار ، وقد كان له حق الحبس والتأديب . وأن الصاحب ليأمره أن يسوى في العقاب بين أبناء الثروة واليسار ، وإخوان الخلة والإعسار (١) .

إلا أن أكثر الرسائل الإدارية يوجهها الوالي إلى عماله ومن هذا عهد مؤيد الدولة إلى أبي منصور بن كوريكتج صاحب قزوين ، وفيه نعرف سياسة بني بويه في معاملة الرعية وما يأخذون به حكامهم ومرؤوسيهم في هذه المعاملة ، سواء أصحاب الخراج وأصحاب الصدقات ، وسواء القائمون على حراسة المكاييل والموازين وأصحاب المعادن والشرطة والمتولون لدور الضرب . ونرى الصاحب وقد أمر هذا الحاكم بالعدل المطلق بين الناس وتنقية الطرق من اللصوص ، ونراه يأمره في هذا العهد ألا ينفذ الحدود إلا بعد الرجوع إليه " حتى يأتي من الأمر ما يبرمه ، ومن الحكم ما يرتسمه " كما نرى في هذا العهد ما يدل على أن الدولة كانت تراقب سوق الرقيق مراقبة شديدة (٢) .

والرسائل الإدارية — كما ترى — مجموعة ضخمة من النصائح الغنية الخاصة بإدارة شئون المملكة ، وطرق معاملة الرعية وأساليب جمع المال يقدمها الوزير بلسان الأمير إلى عماله وأتباعه ورجال مملكته في البلاد والأقاليم لينفذوا ما فيها من أوامر وتوجيهات .

ولما كان المقصود من هذه الرسائل تنفيذ ما تشتمل عليه من أوامر فإنك تجد عباراتها مليئة بالجمل الدالة على الحث على العمل ، غنية بصيغ الأمر والطلب ، ومن أجل ذلك نرى أن الكاتب كثيرا ما يضطر في مثل هذه الرسائل إلى تكرار بعض الجمل أو ترديد صورة الأمر والنهي ما بين آن وآخر حتى لا ينسى المخاطب المراد من الرسالة أو يغفل عن المقصود منها .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩ — ٤١
(٢) رسائل الصاحب ص ٤٦ — ٥٠

ويدل هذا الصنف من الرسائل على عظم باع الكاتب ولباقته الفنية فى تطويع المعانى المعقدة والمصطلحات العلمية والشئون الحسابية للكتابة الفنية .

لذلك أعتبر الرسائل الإدارية أدل على بلاغة كاتبها ، وأوضح من غيرها فى إبراز مهارته الأدبية . وقياس ذكائه الفنى ، ومقدرته فى الكتابة والترسل . لأنها تشتمل على معان كثيرة يصعب آداؤها أوسياقها فى أسلوب أدبى ، ولأن بعض ما فيها من معان يعتبر علميا بحتا كأمور الحساب ، وتنظيم الدفاتر ومسكها ، وإحصاء الخراج ، وطرق جمع الأموال ، وغير ذلك مما يصعب على غير الناب — تحبيره فى قالب أدبى ممتع .

ويمكن أن نستدل فيها على بعض النظم الإدارية مثل :—

١ — نظام العهود :— الذى يأخذه الأمير على حاكم الإقليم التابع له بحيث لا يصبح العهد صحيحا إذا لم يقم الحاكم بتنفيذ ما فيه من أوامر .

٢ — نظام الأمن :— والرسائل الإدارية تصور لنا كثيرا من عناية البويهيين بنشر الأمن . وهناك رسائل إدارية مفردة يوجهها الأمراء البويهيون إلى حكام الأقاليم يحثونهم فيها على نقض الطرق من اللصوص .

٣ — نظام الرى والزراعة : وفيها يهتم الأمراء البويهيون بأمور فلاحة الأرض وتيسير ذلك على الطبقات الفقيرة كعامة الزراع . وفيها يحثون حكام الأقاليم بتوزيع المياه بين الزراع وأصحاب الضياع بالعدل بحيث لا يقتطع أحد ماء فى غير حقه .

٤ — نظام المكاييل وحراسة الموازين : وتلك تدل على عناية الأمير البويهى بتنفيذ الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات وهى تصور لنا وجها من وجوه العدالة .

٥ — نظام الخراج : كما تشتمل الرسائل الإدارية على نظام الخراج وطرق جمعه وتقليد رجال مخصصين لهذا الشأن .

وبالجملة فإن الرسائل الإدارية تدعو إلى العدل ونشر مبادىء الاسلام فى شتى مرافق الحياة بحيث لا يفرقون بين المسلمين وأهل الذمة .

ب— الرسائـــل السياسيـــة والحربيـــة :

والرسائل السياسية تعد من أكبر أبـواب الكتابة الرسميـة التى هى من دعائـم النثر الفنى ، الذى نبغ فيه علماء الكتاب قديما وحديثا ، وهى أحد الينابيع الـــتى انبعـــث منها النثر الفنى ، وعـــن طريقهـــا وصل إلى ما وصل إليه من تطور وارتقـــاء. ولم تكن الرسائل الرسمية فى ذلك العصر ، الذى انتعش بأدب الصاحـــب بن عبـــاد واضحة الآثار مرفوعـــة الأعـــلام فى دار الخلافة ببغـــداد حيث تحـــول مجراها وتتنـــذ إلى البـــلاط البويهـــى بسبب انتقـــال ركب الحضارة إلى بلاط البويهـــيين .

واذا نظرنا إلى الرسائل السياسيـة والحربيـة فإننا نجدها كتبت بلسان الأمـير البويهـى إلى الملوك والأمراء ، مبشـرا فيهـا بانتصـار الجيـوش والفتوحـــات ، أو منـــذرا العـــدو .

وأكثـــر هذه الرسائل كانت بلسان مؤيد الدولـة إلى عضد الدولة أعظم ملـــوك بنى بويـــه . ونرى أن جانباً كبيرا من هذه الرسائـــل وصف فيه الصاحب بن عبـــاد أكبر وزراء بنى بويه الفتوح البويهيـة ، وما تم لآل بوية من نصر وتمكين فى بـــلا د المشـــرق ، كرسالتـــه التى أرسلهـــا إلى عضد الدولة مبشـرا بالفتـح الأكبر بجرجـــان الواقـــع بين الخراسانيـــــة (١) .

ورسالتـــه فى فتـــح قلعـــة (٢) ، ورسالتـــه التى يبشر فيها بتذلل الـــــروم وطلبهـــــا للهدنـــة (٣) .

ونـــرى الصاحب فى هذه الرسائل شديد الميل إلى اصطنـــاع اصطلاحات الرسائل الرسمية ، ومراعـــاة الأساليب الحماسيـة التى تناسب هـــذا المقـــام . تقـــــروءها فيعجبـــك ما تتدفق به من حماس وقوة ، ودعاية عريضـة للدولة البويهية التى يقـــوم بأمر وزارتها . ولذلك كان أسلوبه فيها رصينـــا وسجعاتـــه قويـــة غـــير مبتذلـــة.

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد ص ٢٢ — ٣٠
(٢) المرجـــع السابـــق ص ٨ — ٩
(٣) المرجـــع السابـــــق ص ١٠ — ١١

ومن أجود الرسائل السياسية والحربية رسالته التى أرسلها إلى عضد الدولة مبشرا بالفتح الأكبر بجرجان الواقع بين الخراسانية . منها :

" للنعم — أدام الله عزك — من الشكر قيم ، وللمنح من الحمد قسم ، فأغلاها قيمة ، وأعلاها غنيمة ، وأجزلها حظا وقسما ، أثبتها فى صحيفة المجد رسما ، وهى وإن تكافأت طورا تفاضلت أطوارا ، وتقاربت مرة وتباعدت مرارا ، فمنها فرائد يدخرها الله لأفراد ، ويؤخرها لميقات وميعاد ، حتى إذا حان حينها ، وقدر لها كونها وأمينها ، سيقت إليه لأمدها المضروب ، ورهنت لديه على سننها المطلوب ، فعدّت كريمة الدهر ، واعتدت يتيمة الفخر ، وأضاءت شمسا طلعت بمناهج الأئمة الأبرار ، وسطعت بمصالح الأمة الأخيار ، وألبست شيح الحق عزا تضفو أعطافه وذيوله ، وتبدو غرره وحجوله ، ويطنب شرقا وغربا شعاعه ، ويمتد غورا ونجدا ذراعه ، ودرّعت أتباع الباطل ذلا يحتم بالعقاب ، ووهنا يختم على الرقاب ووهّيا ينهك القوى والقُدر ، وضعفا يملك السمع والبصر ، فلا يغنى عن الضالين التآذر وإن كثروا ، ولا التظاهر وإن أمروا ، كواهب الله التى سوّغ مولانا الملك شاهنشاه عضد الدولة وتاج الملة جلائلها ، وقسم لنا فضائلها ، وحاز له خصائصها ، و رهن عندنا نفائسها ، وجعل إليه مآلها ومرجعها ، ووسّع بنا مرادها ومنتجعها ، وأفاض على دولته غرّها وفخرها ، وفوّض إلينا عقدتها وأمرها .

ذاك بما عضد من دولة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وأيدنا ، وأسّس وشيّدنا ، ومثّل واقتفينا ، وسبق وصلّينا ، حتى ضرب الدين بجرانه وانبعث الحق بعد حرانه ، واستوسق الملك على نظامه ، وأرخت المحاسن بأيامه ، وسكنت دهماء الأمة وكانت مضطربة ، وخمدت نيران الفتنة وكانت ملتهبة ، وعرف المعروف وكان منكورا ، وقهر الانصاف وكان مقهورا ، " إن الله لا يضيع أجر المحسنين " ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون " .

وقد علم من كشف عن سمعه ، وبغطّى عن لبّه ، وفتح عن بصره ، ولم يختم على قلبه ، ما جرت عليه الحال بيننا أهل البيت وبين ولاة خراسان قرنا بعد قرن .

وقرانا بعد قران ، ندعوهم إلى طاعة خلفاء الله فى أرضه ، ونأخذهم بما كتب الله لهم فى لوازم غرضه . هذا وقد كانت خراسان دار الهجرة العباسية ، وأهلها شيعة الدولة الهاشمية ، إلى أن بدّل من ولاتهم من دَرَجَ أشنع المدارج ، ورتع مرتع الخوارج ، وغبر دهرا يخطب للأموات على المنابر جرأة على الدين . ويجحد للمطيع لله — صلوات الله عليه — إمرة المؤمنين ، والحرب بيننا وبينه قائمة ، وآفاق الصلح مظلمة قاتمة يجهز جيوشه إلينا فيهزم ، ويسرّب خيوله فتحطم ، ويحشد جموعه فتفرق كل مفرّق ويحشر جنوده فتمزّق كل ممزّق ، قد فض أحمد بن محمد بن المحتاج (١) دفعات بذ بّنا عن الرايات السود . وفُلّ ابن قراتكين (٢) عن ثبات بدفعنا عن رواق الخلافة الممدود ، ورد ابن عبد الرزاق (٣) هزيما كسيرا وأوثق ابن ما كان (٤) هشيما أسيرا . فلم يبق من أصحاب جيوشهم إلا من وسمناه بميسم الانفلال .

وشهرناه فى موسم الضلال . فمنهم من لجأ إلى طاعتنا فعاش حميدا ، ومضى سعيدا ، ومنهم من شرد عن جماعتنا فأُنظر غويّا ، وقبض شقيا . إلى أن علموا أن القراع لا ينتج إلا قرع صنعاتهم ، والنزاع لا يثمر إلا نزع شباتهم ، فتجمعوا بالخطبة للمطيع لله — رحمة الله عليه ورضوانه — على أيدينا التى عودها الله البسطة وحرس بها الإمام والأمة ، واستعدنا إليهم ثوب الطاعة وقد خُرِبوه . وتنجزنا لهم العهد على تلك البلاد وقد حربوه . فبقوا على هذه الجملة زمانا . وعادات الفساد تتنزّى بهم دون استعمال الرشاد ، وشمكير بن زياد (٥)

---

(١) أحد قواد خراسان وقد تولى قيادة الجيوش الخراسانية كلها عام ٣٢٧ هـ . انظر ابن الأثير ٨/٢٦٧

(٢) أحد قواد خراسان أيضا وقد ولى على الجيوش الخراسانية عام ٣٣٤ هـ . انظر ابن الأثير ٨/٣٤٦

(٣) هو محمد بن عبد الرزاق صاحب طوس وأعمالها . انظر ابن الأثير ٨/ ٣٥٣

(٤) كان مقدم الجيوش الخراسانية عام ٣٤٤ هـ ، واشتبك مع ابن العميد فى حرب أخذ فيها أسيرا . انظر ابن الأثير ٨/٣٨٣ .

(٥) وشمكير هو صاحب طبرستان وهو والد قابوس ، وتوفى عام ٣٥٦ هـ .

يـدب لاغوائهـم دبيـب الخمر ويعرض نعم الله عندهم لصوائـب القدر ، فهموا بالمعاودة ، واهتموا بالمعاندة ، وطالبوا أبا الحسن محمد بن إبراهـيم بن سيمجور (١) — أيده الله — بالمسير والاجتماع فى منازعتنـا مع الضال وشمكير ، فسارت تلك الجنـود والتخـاذل دأبها ، وبلغت الدامغان (٢) والتواكل ينتابها فلم يرعها إلا خـذلان نزل بوشمكـير ، فجعلـه فرية الخنازيـر ، وكشف لذوى البصائـر عن سريرة المقاديـر ، فاعتبر معتبر ، وانزجـر منزجـر . وتراجعت تلك الخيول إلى نيسـابور ، فلم تشجع الخراسانيـة مـن بعـد لذكر المنازلة ولم يخطـر ببالهـا ذكر المقاتلة ، وأخذوا يعرضـون بطلب الصلـح فتعـرض امتحانا لعقائدهـم ، وابتلاء لمغازيهـم ومقاصدهـم إلى أن صرحـوا بعـد التعريـض ، وصحّحوا بعـد التمريـض .

فجنحنـا للسلم حين جنحوا لهـا إذ كان ذلك أدبـا من آداب اللـه ، وأمـرا نصا فى كتاب اللـه ، وميتـا للضغائـن والإحـن ، ومزيلا للحوادث والفتن ، ومفرّغـا لتسديـد الثغور عن ذوى الشرك والإلحاد ، وموفّـرا على عمارة الحج وسبيل الجهاد ، وأكدّت العقود ، وأُخذت العهـود ، وكتبت الشروط وأشهدت الشهود ، وآتى كـل صاحبـه موثقـا من عند اللـه ، وحلفـا مقرونا بعهـد الله ، وجعل ما أمضى من ذلـك مشروطا على التأييـد لا يتعقب وفاقة بخلاف ، ومقصودا بالتخليد يرثـه الأعقـاب عـن الأسـلاف .

فلـم يمض ما ضيهـم لسبيله ، حـتى أخذ خلف السوء فى تبديلـه ، يخرق لأوصال الوفاء قطّاع ، ويعرق إلى الضلالة السوء نـزّاع ... (٣)".

وفى الرسالة ما يدلنـا على أنهـا صادرة من الصاحـب بلسان الأمير مؤيد الدولـة إلى الملك عضـد الدولـة البويهى مبشـرة بالفتح الأكـبر بجرجـان الواقع بعـد الخراسانية . يؤيد ذلك قوله فى صدر الرسالـة : "... كمواهب الله التى سـوّغ مولانا الملـك شاهنشـاه عضـد الـدولـة وتـاج الملـة ... (٤)".

---

(١) صاحب جيوش خراسان حينئذ ، وقد سيره الأمير منصور بن نوح لمساعدة وشمكـير ضد ركن الدولة البويهى . انظـر ابن الأثـير ٨/ ٤٢٧

(٢) الدامغـان بلدة كبيرة بين الـرى ونيسابـور .

(٣) رسائل الصاحب بن عباد ص ٢٢ : ٣٠

(٤) المرجـع السابـق ص ٢٢

وتعتبر هذه الرسالة وثيقة تاريخية قيمة للحروب الخراسانية فى آخر خلافة المطيع وأول خلافة الطائع فى حدود سنة ٣٦٣ هـ . بدليل قوله فيها :

" ويجحد للمطيع لله - صلوات الله عليه - إمرة المؤمنين والحرب بيننا وبينه قائمة ، وآفاق الصلح مظلمة قاتمة ...(١) " وقوله : " وكان من فواتح ما أنكرناه أن أرجأوا الخطبة لأمير المؤمنين الطائع لله بعد وقوع البيعة وتسليم الأمة ... (٢) " .

وقد ورد ذكر قواد الجيوش الخراسانية أمثال أحمد بن محمد المحتاج قائد الجيش عام ٣٢٧ هـ ، وقراتكين قائد الجيش عام ٣٣٤ هـ ، وابن ما كان مقدم الجيوش الخراسانية عام ٣٤٤ هـ ووشمكير صاحب طبرستان المتوفى ٣٥٦ هـ ، وابن سيمجور صاحب جيوش خراسان فى ذلك الوقت ، وأبو العباس تاش الذى ولى قيادة الجيوش بعده .

كما نستدل من نص الرسالة على أن الصاحب لم يكن متودداً إلى قابوس ابن وشمكير فى ذلك الوقت - بخلاف ما كان فى آخر حياته - بل كان متنكراً له غاضباً عليه ، بدليل قوله : " ... وأخذ المخذول قابوس يوهمهم من نفسه وبقية خيله أموراً ، وملأ مسامعهم بهتانا وزوراً ، ما ضيا على شاكلة أبيه فى التلبس عليهم والتمويه ، تيخيّل لهم زخرف الباطل حقا ، ويمثل عندهم زخرف القول صدقا . وبدأ العاق يوسوس إليهم ...(٣) " .

واسترسل الصاحب فى الرسالة متدفق الحماسة متين السجعات يرسلها فى غير تكلف وهو فى ذلك يصف لعضد الدولة معارك خراسان .

وهى رسالة طويلة تقع فى مائة وثمانية وستين سطراً ، واكتفيت منها بهذا القدر الذى ذكرت . ونرى الصاحب يوضح له فيها أيضا ما كان عليه جيش الديلم من قوة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣
(٢) المرجع السابق ص ٢٤
(٣) رسائل الصاحب ص ٢٦

واستبسال كقوله : " ... وثاروا فخيلت الأرض مائجة ، والبحار هائجة ، والنجوم منكدرة ، والسماء منفطرة ، وصار الفارس أقرب إلى الفارس من ظله ، والسيف أدنى إلى الوريد من حبله ، وتواصلت الضربات ، بين زرق بالزانات ، ولا يعرف الإحكام انفصامها ، وأخذت الرماح تطير شررها والنفوس تفارق قَصَرها .. (١) "

ويمكن أن نلخص ما تدل عليه الرسائل السياسية فى النقط الآتية :ـ

١ ـ النظام الخارجى والداخلى ، ويتجلى فى أوامر الأمراء . التى كانوا يوجهون بها إلى حكام الأقاليم ليحكموا بين الناس بالعدل . وينشروا الأمن .

٢ ـ الوظائف الرئيسية : وهى التى كانت تمثل صورة منظمة لدولة قوية ناهضة فهناك وظيفة الوزير الذى كان يقوم بأمور الوزارة ، والديوان ، ووظيفة حكام الأقاليم ، ووظائف القواد الذين توجه إليهم الرسائل .

٣ ـ الاتجاه العام وموقف آل بويه من غيرهم : ويتضح ذلك فى مساواتهم بين الغرباء وأفراد الدولة البويهية على الرغم من أنهم كانوا من الشيعة المتعصبين لنحلتهم .

٤ ـ نظام الحروب والجيوش : وفى ذلك نقف على حبهم للحرب ومفاخرتهم بانتصاراتهم على غيرهم من الولاة ، كانتصار عضد الدولة وأخيه مؤيد الدولة على الأمير قابوس بن وشمكير .

٥ ـ كما أن هذه الرسائل تصور نواحى تاريخية صادقة وليس أدل على صحتها من مطابقتها لما فى كتب التاريخ من أخبار .

٦ ـ وأخيرا منزلة الدولة : فهى تصور منزلة الدولة البويهية ، وما كانت تعتز به من قوة وسلطان إلى الحد الذى أخضعت به الدول المجاورة كالدولة السمانية ، حتى أنزلها الخليفة ببغداد من نفسه المكان الأول وعمل لها حسابها وكيانها .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨ والقَصَر : أصل العنق .

جـ - الرسائل القضائية :

وهى رسائل يسجلها الكاتب بلسان الأمير البويهى إلى قاضى القضاة مناصحا لما فيه الخير آمرا إياه بأداء الواجب نحو الرعية ، حاثا له على حسن معاملتهم . وربما كانت لهجة الخطاب فيها أشد ، وصيغ الأمر والنهى فيها أوكد وأبرز لما فى منزلة قاضى القضاة من دقة تقتضى سعة فى العلم وعدالة فى الحكم . والرسائل القضائية والإدارية عنصران ، يرجعان إلى أصل واحد ، فبينما تكتب الأولى إلى القضاة فى هذه البلاد تكتب الثانية إلى العمال . فوجوه الشبه بين الرسائل القضائية والإدارية أكثر وأعمق من وجوه الشبه التى بين الرسائل القضائية والرسائل السياسية والحربية . ونقرأ أوامر الدولة وعهودها للقضاة فى هذه الرسائل .

فنرى الصاحب بن عباد فى عهده إلى عبد الجبار يأمره باتباع الكتاب والسنة والإجماع ثم القياس ، كما يأمره ألا يأخذ بالآراء الشاذة ، وأن لا ينقض أراء من سبقه من القضاة إذا ما خرج عن اتفاق الأمة . وكذا دعاه إلى أن يتثبت من الشهود ، وأن يعدل بين الخصوم ، وأن يسوى بين الغنى والفقير فى لحظه ولفظه وحزمه

وجاء فى هذا العهد ألا ترد التركة إلى بيت المال ، بل يأخذها الأباعد من ذوى الأرحام . وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على أن بنى بويه لم يكونوا يتعرضون للتركات ، وقد امتدحهم المقدسى ونوه بهم لذلك (١) .

ونرى من هذا العهد أيضا أن القاضى هو الذى كان يشرف على تعيين النظار على الوقوف ، والأوصياء على اليتامى ، والقوام على السكة . وكان عبد الجبار بن أحمد أشهر قضاة الدولة البويهيه . وإننا لنجد أكثر هذا النوع من الرسائل موجها إليه . ومنها " العهد الذى كتبه إليه مؤيد الدولة ناصحا له فى أداء عمله (٢) . وعهده حين ولاه قضاء قزوين وشهرزور (٣) .

---

(١) المقدسى ص ٤٠٠
(٢) رسائل الصاحب بن عباد ص ٣٤ وما بعدها
(٣) المرجع السابق ص ٤٢

ولعل أوضح مثل لهذا الصنف من الرسائل رسالة مؤيد الدولة إلى عبد الجبار بن أحمد حين ولاه قضاء الرى ...

عهد مؤيد الدولة إلى عبد الجبار بن أحمد حين ولاه قضاء القضاة بالرى : " هذا ما عهد مؤيد الدولة أبو منصور بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين إلى عبد الجبار بن أحمد حين ولاه قضاء القضاة بالرى وقزوين وسهرورد وقم وساوه وما يجرى معها ويتصل بها ، علما بما لديه من علم يهتدى بأضوائه ، ورع يستسقى بأنوائه ، وكفاية يكتفيها الحلم والحجى ، وأمانة يبعثها النسك والتقى ، وموقع فى علية أهل الدين ترمقه النواظر ومكان من صفوة المسلمين تعقده الخناصر ، والله ولى الارشاد ، والمعونة على حسن الإرتياد .

آمره بتقوى الله ومراقبته ، وتخوّف سطوه ومعاقبته إن التقوى زمام الأفعال الصالحة ، وإمام الأعمال الرابحة ، من لجأ إليها أتاه التوفيق فى مصارفه ، وواتاه السداد فى مواقفه ، ومن مال عنها تحامله الرشاد فى أنحائه ، وتخطاه الصواب فى آرائه ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا .

وأمره بأن يجعل القرآن قبلة مساعيه ، ووجهة مطالبه ومبانيه ، فينصبّ إليه تاليا وينتصب له قارئا ، ويخلو به متدبّرا ، ويواظب عليه متبصّرا ، فهو حادى الحكم ، وهادى الأمم ، والجلاء عند الاشتباه والاستعجام ، والضياء فى مشكلات الإعضال والإستبهام ، من فزع إلى زخائره أثرى من المراشد واستظهر ، ومن عدل عن بصائره أقوى من المحامد وأعسر ، فلو أنزل على الجبال لخشعت أو على الأطواد لتصدّعت ، ما فرّط فيه ، ولا تجوّز فى أوامره ونواهيه تحويل من حكيم حميد .

وأمره بأن يتخذ سنة رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه — مرجعا ، ويرضى بها مَرَاداً و منتجعا ، فيرد إليها أحكامه ، ويلتمس منها حلال الدين وحرامه ، إذ كانت العدة إذا اشتبهت الأمور ، والعمدة إذا اختلف الجمهور ، وفيها تفصيل ما أجملته النصوص وتبيان ما اعتوره العموم

والخصوص ، تنكشف بها الشبه ، ويُؤْمَن بها العَمَه ، محجتها بيضاء ساطعة ، وحجتها غراء قاطعة ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا .

وأمره بأن يتلقى سالف الإجماع بحسن الإستماع والإتباع ، إذ كان حبل الله المعقود لا تُنتكث قواه ، وظله الممدود لا تستباح حماه ، فضل الله به أمتنا على الأمم ، وجعل كلمتها فيه فوق الكلم ، حتى وسمها فى كتابه بالوسط وآمننا فيها من الخطأ والغلط ، لا يخشى على اتفاقها عوارض الإلتباس ، وقد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، فليس لذى حكم ونظر وأخذ بتأويل آية أو خبر ، أن يخالف ما اطبقت عليه الأمة ، وسبقت إليه الأئمة ، بل عليه التسليم والإتتفاء ، والتفويض والإقتداء ، ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ، ونُصْلِه جهنم وساءت مصيرا .

وأمره إذا عَنّ ما لم يشتمل الكتاب عليه تعيينا ، ولا كشف عنه الأثر تبيينا ، ولا سبق به الإجماع يقينا ، أن يُعمل فيه اجتهاده طويلا ، وينهض له ارتياده بكرة وأصيلا ، ويستشهد مُوَدَع النص وفحواه ، ويستنجد موجب الأثر ومقتضاه ، ويقيس الأشباه والنظائر ويستنبط الأمارات والدلائل ، فذاك الجَدَد الذى كان السلف الصالح — رحمهم الله — يسلكونه ، وقال الله تعالى : " لعلمه الذين يستنبطونه " (١) .

وفى الرسالة نلمس روح رسالة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — التى بعث بها إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه قضاء البصرة ، ولا تفترق عنها إلا فيما يمت إلى الصناعة التى اشتهر بها الصاحب كاستخدام السجع وبعض المحسنات البديعية والتكرار فى أول الفقرات (٢) .

وإذا رجعنا إلى هذا الرسالة القضائية نرى الصاحب يقلب وجوه المعانى

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد ص ٤٢ — ٤٦

(٢) انظر تاريخ الأدب العربى لاحمد حسن الزيات ص ٨٨ (الطبعة الرابعة سنه ١٣٤٧ هـ مطبعه الاعتماد)

والأحكام التى يجب على قاضى القضاة أن يرعاها ، وهو يذكر له النصائح ولطيف المواعظ التى يجب عليه اتباعها واحترامها والاستمساك بأهدابها وانتهاجها .

فما كاد ينتهى من حديثة عن القرآن وسنة الرسول والإجماع والقياس وما يجب من العمل بها جميعا ، حتى أخذ يذكر له فى هذا الأسلوب الرصين مواطن الاجتهاد التى يجب عليه أن يتفهمها ويعمل بها إذا عدم الإجماع وتعذر القياس ، ثم نصحه بالعدل فى الأحكام وأخذ حق المظلوم من الظالم وأن يتحلى بالسكينة ويتبع الوفاء ، وألا يحكم إلا فى الأوقات التى تناسب طبعه حتى لا يحيف فى أحكامه .

وألا يتسلم مهام منصبه فى القضاء إلا بعد أن يأخذ سجلاته ويدرس تفاصيل المظالم ، ثم أمره بالدقة فى مطالعة قضايا المظلومين ، وأن يدرس أحوال الشهود دراسة فاحصة ، وأن يقيم حدود الله على مستحقيها .

وأن يبالغ فى دراسة أحوال كل مصر ويعرف مختلف السكك ، وأن يبالغ فى دراسة الوقوف المستحقة حتى تصل الحقوق إلى مستحقيها ، وأن يحتاط جهده فى مال اليتيم ، ثم أمره أن يحبس من يثبت الحق فى زمنه . وختم أوامره بألا يفسخ حكم من تقدّمه ولا ينقض ما أبرمه ، وفى نهاية الرسالة ختمها بقوله : " هذا ما عهدنا إليك فاقتف دليله ، واحتذ تمثيله ، واستهد الله يهدك ويُرشدك ، واستكفه يعنك ويسددك ، إليه نفوض وعليه نعوّل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل(١) " .

ولو أمعنا النظر فى هذه الرسالة القضائية لوجدنا من البيان والبلاغة مالا تكاد نلمس مثله فى غيرها من الرسائل الرسمية ، إذ يصطنع فيها وجوه المعانى المختلفة . وهى — على ما تشتمله من معان فقهية ، ونصائح وعظية وأوامر دينية — يصوغها صوغا جميلا حتى لتحسبها قطعا شعرية منثورة أو تحائف فنية من الأدب الرفيع .

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد ص ٤٦

كان الصاحب بن عباد يتأنق فى تحبير رسائله القضائية كما كان يتأنق فى إنشائها • قيل لما تولى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد منصبه ، أنشأ الصاحب له العهد وكتبه بخطه واعتنى بزخرفته ، ويقال أنه كان سبعمائة سطر على ورق سمرقندى جميل ، وله غلاف من الأبنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة ، وكان هذا العهد لنفاسته أحد الهدايا التى قدمت للوزير نظام الملك (١) بعد ذلك فى القرن الخامس الهجرى مع هدايا أخرى •

تلك أشهر الرسائل الرسمية وإن كان هناك رسائل أخرى نستطيع أن نعتبرها فى عداد الرسائل الرسمية • ومن هذا النوع : الرسائل المكتوبة بلسان مؤيد الدولة فى الأمان والإيمان ، والموافقات ، والمناشير ، ومراعاة الكبيسة من السنين وما يجرى مجراه (٢) ومنها — أيضا — الرسائل المكتوبة بلسان مؤيد الدولة فى الوصايا بالحجيج والمصالح وأمر الثغور (٣)•

ويدخل فى باب الرسميات — عامة — كل ما كتب بلسان الأمير إلى العمال ورجال الدولة فى الأستعطاف لقلوب أولياء الدعوة والتودد إليهم بمباسطتهم وما يقارب ذلك (٤)•

وكذلك رسائل المدح والتعظيم ورسائل الذم والتهجين (٥) المكتوبة بلسان الأمير • فإن مثل هذه الرسائل وما يجرى مجراها يعد من باب الرسائل الرسمية بصفة عامة •

وللرسائل الرسمية — بأنواعها الثلاثة — قيمة أدبية وأخرى إجتماعية وثالثة تاريخية • وتتلخص هذه القيم فى أنها سجلت طائفة من حروب بنى بوية ، كما سجلت اسماء طائفة من حكامهم وقضاتهم وقوادهم • كما صورت سياستهم ،

---

(١) طبقات الشافعية لابن السبكى ج٣/ ٢٣٠ ، انظر أيضا بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار ، د• عبد الفتاح لاشين ص٥٧ ، الحضارة الاسلامية لأدم متز ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة

(٢) رسائل الصاحب بن عباد ص ٥٩ — ٦٦

(٣) المرجع السابق ص٦٧ — ٧٦

(٤) المرجع السابق ص٧٧ — ٨٦

(٥) المرجع السابق ص ٩٩ وما بعدها

ومعاملتهم الرعية ، فهى وثائق تاريخية مهمة فى أمور الدولة البويهية السياسية والإجتماعية .

أما قيمتها الأدبية فتكاد تكون أعظم من القيمتين السياسية والإجتماعية . ويكفى أن هذه الرسائل تناولت موضوعات جديدة طارئة فى حياة النثر العربى فى القرن الرابع هذه الموضوعات الدقيقة الجديدة لم يكن الكتاب من قبل يكتبون فيها . ولا يستطيعون علاج ذلك لأنها علمية بحته لا تناسب الأساليب الأدبية - ولكن الصاحب استطاع أن يعالج هذه الموضوعات الجديدة وأن يطوعها للأساليب الأدبية -

وبعد فقد تبين لنا الفرق بين الرسائل الرسمية والرسائل الشخصية . وأن الأولى دوّنت بلسان الأمير أو صاحب الأمر عبر فيها كاتبها عن مشاعر الأمير نفسه ، وعن مبلغ رضائه وسخطه . أما الرسائل الشخصية بأنواعها فهى تمثل روح الكاتب . وتصور لنا جوانب نفسيته تماما ، لأنه لا يتقيد فيها بغرض محدد أو معنى معين . ولذلك سمينا هذا الضرب من الرسائل بالرسائل الشخصية .

الرسائل العامة :-

وهى التى يتناول فيها كاتبها موضوعات عامة لا تمس شئون الدولة ، كما أنها لا تصور الشئون الخاصة لكاتبها . وتتناول موضوعات عامة كوصف الأشياء .... وفى هذا النوع من الرسائل تدخل الرسائل العلمية .

وقد أثر تفوق الكتاب فى الرسائل تأثيرا واضحا فى اصطناع أساليب الكتابة الفنية فى المعانى العلمية التى لا تدخل فى دائرة الأدب بمعناه الخاص .

وإذا كانت المعانى العلمية على اختلافها تخضع لتعبيرات ومصطلحات وتراكيب علمية خاصة بها .. فإن الكتاب استطاعوا التعبير عما يريدون بأسلوب أدبى بارع . فنرى الصاحب بن عباد يحمل لواء الدعاية للأساليب الأدبية -

فى النصف الثانى من القرن الرابع — وهو أول من عمد إلى تطويع المعانى العلمية للأسلوب الأدبى .. (١) .

أقول استطاع الصاحب بن عباد بهذا اللون من الكتابة أن يفتح لنا فتحا جديدا فى النثر الفنى فيخضع الرسائل العلمية للأساليب الأدبية برغم جفافها وبعدها عن أساليب الفن .

وقد استطاع الصاحب أن ينفذ هذه الخطة حين وضع بنفسه رسالته الطبية حول عام ٣٧٣ هـ ولعل هذه الدعاية كانت من القوة بمكان بحيث حمل جماعة من الكتاب الذين كانوا يفدون إلى بابه على تنفيذها .

وقد كان أبو بكر الخوارزمى أول من تأثر بهذه الدعاية ولبى هذه الدعوة. فوضع من بعد ذلك رسالتين طبيّتين اقتفى فيهما طريقة الصاحب .
ومن هنا استطاع الصاحب وأتباعه من الكتاب المترسلين أن يمزجوا العلم بالأدب . وأن يعبروا عن المعانى العلمية الجافة بأساليب أدبية تشوق القارئ وتستهويه إلى متابعة ما كتبوه فيها .

قال الثعالبى : (٢) " سمعت أبا جعفر الطبرى الطبيب المعروف بالبلاذرى ، يقول إن للصاحب رسالة فى الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا ، لما زاد عليها . فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده ، فذكر أنها فى جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت واستبعدت ماحكاه عن تطبب الصاحب ونسبته فى نفسى إلى التزيد والتكثر ، إلى أن ظفرت فى نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدّرتها تلك التى ذكرها أبو جعفر ، ووجدتها تجمع إلى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف فى لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر فى علمه وقوة المعرفة بدقائقه . وأكثر ظنى أنه قد كتبها إلى أبو العباس الضبى (٣) " . وهذه نسختها .

---

(١) الصاحب بن عباد حياته وأدبه ماجستير مخطوطة جامعة عين شمس ص ١٠٥
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى، ط الأولى سنه ١٣٥٣ هـ مطبعة الصاوى جـ ٣/ ١٨٠
(٣) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣/ ١٨٠

" وصل كتاب مولاى فلصق بيدى ، وندى على كبدى ، ولم أدر بماذا أنعته وقد ملئ قلبى وملأ صدرى ، وكيف أصفه وقد أمتع نفسى ورفع طرفى ، وهل أقول نسيم الرياض تدرّجت الشمال على أنوارها ، وأغريت الصّبا باخراج أسرارها ، أم أقول الحياة عادت فى الجسد ، والروح سرى فى البدن ، فله على كل مستحسن أنيق فضل ، وعند كل حضارٍ سبق وخصل . وحسبت انبساط مولاى فيه مواهب قصرت الأمانى عنها ، فطال إحسان الله بها ، ومنائح رقدت الآمال فيها ، فاستيقظت عين أفضال الله عنها ، وأنا أرجو أن يعيدنى الله فيه لأفضل عادته ، ويعيذنى فيه بلطفه ورأفته ، فاقرأ كتابه مبتسما عن خطه ، كما قرأته منتظما للفظه ، لأجمع تحجيل المسرة إلى غرتها ، وأقرن حجة الأنس إلى عمرتها ، والله يفعل ما يريد ، وهو اللطيف المجيد .

قد عرفت ما شرحه مولاى من أمره ، وأنبأ عنه من أحوال جسمه . فدلتنى جملته على بقايا فى البدن يحتاج معها إلى الصبر على التنقيه ، والرفق بالتصفية فأما الذى يشكوه من ضعف معدته وقلة شهوته فلأمرين أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتتفتق الشهوة الصادقة وترجع العادة السابقة .

والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفئات ولزت بها المبردات قلت الشهوة ، وضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد مما يطفى ويغذى ، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها ويزيل العارض المكتسب عنها كما يقول الفاضل جالينوس : قدم علاج الأهم ثم عد وأصلح ما فسدت . والأقراص فى آخر الحميات خير ما نقيت به المعدة وأصلحت به العروق وتوى به الطحال ليتمكن من جذب المكر لا سيما والذى وجده مولاى ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها والبلدة التى وردها فلو صادف الهواء المتغير جسدا نقيا من الفضول لما أثر هذا التأثير ، ولا طول هذا التطويل . وإنما اغتر مولاى بأيام السلامة فكان يتبسط فى أنواع الطعام ويسرف فى تناول الشراب ، فامتلأ الجسم من تلك الكيموسات الرديئة وورد بلدا شديد التحليل مضطرب الأهوية فوجدت النفس عونا على حل ما انعقد ونقض ما اجتمع . وسيتفضل الله بالسلامة فتطول صحبتها وتتصل مدتها لأن الجسد يخلص خلاص

إلا بريـز ، إذا زال عنـه الخبث ، وسبك ففارقـه الدرن . وأما الرعشة التى يتألـم مولاى منها ، ويضيق صدرا بهـا ، فليست والحمد لله محـذورة العاقبة ، وإنهـا لتزول بإقبـال العافيـة .

فالرعشـة التى تتخوف هى التى تعرض من ضعف القوة الحيوانية كما تعرض للمشايخ ، وتؤذى لمشاركتهـا الدماغ كثيرا من العظام ، فأما هذه التى تعتاد عقيب الحمـى فهى على ما قال جالينوس من أن حدوثها يكون إذا شاركت العروق التى تحـدث فيها علـة العصب ، وتزول عنه بزوال الفضـل .

وعجـب مولاى من تكرهـه شم الفواكـه ، ولاعرو إذا عرف السبب ، فإن العفونـة التى فى العـروق قد طبقت روائحها آلات الشم ، فما يصل إليها من الروائح الذكيـة ، يرد على النفس مغمورا بتلك الروائح الخبيثـة فتكرهـها ولا تقبلهـا ، وتأباهـا ولا تؤثرهـا .

ألا يرى مولاى أن الأشياء الحلـوة توجـد فى فم ذى الصفـراء بطعم الأشيـاء المرة لامتلاء المرارة المضادة للحلاوة على آلات الذوق والمضغ والإدارة ، وهـذا راجع إلى مثل ما حكمنابـه أولا من أن هناك فضلا لا يمكـن الهجـوم على تحليلـه ، لما يخشـى من سقوط القوة ، وإن كان مما لم يخرج لم يوثق بوفـور الصحـة ، وأنـا أحمد الله إذ ليست شهوة سيدى متزايدة ، فالشهوة الغالبة مع الأخـلاط الفاسـدة تغرى صاحبها بالأكل الزائـد ، وتعرض للمزاج الفاسـد إلا أن التغـذى لا يجوز إهمالـه دفعة ، والتبرم به ضربة . فإن البدن إذا أحتاج إليـه وجب للعليـل أن يتناولـه تنـاول الدواء الذى يصبر عليـه ، وذلـك أن فى دقة الحميـة وترك الرجوع أول فأول إلى عادة الصحة إماتـة للشهـوة ، وحياتـة للقـوة .

وجالينـوس يشرط فى العلاجات أجمع استحفاظ القوى ، لأن الذى يفعله الضعـف لا يتداركه أمر إلا أن ذلك بازاء ما قال الحكيم الأول بقراط فى البدن السقـيم : إنك متى مازدته غذاء زدته شرا ، وهو فى نفسه يقول : إن الحمية التى فى نهايـة الدقـة ليسـت بمحمودة ، فالطرفـان من الإسراف والإجحاف مذمومان ، والواسطـة

أسلم . أغنى الله مولاى عن الطب والأطباء بالسلامة والشفاء (١) " .

وقد كان لهذا الصنع الذى أحدثه الصاحب أثره البالغ فى ميادين النثر الفنى فشايعه جمهور من تلاميذه ومريديه .

وقد كان أبو بكر الخوارزمى — المتوفى عام ٣٨٤ هـ — من أسبق المتشيعين له إذ وضع رسالة فى الجدرى كتبها إلى تلميذ له وقد ظهر عليه الجدرى (٢) منها : " وصلنى خبر الجدرى فنال منى وهيج حزنى ، وراع قلبى وأسهر عينى ، وهذه العلة وإن كانت موجعة ، وفى رأى العين فظيعة شنعة ، فإنها إلى السلامة أقرب ، وطريقها إلى الحياة أقصد ، لأن عين الطبيب تقع عليها ، ويد المرض والمعالج تصل إليها ، وإنما هى قرح نبهته الطبيعة ، ودم اثارته الحرارة . وظاهر الدواء أسلم من باطنه ، وبارز الجرح أهون من كامنه .

وهذه بعد علة تعم الأبدان ، وتشمل الصبيان ، وإذا كانت العلة عامة كانت أكثر طبا ودواء ، وأخف على القلوب أعباء ، لأن النفس تستريح إلى المشاركة ، وتأنس بالجماعة . كما تستوحش من الوحدة ، ولعمرى إنها تورث سواد اللون ، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن . ولكن ذلك يسير فى جنب السلامة للروح اللطيفة . والنفس الشريفة . وفى الشرخيار ، ومن المحنة إلى المحنة صروف ومقدار .. وأرى لك أن تحسن ظنك بربك ، وتستغفر من ذنبك ، وتجعل الصدقة شفيعك ، واليقين طبيبك . وتعلم أنه لادواء أدوأ من أجل ، ولا دواء أشفى من مهل ، ولا فراش أوطأ من أمل . شفاك الله تعالى وكفاك ، وسلمك وعافاك ، وبلغك رضاك وحسبك به طبيبا وكفاك " .

كما نراه يكتب رسالة أخرى فى الجرب (٣) كتبها فى أسلوب فنى رفيع . يتناولها القارىء فيخيل إليه أنه يقرأ صحفا من الأدب .

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد ص ٢٢٨ — ٢٣٠ ، وانظر أيضا يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣/ ١٨١ ، ١٨٢

(٢) رسائل أبى بكر الخوارزمى الطبعة الأولى مطبعة الجوائب فى قسطنطينية سنه ١٢٩٧ ص ٨ ١٥ ، ١٥٩

(٣) رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧

وراجت هذه الطريقة حتى اصطنعها العلماء أيضا فى كتب التاريخ والعلوم المختلفة ، وأعتقد أن الصاحب هو الذى أوحى أيضا إلى أبى اسحق الصابى المتوفى - عام ٣٨٤ هـ - أن يضع كتابه التاجى فى أخبار الدولة البويهية فى هذا الأسلوب .

وقد لاحظت فى دراستى للنثر الأدبى فى أصبهان فى القرن الرابع تطور النثر فى أسلوبه حيث أتى الكتاب والأدباء بما لم يكن معهودا فى مدرسة ابن العميد . فمالوا إلى السجع القصير الفواصل ، الذى سلمهم بدوره إلى الاكثار من الازدواج فى عباراتهم . وقد كان هذا التطور ايذانا بظهور مدرسة جديدة فى تاريخ النثر اتخذت من السجع طابعها الأول وعلى رأسها الصاحب بن عباد .

وقد لاحظت ثانيا - أن مدرسة الصاحب كانت أبعد أثرا مما تصور القدماء لأنه كان أكثر من أستاذه ابن العميد تابعا وأوسع منه طريقة . فلم يكن الكتاب وحدهم شيعته فى أسلوبه الجديد ، حيث انضم إليه جماعة آخرون . يضاف إلى ما لاحظته من جديد فى النثر أن الكتاب فى أصبهان استطاعوا أن يطوعوا المعانى والأفكار العلمية لأساليب الأدب فنرى الصاحب وقد كتب بعض رسائله العلمية فى هذا الأسلوب ، والخوارزمى الذى اصطنع نفس الطريقة حين كتب بعض رسائله الطبية .

وكانت طريقة الصاحب التى لمسناها فى أسلوبه وأسلوب مدرسته تمثل حلقة من حلقات تطور النثر الفنى ، لاحظت فيها تساوى الصناعة اللفظية مع الصناعة المعنوية تقريبا . أى أن الكتابة الفنية فيها لم تنحدر من مرتبة الاعتدال إلى الإسفاف والتكلف فى اختيار الألفاظ . وهى بمعنى آخر - لم تخرج عن دور التصنع الذى لمسناه فى مدرسة ابن العميد ومن جاءوا قبله إلى دور التصنّع المسف الذى شُغِفَ به كتاب القرن الخامس والسادس .

ولاحظت خامسا وأخيرا - أن مدرسة الصاحب بأصبهان - مهدت تمهيدا واضحا لكتاب المقامات ، بدليل أن البديع الهمذانى وهو أول كتاب

المقامات المشهورين كان تلميذ الصاحب بأصبهان ، وكان شديد الإعجاب بأسلوبه وسجعه فلم لا يكون سجع المدرسة الصاحبية تمهيدا لكتابة المقامات ؟ وتكون السجعات القصار محور الانتقال بين مدرسة السجع ومدرسة المقامات ولو من ناحية الصناعة اللفظية .

بهذا القدر كانت طريقة الكتاب فى النثر فى أصبهان فى القرن الرابع تمثل ذروة التطور الذى حدث بعده الانحدار النثرى ، فمدرسة الصاحب فيه تمثل الحد الفاصل بين المدارس النثرية الخمسة العامة ، أى أنهم مسبوقون وسابقون .

مسبوقون بطريقة عبد الحميد وطريقة الجاحظ ، وسابقون لطريقة كتاب المقامات وطريقة القاضى الفاضل . لذلك أستطيع أن أقول :

إن مدرستى ابن العميد والصاحب بن عباد تمثلان معا المرحلة الوسطى أو المرحلة الثالثة من مراحل تطور النثر الفنى .

=:=:= :=:=:=:=:=:=:=:=:=

لعل تفنن الكتاب فى البديع وتجويدهم أساليبه مهد لهم سبيل التفوق فى التصوير الأدبى .. فنراهم وقد صوروا الأشياء من حولهم تصويرا فنيا وكأنهم وهم ينتقلون من طور هذه المحسنات إلى العناية بالتصوير كالفنان الذى يتناول صور الأشياء بشكل عام حتى إذا تم له ما أراد أخذ فى تلوين صوره بالأصباغ والألوان التى تتماثل معها . وهو فى هذه العملية الفنية لا ينسى إبراز ميوله النفسية وإظهار معالم نفسه القوية .

ولو تتبعنا طريقة الكتاب فى كتابة رسائلهم لوجدناهم يصدرونها غالبا بشكر النعمة . يتبعونها بالحمد لله والصلاة على النبى كقول الصاحب بن عباد : " كتابنا - ونعم الله لدينا - موفورة ، وعوارفه مشكورة ودعوة الحق بيننا منوطة ، وحوزة الدين عندنا محوطة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على النبى محمد وآله أجمعين ... (١)

ومنها ما تبدأ بالدعاء للمرسل إليه والحمد لله والصلاة على النبى كقول بديع الزمان : " كتبت أطال الله بقاء الشيخ الجليل السيد وأدام علوه وتمكينه عن سلامة والحمد لله رب العالمين وصلاته على محمد و آله وسلم ...(٢)" .

وكثيرا ما يبدؤها بالدعاء للمرسل إليه كقول الصاحب : " كتابى - أطال الله بقاءكم - عن ...(٣)" ،

وكقول الخوارزمى : " وفقك الله فى مراجعة الحق لما تستحق به انتهاء محنتك وألهمك فى استيفاء شرائط التوبة ... (٤)" .

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد ص ٦٧
(٢) كشف المعانى والبيان . ض ٨
(٣) رسائل الصاحب بن عباد ص ٦٣
(٤) رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ٢

وكقولـه : " كتابى أطال الله بقاء الوزير من حضرته إلى حضرته ، ومن مستقر عـزه إلى مستقـر عـزه ...(١) " .

وأحيانـا تبدأ الرسائل بالتحدث عن النعمة التى أفاءها الله على الأمير كقـول الصاحب : " كتابى - ونعم الله عند مولانا على ما يرفع نواظر خدمه ، وأنا سالـم بكريم نظـره ، والحمـد للموصلاتـه على النـبى محمـد و آلـه ... (٢) " .

ومن هذا النوع أيضا : " رسالة الخوارزمى إلى الوزير بن عباد لما ورد باب جرجـان لقتال قابوس بن وشمكير : " كتابى وأنا بما يترامى إلى من أخبار نعم الله تعالـى على الوزير فى حله وترحاله ، وسائر متصرفاته وأحواله . قرير العـين . قـوى الظهـر ...(٣) " .

وأحيانـا إن كانت الرسائل صادرة من أحد ملوك بنى بويه كانت تصدر باسم الأمـير ومن هذا النوع الرسائل التى تولى كتابتها الصاحب ومنهـا : " هذا كتاب مـن مؤيـد الدولـة أبـى منصـور بـن ركـن الدولـة لصدقـه ابـن أحمـد وأولاده . إنـا - ...(٤) " .

أو بالاشارة إلى ورود خطاب من المرسل إليه كقوله أيضا : " وصل كتاب الأمير ركـن الدولـة بما ورد به أمر مولانا أمير المؤمنين ...(٥) " .

ويتضح ذلك أيضا فى رسالة الخوارزمى إلى أبى سعيد رجاء بن الوليـد الأصفهانى : " وصل إلىّ كتاب الشيخ وعقته إذا لـم أطر فرحـا لمّا رأيتـه ...(٦) " .

وكذلك رسالة البديع إلى الفقيه أبى سعيد ونراه يصدرها : " وصلت رقعة الفقيـه ولولا وده وأنا أستبقيـه لشتمت العام والخاص ...(٧) "

---

(١) رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ٨٢
(٢) رسائل الصاحب بن عباد ص ٧٣
(٣) رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ٥٧
(٤) رسائل الصاحـب ص ٦٥
(٥) المرجـع السابـق ص ٦٤
(٦) رسائل الخوارزمى ص ١٥٧
(٧) كشف المعانى والبيـان ص ٤٩٢

وقد يكتفى الكاتب من البدء بقولة : "كتابى "كقول الصاحب فى رسالة عزاء : " كتابى ـ يا أخى ! ـ وأنا لا أعلم أعزيك أم نفسى ، فليس المصاب عندك بأعظم منه عندى ... (١)

ولو أستقرأت جميع ما كتب من رسائل فى هذه الفترة لما وجدت صورة من صور البدء ، غير هذه الصور إلا نادرا .

ولعلك لا ترى الكاتب فى رسائله يطرح هذه الصور جانبا أو يدخل فى موضوع الرسالة رأسا إلا فى قليل جدا من الرسائل ، كقول الصاحب فى رسالة : قد عرف مولاى أمر عكبر بن إبراهيم فى تمرده منذ حلت تمائمه ، وسوء معتقده منذ فارقته حواضنه ، وأنه كان لا يقصّر عن الإفساد ما أطاق ... (٢) " .

وكقوله فى أخرى : " إن الله ـ سبحانه ـ حين استكفى مولانا من أمر بلاده ما استكفى ، واسترعاه من حال عباده ما استرعى ، وأتاه السياسة التى يضرب بها المثل ... (٣) " .

فإذا انتهى الكاتب من فواتح الرسالة ، وأتم ما أراد من براعة الإستهلال تحدث عن الموضوع الذى يريد . وأخذ ينوه بأحوال الدولة البويهية ويمجدها ثم يذكر ما يريده الأمير من المرسل إليه أو ينبهه إلى بعض شئونه ، وهو فى ذلك حريص كل الحرص فى التبشير برضاء الأمير والتحذير من غضبه وسخطه وجبروته وعقابه .

حتى إذا ماوافى إلى نهاية الرسالة ختمها فى صورة جذابة تقرب كثيرا من الصورة التى بدأ بها . وكثيرا ما يذيلها بالدعاء كقول الصاحب فى ختام رسالة " ... طالعناك ـ أدام الله تأييدك ـ بنبأ هذا الفتح الجسيم خطراء الكريم أثرا ، لتتقدم بإشاعته فى الأولياء والرعية ، والتحدث به على المنابر والأندية ، فرأيك فى العمل بذلك ، وإعلامنا أخبارك وحاجاتك ، موفقا إن شاء الله (٤) " .

---

(١) رسائل الصاحب ص ١٣٨
(٢) المرجع السابق ص ١١٦
(٣) المرجع السابق ص ٩٢
(٤) رسائل الصاحب ص ١٨

وقولـه : " ... والله ولى تأييـدك وتسديدك ،وتقويـة أنصـارك وعديـدك (١)

وقوله أيضـا : " ... والله راعيـك وكافيك ، وواقيك وهاديـك ، وهو حسبنـا ونعـم الوكيـل (٢) "

وقول الخوارزمـى : " ... أمتع الله تعالى شيخى بمحاسنه التى هى مبيت المدح ومقيله ، وعزة الدهـر وتحجيله . وأطال بقاءه ، وجعلنى فداءه (٣) " .

ونـرى ذلك أيضا فى رسائل بديع الزمان حيث يقـول : " ... والله يوفـق الأستاذ لما يأتيـه ويذره فنعم الرفيق التوفيـق والسـلام (٤) " .

وقـد يكرر الكاتب بعض هذه العبارات فى نهاية بعض الرسائل . كمـا تـرى أن الكاتب إن نسى الدعاء لا ينسـى أبدا ذكر المشيئة والثناء على الله تعالى إلا القليـل النادر كقـول ابن عبـاد .

" ... وقابل الأمر بالامتثال ، أشاء الله عز وجل (٥) " .

وقوله فى أخرى : " فينعم مولاى بمكاتبتى أمرا ونهيا ، يحمدنى جدا وسعيا ، إن شاء الله (٦) " .

وكقـول بديع الزمان : " ... ورأى الوزير فى ذلك موفق إن شاء الله (٧) " .

وقوله فى أخرى : " ... فالله تعالى يعافيـه ويبقيه ، ولا يرينـا مكروهافيـه . إن شـاء الله تعالـى (٨) " .

وقولـه فى أخـرى : " حسب اخلاصى واخلاصه إن شـاء الله عز وجـل (٩) " .

وكقول الخوارزمى : " ... فإن رأى الحاجب أن يتواضع بنا ، ويخفض جناحـه لنا . فعل إن شاء الله تعالـى (١٠) " .

---

(١) رسائل الصاحب ص ٧٦
(٢) المرجع السابق ص ٦٩
(٣) رسائل الخوارزمى ص ١٥١
(٤) كشف المعانى والبيان ص ٢٤٤
(٥) رسائل الصاحب ص ١٨٦
(٦) المرجع السابق ص ١٨٨
(٧) كشف المعانى والبيان ص ٢٧٩
(٨) المرجع السابق ص ٣١٥
(٩) كشف المعانى والبيان ص ٣٥٠
(١٠) رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ١٦٧

وإذا تركنا طريقة الافتتاح والاختتام فى الرسائل إلى اللغة والأدب ، فسألنا أكان للفارسية أثر فى كتابة الكتاب ؟ ونحن نعلم أن الصاحب بن عباد كان يتقن الفارسية . ويقول الجاحظ" اللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها (١) .

فهل أدخلت الفارسية الضيم على عربية الصاحب ؟

والإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نحتاط فيها ، إذ يجرى على أقلام بعض الأدباء دعوى تأثير العربية بالفارسية كلما كتبوا عن الأدب العربى فى العصور الإسلامية . وهى دعوى لايستطاع إقامة الدليل عليها إلا بالرجوع إلى الأدب الفهلوى ، الذى اشتق منه الأدب الفارسى الحديث وإلا بمسايرة الأدب العربى فى تطوره أثناء العصور الإسلامية الأولى . والذى يبدو لمن درس الأدبين أن موضوعات انتقلت من الأدب الفارسى المنثور إلى الأدب العربى ، وأن بعض رسوم الرسائل الفارسية تسربت إلى كتابة الدواوين العربية ، وأن ألفاظا فارسية كذلك استعملت فى العربية وأما أن تركيب الجملة العربية طاوع تأثير الفارسية ، أو أن أسلوبا من أساليب العربية يعد محاكاة لأسلوب فارسى ، فأمر عويص ينبغى أن لا يقدم عليه الباحث المتثبت إلا بعد بحث طويل دقيق ولولا هذا لأحلنا بعض عبارات الصاحب على عبارات فارسية .

ومن أجل ذلك نقتصر - فى إجابة السؤال السابق - على مالاشك فيه من استعمال الصاحب ألفاظا فارسية فى أمور الخراج ، وسقى الأرض ونحوها لم يجد من استعمالها مناصا ، وهى مبثوثة فى رسائله .

وقد استعمل الظاء بدل الضاد فى بعض كلماته مثل " افضاء " فقد كتبت " افظاء " (٢) . والضغائن كتبت " الظغائن " (٣) .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ١ / ١٣٩ ط (السندوبى)
(٢) انظر رسائل الصاحب ص ٧٦
(٣) المرجع السابق ص ٩١

ولسنا ندرى أهـذا من عمله أم من عمل الناسخ . والذى نرجحه أنها من عمل الناسخ . وعلى كل حال نحن لا نملك القطع بأن الصاحب غلبت عليه العجمة لمثل هذا الاستعمال .

وقد جاء فى الرسالة التاسعة من الباب الأول : " وأبواب خاناتها ومسجد جامعها (١) " يريد مسجدها الجامع ، وهذه صياغة فارسية إذ يضيف الفرس الموصوف والصفة معا إلى المضاف إليه .

ونرى الكاتب أيضا مطبوعا على استعمال الألفاظ السهلة التى لا تحتاج فى إدراك معانيها إلى المعاجم وكتب اللغة . ونلمس هذه السهولة فى سائر الرسائل فلا تجد ما يضطرك إلى البحث أو يحملك على التنقيب إلا نادرا ، وإليك مثال يدل على صدق ذلك أخذناه عفوا .

" فأما الحجيج فمولانا على اهتمام بأمورهم ومراعاة لأحوال جمهورهم ، وملاحظة لسيرهم حتى يقعوا فى ظل الصون والسداد ، ويأمنوا عوارض العبث والفساد ، وإذ قد ورد الأمر الممتثل بذلك من الحضرة العالية فإن النافلة فيه تعود فرحنا حتماء وحكما جزما ، ومتى ورد الكتاب بذكر انفصالهم أخرج العُدد والعَدد الجم من الأولياء ، وليهم الله ليوردهم بإذن الله مكتوفين محوطين من أعين محروسين (٢) " .

وكثيرا ما يختار الكاتب الفاظه من ذات الحروف الضخمة و حروف التفخيم والاطباق كالقاف والضاد والظاء والصاد والطاء ونحوها مما يجعل الكلام جزلا ذا رنين وجلجلة .

ومن أجل ذلك نجد بناء العبارات قويا ضخما يروع القارئ لأول وهلة لمتانته وصلابته وهو يقصد إلى ذلك قصدا حتى يحلق فى أجوائه العليا من فن الكتابة كما يتصورها وكما تقع فى وهمه .

---

(١) انظر رسائل الصاحب ص ٣٢
(٢) المرجع السابق ص ٧٣

ويتصل بذلك أيضا أن الكاتب أحيانا يغرب فى ألفاظة فيختارها من المعجم غير المألوف رغبة منهم فى الارتفاع • وقد ساعدهم فى بلوغ ما يريدوه من ذلك سعة العلم باللغة • كما نلاحظ فى التراكيب والعبارات شغفهم الشديد باستعمال الجمل الإعتراضية حتى لتحسبها جزءا من صناعتهم فى الكتابة • كقول الصاحب

" الأشغال أيد الله الشريف علىّ مزدحمة كالعادة فى باكورة الأعمال ، وكرهت تأخير الجواب طلبا للجمام ••• (١) "•

وقد يكرر الكاتب الجمل الإعتراضية فى الرسالة الواحدة ، ويغلب فى هذه الجمل الدعاء كما سبق • وقد تكون لغير الدعاء مثل : " كتابى ـ يا أخى إ ـ وأنا لا أعلم أعزيك أم نفسى •••(٢) "•

وقوله : " هو الدهر ـ ياشيخى وكبيرى إ ـ فلا تعجب من طوارقه ، ولا تنكر هجوم بوائقه •••(٣) "•

وقد يفصل بين المبتدأ والخبر بجملة تمتد إلى ثلاثة أسطر (٤) ، وقد يفصل بين الفعل ومفعوله بجملة تمتد إلى خمسة أسطر (٥) وقد يفصل بين فعل الشرط وجوابه بنحو سبعة أسطر (٦)•

وكما يكثر الكاتب من الاعتراض يكثر أيضا من البعد بين المتعاطفات وخاصة إذا كانت مجرورة •

ونرى أن الجمل والعبارات فى الرسائل واضحة النسج حسنة النظم • جميلة الترصيع لطيفة الوضع سهلة المأخذ • فلا تجد التباسا فى عباراتها ولا تعقيدا فى تراكيبها •

---

(١) انظر رسائل الصاحب بن عباد ص ١٣١
(٢) المرجع السابق ص ١٣٨
(٣) المرجع السابق ص ١٤١
(٤) المرجع السابق ص ١٥
(٥) المرجع السابق ص ١٦
(٦) المرجع السابق ص ١٧٥

بحيث تؤدى المعانى كاملة فى غير خفاء أو غموض ، ورغم إهتمامهم بالمحسنات البديعية ، وغوصهم على صورها واستخراج أشكالها لا يضحون بالمعنى من أجل الألفاظ والمحسنات .

ويغلب على تراكيب الكتاب وفقراتهم استخدام التكرار مثل : " وأمرناك بتقديم خشية الله فيما تبطن ... وأمرناك باقتفاء سننا فى إفاضة العدل .... وأمرناك بحمل المعاملين مع اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم ... وأمرناك بتتبع آثار المتلصصة وأهل العبث ... وأمرناك باستيفاء الحقوق السلطانية .... وأمرناك بأخذ الجوالى على العدد ... وأمرناك باعتماد من يأخذ الصدقات على فرائض الله المكتوبة ... وأمرناك باستطلاع الرأى فيما يعرض مما لم يعهد فيه إليك ... (١) "

ومثل هذا التكرار كثير وخاصة فى العهود التى كتبت إلى الحكام والقضاة ، وهى الرسائل الإدارية والقضائية التى تحدثنا عنها وأوردنا طرفا منها وأولع الكتاب بالسجع فنراهم يهتمون باختيار الكلمات المتماثلة الأواخر وكأن الكاتب فى ذلك يحصيها إحصاء أو يلهمها إلهاما بغير تكلف أو عنت فنراه يستعمل الحشم مع الخدم ، والغاشية مع الحاشية ، والمرتبة مع المسطبة ، والطاق مع الرواق ، والمجالس مع الطنافس ، والانصاف مع الاسعاف ... الخ .

ونرى أن عباراتهم فى السجع تكاد تكون متساوية فى عدد الكلمات ، وكل كلمة من فقراته تقابل مثيلتها من الفقرة السابقة عليها سجعا مثال ذلك : " واطراد السعادات فى أحواله ، وانتظام البركات بإقباله ، وعافيتى فى ظلاله (٢) " فالتزم السجع فى كلمتين من هذه الفقرة .

وقوله : " وفادحة الفوادح ، وقادحة القوادح (٣) " .

ونراهم وقد استخدموا جميع المحسنات البديعية التى شاعت فى عصرهم وقد

---

(١) انظر رسائل الصاحب ص ٥٣ ، ٥٤
(٢) المرجع السابق ص ٦٣
(٣) المرجع السابق ص ١٤٦

ساعدهم على ذلك تطور البديع فى القرن الرابع . كما استخدم الكتاب الجناس والطباق والمقابلة والتشبيه والاستعارة والكناية والإقتباس خاصة .

وأستخدموا الجناس فى أكثر مواضعه وصوره . فمن الجناس غير التام قول الصاحب: " فأنى ناعٍ الفضل من أقطاره ، وداعٍ المجد إلى شق ثوبه وصداره ، ومخبر بأن شمس الشرف كاسفة ، وأرض الكرم راجفة ، والمحاسن منقضية ، والمناقب مودية ، والمآثر مودّعة ، وبقايا النبوة مرتفعة ، وآمال الأمة منقطعة ... (١) فمثلا بين " ناع " و " داع" جناس غير تام . وكذلك بين كلمتى " مرتفعة " و منقطعة " أيضا جناس غير تام .

ومن الجناس التام قوله : " ... ووصَل أمواتها قادم تَقْدُمة حسناته ، وتحفّه قرباته ، وتصلى عليه صلاتهُ وصِلاته ، وتزكّيه صادقةً زكواتُه وصدقاته (٢) فبين " صلاتهُ وصِلاته " جناس تام

ومن المقابلة قوله : " فمن وقف فى ظل طاعته أخذ بالأمان من الحوادث والنوازل ، واستوطن من الزمان أحمد المقار والمنازل ، ومن تعرض للورطة العظمى من سخطه وانكاره ، وتهوّك (٣) فى الخطة الكبرى بمخالفة أعوانه وأنصاره خذلت يمينه شماله ...(٤) " .

وقوله : "... والتقوا فقبلت ريح الاقبال لأولياء الله ، ودبرت ريح الادبار لأعداء الله ...(٥)" .

ومن الطباق قوله :" ... ويزعجه الصبح ويذعره الظلام (٦) " وقوله : " وحسبت ترك المعارف إلى المجاهل يقيها ما أظلها ، والايغال فى المسارب والمهارب يحميها ما أقلها (٧)" . فبين كلمتى الصبح والظلام ، وكلمتى المعارف والمجاهل طباق .

---

(١) رسائل الصاحب ص ١٤٤
(٢) انظر رسائل الصاحب ص ١٤٩
(٣) تهوّك : تردّى
(٤) رسائل الصاحب ص ١١
(٥) المرجع السابق ص ١٢
(٦) المرجع السابق، ص ١٢
(٧) رسائل الصاحب ص ١٣

وقد تعلقوا باستخدام التشبيهات والاستعارات في الرسائل فاستعملوا التشبيه في شتى صورة وتراكيبه . فمن التشبيه المرسل قوله :
" وصار بنو حمدان كرميم ، طاح في ريح عقيم ...(١)" .

ومن التشبيه البليغ قوله في وصف شعر :" وصلت لك قصيدة هي السحر أو أدق ، والماء أو أرق ...(٢)" .

ومن شواذ التشبيه وغريبه قول الصاحب في رسالة :" فلم يكتسب بطلب الفرصة ، إلا تجرع الغصة ، ولا من تتبع الغِرَّة ، إلا تذرع الحَرَّة .. (٣)" . والحرة معروفة ولكن تدرعها هو الغريب .

ومن ذلك أيضا :" ... وعبد مولانا أخصّ بالخدمة ، وألبس للنعمة من أن يخبر عما تورد هذه الفتوح على نفسه ، وتأتيه في اعلاء منكبه وطرفه ، ويقوم به من فرض الله - تعالى (٤)" . والتعبير بما تأتيه هذه الفتوح في اعلاء منكبه وطرفه غريب .

وشغف الصاحب بن عباد بالاستعارة . وتراه حين يستخدمها معنيا بالإغراب وابتداع كل جديد منها ، حتى ليخيل لمن يبحثها أنه يغوص على غريب الاستعارة ويتعلق بأذيالها تعلق أبي تمام الشاعر .

ومنها قوله : فإنك تطفئ بكتبك لهب البعد ، وترش على نار الحنين بماء الوصل" ففي قوله :" لهب ونار وماء " استعارة تصريحية .
وفي قوله :" كتبك " استعارة مكنية .

كما استخدم الكتاب الكناية ومنها قول الصاحب :" إن الرياسة خيمت ثم متشبثة بأعطافهم ، متنقلة في أكنافهم ...(٥)" .

---

(١) رسائل الصاحب ص ٢٢٥
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٧
(٣) المرجع السابق ص ٧
(٤) المرجع السابق ص ١٤
(٥) انظر رسائل الصاحب ص ١٣٣

ونراهم يقتبسون تارة من الشعر ، وأخرى من القرآن . فنرى الصاحب يقتبس من الشعر قوله : " فلم لا أملى إملاء أسرع من سلة سارق أو لمعة بارق.

وخطفة برق أو كنظرة مغرم على حذر أورد طرف المراقب (١)

وقوله مقتبسا من أبى تمام .

ومن اقتباسه من القرآن الكريم قولة : " ... وأمره بأن يحتاط على مال اليتيم بالاحتياط الشديد ، فلا يعوّل فى حفظه إلا على الأمين السديد ، ويوكل به عينا من ملاحظته ، ويدا من حفظه ومحافظته ، ليؤمن فيه الأكل بالباطل ، والتعريض لخبث المطاعم والمآكل ولينفق منه عليه انفاقا وسطا فى التقدير ، بين التبذير والتقتير ، إلى أن يبلغ الحلم والنكاح ، ويستكمل الرشد والصلاح ، فيحصل ماله فى يديه ، ويشهد به عليه ، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولاتأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا .. (٢) .

ومن اقتباسه من القرآن أيضا قوله : " والله أسأل لك ولنفسى التوفيق والتسديد ، إنه فعال لما يريد (٣) " .

---

(١) رسائل الصاحب ص ٢٣٥
(٢) المرجع السابق ص ٣٧ ، ٣٨
(٣) المرجع السابق ص ١٤٢

ثانيا : فنون أخرى من النثر الأدبي

واذا تركنا الرسائل بأنواعها .. وانتقلنا إلى الفنون الأخرى من النثر الأدبى فى أصبهان فى القرن الرابع وأهمها التوقيعات ، والمناظرات ، والحكم والأمثال والملح والفكاهة

وهذه الصور النثرية على اختلافها .. لها ما للرسائل من قيم فنية ملحوظة . وقد أثبت الكتاب فيها لونا من ألوان التجديد فى الكتابة . وخطوا بالنثر الفنى خطوات ملموسة أسجلها فيما أعرض من هذه الفنون .

١ - التوقيعات

يراد بالتوقيع ما يعلقه الخليفة على القصص أو الرقاع (العرضحالات) وكان الخلفاء فى صدر الإسلام هم الذين يوقعون بأنفسهم أو يأمرون كتابهم بتدوينه ، ومال الكتاب والأدباء إلى الإيجاز ولا سيما فى التوقيع ، والغالب فى توقيعهم أن يكون اقتباسا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو حكمة مشهورة أو من الشعر الحكمى .

ومن أمثلة ذلك أن سعد بن أبى وقاص عامل العراق كتب إلى عمر بن الخطاب كتابا يستأذنه فيه أن يبنى دارا فوقع فى أسفل الكتاب : " ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر (١) " .

ويشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بضرب أعناقهم فوقع فى ذلك الكتاب : " فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعلمون " وأرسله إليه .

وقس على ذلك توقيعات بنى العباس ، فقد وقع السفاح إلى قوم من أهل الانبار شكو إليه أن منازلهم أخذت منهم وأدخلت فى بناء ، أمر به ولم يعطوا أثمانها فوقع: " هذا بناء أسس على غير تقوى " وأمر بإعطائهم الأثمان (٢) .

---

(١) تاريخ آداب اللغه العربية لجرجى زيدان جـ ٢ / ١٣٠ (ط . دار الهلال)
(٢) المرجع السابق ص ١٣١

ومن توقيعات هرون الرشيد إلى عامله فى خراسان " داوجرحك لا يتسع (١) " .

ولم تكن التوقيعات خاصة بالخلفاء . فمن توقيعات الأمراء والوزراء توقيع جعفر البرمكى لمحبوس : " ولكل أجل كتاب " ووقع فى كتاب جاء فى شكوى بعض عماله : " لقد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما اعتزلت (٢) " .

وإذا نظرنا إلى التوقيعات التى عرفت عن الصاحب بن عباد نجدها ليست من النوع القصير المقتضب الذى كان يصدره الخلفاء ، ويتبارى فيه الكتاب فى العصر العباسى الأول — كتوقيعات الرشيد ووزيره يحيى بن خالد البرمكى — وإنما ذهب فى توقيعاته مذهبا جديدا لم يسبق إليه أحد من الكتاب فقد كان متفننا فى طرق أدائها ، وهو لا يبالغ فى تقصيرها والغازها إلا نادرا .

نراه يرسلها تارة نثرا وآونة شعرا ، وهى عنده أطول ديباجة وأوضح عبارة ، ولعل توقيعاته لا تكاد تقف عند هذا الحد ، إذ كثيرا ما يضفى عليها من صناعته اللفظية .. فيجعل التوقيع يدور حول تشبيه أو تمثيل قوى ، وكثيرا ما كان يكسوه ثوبا من المحسنات اللفظية . حتى إننا ندرك الجناس أو المقابلة عن كثب فى أغلب توقيعاته ، مع فرط فى السهولة ورقة فى المأخذ . ونجد فيها الشعر والنثر على السواء .

ومن أشهر توقيعاته الشعرية ما أورده صاحب اليتيمة عن أبى منصور اللجيمى الدينورى ، قال أهدى العميرى (قاضى قزوين) إلى الصاحب كتبا وكتب معها :

العميرى عبد كافى الكفاة ... ومن اعتد فى وجوه القضاة
خدم المجلس الرفيع بكتب ... مفعمات من حسنها مترعات

فوقع الصاحب تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتابا ... وردد نا لوقتها الباقيات
لست استغنم الكثير فطبعى ... قول خذ ، ليس مذهبى قول هات (٣)

---

(١) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ١٥٢ (ط٤ الرابعة سنة ١٣٤٧هـ مطبعة الاعتماد) .
(٢) نهاية الأرب للنويرى السفر السابع ص ٢٦١ (مطبعة دار الكتب ط١ سنة ١٣٤٧هـ ، وانظر أيضا تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ ٢/ ١٣١ .
(٣) يتيمة الدهر جـ ٣/ ١٧٤ ، ١٧٥ (مطبعة الصاوى ط١٠ سنة ١٣٥٣ هـ) ، انظر أيضا ارشاد الاريب لياقوت جـ ٢/ ٣١٢ (مطبعة هندية) .

ومن نوادر توقيعاته أيضا عندما كتب إليه أبو منصور الجرجانى :

قل للوزير المرتجى ... كافى الكفاة الملتجى
انى رزقت ولدا ... كالصبح اذ تبلجا
لازال فى ظلك ظـ ... ـلّ المكرمات والحجى
فسمه وكنه ... مشرفا متوجا

وكان قد رزقه الله مولودا فوقع تحتها الصاحب:

هنئته هنئته ... شمس الضحى بدر الدجى
فسمه محسنا ... وكنه أبا الرجا (١)

وإذا نظرنا إلى التوقيعات النثرية . فإننا نجدها بطبيعتها أكثر من الشعرية وهى أبلغ منها . كتب أبو جعفر الأصبهانى الوراق إلى الصاحب بن عباد رقعة : " لولا أن الذكرى أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل ، تنفع المؤمنين ، وهز (٢) الصمصام يمين الصلتين . لما ذكّرت ذاكرا ، ولا هززت ماضيا . ولكن ذا الجارحة (٣) يستعجل النجح ، ويكد الجواد السمح . وحال عبد مولانا فى الحنطة متخلفة وجرذان داره عنها منصرفة . فإن رأى أن يخلط عبده بمن أخصب رحله . فلم يشد رحله . فعل إن شاء الله تعالى . فوقع الصاحب على رقعته وهذه نسخة التوقيع : " أحسنت يا أبا حفص قولا ، وسنحسن فعلا . فبشر جرذان دارك بالخصب وآمنها من الجدب . فالحنطة تأتيك فى الاسبوع ولست عن غيرها من النفقة بممنوع ، إن شاء الله تعالى (٤) " .

ومن أندر توقيعات الصاحب النثرية ما ذكره صاحب اليتيمة حيث قال " حدثنى أبو منصور اللجيمى الدينورى قال : كتب بعض العلوية إلى الصاحب يخبره بأنه رزق مولودا ، ويسأله أن يسميه ويكتيه فوقع فى رقعته : أسعد الله

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى ٣/ ١٧٥ (ط الأولى مطبعة الصاوى)
(٢) فى اليتيمة : وهزة تعين
(٣) فى اليتيمة : ذا الحاجة لضرورته .
(٤) انظر ارشاد الاريب لياقوت جـ٢ / ٣٢٧ (مطبعة هندية) وانظر يتيمة الدهر ٣/ ١٧٥

بالفارسى الجديد ، والطالع السعيد . فقد والله ملأ العين قرة ، والنفس مسرة مستقرة . والاسم على ليعلى الله ذكره ، والكنية أبو الحسن ليحسن الله أمره . فإنى أرجو له فضل جَدِّه ، وسعادة جِدِّه . وقد بعثت لتعويذه دينارا من مائة مثقال ، قصدت به مقصد الفال . رجاء أن يعيش مائة عام ، ويخلص خلاص الذهب الأبرز من نوب الأيام والسلام (١)

ومن خلال ذلك نستطيع أن ندرس خصائص أسلوبهم فى التوقيعات فنرى الصاحب يعنى عناية شديدة بالمحسنات اللفظية . فيسجع بين أجزاء التوقيع كقوله : " والاسم على ليعلى الله ذكره " وقوله : " الكنية " أبو الحسن ليحسن الله أمره . وكقولة " مثقال " وقوله " الفال ".

ونجد مثل ذلك فى مواضع أخرى من التوقيع . كما نراه يصطنع الجناس بين قوله : " فضل جَدِّه وقوله سعادة جِدِّه ".

ومن توقيعات بديع الزمان فى رقعة : " ياهؤلاء لاتكابروا الله فى بلادة . ولا تراودوه فى مراده . وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده (٢) "

وقال ياقوت : وعرض على (أبو الحسن الشقيقى البلخى) توقيع الصاحب إليه فى رقعته " من نظر لدينه نظرنا لدنياه ، فإن آثرت العدل والتوحيد بسطنا لك الفضل والتمهيد . وإن أقمت على الجبر فليس لكسرك من جبر (٣) ".

وفى هذا التوقيع يظهر لنا مذهب الصاحب فى الاعتزال . فقد عرف الصاحب بن عباد بالاعتزال ، كما عرف أبوه من قبل — وقد كانت له كتب فى ذلك — وقيل إنه كان يذهب مذهب أهل العدل ، وفى ذلك يقول :

تعرفت بالعدل فى مذهبى ... ودان بحسن جدالى العراق
فكلفت فى الجد مالم أطق ... فقلت بتكليف مالا يطاق (٤)

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٣ / ١٧٥
(٢) كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان لابراهيم الأحدب ص ٣٧٥
(٣) ارشاد الاريب لياقوت ٢/ ٣٢٩ ، وانظر اليتيمة ٢/ ١٧٧
(٤) نزهة الالباء فى طبقات الأدباء لعبد الرحمن الانبارى ص ٤٠١

كما قيل أنه : كان ينكر الجبر فى الأفعال . وفى ذلك قال السلامى الشاعر يهجوه

يا ابن عباد بن عباس بن عبدالله حرها
تنكر الجبر والخرجـ ـت إلى العالم كرها (١)

أى أنه يراه كما يراه جمهور المعتزلة من أن الانسان يخلق أفعال نفسه ، وليس مجبرا فى الأفعال لأن الجبر يتنافى مع العدالة الإلهية فى نظرهم . إذ لو كان الإنسان مجبرا على الأفعال فلماذا يحاسبه ؟؟؟

ومن توقيعات الخوارزمى ما كتبه إلى حاكم : " ورد كتاب الحاكم بما ملأ نى سرورا وحبورا ، وصار فى رجائى الميت حركة وفتورا ، وشكرته على ما بذله شكرا ، لا إرضاء مهرا ، لإساءته لو انتهت إلىّ ، فكيف لاحسانه المتظاهر علىّ ، ولكن لن تتجاوز الطاقة ذرعها ، ولن يكلف الله نفسا الا وسعها ، وما عندنا غير خلق لا يشترى بثمن ، ولا يعارض بايمه بقبيح ولا حسن ، وهو الدعاء استجاب الله فى الحاكم صالحه واسبغ عليه منايحه ، وأعطاه من كل خير مقاليده ومفاتحه (٢) "

وتغنن الصاحب فى صنع التوقيعات فنراه يوقع على رقعة لابن جحا : " أنت الأخ دينا ، والصديق يقينا ، وكلفة التحشم موضوعة عنك ، أطال الله بقاءك ، لقوة التحقق ، ولو عرفت مقامك حيث أصحرت لكددت الناظر طالبا ، واستنجدت الطّرفْ رائدا ، ولو وقفت على اعتيادك الباب لرتبت من يتلقاك مكرما ، ويوصلك موئرا . ودون الغيوب أستار لا تكشفها العيون والقلوب . ومتى نشطت للحضور انفرجت أغلاق الأبواب ، وتجافت أعطاف الستور ، وقالت الدار مرحبا (٣) "

ووقّع إلى عامل : " بلغنى أنك عزمت على تفرقة غلة السلطان فى الرعية كُرْها ، وما جعل الله ذلك لك ، ولا أمرك سلطانك ، أطال الله بقاءه ، وليت ما فعلته عاما لم يُفْعَل ، فإنّ عادِيَتَه كثرت ، وعائدته قلّت . فأَجْبِرْ أيدك الله - أمر

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٣ / ٢٥٢
(٢) رسائل الخوارزمى ص ٢٢
(٣) رسائل الصاحب بن عباد ص ٢٢٣

القوم فى الرفق والإحسان مجراهم الأول ، بل زدهم بحسب زيادة إحسان الله عند مولانا وغدى فى خدمته ، وأشِعْ ذلك لتكتسب النفوس عن ضعفها قوة ، وعن خيفتها أمنة (١)" .

ومن غرر التوقيعات النثرية ودورها توقيع أبى محمد عبدالله بن أحمد الخازن (٢) وهذه نسخة التوقيع ، الوارد على الأستاذ أبى العباس : " فلا جرم أنى أخذت مالا ، وأغنيت عيالا . وقلت ليس إلا الجمازة والمفازة (٣) فصبحت جرجان مسبيَّ عاشرة أهدى من القطا الكدرى ، كأنى دعميص (٤) الرمل استاف أخلاف الطرق ، وأنامع ذلك أحسب المعفو عنى حلما ، ولا أقدر ما جنيت يعقب حُلما . فكأنى ما خطوت إلا فى التماس قربه ، وما أخطأت إلا لتأثيل حرمه .

وكأنى لم أفارق الظل الظليل ، وأخذ فى بقول الله تعالى فاصفح الصفح الجميل . فقد روى فى التفسير أنه عفو من غير عتب ، وعدنا للقرب فى المجلس ، وكرم اللقاء والمشهد ، وراجعت أيدينا ثقل الصرر ، وجلودنا لين الحِبر وركبنا صهوات الخيل ، وسبحنا إلى دورنا بفضلات الخير . وأقبلنا على العلم ، وصافحنا يد النثر والنظم . وراجع الطبع شيئا كان يدعى الشعر كذلك آدم أسكن الجنة بمن الله وفضله ، ثم خرج عنها بما كان من جرمه — وهو عائد إليها بفضل الله وطوله هذا خبرى ، وأما كتاب سيدى الأستاذ أدام الله عزه فورد وذكرت قول سلم الخاسر (طيف ألم بذى سلم) لأنه حل محل الخيال ، وورد بأخصر المقال . وما تركت السؤال عن خبره ساعة وردت ، فعرفت من سلامته ما بشرت فاستبشرت . وعلمت كيف كانت النكبة ، وكيف انحسرت المحنة . وكيف اتفق الخروج إلى بخار المزن من المزن صاب ،

---

(١) رسائل الصاحب بن عباد ص ٢٢٢

(٢) انظر ترجمته فى اليتيمة ٣/٢٩٢ وما بعدها

(٣) الجمازة : البعير أو الناقة التى تعدو عدوا دون الحضر . والمفازة . الصحراء يريد أنه هرب .

(٤) دعميص الرمل : عبدأ سود داهية ، طمست الجن عينه وهو فى وسط الرمال فهلك فيها .

بعد أن أصابه الدهر بما أصاب . وشوقى إلى سيدى الأستاذ الشوق الذى كنت أصلى بناره ، وداری ازاء داره . ولم أستطيع فى التقريب أكثر من أن خرجت عن الموصل إلى جرجان ، وشارفت أدنى خراسان ...

ويقول فيه أيضا : " ... وقد عجبت من ذلك فإن أوامر الحضرة أقدار جارية ، وسيوف ماضية . وأنا أجرى حديثا ، وانتجز كتابا جديدا . فأما شعرى فليس يروى إلا فى ديوان باد ، منذ فارقت آل عباد ، وفجعت بكتبى جملة ، وضرب عليها أولئك اللصوص ضربة ".

وفيه أيضا : " ... ومن خبرى أن لى ضيعة بأصبهان مقطعة ، وقد برقت لى فى حلها بارقة مطمعة ، لأن مولانا أدام الله مدته أمرنى أن أعمل فى السلطان العظيم ، أطال الله بقاءه مدحا نيروزيا أشق بسموطه السماطين ، هذا ولو كنت عاملا لكنت اليوم فى مرموق الدرجات (١)". فهذا كلام كما نراه يجمع بين الجزالة والحلاوة وحسن التصرف فى لطائف الصنعة ، ويملك رق الإتقان ، والإبداع والإحسان ، ويعرب عما وراءه من أدب كثير ، وحفظ غزير ، وطبع غير طبيع ، وقريحة غير قريحة . وهو يصف حاله وقد ترامت به بلدان العراق والشام والحجاز فى بضع سنين ، ثم أفضت حياته إلى معاودة حضرة الصاحب بن عباد ، بعد أن ذاق مرارة الغربة ، وقسوة الحياة . فنراه يكتب إلى أبى بكر الخوارزمى :

" كتابى أطال الله بقاء الأستاذ سيدى ومولاى من الحضرة التى نرحل عنها اختيارا ، ونرجع إليها اضطرارا ، ونسير عن أفيائها إذا أبطرتنا النعمة ، ثم نعود إلى أرجائها إذا أدبتنا الغربة ، ومن لم تهذبه إلا قالة هذه العشار ، ومن لم يؤدبه والده أدبه الليل والنهار . وما الشأن فى هذا ، ولكن الشأن فى عشر سنين فاتت بين علم ينسى وغم لا يحصى ، وانفاق بلا ارتفاق ، وأسفار لم تسفر عن طائل ، ولم تغن عنى ريش طائر ، وبعد عن الوطن على غير بلوغ الوطر .

---

(١) انظر يتيمة الدهر ج ٣ / ٢٩٣ ـ ٢٩٥

ورجعت يشهد الله صفر اليدين من البيض والصفر ، أتلو والعصر إن الانسان لفى خسر . وأنا بين الرجاء فى أن أقال العثار ، والخوف من أن يقال زار الليث فلا قرار . إلا أنى كنت قدمت تطهير نفسى ، فلججت حتى حججت ، وعدت بغبار الإحرام ، وبركة الشهر الحرام . وحين خيمت بأصبهان ... والناس ينظرون هل أقبل فيتلقونى بأكبر الرتب ، أم أسخط فيتحامونى كالبعير الأجرب ، فوقع توقيع مولانا الصاحب الجليل ، كافى الكفاة أدام الله مدته ، وكبت أعداءه وحسدته ... (١)" وإذا كان السجع والجناس طبيعى فى التوقيعات فإنه فى توقيعات الصاحب أوضح وأبرز . كتوقيعه لرجل كتب له التماس شغل فى رقعة وفيها : "إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالى ببعض أشغاله ـ فوقع الصاحب تحتها : من كتب إشغالى ، لا يصلح لأشغالى (٢) "

وكقوله وقد رفع إليه بعض منهى الأخبار : أن رجلا ممن ينطوى له على غير الجميل يدخل داره فى غار الناس ، ثم يتلوم على استراق السمع ، فوقع : " دارنا هذه خان ، يدخلها من وفّ ومن خان (٣)".

وتفنن الصاحب فى صنع التوقيعات حتى جدد فيها أساليب لم يسبق إلى التوسع فيها . فاقتبس كثيرا من الآيات القرآنية فى توقيعاته ، قال صاحب اليتيمة :

كتب إنسان إلى الصاحب رقعة وقد أغار فيها على رسائله ، وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها : " هذه بضاعتنا ردت إلينا " . ووقع فى رقعة استحسنها " أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟" ووقع فى كتاب بعض مخالفيه " فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون " ووقع فى رقعة أبى محمد الخازن وكان ذهب مغاضبا ثم كتب إليه يستأذنه فى معاودة حضرته " ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت" (٤)

---

(١) انظر يتيمة الدهر جـ ٣ / ٢٩٢ ، ٢٩٣
(٢) اليتيمة ٣ / ١٧٦
(٣) المرجع السابق ص ١٧٨
(٤) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ / ١٧٧

وتأنق الصاحب فى التوقيعات أيضا حتى جعل من الحرف الواحد توقيعا ليدلل بذلك على تفننه فى الإيجاز ، ومهارته فى الإبداع يقول الثعالبى : وسمعت أبا النصر محمد بن عبد الجبار العتبى ، يقول كتب بعض أصحاب الصاحب رقعة إليه فى حاجة فوقع فيها ، ولما ردت إليه لم يرفيها توقيعا ، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها فعرضها على أبى العباس الضبى ، فمازال يتصفحها ، حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة وكان فى الرقعة :

فإن رأى مولانا أن ينعم بكذا ، فعل فأثبت الصاحب أمام فعل ألفا يعنى أفعل (١) .

ويتضح لنا مما قد مناه من أمثلة أن الكتاب والأدباء جددوا فى التوقيعات وأبدعوا فى طرق أدائها ما بين نثر وشعر ، وإيجاز وأطناب ، واقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، واستخدام لأساليب البيان ، ومحسنات البديع .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ ص ١٧٦

٢ - المناظـــــرات

كان للمناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين ، وبينهم وبين أصحاب الملـــل والنحل أثر كبير هيأ لظهور كثير من كبار المناظريـــن فى شئون الدين والعقـــل ، كما هيأ لبسط المعانى ومدها بذخائـــر جديدة من توليـــد الأفكـــار وتشعيبهـــا والتعمـــق فى مساربهـــا الخفيـــة .

كما كان الخلاف واسعا بين بعض أصحاب المذاهب الفقهيـــة ، فكثـــرت المناظـــرات بينهـــم ، يقول شوقى ضيف : " وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصـــر الفكريـــة ، فدائما مناظرات ومجادلات فى كل مكان وفى كل موضـــوع علمى أو فلسفـــى أو أدبـــى (١)"

وأشـــر عن الصاحب بن عباد محاجات ومناظرات تغلب فيها عنصر الصناعة اللفظية ونسج الجمـــل ، وظهر مذهبه فى الاعـــتزال واضحا فى ثناياهـــا . ولنذكـــر طرفـــا من مناظراتـــه الأدبيـــة التى كانت مثار نقد أعدائـــه ، ورموه من أجلهـــا بالمغالاة فى الأحكـــــام ...

قال الصاحب : " مازال أحداث بغداد يذاكروننى بابن شمعون المتصوف وكلامـــه على الناس فى مكان الشبلى فجمّعـــت يوما فى المدينـــة وعلى طيلســـان ومصمتـــة ، ووقعت عليه وقد لبس فوطـــة قصب وقعـــد على كرسى سلج بوجـــه حســـن ولفـــظ عذب فرأيتـــه يقطـــع مسائلـــه بهـــوس يطيله ويسهب فيه . فقلت : " لا بـــــد أن أسألـــه عما أقطـــع به . وابتـــدرت فقلـــت يا شيـــخ ، ما تقـــول فى " قـــد سيكونيـــات العلم " إذا وقعت قبل التوهم - فورد عليه ما لم يسمع به فأطـــرق ساعـــة ثم رفـــع رأســـه وقـــال :

لـــم أوخـــر إجابتك عجزا عن مسألتك بل لأعطشـــك إلى الجـــواب وأخذ فى ضـــرب من الهذيان . فلما سكت قلت : هذا بعد التوهم . وإنما سألتك قبله إلى أن ضجـــر ، فانصرفـــت عنـــه (٢)" .

---

(١) انظر العصر العباسى الثانى للدكتور/ شوقى ضيف ص٥٣٩ (ط. الثانية - دار المعارف)
(٢) ارشاد الاريب لياقوت جـ ٢ / ٣١٩ (مطبعة هنديـــة بالموسكـــى)

وناظر بالرى اليهودى رأس الجالوت " فى إعجاز القرآن " فراجعه اليهودى فيه طويلا ، وماتنه قليلا ، وتنكد عليه حتى احتد وكاد يتقد ، فلما علم أنه سحر بنوره وأسعط أنفه احتال طلبا لمضادته ورفقا به فى مخاتلته .

فقال أيها الصاحب : فلم تتقد وتستشيط ؟ وتلتهب وتختلط .. كيف يكون القرآن غدى آية ودلالة ، ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه ؟ فإن كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدّعى عنه عاجزين وله مذعنين وها أنا أصدق عن نفسى وأقول :

ما غدى إن رسائلك وكلامك وفقرك وما تألفه وتبادره به نظما ونثرا هو فوق ذلك أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه وإن ذلك سيستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخمد وسكن عن حركته ، وانخمص ورمه به وقال : ولا هكذا يا شيخ كلا منا حسن وبليغ ، وقد أخذ من الجزالة حظا وافرا ، ومن البيان نصيبا ظاهرا . ولكن القرآن له المزية التى لا تجهل والشرف الذى لا يخمل . وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف(١)" .

قال أبو حيان : هذا كله يقوله ، وقد خبا حميه وتراجع مزاجه ، وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع فى أعطافه ، وفرح غالب قد دب فى أساريره وجهه لأنه رأى كلامه شبيها بالقرآن لدى اليهودى وأهل الملل(٢) .

وقد تحامل أبو حيان فى قوله ، ونرى أن نقد أبى حيان كان لهوى فى نفسه وليس منبعثا عن وازع أدبى صرف وقد قال المؤرخون إنه لم يرزق من الصاحب فأخذ ينقده . وكانت فضائل ابن عباد تأبى إلا أن تسوقه إلى المدح وإيضاح مكارمه ، فصار ذمه له مدحا (٣) يضاف إلى ذلك أن الصاحب كان يبغض

---

(١) إرشاد الأريب لياقوت جـ ٢/٢٩٦ ، ٢٩٧
(٢) المرجع السابق ص ٢٩٧
(٣) المرجع السابق ص ٢٨٢

أبا حيان لميله إلى الفلسفة (١) .

كما نرى أن الصاحب كان ميالا إلى اقتناص الغلبة فى مناظراته ، وكيف كان يصنع هذه الغلبة اصطناعا ، مستغلا فى ذلك شتى الوسائل لا يراعى قواعد معينة ، ولا منهجا منظما . ولعل هذا راجع إلى ما استولى على نفسه من غريزة السيطرة، وما يشيع فيها من حب التسلط وكذلك إلى ميوله الأدبية . قال يوما صدر قول الشاعر :

والورد العذب كثير الزحام

فسكتت الجماعة ـ الحاضرون بين يديه ـ فقال ابن الدارى .

يزدحم الناس على بابه

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفاً جاهلا . أما كان لك بالجماعة أسوة (٢) .

فالصاحب ـ هنا لم يظهر عليه الغيظ إلا لكراهيته لمن يقاطعه أو ينافسه أو يدعى العلم بين يديه ، لأن هذا ومثله لما يشق على نفسه الكبيرة المتعالية .

ومع ذلك فقد أفحم فى بعض المواقف والمناظرات ، وقد يعترف بعجزه فيها ، وجل من لا يغلب . ونراه يروى ذلك عن نفسه فيقول :

" ما أفظعنى إلا شاب بغدادى ورد علينا إلى أصبهان . فقصدنى فأذنت له . وكان عليه مرقعة وفى رجليه نعل طاق . فنظرت إلى حاجبى فقال له وهو يصعد إلىّ ـ إخلع نعلك ـ فقال : ولم ولعلى احتاج إليه بعد ساعة فغلبنى الضحك وقلت أتراه يريد أن يصفعنى (٣) " ومن المناظرات الطيبة مناظرة ابن الحجاج مع ذى الكفايتين ومنها :

" قلت لما ورد ذو الكفايتين (٤) سنة أربع وستين ، وهزم الأتراك مع أفتكين

---

(١) انظر أعيان الشيعة للعاملى جـ ١١ / ٣٣٧

(٢) إرشاد الأريب ٢ / ٣٠٠ ، ٣٠١

(٣) المرجع السابق ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

(٤) ذو الكفايتين : هو أبو الفتح ابن العميد ، الكاتب الوزير الأريب الشاعر

وكان من الحديث ما هو مشهود سأل عن ابن الحجاج وكان متشوقا له ، لما كان يقرأ عليه من قوافيه فأحب أن يلقاه ، لأنه ليس الخبر كالمعاينة ، والمسموع والمبصر كالأنس والذكر ينزع كل واحد منهما إلى تمامه (بالآخر) ، فلما حضره أبو عبد الله احتبسه للطعام ، وسمع كلامه ، وشاهد سمته واستحلى شمائله ، فقام من مجلسه ، فلما خلا به قال : يا أبا عبد الله لقد والله تهت عجبا منا ، فأما عجبي بك فقد تقدم . لقد كنت أملي ديوانك ، فأتاني لقاؤك ، وأقول من صاحب هذا الكلام أطيش طائش ، وأخف خفيف ، وأغرم غارم ، وكيف يجالس من يكون في هذا الاهاب ؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب ، وأصحاب الآداب حتى شاهدتك الآن . فتهالكت على وقارك ، وسكون أطرافك ، وسكوت لفظك وتناسب حركاتك وفرط حيائك ، وناضر وجهك ، وتعادل كلك وبعضك . وإنك لمن عجائب خلق الله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ، مع هذا التنافي الذي بين شعرك وبينك في جدك . فقال أبو عبد الله : أيها الأستاذ .. وكان عجبي منك دون عجبك مني ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجيب منك . لأني قلت : إذا ورد الأستاذ فسألقني منه خلقا جافيا وفظا غليظا ، وصاحب رواسيم ، وأكل كوافح (١) ، وجبليا ، ديلميا ، متكائبا متعاظما ، حتى رأيتك الآن ، وأنت ألطف من الهواء ، وأرق من الماء وأغزل من جميل بن معمر ، وأعزب من الحياة ، وأوزن من الطود ، وأغزر من البحر ، وأبهى من القمر ، وأندى من الغيث ، وأنطق من سحبان ، وأسخى من الغمام وأنفذ من السهام ، وأكبر من جميع الأنام .

فقال أبو الفتح وتبسم : هذا أيضا من ودائع فضلك ، وبواعث تفضلك . ووصله وصرفه (٢) .

---

(١) كوافح : جمع كافح ، والكافح ، هو أدام يؤتدم به ، وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشتهي الطعام .

(٢) دراسات في الأدب العربي د / محمد زغلول سلام ص ٥٤٧، ٥٤٨

ويصف لنا بديع الزمان الهمذانى ما جرى بينه وبين الأستاذ أبى بكر الخوارزمى من المناظرة يوم اجتماعهما فى دار الشيخ السيد أبى القاسم المستوفى بمشهد من القضاة والفقهاء والأشراف وغيرهم من سائر الناس وصفا دقيقا يقول : " سأل السيد أمتع الله ببقائه إخوانه أن أملى جوامع ما جرى بيننا وبين أبى بكر الخوارزمى من مناظرة مرة ، ومفاكرة أخرى ، وموادعة أولا ومنازعة ثانيا ، إملاء يجعل السماع له عيانا ، فما تلقيته إلا بالطاعة على حسب الاستطاعة (١) "

فيصف بداية لقائه مع أبى بكر فيقول : " فقلنا : ياعفاك الله دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، واستزرناك وقصدنا غير المناوشة ، فلتهد أضلوعك ، وليفرغ روعك " يا مار سرجس لا نريد قتالا " وما اجتمعنا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتلن فورتك ، ولا ترقص لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ، وإنما ذكرناك لتملأ المجلس فوائد ، وتذكر أبياتا شوارد ، وأمثالا فرائد ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسألنا فتسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبنى الالتقاء بك ، والاجتماع معك ، والآن إذا سهل الله ذلك فهلم إلى الأدب نتفق يومنا عليه ، وإلى الجدل نتجاذب طرفيه ، فاسمع خيرا ، وأسمعنا مثله ، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفقت به أقرانك ، وملكت به عنانك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به اسمك بعد وقوعه ، وارتفع له ذكرك عقب خضوعه ، وأفحمت به الرجال حتى أذ عن العالم وقلد الجاهل ، وقالوا قول الصوفية يا دهشا ، كله فجارنا بفرسك ، وجد لنا بنفسك ، فقال : وماهو ، قلت : الحفظ إن شئت والنظم إن أردت والنثر إن اخترت والبديهة إن نشطت ، فهذه أبوابك التى أنت فيها ابن دعواك ، تملأ منها فاك ، فأجم عن الحفظ رأسا ، ولم يُجِلّ فى النثر قِدْحاً وقال : أبادهك ، فقلت : أنت وذاك (٢) " .

ويقول البديع فى هذه المناظرة أيضا : " فأبى أبو بكر أن يشاركنا فى هذا العنان ،

---

(١) انظر كشف المعانى والبيان لابراهيم الأحدب ص ٢٨

(٢) انظر كشف المعانى والبيان للأحدب ص ٤١ ، ٤٢

ومال إلى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز فتبعنا رأيه فيما رآه . ولم نرض إلا رضاه . وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه . فأجزنا البيت الذى قاله وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع . وبارى اللسان بها السمع . وسارق الخاطر بها الناظر . وسابق الجنان بها البنان . إذ قلنا (١) :

هذا الأديب على تعسف فتكه ... وبروكه عند القريض ببركه
متسرع فى كل ما يعتاده ... من نظمه متباطىء عن تركه
و الشعر أبعد مذهبا ومصاعدا ... من أن يكون مطيعة فى فكه
و النظم بحر والخواطر معبر ... فانظر الى بحر القريض وفلكه
فمتى توانى فى القريض مقصر ... عرضت أذن الامتحان بعركه
هذا الشريف على تقدم بيته ... فى المكرمات ورفعه فى سمكه
قد رام منى أن أقارن مثله ... وأنا القرين السوء إن لم انكه
واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى ... وحطمت جارجة القرين بدكه
أصغو إلى الشعر الذى نظمته ... كالدر رصع فى مجرة سلكه
فمتى عجزت عن القرين بديهة ... فدمى الحرام له اراقة سفكه

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها عن الغلاف ، ويبرزها من اللحاف فلم يفعل دون أن طواها وجعل يحركها ويفركها . فقلت : إن البيت لقاتله . كالولد لناجله . فما لك تعق ابنك وتضيمه أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون الهرة أعقل منه لأنها تحدث فتغطى . فلم يستجرىء أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه للبديهة نفسا ودُنَ أن يكتب . فقلنا : أنت وذاك (٢) . واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبى الطيب المتنبى حيث يقول

أرق على أرق ومثلى بأرق ... وجوى يزيد وعبرة تترقرقُ

وهى مناظرة طويلة ، بل مناظرات .. فى جميع فروع الأدب .. فى النظم والنثر واللغة .. مناظرات فى كل شىء أملاها البديع إملاء يجعل السماع لها عيانا (٣) .

---

(١) كشف المعانى والبيان للأحدب ص ٤٣
(٢) انظر كشف المعانى والبيان للأحدب ص ٤٤
(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٨ : ٨٤

واذا ما نظرنا إلى الصاحب بن عباد و مناظراته • نراه يتأرجح بين مذهبين من التشيع والاعتزال اللذين عرف بهما واشتهر باعتناقهما • فكان ينشر التشيع بيمينه ، ويغرس الاعتزال فى الناس بيساره ، فكان لعلمه الغزير وما كان يتحلى به من كرم وإخلاص أثر كبير فى نشر هذين المبدأين فى الناس •

وعرف الناس طبيعة ابن عباد ، ولمسوا شخصيته القوية فى الحوار والمناظرة وتذوقوا مراميه ومقاصده فى السمو بنفسه ، فرغبوا فى إشباع هذا الميل • ومن ثم دخلوا فى مذهبه ، وقالوا بقوله رغبة فيما لديه • واشتهر بذلك حتى عرف الاعتزال والتشيع فى بلاد الديلم بمذهب ابن عباد ولم يسمح لأحد من جلسائه بالخروج على مذهبه المذكور • ومن طريف ما يحكى فى ذلك أنه اجتهد (بالحسين المتكلم الكلابى) أن ينتقل إلى مذهبه • فقال الحسين " دعنى أيها الصاحب أكن مستحدا لك ، فمن بقى غيرى ، فإن دخلت فى المذهب لم يبق بين يديك من ينبو عليك قبيحه ويبدو للناس عواره • فضحك وقال : قد أعفيتاك يا أبا عبد الله وبعد فما نبخل عليك بنار جهنم اصل بها كيف شئت ••• (١) •

---

(١) انظر إرشاد الأريب لياقوت جـ ٢/ ٣٠٠

٣ - الحكـــم والأمثـــال

الأمثـال والحكم من الفنـون الأدبية التى تقـوم على السجع ، ويندر أن تكون الأمثال العربيـة موضوعـة فى غير صورة السجع أو مفرغـة فى غير قالبه . والسجـــع منها فى الحقيقـة بمنزلة الوزن والقافيـة من الشعر ، بل لعل دواعى اصطنـــاع السجع فى الأمثال والحكم هى نفس دواعى اصطناع الوزن والقافية فى الشعـــر . والمثل جملة متقطعـة من القول أو مرسلـة بذاتهـا تنقل عمن وردت فيه إلـــى مشابهـة بدون تغيير . وهذا النوع خاص بالعرب لا نتزاعه من حياتهم الاجتماعيـة وحوادثهـم الفردية . وقد تعاقب العلماء على جمعهـا وشرحهـــا .

والحكمـة قول رائع موافق للحق ، سالم من الحشو ، وهى ثمرة الحنكة وخلاصـة التجربـة ونتيجة الخبرة . كقولهم " الخطأ زاد العَجول " ، " من سلك الجـدد أمن العثار(١) وأثر عن الصاحب بن عباد أمثال وحكم كثيرة منها شطر كبير فى يتيمـة الدهر . وقـد صرح الثعالبى أن أكثر أمثال الصاحب منقول عن كتاب " ملح الخواطر وسبح الجواهـر " لأبـى الفضل عبيد الله بن أحمـد (٢) وقد فقد كتاب ملـــح الخواطـر من بين ما فقدنـاه من الكتـب التى تحدثت عن الصاحب وأدبه . ولـــولا الثعالبى لما وصل إلينـا شىء من أمثال الصاحب وحكمـه ، ومـن هذه الأمثـال :

" من استماح البحر العذب استخرج اللؤلؤ الرطب " ، " من طالت يده بالمواهـب امتدت إليه ألسنة المطالب " ، " من كفر النعمة استوجب النقمة " ، " من نسبت لحمـه على الحرام لم يحصـده غير الحسـام " ، " من غرته أيام السلامه حدثتـه ألسـن الندامـة " ، " من لم يهزه يسير الإشارة لم ينفعـه كثير العبارة " ، " رب لطائف أتوال تنوب عن وظائف أموال " ، " اللبيب تكفيه اللمحة وتغنية اللحظـة عن اللفظـة " ، " إذا تكرر الكلام على السمع تقرر فى القلب " ، " الضمائر الصحـــاح أبلـغ من الألسنـة الفصـاح " ، " الشىء يحسن فى إبانه كما أن الثمر يستطـاب

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ١٤ " ط. سنه ١٣٤٧ - مطبعـة الاعتماد ، الطبعة الرابعـــة "

(٢) انظـر يتيمـة الدهـر للثعالـبى جـ ٣ / ٢١٨

فى أوانه " ، " بعض الحلم مذلة ، وبعض الاستقامة مزلة " ، " كتاب المرء عنوان عقله ، بل عيار قدره ولسان فضله ، بل ميزان علمه " ، " إنجاز الوعد من دلائل المجد ، واعتراض المطل من أمارات البخل ، وتأخير الإسعاف من قرائن الإخلاف " " فراسة الكريم لا تبطىء ، وقيافة الشرلا تخطىء " (١) ، " قد ينبح الكلب القمر ، فليلقم النابح الحجر " ، " بعض الوعد كقطع الشراب ، وبعضه كلمع السراب " ، " قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام " ، " ربما كان الإقرار بالقصور أنطق من لسان الشكور " ، " لكل امرىء أمل ، ولكل وقت عمل " ، كفران النعم عنوان النقم " ، " تلقى الاحسان بالجحود تعريض النعم للشرود " ، " قد يقوى الضعيف ، ويصحو النزيف ، ويستقيم المائد ، ويستيقظ الهاجد " ، " قد يصلى البرىء بالسقيم ، ويؤخذ البر بالأثيم " " ما كل طالب حق يعطاه ، ولا كل شائم مزن يسقاه " " إن السنين تغير السنن " (٢)

وله بعض الأبيات تجرى مجرى الأمثال كقوله :

من لم يعدنا إذا مرضنا ... إن مات لم نشهد له جنازه

وقوله :

حفظ اللسان لراحة الانسان ... فاحفظه حفظ الشكر للإحسان (٣)

وله بعض الحكم الشعرية كقوله :

اذا أدناك سلطان فزده ... من التعظيم واحذره وراقب

فما السلطان إلا البحر عظما ... وقرب البحر محذور العواقب (٤)

ونستطيع أن نتعرف أسلوب الصاحب فى هذا الضرب الفنى من النثر ، ونلمح مزاياه الأدبية وطابعه الفنى . ولعلنا إذا تدبرنا أمثاله أدركنا أن هذه المميزات

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣/ ٢١٨، ٢١٩.
(٢) انظر يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ / ٢١٩ ، ٢٢٠
(٣) زهر الآداب للحصرى شرح / على محمد البجاوى جـ١ / ٢٧٠ (ط٠ الثانية ، دار إحياء الكتب القوميـة
(٤) يتيمـة الدهـر جـ ٣/ ٢٤٩

كانت فى الناحية الوضوعية منها . وبالتدبر والإمعان ندرك تماما أنها تكشف لنا عن نفسية الصاحب الثائرة الصاخبة ، وتضىء لنا عما كانت تهتز له نفسه . فنرى أن جمهرة أمثاله تكون تارة فى غرض الكرم أو المجد ، وتارة تكون فى التنكيل والانتقام . وهى فى جملتها تهدف إلى المعانى العميقة والصور البراقة . وندر أن نجد له أمثالا لا تلمح فيها نوعا من العمق أو المبالغة سواء فى الخير أو الشر . ذلك لأن شخصية الصاحب شخصية وثابة فى الخير جموحة فى الشر ، ميالة للغاية إلى المبالغة فى التأثير على من حولها من الأشخاص .

ومن مختارات فصول أبى بكر الخوارزمى قوله " أكبر من الأسير من أسره ثم اعتقه ، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه ، وأكرم من النبت الزكى من زرعه ، وأكرم من الكريم من اصطنعه " ، " لا صيد أعظم من انسان ، ولا شبكة أصيد من لسان ، وشتان بين من اقتنص وحشيا بحبالته ، وبين من اقتنص انسيا بمقالته ! "(١)

ومن جميل ألفاظ الصاحب : " أخبرنى عن سفرتك ، وعما حصل بها فى سفرتك " " وجدت حرا يشبه قلب الصب ، ويذيب دماغ الضب . أنوب فيه نيابة الوكيل المكترى ، بل المملوك المشترى . قد تحملت مع يسير الفرقة ، عظيم الحرقة . ومع قليل البعد كثير الوجد " ، " على أن أقول وما على القبول . لأعترض بين الشمس والقمر ، والروض والمطر " ، " مرحبا بزائر لباسه حرير ، وأنفاسه عبير " ، " زائر وجهه وسيم ، وريحه نسيم ، وفضله جسيم " ، " فلان بين سكرى الشباب والشراب " ، " خط أحسن من عطفات الاصداغ ، وبلاغة كالأمل آذن بالبلاغ ، فقر كما جيدت الرياض ، وفصول كما تغازلت المقل المراض " ، " ألفاظ كما نورت الأشجار ، ومعان كما تنفست الأسحار " ، " نثر كنثر الورد ، نظم كنظم العقد " " كتابك رقية القلب السليم ، وغرة العيش البهيم " ، " فلان كريم ملء لباسه ، موفق مد أنفاسه ، ذو جد كملو الجد ، وهزل كحديقة الورد ، عشرته ألطف من نسيم الشمال ، على أديم الماء الزلال ، وألصق بالقلب من علائق الحب " ، " شكره شكر الأسير لمن أطلقه . والمملوك لمن أعتقه " (٢) .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ١٧٠

(١) يتيمة الدهر جـ ٣ / ٢٢٠

ونلحظ فى فنون النثر عنصرا آخر هو عنصر الفكاهة والملحة ، والنكتة البادرة والطرفة النادرة . وكثير ما تشيع هذه الروح فى الأحاديث والقصص التى تدر بها الصاحب بين جلسائه . وفيها يتجلى ذكاء الصاحب . كما يبدو لنا حضور ذهنه ، وإصغائه إلى من يحدثه وهو لذلك يعجب بالنكته البادرة ، والطرفة الحارة التى تصدر من جلسائه . قال يوما لبعض من تأخر عن مجلسه لعلة وجدها : ما الذى كنت تشتكيه قال : " الحما " قال : " قه " يعنى " الحماقة" فقال " وه " يعنى " القهوة" واستأذن عليه الحاجب يوما لإنسان طرسوسى فقال : " الطر" فى لحيته ، والسوس فى حنطة (١) .

كما قال صاحب اليتيمة : " سمعت الأمير أبا الفضل الميكالى يقول : سمعت بعض ندماء الصاحب يقول : كنت يوما بين يدى الصاحب فقدم البطيخ فقلت " لا مَتْرك" فقال بالعجلة " لمتّرِك (٢) " وكنت أريد أن أقول لا مترك للبطيخ فسبقنى إلى التنادر بهذا التجنيس . وقال أيضا : حدثنى أبو منصور البيِّع قال : دخلت يوما على الصاحب فطاولته الحديث فلما أردت القيام قلت : لعلى طولت فقال لابل تطولت (٣) " .

ونلحظ فى أدب الصاحب بصفة عامة ، وملحه خاصة المبالغة فى الفكاهة والتندر بها إلى القدر الذى يخرج به عن حدود العفة ومنازل الوقار ، وكثيرا ما عابه على ذلك نقاد الأدب كما سندرس ذلك تفصيلا فى النقد وعلى الباحث — فى نظرى — أن يعلم حق العلم أن الفن والأدب شىء ، والفضيلة والأخلاق شىء آخر . وليس كل ما يصدر فى الميدان الفنى أو الأدبى ينطبق على الأخلاق الدينية أو يجرى على نواميسها .

ذلك لأن الميدان الأدبى أعم بكثير من الميدان الأخلاقى وأوسع دائرة وأشمل موضوعا .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣ / ١٧٤
(٢) يريد الصاحب أنه لا سبيل لمتنع عن الأكل من البطيخ
(٣) انظر اليتيمة جـ ٣ / ١٧٤

فغاية الأدب عند علمائه ـ هو الأدب من حيث هو ، وغاية الفن هو الفن من حيث هو ، وهدفهما تنمية الذوق الأدبى والفنى ، ومعرفة مواطن الحسن والقبح على ضوء ما يريانه لاعلى ضوء ما يراه الدين أو الأخلاق . ولولا ذلك لنبذ نا كثيرا من أقوال ابن قتيبة الدينورى حينما يكثر من هذا المزاح فى تضاعيف كتابه " عيون الأخبار " فقد فطن الدنيورى منذ قرون عدة إلى هذه الفكرة التى ننشرها فى هذه السطور . وكأنه أدرك أن ليس هناك لازم وملزوم بين الأخلاق والفن أو الأدب .

وعرف أن الأدب أشبه ما يكون بدنيا شاملة تتضارب فيها العواطف وتختلف الميول ، وتتجاوب والآراء .

وأن الأدباء أمة وحدهم يأخذ كل منهم ما صادف هوى فى نفسه ، ولذة فى سمعه ، ووافق طبعه ، وانتعشت له روحه ، حتى أنك لتجد النويرى ينتبه عن هذا فى مقدمة كتابه . ولو كانت المقاييس الفنية تخضع للمقاييس الدينية لفقد منا معظم الأدب ، ولعبنا شعر الأعشى فى الجاهليين ، وعمرو بن أبى ربيعة فى الإسلاميين ، ولأنكرنا بعض ما جاء به شعراء العصر العباسى .

ولكن الأدب والفن ما كانا ليحكم عليهما بهذا الحكم أو ينظر إليهما من هذا المنظار . وإلا ضاع شطر الأدب ، وعيب على الباحثين درسه وتحصيله . ذلك لأن أحكام الأدب والفن غير أحكام الأخلاق والدين وقد بلغ من اهتمامهم بهذا الضرب من النثر الفنى أن ألف حمزه الأصبهانى كتابه الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة . والذى نوه فى مقدمته عن محتواه فقال : " هذا كتاب أودعته فنا من الأمثال السائرة عن العرب ، وهى أكثر ما يجرى منها على ألسنة الفصحاء ، ويختلط بخطابة البلغاء ، ويدخل فى نوادر الأدباء وبدائع الشعراء ، وهو ما جاء من الأمثال على قولهم : " هو أفعل من كذا " (١) "

---

(١) انظر كتاب الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة تحقيق عبد المجيد قطامش جـ١ / ٥٥ (دار المعارف)

واعتمد حمزة فى كتابه على مصادر أصيلة من كتب الأمثال واللغة والأدب والتاريخ والأنساب ، صرح بأسماء بعضها ، وأغفل سائرها مكتفيا بذكر أسماء أصحابها ، كما أنه روى عن بعض العلماء الذين كانوا يعاصرونه ، وكانت له بهم صلات شخصية سواء أكانوا من أهل أصبهان أم من غيرها . ونقل عن كثير من كتب الأمثال واللغة والنحو والأدب وصرح بأسمائها (١) .

واستفاد كذلك من كتاب الحيوان للجاحظ ونقل عنه فى مواضع متفرقة ، وإن لم يصرح بإسمه فى أى موضع منها (٢) .

ومع ذلك فإن للكتاب مكانته وأثره فيما دون بعده من كتب الأمثال والأدب واللغة . فهو أقدم كتاب فى الأمثال التى على أفعل ، وإذا كان قد سبق بثلاثة من الكتب فى هذا الفن ، وهى كتب : الأصمعى (٣) ، واللحيانى ، ومحمد بن حبيب (٤) ، فإن هذه الكتب لم تصل إلينا . كما أنه من أوسع المدونات فى هذه الأمثال وأشملها ، إذ يحتوى على ما يقارب ألف وثلثمائة مثل عربى (٥) وخمسمائة مثل مولد وكسر ، إنفرد حمزة بين المؤلفين قديما وحديثا بتسجيلها فى هذا الكتاب .

واشتمل الكتاب كذلك على كثير من الأمثال العربية التى ليست على أفعل ، والتى استشهد بها المؤلف فى تفسير أمثاله ، وشرح كثيرا منها ، ومن هنا يعد مصدرا أصيلا من مصادر الأمثال العربية .

---

(١) انظر كتاب الدرة الفاخرة ص٣٩ ، ٤٠

(٢) انظر مثلا : المثل ١٤٥ ، والحيوان جـ٧/١٨-٢٠ ، والمثل ٢٨٥ ، والحيوان ٦/١٢٥ والمثل ١٣٩ ، الحيوان ٧/٢٢ .

(٣) هو أبو الحسن على بن المبارك ، أو على بن حازم اللحيانى ، لغوى مذكور ، عاصر الفراء وتصدر فى أيامه ، وأخذ عن الكسائى ، كما أخذ عنه أبو عبيد بن سلام وغيره من العلماء وله كتاب النوادر المشهور ، وتوفى عام ٢١٥هـ (انباه الرواة ٢/ ٢٥٥) .

(٤) ذكر ابن النديم فى الفهرست ١٦١ ، والسيوطى فى البغية ٢٩ أن له كتابا فى الأمثال على أفعل يسمى " المنمق " .

(٥) عدد الأمثال العربية التى اشتملت عليها الأبواب الثمانية والعشرون هو : ١٢٩٣ مثلا .

ويضم الكتاب أيضا عددًا كبيرًا من الكلمات التى تجرى فى الكلام مجرى الأمثال ، وهى أسماء المكنى والمبنى والمثنى ، وقد أودعها حمزة الباب الثلاثين ، ووصفها بأنها لم يصنف فى مثلها كتاب ، حيث يقول فى المقدمة : " وختمت الكتاب بنوادر من الكلام ، لم يصنف فى مثلها كتاب ، يبلغ عددها أكثر من خمسمائة كلمة (١) " .

وقد عنى بهذه الكلمات عناية واضحة ، فاستقصاها و رتبها فى فصول ثلاثة ، وشرح كل كلمة منها ذاكرا أقوال العلماء فى معانيها ، مستشهدا فى ذلك بما ورد فيها من آثار وأشعار .

واشتملت خاتمة الكتاب على خرافات الأعراب وخرزاتهم ورقاهم ، مجتمعة فى صعيد واحد ، وهى ما زالت مبعثرة فى بطون الكتب ، ومن هنا فالكتاب ليس كتاب أمثال فحسب ، ولكنه احتوى على أبواب هامة فى اللغة والأدب .

والذى يقرأ كتاب الدرة الفاخرة يلاحظ على منهجه عدة ملاحظات ، منها ما يتعلق بالموضوع ، ومنها ما يتعبق بالشكل ، أما الملاحظات الموضوعية فيمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — الاستطراد الممتع بذكر نصوص أدبية ، وبحوث لغوية : ففى المثل " أجود من الجواد المبر "(٢) استطرد حمزة فذكر عدة نصوص أدبية رفيعة من النثر والشعر فى وصف الفرس الجيد . وفى المثلين أخبث من ذئب الخمر ، وأخبث من ذئب الغضا " (٣) يستطرد بذكر كلمات بليغة فى وصف أنواع من الحيوان والشجر وفى المثل : " أنم من زجاجة على ما فيها " (٤) أورد مقالات فى مدح الزجاج وذمه .

---

(١) كتاب الدرة الفاخرة جـ ١/٥٦
(٢) وهو المثل رقم ١١٦
(٣) وهما المثلان رقم ٢٢٧ ، ٢٢٨
(٤) وهو المثل رقم ٦٤٥

٢ ـ الاعتماد على الرواية والنقل : وهى سمة غالبة على الكتاب ، واضحة فى جميع أقسامه فقد دعم حمزة كتابه بأقوال الأئمة من العلماء ، ونقل فيه عن أمهات كتب الأمثال واللغة والأدب والأخبار والتاريخ وقد وصفه القفطى بكثرة الروايات (١) وهذا المنهج من شأنه أن يوثق الآراء ، ويجعل العقول تتقبلها مطمئنة إليها .

فنراه كثيرا ما روى فى تفسير المثل الواحد أكثر من رواية ، بل إنه قد ساق فى بعضها خمس روايات ومنها " أبصر من عقاب ، أحمق من جهيزة ، أخلف من نار الحباحب ، أخلى من جوف العير " (٢) .

٣ ـ التعليق على بعض الأمثال بذكر ما تحمله من طوابع محلية أو زمنية : وذلك ببيان الزمن الذى قيلت فيه ، أو من كان يتكلم بها من القبائل أو البلدان . وقد وصف بعض الأمثال بأنها أمثال إسلامية (٣) وبعضها بأنها أمثال ولده (٤) كما وصف أمثالا بأنه كان يتكلم بها أهل بلد بعينه (٥) وأمثالا بأنه كان يتكلم بها أهل قبيلة بعينها (٦) .

٤ ـ إيفاء الأمثال حقها من الشرح والتفسير : وذلك بذكر الأخبار التى تتصل بالأمثال وتفصيلها ، ثم شرح الكلمات الغريبة شرحا وافيا ، كما كان يستشهد فى أثناء ذلك بشواهد من النصوص القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة والشعر المشهور . ويمكن أن نراجع الأمثال : " أجود من حاتم " أحمق من جحا (٧) لنرى كيف أوفاها حقها من البيان والتفسير .

---

(١) انظر انباه الرواة ١ / ٣٣٥
(٢) وهى الأمثال : ١٩ ، ١٤٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ على الترتيب .
(٣) انظر المثل رقم ٤٨٩
(٤) انظر الامثال رقم ٢٣ ، ٢٦ ، ٨٢ ، ٢٠٧
(٥) انظر الامثال رقم ١١٥ ، ٢٢٣ ، ٣٣٩
(٦) انظر الامثال رقم ٢٢٦ ، ٥٥٧ ، ٦٨٥
(٧) انظر الامثال رقم ١١٧ ، ١٢٥

٥ - الانتقاع باللغة الفارسية التى كان يتقنها ، ويلم بآدابها ؛ ويظهر ذلك فى الأمثال " أبصر من نسر (١) " ، أذل من بذج (٢) ، أعز من حية (٣) ، دهدرين سعد القين "(٤) .

وأما الملاحظات الشكلية فتتلخص فى :

١ - الاستقصاء والشمول : ويمكن أن نتبين ذلك فيما أورده حمزة فى الكتاب من أمثال وكلمات وخرافات وخرزات ورقى ، فإنها من الشمول والكثرة بحيث تدل على أن الرجل تعقبها فى كتب الأمثال واللغة والأدب والأخبار .

٢ - إحكام التأليف : فنرى الكتاب يسير فى منهج محكم ، من ترتيب الأقسام وترابطها وتسلسلها ، حيث بدأه حمزة بمقدمة وافية فى أمثال أفعل ، تأليفا واستعمالا وموضوعا ، ثم قسمه إلى أقسام مترابطة ، ساق فى القسم الأول منها الأمثال العربية ، وفى الثانى الأمثال المولدة ، والثالث للكلمات التى تجرى فى الكلام مجرى الأمثال . وفى القسم الرابع ساق خرافات العرب وخرزاتهم وأحجارهم . وهى تتصل بمعانى الأمثال وموضوعها اتصالا وثيقا .

٣ - الترتيب المعجمى : حيث رتب حمزة أمثاله العربية ترتيبا معجميا ، فى ثمانية وعشرين بابا على عدد حروف المعجم ، وعلل ذلك بقوله فى المقدمة : " وألفته على نظام حروف المعجم ، ليسهل تناول ما يراد منه على ملتمسه (٥) " .

وهذه الظاهرة ظهرت لأول مرة فى مدونات الأمثال ، ثم صارت سنة سار عليها مدونى الأمثال بعد حمزة ، وهم الميدانى فى مجمع الأمثال ، العسكرى فى جمهرة الأمثال ، والزمخشرى فى مستقصى الأمثال .

---

(١) وهو المثل رقم ٢٠
(٢) وهو المثل رقم ٢٦٦
(٣) وهو المثل رقم ٤٨٦
(٤) انظر الفصل الأول من الباب الثلاثين ، الكلمة ٩٩
(٥) انظر كتاب الدرة الفاخرة جـ ١ / ٥٦

ونعيب على حمزة فى ترتيبه لأمثاله حيث أنه قد نظر إلى الحرف الأول من الكلمة الأولى فى كل مثل ، ولم ينظر فيه إلى الحرف الثانى والثالث ، حتى يكون الترتيب معجميا بمعنى الكلمة ، ونمثل لذلك أنه فى الباب الثانى ذكر المثل " أبصر من فرس " قبل المثل " أبأى من حنيف الحناتم (١) " والمثل : " أبر من فلحس " قبل المثل " أبخل من مادر (٢) " وهكذا فى سائر الأبواب . وهذا العيب قد تحاشاه الزمخشرى فى كتابه ، حيث رتب أمثاله ترتيبا معجميا دقيقا .

---

(١) الدرة الفاخرة جـ١ ص ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ٧٥

المكاتبـــــــــات

الانشـــاء مظهر العقل ، ومرآة الخاطـر ، يتأثر بما ينال المدارك والمشاعـــر من عوامل الحضارة ، ونتائـج العلم ، وظواهـــر العمـــران .

ولقـد كان لرقى الحياة الإجتماعيـة ، وازدهار الحضارة والمدنية أثر عظيم فـــى العيول والعقول ظهر على ألسنة الكاتبين وأقلامهـم . فقد تخيروا شريف الألفاظ ، مما لم يكن حوشيا ولا سوقيا ، واستنبطـوا عيون المعانى ، وفتحوا أبواب البديع ، وعنـــوا بالتنسيـــق والتنميـــق .

ولما استبحر العمران ، واتسع نطاق الدولة ، لم تعد الكتابة مقصورة على الدواوين وانشاء الرسائل ، بل تعدتها إلى أغراض شتى كالتصنيف والترجمة ، والمقامـــات والوصف ، والمناظرة ، وإنشاء الكتب فى الإهداء والإستهداء ، والتعارف قبـــل اللقاء ، والتهانى والعتاب والتعازى ، والاستعطاف وغير ذلـك من المعانـــى الحضريـة التى لم يعهد أكثرهـا من قبـــل .

وحلت الكتابة محل الخطابـة فى قمع الا ٔهـواء ، وردع الأعداء ، وإطفـــاء الفتن وتأليف القلوب . وظلت الكتابـة فى أول العصر العباسى على أسلـــوب عبد الحميـد من الميـل إلى الإيجـــاز (١) والقصـد فى التنميق والغلـــو .

ولما نزع العرب إلى الترف وزاد اختلاطهم بالفرس ، أخذوا يتأنقون ويطيلـــون وازداد ذلك بتراخى الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء ، وعاقبـوا الجمل علـــى المعنى الواحـد ، ورأوا ذلك التكرار أوقع فى النفس ، وأبلغ للمعنى ، وانتقـــدوا مذهب الإيجاز ، ومالوا إلى الإ زدواج والسجع ، وتضمين كتابا تهم الأشعـــار والأمثال . كل ذلك مع حسن التصرف فى المعنى ، وقلة التكلف فى اللفـــظ

---

(١) أسلوب عبد الحميد موجز إذا وزن بما استحدث بعده من الأساليب ، ومطنـــب إذا وزن بما قبلـــه .

يقول ابن قتيبة فى " أدب الكاتب " منتقدا قول يزيد لمروان وقد تلكأ فى بيعته : " أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت " إن هذا لوقيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب . والصواب أن يطيل ويكرر ، ويعيد ويبدئ ، ويحذر وينذر " (١)

ونبغت طائفة من الكتاب فى القرن الرابع الهجرى ، فكان أسلوبهم شعرا لا ينقصه إلا الوزن . وطريقتهم فى الكتابة أعلق بالنفس ، وأملك للوجدان . فنراهم يلتزمون بالسجع القصير ، والجناس ، وتضمين الملح من التاريخ والعلوم ، والاستشهاد بالنظم فى غضون النثر . كما توسعوا فى الخيال والتشبيه مع إجادة المعنى وسلامته . ومنهم الصاحب بن عباد والخوارزمى والبديع ولنبدأ بذكر شئ من المكاتبات البليغة الوجيزة ،

من ذلك ما كتب به الصاحب بن عباد فى رقعة استزارة : " مجلسنا ياسيدى مفتقر إليك ، معول فى اغنائه عليك ، قد أبت راحه أن تصغو إلا أن تتناولها يمناك ، وأقسم غناؤه لاطاب أو تعيه أذناك ، فأما خدود تاريخه فقد احمرت خجلا لإبطائك ، وعيون نرجسه فقد حدقت تأميلا للقائك ، فبحياتى عليك لما تعجلت ، لئلا يخبث من يوم ما طاب ، ويعود من همى ما طار (٢)

وكتب أيضا رقعة فى الإعتذار من هفوة الكأس : " سيدى أعرف بأحكام المروءة من أن يهدى إليها ، وأحرص على عمارة سبل الفتوة من أن يحض عليها . وقديما حملت أوزار السكر على ظهور الخمر ، وطوى بساط الشراب ، على ما فيه من خطأ وصواب ، وكنت البارحة بعقب شكاة أضعفتنى ونقلتنى عن عادتى ، واستعفيت السقاة غير دفعة فأبوا إلا إلحاحا علىّ وانزاعا إلىّ ، وكرهت الامتناع خشية أن أوقع الكساد فى سوق الأنس ، وتفاديا من أن يعقد على خنصر الثقيل

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ١٤٨
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ج٣/ ٢٢٣ (الطبعة الأولى سنه ١٣٥٣هـ مطبعة الصاوى)

فلما بلغت الحد الذى يوجب الحد بدر منى ما يبدر من لا يصحبه ليه ، ولا يساعده عقله وقلبه . ولا غرو فوالاة الأرطال ، تدع الشيوخ كالأطفال . فإن رأى أن يقبل عذرى فيما جناه سكرى ، ويهب جرمى لمعرفته نيتى فى صحوى ، وإن أبى إلا معاقبتى جعلتها قسمين بين المدام وبينى ، فعل إن شاء الله تعالى " (١) .

وكتب بديع الزمان إلى أبى الحسين بن فارس أستاذه يستعطفه : " إنى خدمت مولاى ، والخدمة رق بغير اشهاد ، وناصحته ، والمناصحة للود أوثق عماد ، ونادمته ، والمنادمة رضاع ثان ، وطاعته ، والمطاعة نسب دان ، وسافرت معه ، والسفر والأخوة رضيعا لبان ، وقمت بين يديه ، والقيام والصلاة شريكا عنان (٢) ، وأثنيت عليه ، والثناء عند الله بمكان ، وأخلصت له ، والاخلاص مشكور بكل لسان " (٣) .

وكتب الخوارزمى إلى مسكويه وقد تزوجت أمه : " العاقل اعزك الله تعالى لا يرى المحنة إذا تخطت دينه محنة ، ولا يرى النعمة إذا تعلقت بذنب خطيئة نعمه ، ولا يريد الشرف إلا بالتقوى ، ولا يرى الضعة إلا ما وضع من رتبته فى الدار الأخرى ، وبلغنى ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى فحمدت الله تعالى الذى رزقك والدا لا يلزمك حق ابوته ، ووعدك أخا لا يجعلك حمل إخوته ، وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك فى حياتها ، والآن أسأله أن يعجل لك بوفاتها . فإن القبر أكرم صهر ، وأن الموت أستر ستر ، ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر ، وغلبك عليه الرزق ، فلا حمية فيما أحل الله . ولا مضايقة من حيث وسع الله .

وللإنسان إباء والحمد لله الذى كان العقوق من جهتها ، ووقع الجفاء من جنيتها ، فإنك بررتها صغيرا ، وبلغت مرادها كبيرا ، فاجتمع لك بران

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ٣/ ٢٢٤

(٢) يقال : بينهما شركة عنان ، إذا اشتركا على السواء ، لأن العنان طاقان مستويان

(٣) نهاية الأرب للنويرى السفر السابع ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ (ط ١ سنة ١٣٤٧ هـ دار الكتب)

ووقـع لك علـى الله أجـــران " (١)

ومـن مكاتبات الصاحب البليغة ما كتبه إلى أبى العلاء الأسدى ومنـه :
" أبا العلاء شيخى ، أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتها العهـاد ؟ وأين ليا لينا بخروى ، وتصابينا على أروى ؟ بل أين الصبا وما ملك ؟ وأيـــن الشباب وأية سلك ؟ وإذ قد غاب جميع ذلـك مغيب الخيال الطارق ، والضيـف المغارق ، فأين كتبك التى هى ألذ من أنتهاء النفس إلى رجائها ، وابتـداء العين فى إغفائهـا " (٢) من كتاب غـير قصـير .

وكتـب أبو العباس الضبى إلى أبى على وأبى القاسم العلويين يعزيهمـا عـن أبيهمـا أبى الحسين ابن أبى محمد رضى الله تعالى عنهم :" كتابى أطال اللـه بقاء الشريفين ، والدهر ينعى مهجته ، والمجد يندب بهجته ، والشرف محصـور فى قبضـة حينه ، والفضل مفجوع بناظرعينه . والذكـر الجميل مجدل لمصرعـه ، والخلـق الوسيع موسد فى مضجعه . ورسم المحاسن داثرعاف ، وشخص المكارم حاسـر حاف . ومهـابط الوحـى والرسالة تحنى ظهرها أسفا ، ومعادن الوصية والإمامـة تذرى معها لهفا . وبقاع الحرمين متسلية على نجمها الآفل ، ولابسـة ثـــوب الحـداد لركنها المـائل ، ويد المواساة مقبوضة عن معونة العانى الذليل ، ولسـان الجود معتذر إلى ابن السبيل ، وطوائف العفاة تبكى العيـش الرطيب والربـــع الرحيب ، والمشارع المعصومة من درن الضن ، والموارد المحروسة من كدر المـن ، وذوو الحاجات فى حسرات مجدده ، وذفرات مردده . قـد أقامت منهم حانيـــة الضلوع ، وأطـارت عنهم قلوبا دامية الصدوع . وبنو الآمال عابسة وجوههـم ، منكسـة رؤوسهـم ، يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم ذلك لأن حادث قضاء الله ـ جل وجهـه ـ استأثـر بفرع النبوة ، وعنصر الدين والمروة ، وعصـرة العدد الجـم ، ونجدة أهل العلم والفهم : فالدموع واكفة ، والصدور راجفـة . والهم وارد ، والأنس

---

(١) رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ١٧٣ (الطبعة الأولى سنة ١٢٩٧) مطبعـة الجوانـب قسطنطينيـة

(٢) يتيمـة الدهر للثعالبى جـ ٣/ ٣٠٥ (ط ١ سنة ١٣٥٣ هـ) مطبعـة الصاوى

شارد ، والناس مأتمهم عليه واحد ٠٠٠٠ فمن اعتصم بتوفيق الله عز اسمه ، ورضى بما نفذ به حكمه ٠ ليس فى وجه الحوادث جنة ، لا تنضوها الشدائد ، وأكد فى مصابرة النوائب منة ٠ لا تنقضها الخطوب الأوابد ٠ وأخذ فى الصدمة الأولى بالحزم ، وذخيرة العزم ٠ ففاز بالغنم الأكبر ، والحظ الأشرف الأوفر ٠٠٠ (١)"

ومن غرر مكاتبات الصاحب بن عباد : " وصل كتاب القاضى فأعظمت قدر النعمة فى مطلعه ، وأجللت محل الوهبة بموقعه ، وفضضته عن السحر حلالا ، والماء زلالا ، وسرّحت الطرف منه فى رياض رقت حواشيها ، وحلل تأنق واشيها ، فلم اتجاوز فصلا إلا إلى أخطر منه فضلا ، ولم أتخط سطرا إلا إلى أحسن منه نظما ونثرا " (٢)

ومن مختارات ما كتبه بديع الزمان : " ٠٠٠ والله لو لا يد تحت الحجر ، وكبد تحت الخنجر ، وطفل كفرخ يومين قد حبب إلى العيش ، وسلب من رأسى الطيش ، لشمخت بأنفى عن هذا المُقام ٠ ولكن صبرا جميلا والله المستعان (٣)"

ومن خلال ما تقدم نستطيع أن نتبين ميزات الكتابة فى القرن الرابع الهجرى فقد انتقلت الكتابة العربية بفضل هؤلاء من الاقتصار على جزالة اللفظ ووضوح الدلالة والايجاز وقلة السجع إلى التعمل والمغالاة فى الصناعة اللفظية ، باستعمال المحسنات البديعية ، من التزام السجع بأنواعه ، وكثرة التضمين ، والإقتباس للأحاديث والأمثال والحكم والأبيات المشهورة ، كما التزموا الجناس والطباق والتورية ، والتكلف فى ذكر المجاز والاستعارة والتشبيه وبثوا فى الكتابة كثيرا من ألقاب التعظيم والتبجيل ٠

وأصبحت الصناعة غرضا من أغراض الكتاب يمتاز بالبراعة فيها كبارهم ، حتى سرى ذلك إلى المؤلفات الأدبية والعلمية ٠ وشاع فى هذا العصر كتابة القصة وظهرت فى مظهر عربى واضح ، فنشأ من ذلك الرسائل القصصية المعروفة بالمقامات ٠ وقد بلغت الكتابة فى هذا القرن شأوا لم تبلغه فى أى عصر من عصور اللغة ، من حيث الصناعة اللفظية ٠ ومن هذا نرى أن أهم ميزات الكتابة هى :

---

(١) انظر يتيمة الدهر جـ٣/٢٦٢ ، ٢٦٣
(٢) نهاية الارب جـ٧ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ (الطبعة الأولى سنة ١٣٤٧ هـ) دار الكتب
(٣) تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ١٧٣

١ ـ التزام الجناس والسجع والطباق والاقتباس والتضمين ، وسواهم من ألوان البديع . واللجوء إلى الازدواج إن فاتهم السجع . فقد بلغ عشق الصاحب بن عباد للسجع درجة كبيرة . قال أبو حيان ـ نقلا عن ابن العميد ـ : " إن الصاحب خرج من الرى متوجها إلى أصفهان ومنزله " ورامين " وهى قرية كالمدينة فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا " كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار " (١)

وقال أبو حيان أيضا ، وإن كان يبدو فى أسلوبه التهكم به والسخرية منه : " كان كلفه بالسجع فى الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت لابن المسيبى أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتلج من أجلها إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتى بها ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها " (٢)

٢ ـ ايثار الفقر القصار فى التعبير ، والتزام المعادلة فى الوزن بين المفردات المتقابلة فى الجمل المتتابعة ، يقول الخوارزمى : " الرجال حصون يبنيها الاحسان ، ويهدمها الحرمان ، وتبلغ بثمرها البر واليسر ، ويحصدها الجفاء والكبر . وإنه لا مال إلا برجال ، ولا صلح إلا بعد قتال . والجبان مقتول بالخوف ، قبل أن يقتل بالسيف " (٣)

٣ ـ التزم الكتاب كذلك التكرار والتقابل والتوازن والتماثل ، فيقول البديع مثلا : العرب أونى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر وأعلى وأعلم ، وأسمى وأسمح ، وأحصى وأحصف " (٤).

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت الرومى جـ ٢ / ٢٩٨
(٢) المرجع السابق ص ٢٩١
(٣) انظر تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ص ١٧٠
(٤) انظر كشف المعانى والبيان للأحدب ص ٢٧٩

٤ ـ الحرص على تأكيد المعنى وتقريره ، بمعاودته ، وبإيثار الترادف أو الإلحاح عليه . كما كان اهتمامهم بالمعنى اهتماما واضحا ظاهرا ، وإعطاء الموضوع ما يستحقه من عناية . بتقسم عناصره وترتيبها ، واعطاء كل قسم منها من المعانى ما يوضحه ويبينه ، ثم تحليل وتفصيل هذه المعانى بما يقربه إلى العقل من دليل أو نظير . فنرى البديع يكتب إلى أبى القمر بن شاه يحذره : " لعلك يا سيدى لم تسمع بيتى الناصح :

اسمع نصيحة ناصح ... جمع النصيحة والِقه (١)
اياك واحذر أن تكو ... ن من الثقات على ثقه

صدق الشاعر وأجاد . فللثقات ، خيانة فى بعض الأوقات . هذه العين تريك السراب شرابا ، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صوابا . فلست بمعذور ، إن وثقت بمحذور ، وهذه حال السامع من أذنه ، الواثق بعهنه ، وأرى فلانا يكثر غشيانك وهو الدنئ دِخلته ، الردئ نحلته ، السيئ وصلته ، الخبيث جملته وقد قاسمته فى أزرك ، وجعلته موضع سرك . فأرنى موضع غلطك فيه ، حتى أريك موضع تلافيه .... (٢)" .

٥ ـ الاغراق فى عبارات التعظيم والتبجيل ، والتفخيم للملوك والأمراء والوزراء والولاة . وبذلك وبغيره أصبحت الكتابة فنا عريقا من فنون الأدب ، وصارت صناعة الرسائل أفضل الصناعات الأدبية وأشرفها .

وقد تعددت موضوعات الكتابة فشملت : الأمور السياسية والاجتماعية والأدبية ، واستخدمت فى موضوعات الشعر من تهنئة وتعزية وشكر وعتاب ومدح وإهداء وشوق ، وشكوى ، وموازنة ومناقضة وفكاهة وسخرية وتهكم ، ووصف ، وسواها .

---

(١) المقة : هى المحبة من ومقة ومقا ، ومقه إذا أحبه فهو وامق ، وتومق تودد .
(٢) انظر كشف المعانى والبيان ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

مدرسة أصبهان الأدبية

كانت لأصبهان مدرسة خاصة عرفت بطابعها فى النثر الفنى يتزعمها الصاحب ابن عباد ، وإن كانت فى ذاتها نتيجة لمدرسة ابن العميد ، ومرحلة من مراحل تطورها .

وقد تألفت هذه المدرسة من الكتاب الذين كانوا يطيلون التردد على الصاحب كأبى العباس الضبى أعظم تلاميذ هذه المدرسة ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأبى بكر الخوارزمى .

وأنضم إلى هذه المدرسة كتاب آخرون لم يحظوا طويلا من التردد على أصبهان ، والجلوس فى بلاط الصاحب ، ولكنهم أفادوا كثيرا بما أطالوا من مراسلته ، وتتبعوا من أخباره كأبى الفتح البستى ، والأمير قابوس بن وشمكير ، وأبى اسحق الصابى ،

وتأثر بروح هذه المدرسة جماعة من العلماء والمؤرخين لم يكونوا من الكتاب ، فانتقلت طريقتها إلى نفوسهم فيما دونوه من كتب برغم ما بينه وبينهم من بعد فى المكان . منهم أبو نصر العتبى ، وأبو عبد الله المقدسى .

وقد أقام الصاحب بن عباد هذه المدرسة فى الرى وأصبهان لينافس بها مدرسة سابور بن أردشير وزير أبى نصر بهاء الدولة التى أقامها فى الكرخ .

ويبدو لى أن هذه المدرسة كانت ذات شأن عظيم فى الحياة الأدبية فى أصبهان فى النصف الثانى من القرن الرابع ، كما كانت أبعد أثرا مما نتصور ، وأن الصاحب كان يختار رجال مدرسته اختيارا خاصا يتفق مع ميوله الأدبية وثقافته الواسعة . ولم لا نصدق ذلك وقد حدثنا التاريخ عما كان يقيمه من امتحانات فنية للوافدين عليه من الكتاب والشعراء جميعا . إن قصة الصاحب مع تلميذه بديع الزمان الهمذانى حين أمره أن يترجم أسطر إلى الشعر العربى فى قافية الطاء وبحر السريع ، وقصته مع الخوارزمى حين اشترط عليه قبل الدخول عليه أن يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر (١) تؤيد

---

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان جـ٢ / ٢٧٤ تعليق د : شوقى ضيف (دار الهلال) ، تاريخ الأدب العربى لاحمد حسن الزيات ص ١٦٩ (مطبعة الاعتماد ١٣٤٧ هـ)

هذا الزعم الذى ذهبنا إليه وترشحه ، وتوضح لنا كيف كان الصاحب يختار تلاميذ مدرسته الأدبية إختيارا خاصا لا يكاد يشترطه سواه .

ولهذه المدرسة خصائص تميزها عن مدرسة ابن العميد ، حيث بالغ عميد هذه المدرسة فى الصناعة وأربى على أستاذه فى الطريقة ، وتفنن فى المحسنات البديعية غاية التفنن ، وأكثر من السجع إكثارا عظيما . وقد كان للسجع فى أسلوب هذه المدرسة أكبر نصيب ، ولم يكتفوا كذلك بالفواصل الطويلة المسجوعة التى مهر فيها ابن العميد وابتدعوا الفواصل القصيرة وهذه سلمتهم بدورها إلى كثرة استعمال الازدواج فى عباراتهم .

بهذا السجع الذى شغف به الصاحب اصطبغت مدرسته فى النصف الثانى من القرن الرابع . فكان البديع والسجع خاصة أكبر مظاهرها . وكان الصاحب عميد هذه المدرسة يمثل قمة التطور فى السجع المقبول فى تاريخ النثر الفنى ، وهو وإن كان مقلدا لابن العميد مستوحيا لبعض طرائقه إلا أنه زاد عليه فى العذوبة والاستيعاب والاكتمال . وكان رغم اسرافه فيه جميل الاختيار يضع الكلمة فى موضعها . فلا نجد فى سجعه برغم كثرته ثقلا ولا تكلفا . وقد ساعده على ذلك سعة علمه باللغة واطلاعه على أساليبها . وكيف لا ؟ وقد كان صاحب معجم ضخم فى اللغة .

ظاهرة السجع فى القرن الرابع

اختلف الباحثون فى تعليل ظاهرة السجع التى شاعت فى أسلوب النثر الفنى فى القرن الرابع وبلغت أقصاها فى نثر الصاحب بن عباد ومدرسته ، فيرى أحمد أمين أن هذا السجع وليد الحضارة ، وأن التأنق فى الحضارة يتبعه تأنق فى التفكير فتأنق فى الأسلوب (١) .

ويرى بعض الباحثين أن تأنق الكتاب فى الأساليب الأدبية واهتمامهم باصطناع السجع ذو صلة قوية بالعقلية الفارسية التى تميل إلى الزخرف . ويستشهد هؤلاء على

---

(١) انظر ظهور الإسلام لأحمد أمين ص ١٣٣

صحة دعواهم بما يراه الدكتور زكى حسن من ميل الشعب الفارسى إلى الزخرف والفن الرفيع (١) .

والحق ـ الذى أراه ـ إن انتشار السجع والتأنق فى صناعة الكتابة عند رجال هذه المدرسة وكتاب القرن الرابع عامة ـ لاصلة له اطلاقا بالعقلية الفارسية ولا بالحضارة . ولا يصح علميا أن يقال إن الزخرف الفارسى أوجد السجع العربى . لأن الحضارات والعقليات الأجنبية لا تخلق الأساليب اللغوية ، ولا تؤثر إلا فى الأغراض والمقاصد وايجاد الألفاظ الدخيلة ، ولا صلة لها بالأساليب لأن الأساليب جزء من جوهر اللغة وطبيعتها وكيانها الذى تتميز به عن غيرها من اللغات الأخرى .

والسجع ليس من باب الألفاظ المعربة ولا من باب الأغراض والمقاصد وإنما هو صورة من صور التراكيب العربية فى الأسلوب .

فإذا قيل : لم انتشر السجع فى القرن الرابع ـ عصر البويهيين وعصر تأثير الحضارة الفارسية ـ قبل غيره من القرون ؟

أقول : إن انتشار السجع كان حركة طبيعية حتمية من حركات تطور السجع القديم فى اللغة العربية ـ تمت فى القرن الرابع حين وجد المؤثر الكافى .

فالعقلية الفارسية والحضارة لم تخلق هذا السجع خلقا ، وإنما قامت منه بدور البيئة ، فبعثت على إحيائه أو إ خراجه من مكنون الأسلوب العربى ، فنما وازدهر فى الوقت المناسب . وهو الوقت الذى وجد فيه المؤثر الكافى لإحداث ذلك الأثر .

فشأن اللغة هنا شأن الكائن الحى ، وشأن العقلية الفارسية والحضارة المؤثرة شأن البيئة التى تؤثر فى كل كائن حى . وشأن السجع شأن الغرائز لا تظهر دفعة واحدة وإنما بقدر ما للبيئة المؤثرة من تأثير عليها .

ولما أن البيئة لا تخلق الغرائز وإنما تثيرها أو توجهها أو تكبتها فكذلك الحضارة الفارسية لم تخلق السجع العربى وإنما دفعت إلى اظهاره واحيائه من مكنون العربية .

---

(١) الفنون الايرانية لزكى حسن ص ٣٣٤

إن مدرسة ابن عباد بهذا الوضع كانت نتيجة حتمية لمدرسة ابن العميد من قبل إلا أن مدرسة ابن عباد كانت أعمق أثرا فيمن جاء بعده لكثرة تناجهم النثرى والشعرى ووفرة مؤلفاتهم وسخاء أيديهم بالعطاء بالإضافة إلى ما قام به الصاحب من جمعه الشعراء والأدباء والنقاد والعلماء فى بلاطه . ومن أجل هذا كان الصاحب بن عباد أكثر من ابن العميد تابعا ، ومدرسته أوضح أثرا ، وحلبته أكثر رجالا .

ولعلنا لا نعجب عند ذلك أن يكون أثره فى تلاميذه أعظم من أثر ابن العميد ، وقد عرفنا ما كانت تزخر به مدرسته من الكتاب .

ومن هنا نعلم أن مثلهم القائل " بدئت الكتابة بعيد الحميد وختمت بابن العميد " ليس إلا سجعة ساجع لا تحمل معنى محدودا من ورائها ، كما أنها لا تؤدى قاعدة تحتذى أو قضية علمية فى تاريخ الأدب .

وأستطيع أن أقول : إن الأسلوب الأدبى فى مدرسة ابن عباد يقوم — رغم ما به من سجع ومحسنات بديعية — على جانب كبير من التسوية بين اللفظ والمعنى ، أو تعادل الصناعة اللفظية مع الأفكار والمعانى . والذى عظم من شأن الأسلوب الأدبى فى هذه المدرسة أن الكتابة الفنية فيها لم تخرج عن دائرة الصناعة التى سنها عبد الحميد ، وسار عليها من جاء بعدهم إلى دور التصنع والإسراف فى الصناعه اللفظية التى شغف بها كتاب القرن الخامس والسادس وعظم أمرها فى مدرسة القاضى الفاضل والطريقة الفاضلية . وإن كنت فى نفس الوقت أعتبر أسلوب المدرسة الأدبية فى أصبهان وعلى رأسها الصاحب خطوة تمهيدية — فى كثير من النواحى — لظهور كتاب المقامات ، ابتداء من بديع الزمان أحد تلاميذ هذه المدرسة .

كما نستطيع أن نقول فى الختام إن مدرستى ابن العميد والصاحب ابن عباد تمثلان معا المرحلة الثالثة من مراحل تطور النثر الفنى .

الباب الثالث
النقد الأدبي في أصبهان

النقد والبلاغة قبل القرن الرابع

النقد والبلاغة قبل نزول القرآن :

نشأت مباحث البلاغة والنقد عند العرب جنبا إلى جنب ، وكانت نشأتها ساذجة وتتمثل بذور البحث النقدى فى الأحكام التى كان الشعراء وغيرهم يصدرونها ، كما فى قصة امرئ القيس وعلقمة الفحل واحتكامها إلى زوجته لتقرر أيهما أحسن تصويرا لفرسه ففضلت قول علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كغيث رانح متحلب

على قول زوجها :

فللسوط ألهوب وللساق درّة وللزجر منه وقع أهوج متعب

وقالت لزوجها : " فرسه أجود من فرسك فأنت زجرت، وحركت ساقيك ، وضربت بسوطك ، أما هو فأدرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضربه بسوط ولم يتعبه " (١) .

وأسواق العرب التى كان الناس يجتمعون فيها فيلقى الشعراء شعرهم والخطباء خطبهم وينقد بعضهم بعضا ، وليست هذه إلا بداية حسنة وبذور طيبة للنقد والبلاغة .

ففى سوق عكاظ كانت تضرب قبة للنابغة الذبيانى ليقول فى الناس قولته التى ترفع وتخفض ، وما قصة الخنساء ، وحسان بن ثابت إلا دليل ذلك ، حينما انشدت النابغة قولها ،

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وتعجب النابغة به فيغيظ هذا الإعجاب حسانا ، ويتحدى النابغة وأباه والخنساء أن يأتوا بمثل قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

---

(١) تذوق الأدب طرقه ووسائله لمحمود ذهنى ص ٢١٩

فقال له النابغة : إنك لشاعر لولا أنك أقللت عدد جفانك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . وفى رواية أخرى . فقال له إنك قلت الجفنات فقللت العدد ولوقلت : الجفان لكان أكثر . وقلت : يلمعن بالضحى . ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا ، وقلت : يقطرن من نجدة دما . فدللت على قلة القتل ، ولو قلت : يجرين لكان أكثر . وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك فقام حسان منكسرا منقطعا (١) .

وقد ظهر كثير من الأنواع البلاغية فى الشعر الجاهلى قبل تدوين البلاغة. وأكثرها ما يتعلق بالإحساس والحكم كالتشبيه ، فإنه مبنى على الأحساس أو على سابق المعرفة حتى يتمكن الشاعر من أن يقارن كلامه بما رآه وما عرفه ، ومنها ما يتعلق باللغة نفسها كالاستعارة التى مرجعها إلى التشبيه ، وكالمجاز الذى يرجع إلى التوسع فى اللغة ، وكالتجنيس المبنى على المادة اللغوية وعلى ما بين الألفاظ من فروق فى المعانى واتحاد تام أو قريب من التام فى الحروف ، وكالمطابقة التى تخضع لتداعى الألفاظ . وتداعى المعانى فى التضاد أو المقارنة أو المشاكلة .

فنجد النابغة يتبرم بالليل لأنه يرد بالهموم التى نسيها فى نهاره فيشكوه ويرى أن الليل كراعى السوء الذى يعود بالإبل إلى مبائتها . يقول :

وصدرٍ أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وأمرؤ القيس يشبه الليل بموج البحر يأخذه من كل جانب ، كما يشبه ظلماته وجوانبه بالسدول من الهموم تغشيه من جميع جوانبه ونواحيه ، ويعظم الليل على صدره فيتمطى فوقه بصلبه وأثقله الحمل فيصرخ ويستدعى النهار الذى تأخر عنه وعهده به يعقب الليل ويتبعه فيقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

---

(١) الأغانى جـ ٩/ ٣٤٠ (ط. دار الكتب) ، نشأة البلاغة د / سيد نوفل ص٥٣ ، الموشح للمرزبانى ص٨٢ (تحقيق البجاوى) .

وهكذا لو تتبعنا الآداب القديمة قبل تدوين البلاغة ومعرفة أبوابها ، رأينا أنها تحفظ لنا كثيرا من هذه الأنواع الاصطلاحية التى دونت فيما بعد والتى وقع عليها الأدباء الأقدمون ، لأنهم يعرفون لغتهم ، ويعرفون كيف يتوسعون وكيف يتصرفون فيها فى نطاق ما تسمح لهم عقولهم وأحاسيسهم ومشاهداتهم وأهم هذه الأنواع التشبيه والاستعارة .

وهما فى البلاغة من الأنواع الطبيعية التى وقع عليها الأقدمون قبل عصر التدوين وقبل التفكير فى المصطلحات البلاغية ، لأن التشبيه مجرد مقارنة يقتضيها الفهم والافهام وينبض بها الفكر والتفكير ، فالإنسان إذا أراد أن يفهم استعان بمقارنه غير المفهوم بالمفهوم ، وغير المعروف بالمعروف ، ليستحضر الصورة الذهنية التى يريد ايصالها إلى المخاطب .

وكذلك الأمر فى الاستعارة فأساسها التشبيه ، ومعظمها إما توسع فى اللغة ، ويملك هذا التوسع من يملك اللغة ويحسن التصرف فيها ، وإما مبالغة وهى طبيعية فى الإنسان .

وليس الأمر مقصورا على التشبيه والاستعارة ، فالتجنيس أيضا من أنواع البلاغة التى تعتز بها الآداب عامة والأدب العربى بخاصة ، وهى أيضا من الأنواع الطبيعية التى عرفها الأدب قبل أن تعرفه البلاغة .

فالدارمى يعرف أن " الخرق " هو الصحراء الواسعة ويعرف أن الناقة التى تخرق الأرض تسمى " الخرقاء " فيصطنع بين اللفظين جناسا له جرسه وطبيعته فى غير تعمل أو قصد ، فيقول :

وأقطعُ الخرق بالخرقاء لاهيةً ... إذا الكواكب كانت فى الدُّجى سرجا

ويسلم الجناس طيعا لينا لجرير فيقول :

فما زال معقولا عقال عن الندى ... ومازال محبوسا عن المجد حابسُ

فهو يعرف أسرة خصمه الفرزدق ويماجده بمجده ، وينازعه فى ذلك ويعرف من أجداد الفرزدق " عقال " و" وحابس " واللغة تطاوعه فى الاشتقاق فيشتق من " عقال " كلمة معقول ، ومن " حابس " كلمة محبوس . والشعر ليس وحيدا فى هذه الملاحظ ، بل يشاركه فيها النثر ، وخطب الجاهلية وحكمها وأمثالها مملوءة بالكثير من الأنواع البلاغية الطبيعية التى يهتز بها الذوق العربى (١) .

---

(١) بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار د / عبد الفتاح لاشين ص ١٧ .

أثـر القـــرآن

وإذا كان هذا ملحوظـا قبل القرآن الكريـم فما الظن بعد نزولـه وهو المثل والنموذج وهــو من البلاغـة فـى الصميم ؟

لقد عرفوا مــن غير شك بلاغتــه وتذوقوهــا ، بــل وهجر بعضهم الشعــر من أجلهــا لما نالهــم من البهر والبهــت ، وعقدت ألسنتهــم إلا من ترداده ، كل هذا من غـــير أن يعرفوا ظاهــر التشبيه أو مضمره ، ومفصله أو مجمله ، وصريح الاستعــارة أو خافيهــا ، ومن غـير أن يقيســوه بهذه البلاغـة الإصطلاحيـة التى ظهرت فيمـا بعـــد .

وكان تأثيره واضحا فى اتخاذه مدار للدراسات اللغويـة والبلاغيـة والنقديـة ، فقـــد أثـر القرآن أثرا مباشـرا وغير مباشر فى تطـور النقـد ، أما الأثر المباشـر فبفضل جهـود العلماء الذيـن تعرضوا لأسلـوب القرآن وبيان جوانبـه البيانيـة ، محاولـين إثبيـــات إعجازه البيانـى بمقارنتـه بالشعر العربـى ، وخصائص البيـان العربى بصفـة عامـــة . واستخدموا فـى ذلك الوسائـل التى استخدمها نقـاد الشعـر .

والأثر غير المباشـر جاء عـن طريق أن القـرآن رقق أذواق النقاد بما جـرى به أسلوبـه من الصياغة الجميلة الرائقـة والصور البديعة الرائعـة مما جعل العلماء يستشهـــدون بصياغتـه ، وتشبيهاته علـى كل جيد ، وصـارت شواهد القرآن فى مقدمـة الشواهـــــد الأدبيـة فى كتـب النقـد والبلاغـــة (١) .

واختلطت مقاييس النقـد بالدراسـات القرآنيـة ، وللتوصـل إلى اعجـاز القـــرآن استخدم علمـاء الإعجـاز مصطلحات البديـع وأبوابه فى كشف بديع أسلوب القرآن ولم يقبـل آخرون كالباقلانـى هذا التصنـع والوقوف عند حدود البديـع لإثبـات الإعجاز القرآنى (٢)

ومن آيـات ذلك أن يؤلـف أبو عبيدة كتاب " مجاز القرآن " بسبب مسألة تتعلـــق بالتشبيه يقول : " أرسل إلى الفضـل بن الربيـع إلى البصرة فى الخـروج إليه فقدمـت عليه فلما استأذنت عليـه أذن لى ، وهـو فى مجلس له طويـل عريض ، فيـه بســـاط

---

(١) تاريخ النقد الأدبى والبلاغة د / محمد زغلول سـلام ص١٨ ، ١٩ .
(٢) انظر أثر القرآن فى تطور النقد العربى د /زغلول سلام ص٢٩٦ وما بعدها .

واحد قد ملأه، وفى صدره فرش عالية لا يرتقى إليها إلا على كرسى وهو جالس عليها ، فسلمت عليه بالوزارة ، فرد وضحك واستدعانى حتى جلست إليه على عرضه، ثم سألنى وألطفنى وبسطنى ، وقال : أنشدنى ، فأنشدته فطرب وضحك وزاد نشاطه ، ثم دخل رجل فى زى الكتاب له هيئته فأجلسه إلى جانبى وقال له : أتعرف هذا ؟ قال لا ، قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لتستفيد من علمه . فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، وقال لى : إنى كنت إليك مشتاقا ، وقد سألت فى مسألة أتأذن لى أن أعرفك إياها ؟ فقلت : هات ، قال : قال الله عز وتعالى : طلعها كأنه رؤوس الشياطين " (١) وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف .. فقلت: إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلنى والمشرفى مُضاجعى ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوال ؟

وهم لم يروا الغول قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، واعتقدت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه علمه ، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى أسميته المجاز (٢) "

وكما كان للقرآن دور كبير وتأثير واسع فى نشأة البلاغة والنقد ، كذلك كانت خدمة كتاب المسلمين ومعرفة إعجازه مدعاة إلى البحث فيهما ، يقول أبو هلال العسكرى :

" إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ — بعد معرفة الله جل ثناؤه — علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ... وقد علمنا أن الإنسان إذا أخل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله من حسن التأليف، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع.

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها أن صاحب العربية إذا أراد أن يصنع قصيدة ، أو ينشئ رسالة ، وقد فاته هذا العلم مزج الصفو

---

(١) سورة الصافات آية : ٦٥.

(٢) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الإنبارى ص٢٧ (ط. جمعية إحياء آثار العلماء)

بالكدر وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحش العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل .

وإذا أراد — أيضا — تصنيف كلام منثور ، أو تأليف شعر منظوم ، وتخطى هذا العلم ، ساء أخياره له ، وقبحت آثاره فيه ، فأخذ الرديء المرذول ، وترك الجيد المقبول ، فدل على قصور فهمه ، وتأخر معرفته وعلمه (١)".

وما صنعه أبو هلال في القرن الثالث ، صنعه ابن سنان في القرن الخامس (ت ٤٦٦ هـ) إذ بين أن معرفة حقيقية الفصاحة تفيد في ناحيتين :

في العلوم الشرعية:

إذ أن المعجز الدال على نبوة رسول الله — صلى الله علية وسلم — هو القرآن الكريم ، سواء أذهبنا مذهب القائلين بالصرفة ، أم مذهب القائلين بأنه خرق العادة بفصاحته . فلا سبيل لنا في الوجهين عن بيان ما هية الفصاحة ، لنقطع في الأول بأن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم ، وفي الثاني بأنها خرجت عن مقدور البشر .

وفي العلوم الأدبية :

إذ بها يعرف نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ، ومعرفة ما يختار منه مما يكره (٢)

وتحقيقا لهاتين الفائدتين ، بحث ابن سنان بحثه الشامل في الأصوات في اللغة ، وفي فصاحة المفرد والمركب ، وفي بلاغة نعوت الكلام البليغ.

وقد اتسعت تلك الدراسات البلاغية والنقدية في العصر العباسي الأول ، وكانت تلك النهضة قائمة على طوائف شتى أظهرها .

١ — النحويون واللغويون :

في القرون الأولى لم يكن النحويون منفصلين عن اللغويين ، بل كانوا يمتزجون في

---

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص١، ٢ (ط. استامبول).
(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص٣.

معظم الأحوال ، حتى لا نكاد نرى فرقا بين الطائفتين ، فاللغة لم تكن وقتئذ منفصلة عن النحو ، والعالم كان يجمع إلى تعليم اللغة وشرح مفرداتها مقاييس الاشتقاق والاعراب إلى بيان خصائص الأسلوب ، ودقائق التعبير ، فصلة اللغة بالنحو كانت وثيقة محكمة ، والفصل بين العلمين لم يكن يدور فى خلد واحد من العلماء ، ولذلك كانت التراجم والطبقات تجمع بين اللغويين والنحويين فى صعيد واحد ، كطبقات النحويين للزبيدى وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ، وانباه الرواة للقفطى ، وكانت كتب الخليل وسيبويه والفراء والمبرد مزيجا من النحو واللغة لعلاج اللحن والاشارة إلى الفصيح من الألفاظ والمستهجن منها .

فنرى سيبويه (ت ١٨٠ هـ) يعرض لبعض الخصائص الأسلوبية التى عنى بها فيما بعد علم المعانى مثل التعريف والتنكير ، التقديم والتأخير ، والحذف ، كما يعرض لبعض المعانى المختلفة لبعض الأدوات .

مما جعل الدكتور على النجدى ناصف يؤكد تلك الصلة الماسة بين سيبويه وبين منهج علماء البلاغة المتأخرين فى علم المعانى حيث يقول :
" فالفكرة التى كان سيبويه يرعاها فى تنويع مباحث النحو وترتيب أبوابه كما تمثلت لى بالمراجعة فى الكتاب ، مدارها أولا وأخيرا نظر فى الجملة حين تكلم عن المسند والمسند إليه فإذا هى فعلية أو اسمية ، ثم تكلم عن الفعل المحذوف ، والفعل المذكور ، والمتعلقات ، ثم صار إلى الجملة الاسمية فتكلم عن الابتداء ونواسخه ... ويبدو أن النسق الذى أخذ به سيبويه هو الذى ألهم علماء البلاغة فكرة انحصار مباحثه فى أبوابه الثمانية المعروفة وليس يسع المرء وهو يقرأ كلامهم فى ذلك إلا أن يتبين اقتباسهم منه واقتداءهم به ابتداء (١)" .

وكتاب " معانى القرآن " للفراء (٢) يغلب عليه الطابع النحوى . فكثيرا ما نراه يقف ليوضح الجانب النحوى والاعرابى فى الآية .

---

(١) سيبويه امام النحاة ص (١٧٨ ـ ١٨٠) للدكتور على النجدى ناصف .
(٢) أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء أخذ عن الكسائى وكان اماما ثقة وكله المأمون ليلقن ابنه النحو وتوفى سنة ٢٠٧ هـ" انظر نزهة الألباء ص ٧٠"

ونـراه فى تفسـيره يتّبع الطريقـة التى اتبعهـا أبو عبيـدة بشـرح الآية بالآيـة ثم بالحديث ـ إذا تسنى ذلك ـ ثم بالشاهـد الشعرى أو المثل أو الكـلام الفصيح . وهـذه الاتجاهات اللغوية والنحوية هى الغالبـة على الكتـاب و لكننا لا نعدم فيها بعـض الصـور البيانيـة .

فالتشبيـه ورد فى مواضـع عديـدة من الكتاب ، وتعرض له فى آيـات القرآن الكريـم ، ويتكلم عن المجاز بالمعنى اللغوى كما كان فى مجـاز القرآن ، ويشير إلى ما سمى بالاستعارة ولم ينـص عليها كما فـى قولـه تعالى : " وإنهما لبإمـام مبين " (١) يقول بطريـق لهم يمـرون عليهـا فى أسفارهـم فجعـل الطريـق إماما لأنـه يؤم ويتبـع (٢) .

كما يتعرض للكناية ، فمثلا قـال فى قولـه تعالـى : " ولكن لا تواعدوهن سرا " (٣) يروى الفـراء عن ابن عباس أنه قال : السرفـى هـذا الموضـع النكاح وأنشـد لامـرئ القيـس :

ألا زعمت بسباسةُ اليومَ أنّنى كبرتُ وألاّ يشْهد السرّ أمثالى (٤)

أما " مجاز القرآن " لأبـى عبيـدة (٥) فيذكر ياقوت أنـه ألفه سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجـرة ، والمجاز فى كتـاب أبـى عبيدة لا يعنى بـه مقابـل الحقيقة ، وإنما يعـنى بـه التفسـير والطرق التى يسلكهـا القـرآن فى تعبيراتـه (٦) .

وهذا المعنى بطبيعـة الحال أعم مـن المعنى الذى حدده علمـاء البلاغة لكلمـة المجاز فيما بعـد ، وقد عرفنـا أن تأليفـه كان بسبب مسألة بلاغيـة تتعلق بالتشبيـه . وقـد كان كتاب المجاز المحاولة الأولى فى كشف ما جـاء من المجاز بمعناه العام فى أسلو ب

---

(١) سورة الحجر آية ٧٩ .
(٢) معانى القرآن للفراء جـ٢ / ٩١ (تحقيق النجار) .
(٣) البقرة آية ٢٣٥ .
(٤) معانى القرآن جـ١ / ١٥٣ .
(٥) هو معمر بن المثنى البصرى مولى بنى تميم أخذ عن يونس أبى عمرو وكان شعوبيا وتوفى سنة ٢٠٨ هـ على المشهور " انظر نزهة الألباء ص ٧٠ "
(٦) انظر فلسفة البلاغة د / رجاء عيـد ص ٧٣ .

القرآن الكريم مع مقارنته بما جاء فى الأدب العربى . وساعده على ذلك محصوله الوفير من اللغة والأدب ، وقد صارت هذه المسائل فيما بعد مسائل فى البيان العربى ، كما أنها كانت ذات قيمة لغوية كبيرة أفادت بحوث اللغة .

وترجح كفة الفراء على كفة أبى عبيدة لأن الفراء فى كتابه معانى القرآن بحث الناحية الموسيقية لنظم القرآن مما يجعل له أثرا موسيقيا فعالا فى النفوس ، وذلك لما فيه من النسق الصوتى ، والترابط بين الكلام ، وانسجام النغم ، وتوافق الفواصل فى آخر الآيات ، كما قارن فى بحثه هذا بين وزن الشعر وفواصل القرآن .

ويقول فى قوله تعالى : " ولمن خاف مقام ربه جنتان (١) " لا يوافق على التفسير اللغوى الحرفى للجنتين بمعنى بساتين ، بل يرى أن هذه التثنية بمعنى الافراد وهو مما عدل إليه القرآن مراعاة للنظم ، كما يراعى ذلك فى الشعر لإقامة الوزن والقافية .

وقد يجيز النظم حذف أواخر الكلمات موافقة لرؤوس الآيات مع موافقة ذلك لكلام العرب ، مثل قوله تبارك وتعالى : " والليل إذا يسر (٢) " ذكروا أنها ليلة المزدلفة . وقد قرأ الفراء " يسرى " باثبات الياء و " يسر " بحذفها ، وأقر حذفها لمشاكلتها لرؤوس الآيات ، لأن العرب قد تحذف الياء وتكتفى بكسر ما قبلها كقولهم :

كفّاك كفٌّ ما تليقُ درْهما جُودا ، وأخرى تُعطِ بالسيف الدما

وهكذا وضع الفراء أصولا عامة للتغييرات التى يمكن أن تطرأ على الكلمات ، والتى يعتمد عليها القرآن أحيانا للتوافق الموسيقى فى نظمه ويشير إلى أن القرآن فى عدوله إلى لفظ آخر أو تعديله للألفاظ لا تخرج عن أساليب العرب وفنون القول عندهم .

---

(١) سورة الرحمن آيه : ٤٦
(٢) سورة الفجر آيه : ٤

والمبرد (١) يبين فى كتابه الكامل غرضه من تأليفه فيقول : " والمنية أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا حتى يكون هذا الكلام بنفسه مكتفيا ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستعينا (٢)" .

ويظهر من هذا أن غرضه لغوى مما يصرف ملتمس البلاغة عن النظر فى الكتاب ومن يتصفحه يجد به أبحاثا بلاغية لا نجد لها مثيلا عند معاصريه .

فنراه وقد عالج بعض المسائل البلاغية فى مواضع متفرقة فتحدث عن التعقيد اللفظى فقال : ومن أقبح الصور وأهجن الألفاظ وأبعد المعانى قوله :

وما مثلهُ فى الناس إلا مملّكا أبوامّه حىّ أبوهُ يُقاربُه (٣) .

وشرح البيت وبين ما فيه من قبح . وتحدث عن التعقيد المعنوى ويعقد مقارنة بين قول روح بن حاتم بن قبيصة ، وهو واقف على باب المنصور فى الشمس ، فسئل عن سبب ذلك فقال : ليطول وقوفى فى الظل . وبين بيت العباس بن الأحنف :

سأطلبُ بُعْدَ الدار عنكم لتقربُوا وتسكبُ عيناىَ الدموعَ لتجمُدَا

ويقول : هذا كلام مكشوف واضح ككلام الربيع " أى فى الحسن والجمال (٤) " وقد وضع فصلا عن التشبيه تحدث فيه حديثا — لم يسبق إليه — عن التشبيهات العجيبة والمصيبة ، والمتجاوزة والمفرطة ، والحسنة والمستحسنة ، والقريبة والمفهومة وغير المفهومة والجامعة ، ثم يجمل القول فذكر أن العرب تشبه على أربعة أضرب : تشبيه مفرط ، ومصيب ، ومقارب ، وبعيد (٥) .

وأتت فى كتابه أشارات لما عرف بعد بالاستعارة فى الحرف ، وما عرف بعد بالمجاز العقلى .

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر شيخ أهل النحو والعربية وتوفى سنة ٢٨٥هـ (انظر نزهه الألباء ١٤٨)

(٢) الكامل للمبرد جـ١ ص٢١ (ط٠المكتبة التجارية)

(٣) المرجع السابق جـ٢ / ٨٧ وما بعدها

(٤) البلاغة للمبرد ص٦٣

(٥) الكامل للمبرد جـ١ / ١٨

٢ — الكتـــاب والشعـــــراء :

اتسعـت الملاحظـات النقديـة فى الشعـر والنثر ،بسبب تطور الحـياة الحضاريـــة والعقليـة وعنايـة المتعلمين بالشعر والنثر والخطابـة والمناظرة ، وبسبب شيوع اللغـــة العربيـة بين العرب والموالى ، واتقانهـم لـها وتنافسهـم فيهـــا .

يقـول ابن المقفـع عندما سئل عن البلاغـة : "البلاغـة اسم جامع لمعـان تجرى فـى وجوه كثـيرة ، فمنهـا ما يكون فى الصمت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فـى الإشارة ، ومنهـا ما يكـون فى الاحتجاج ... والإيجاز هـو البلاغـة فأما الخطب بـين السماطـين ، وفـى إصلاح ذات البين ، فالإكثـار فى غير خطـل ، والإطالـة فى غـير إمـلال ، وليكن فى صـدر كلامك دليل علـى حاجتـك ، كما أن خير أبيات الشعر البيـت الـذى إذا سمعـت صدره عرفـت قافيتـه ... الـخ (١)"
فقـد لا حـظ ابن المقفـع أن لكل من الاطناب والايجـاز مقامـه فما يصلـح فيـه الاطنا ب لا يصلـح فيـه الايجـاز ، فلكـل منهمـا مقامـه .

وقـد وضـع قواعـد هامـة لكل متكلـم منها : أن يكـون فى قائمـة كلامـه ما يشـــير إلـى غرضـه وهو ما سمى فيما بعـد " حسن الاستهـــلال " .

وقاعـدة أخرى تتصـل بالشعـر حيث يقول : إن خير أبيـات الشعر مـا دل صـــدره على قافيتـه ، وهو ما سمـاه ابن المعتز " رد الأعجاز على ما تقدمهـا (٢) " وتقلد كثـير من الكتاب الوزارة وكانـوا فى الـذروة مـن البلاغـة وإذا وقعـوا نسخت توقيعاتهـم .

وأمـا الشعراء فقد وجدناهـم يتطورون أيضـا بشعرهـم تطورا كبـيرا بتأثير حياتهـم الحضاريـة والعقليـة ، ومزجـوا الثقافـة الحاضرة بالثقافـات القديمـة وكثيرا ما كانـــوا يوازنون بين شعـر من تقدمهم وشعرهـم ، ويحاولون مجاراتهم ومحاكاتهـم فى بعـــض بدائعهـم أو أن يثبتوا تفوقهـم عليهـم .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ١ / ١١٥ (تحقيق هارون) .
(٢) البديع لابن المعتز ص٤٧

وخير شاهد على ذلك قول بشار: "لم أزل مذ سمعت قول امرئ القيس في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حيث يقول:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والخشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه (١)

٣ — المتكلمون:

نشأت جماعة من العلماء المسلمين في مطلع القرن الثاني الهجري قد نصبوا أنفسهم لجدال أصحاب الفرق الإسلامية من شيعة، وخوارج، وجبرية، ومرجئة كما نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام أمام خصومه من أصحاب الملل. وتسلح هؤلاء العلماء بمناهج عقلية، وعرفوا بقوة البيان، وحسن الرأي، وقوة الحجة، ونفاذ البصيرة. وأضافوا إلى ثقافتهم العربية الأصلية ألوانا من الثقافة الأجنبية وبخاصة الفلسفة وما يتصل بها من المنطق.

فنرى الجاحظ يقول: "لا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام، متمكنا في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة، والعالم عندنا — يريد المعتزلة — هو الذي يجمعهما" (٢).

ومن هؤلاء: ابن قتيبة و الجاحظ والرماني والباقلاني.

ابن قتيبة (٣):

يقول عنه ابن تيمية: "وهو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة فإنه خطيب أهل السنة، كما كان الجاحظ خطيب المعتزلة" (٤) وقد اشترك في المناقشات الكلامية في عصره، وناضل عن مذهبه ضد تيارات المعتزلة وغيرهم من أصحاب الفرق والمذاهب.

---

(١) الأغاني جـ٣ ص١٩٦.

(٢) الحيوان للجاحظ جـ٢/١٣٤.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري توفي سنة ٢٧٦ (انظر نزهة الألباء ص١٤٤).

(٤) تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ص٨٦.

وقد عرف الاستعارة وأتى لها بأمثلة ، وتنطوى هذه الأمثلة على ما يسمى بالاستعارة ، والكناية " والمجاز المرسل ، والتشبيه ، والمبالغة ، والمشاكلة ومثل لكل تلك الأصناف تحت كلمة الاستعارة (١) .

وفى كتابه " مشكل القرآن " تكلم عن المجازات فى الكلام بمعناه الواسع ، ومضى يعرض صورا منه فى القرآن الكريم ، ونثر ابن قتيبة جملة ملاحظاته البيانية فيه .

بينما نراه صريحا فى الدلالة على الكناية الاصطلاحية فى كتابه " تأويل مختلف الحديث" وأتى بأمثلة هى بعينها التى تناولتها كتب البلاغة فيقول : " فلان طويل النجاد — والنجاد حمائل السيف ، وهو لم يتقلد سيفا قط ، وإنما يريدون أنه طويل القامة ، فيدلون بطول نجاده على طوله ، ويقولون فلان عظيم الرماد ، ولا رماد فى بيته ولا على بابه ، وإنما يريدون أنه كثير الضيافة ... (٢) " وهو لم يضف شيئا ذا بال بالقياس إلى أى عهيده إلا ما أثر من دقة التبويب ، وبعض تفصيل هنا وهناك كالحديث عن الكناية .

الجاحظ : (٣)

كانت حياة الجاحظ حافلة بالنتاج الأدبى والعلمى ، وتقف بنا آثاره الباقية وما حوته من تفسيره للآيات القرآنية على مدى ما وصل إليه من الفهم ، ومدى إدراكه للصور البيانية فيه .

وكانت دراسة الجاحظ للصور البيانية فى القرآن صورًا لبحوث المعتزلة فى المجاز ، فكان يطلق " المجاز " بمعناه العام على كل الصور البيانية عند تناوله لكثير من النصوص القرآنية ، كما فى قوله تعالى : " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما" (٤)

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢٧ (ط٠الحلبى)
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص١٦٣ ، ١٦٤ (ط٠ الحلبى)
(٣) هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ نشأ بالبصرة وبلغ خبره المتوكل فاستقدمه ليؤدب ولده ولما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه ، وتوفى بعد اصابته بالفالج سنة ٢٥٥ هـ (نزهة الألباء ص١٣٣) .
(٤) سورة النساء آية رقم ١٠

وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحلل ، وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا درهما واحدا فى سبيل الأكل . وقد قال : " إنما يأكلون فى بطونهم نارا " هذا مجاز آخر ... ، وبعض فيقرن بالآية الكريمة بعض آيات أخرى من التنزيل وبعض أشعار العرب التى تجرى مجراها فى الاستعارة ـ وعقب على ذلك بقوله وهذا كله مجاز (١) .

وتعرض للتشبيه فى قوله تعالى : " طلعها كأنه رؤوس الشياطين " أكثر من مرة (٢) ونراه مثلا لدفاع المتكلمين عن التهم الموجهة للقرآن وتبرئته من مطاعن الطاعنين .

ويختلف مع أهل الظاهر ـ من اللغويين وأصحاب الحديث ـ فى المجاز ، ويخوض معهم فيه على مذاهب المعتزلة ، ويرد على المعترضين منهم متهما إياهم بنقص الإدراك وقصر الفهم ، وعدم الإلمام بدقائق الأسلوب القرآنى فضلا عن أساليب العرب فى الكلام ونراه يضرب لذلك أمثلة . فقال فى قوله تعالى : " يخرج من بطونها شراب" (٣) العسل ليس شرابا وإنما هو شئ يحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا فسماه كما ترى شرابا إذ كان منه يجئ الشراب . ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم من العرب قليلا ولا كثيرا .

وهذا الباب مفخرة العرب فى لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت .. فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب وطعن عليه فى هذه الحجة ؟! (٤)

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ٥ / ٢٥ ـ ٢٨
(٢) المرجع السابق جـ٤ / ٢٩ ، جـ٦ / ٢١٢
(٣) سورة النحل آيه : ٦٩
(٤) الحيوان جـ٥/ ٤٢٦

٤ — **النقـــاد** : ومن هـــؤلاء :

ابـــن المعـــتز (١) :

ألف ابن المعـتز كتابـه البديـع سنـة أربـع وسبعـين ومائتـين ، ويمتاز هذا الكتاب بدقة اختيـار الشواهـد ، وإليه يرجع الفضل فى أنـه أول كتاب صنف فى البديـع ورسـم فنونـه ، بحيـث أصبـح إماما لكـل من ألفـوا فى البديـع بعـده ، ومصباحا أضـاء لهـم الطريـق .

ويعلن ابن المعـتز فى كتابـه الغـرض من تأليفـه فيقـول : " قدمنا مـن أبـواب كتابنـا هذا بعض ما وجدنـا فى القرآن الكريـم واللغـة وأحاديث الرسـول (ص) وكـلام الصحابـة والأعـراب وغيرهـم وأشعار المتقدمـين من الكـلام الذى سمـاه المحدثـون البديـع ، ليعلـم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومـن تقيلهـم وسلك سبيلهم لـم يسبقـوا إلى هـذا الفـن ، ولكنـه كثر فى أشعارهـم فعـرف فى زمانهـم (٢) " .

وهـو بذلك يدلل دلالـة قاطعـة على أن ما يكـثر منه المحدثـون مما يسمى بديعـا موجود مـن قديـم فى القرآن والحديث وكـلام الجاهليين والإسلاميين ، ويتصدى لهـم بنقض دعواهـم مبينـا بالبرهـان أن البديـع قديم فى العربيـة ، بل إنه ليعمق فـى القدم حـتى العصر الجاهلى وأن ما للمحدثـين منـه أمثـال بشـار وأبى نواس إنمـا هـو الإكثـار مـن فنونـه فقـط .

وجعل ابن المعـتز فنون البديـع التى بنى عليهـا الشطـر الأكبر مـن كتابـه خمسة هـى : الاستعارة ، والتجنيس والمطابقـة ، ورد الأعجـاز على ما تقدمهـا ، والمذهـب الكلامـى .

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل من الخلفاء العباسيين ، كان شاعرا مطبوعا تثقف على يد المبرد وثعلب ، أقام فى الخلافة يوما وليله ثم قتل سنـة ٢٩٦هـ (انظر نزهة الألباء ص ١٦٠) .

(٢) البديع ص١

وتحدث بعد هذه الفنون الخمسة الأساسية عنده عما سماه " محاسن الكلام " وقال إنها أكثر من أن يحاط بها ، وفصل الحديث فى ثلاثة عشر منها : بدأها بالإلتفات ، ثم الإعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والكناية والإفراط فى الصفة ، وحسن التشبيه ، واعتراض الشاعر نفسه ، وحسن الابتداءات. تحدث عن كل ذلك مع التمثيل بالثابت من كلام القدماء والمحدثين ومن الشعر .

وابن المعتز بهذا ينفصل عن اللغويين الذين كانوا يزرون ازراء شديدا على المحدثين ، وربما كان الوحيد الذى شذ على ذوق اللغويين هو وابن قتيبة إذ لم يكن يتعصب للقدماء ضد المحدثين بل كان يسوى بينهم ، يقول : ولا نظرت إلى المتقدم من الشعر بعين الجلالة لتقدمه ، ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم (١) " .

---

(١) مقدمة كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

ابـــن طباطبـــا : (١)

أهم مؤلفاته عيار الشعر ، ألفه لبيان الميزان الذى تقاس به بلاغة الشعر ، وفيه يفرق بين الشعر والنثر ، وأن الشعر لا بد له من استعداد خاص قبل الوقوف على عروضه ، ولا بد له من أدوات مختلفة كالنحو والصرف ومعرفة أيام العرب وأمثالهم .

واختلف عيار الشعر فى نهجه وبعض موضوعاته عما سبقه من دراسات فى نقد الشعر . فهو لم يتخذ البديع وحده ، رائدا فيصف أبوابه ويفردها بابا بابا مع شواهدها ، كما هو حال كتب البديع ونقد الشعر والصناعتين ، ولم يكن كتابه منصبا على شاعر بعينه ، أو جماعة من الشعراء ينتصر لهم أو يوضح محاسنهم ويكشف مآخذهم ويدافع عنها ، كما هو الحال فى كتابى الموازنة والوساطة ، ولم يكن كذلك معنيا بتتبع المآخذ وحدها كما هو الحال فى الموشح وفى كتب السرقات كسرقات أبى نواس لابن يموت ، والمنصف لابن وكيع .

ولم يكن اهتمام ابن طباطبا موجها إلى لغة الشعر ، وما يصح أن يستشهد به منها ، وما لا يصح ، ولم يكن مولعا بتتبع الأخطاء اللغوية واللحن كولع بعض سابقيه ومعاصريه (٢) .

ويفرق ابن طباطبا فى كتابه بين الشعر والنثر ، وأن الشعر لا بد له من استعداد خاص قبل الوقوف على عروضه ولا بد له من أدوات مختلفة كالنحو والصرف ومعرفة أيام العرب وأمثالهم .

وجاء الكتاب دراسة موضوعية فنية لصنعة الشعر وقياس جيده أو رديئه ، واعتمد ابن طباطبا فى دراسته على خبرته الخاصة فى هذا المجال إلى جانب ما استمده من دراسات السابقين من رجال الشعر والبيان .

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن طباطبا العلوى الأصبهانى من شعراء عصره ونقادهم وتوفى سنة ٣٢٢هـ .

(٢) انظر تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى د /زغلول سلام ص١٦٦

فقد جمع ابن طباطبا إلى جانب ذكاءه وفطنته وصحة ذهنه وقدرته على الحفظ العلم الواسع بالشعر واللغة والرواية . وله أبيات من قصيدة تشير إلى أنه كان محبا للعلم ساعيا فى طلبه معتدا بسعة علمه وقدرته على الحفظ يقول : (١) .

حسود مريض القلب يخفى أنينه ... ويضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على أن رحت فى العلم راغبا ... أجمع من عند الرواة فنونه
وأملك أبكار الكلام وعونه ... وأحفظ مما استفيد عيونه

كما كان متمكنا من اللغة وأساليبها وكانت له قدرة فائقة فى الانشاء ونلمس ذلك فى قوله : " والله أنا أقدر على أبى الكلام من واصل بن عطاء ، فقد ألفت قصيدة تحاشيت فيها حرفين من حروف المعجم لرجل كان يلكن بهما ، بينما خطبة واصل التى لهج الناس بها تحاشى فيها حرفا واحدا وهو الراء (٢) وكان ابن طباطبا سريع الخاطر ينشد الشعر بديهه . وروى أنه صادف عثمانيين أسودين معتمين بعمامتين حمراوين ، فامتحنهما فوجدهما فى الأدب خاليين ، فكتب يقول بديهة :

رأيت ببـاب الدار أسودين ... ذوى عمامتين حمراوين
كجمرتين فوق فحمتين ... قد غادرا الرفض قريرى عين
جدكما عثمانُ ذو النورين ... فما له أنْسَلَ ظلمتين
يا قُبح شين صادر عن زين ... حدائد تطبعُ من لُجَيْنِ
ما أنتما إلا غرابا بَيْنِ ... طِيرا فقد وقعتما للحَيْنِ (٣)

وقدم ابن طباطبا لكتابه (عيار الشعر) بمقدمة مستفيضة تدور حول أربعة موضوعات أساسيه هى : تعريف الشعر وصنعة الشعر ، وفنون الشعر العربى وأساليبه ، ثم عيار الشعر ، أوالوسائل التى يمكن التعرف بها على جيده أو رديئه .
ويتحدث ابن طباطبا عن التشبيه ، ويستقصى وجوهه وأقسامه ويتحدث عن التشبيهات المعيبة ، والتشبيهات الغريبة والبديعة ، كما لاحظ أن أدوات التشبيه : الكاف ، وكأن ، وتراه ، أو يكاد ، أو تخاله ، وبين موضع استعمال كل أداة .

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق د / زغلول سلام ص ١
(٢) تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى د /زغلول سلام ص١٦٧ .
(٣) عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق د / زغلول سلام ص١١ ، ١٢

وهـذا البحث من أهم المباحث في كتابه فنراه يفصل القول في التشبيه وعرض للرائع منه والمعيب ، وكأنه يعد التشبيه جوهر الشعر ولبه . يقول :

وأحسن الشعر ما ينتظم القول انتظاما يتسق به أوله مع آخره ، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثلة السائرة الموسومة باختصارها ، لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها ، نسجا وحسنا وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ، ودقة معان ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر عن كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا ... تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقا بها مفتقرا إليها ، فإذا كان الشعر على هذا المثيل سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهي إلى راويه (١) .

فنجد ابن طباطبا يتحدث عما ينبغي من ملائمة معاني الشعر لمبانيه وأن يخلو في افتتاحياته مما يتشاءم وخاصة في المديح ، كما يدعوا الشعراء إلى تنسيق أبياتهم تنسيقا دقيقا بحيث تتماسك معانيها وألفاظها ، ونراه يشدد في وحدة السياق ، وأن تترابط أبيات القصيدة حتى تصبح بناء محكما متشاكلا ، بل حتى تغدو كالجسد لا يمكن وضع عضو فيه مكان عضو آخر . فكل بيت يحل في موضعه وينزل في مستقره بحيث لا يمكن التقدم به و لا التأخر عنه .

وكأن ابن طباطبا يطل علينا من عصره إلى نقاد عصرنا الحديث حينما يرددون نغمات فيها فخر وإعجاب عن الوحدة العضوية في القصيدة ، فيقول لهم : هونوا على أنفسكم ، وانزلوا من عليائكم ، وأخفضوا من كبريائكم ، واعترفوا بالفضل لذوية ، وانسبوا العلم لأهله .

والعجب أن من جاء بعده لم يتوسعوا في هذا الموضوع ، بل لقد كانوا يجمعون على أن تعلق البيت بما قبله من حيث تمام الفكرة يعد عيبا وسموه " التضمين " .

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق د / عبد العزيز بن ناصر المانع ص ٢١٣ (ط. دار العلوم ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .) الرياض ـ السعودية .

الصاحب بن عباد الناقد :

كان الصاحب ذا ذوق فنى ، وقد أستمد هذا الذوق من مصدرين :
الأول : فطرى وراثى لا شأن للبيئة والثقافة فى اكتسابه لأنه جزء لا يتجزأ من ذكائه الموروث وجانب هام من مقومات هذا الذكاء .
والآخر : اكتسابى رزقه من البيئة والثقافة العريضة التى كان يتحلى بها وكان لأستاذه ابن العميد الشأن الأكبر فى هذا الجانب . فقد كان ابن العميد شيخ نقاد الشعر فى القرن الرابع كله (١) وقد حضر ابن عباد المجالس النقدية والأدبية التى كان يقيمها ابن العميد للعلماء والأدباء ويناظر فيها شيوخ عصره . وقد أثرت هذه المجالس فى ذوقه الفنى .

هذان المصدران البيئى والوراثى كان لهما مغزاهما فى تكوين ذوق الصاحب وخلق استعداده النقدى . فكان حاضر الذهن ، سريع البادرة ، بعيد الغور فى التذوق .

وبسبب هذا الذوق وذلك الذكاء كان واسع الحيلة فى توجيه المعانى بما لا يدع فى نفس محدثه ريبا أو خجلا . قال صاحب اليتيمة : حدثنى أبو نصر العتبى قال : " سمعت أبا جعفر دهقان ... يقول : " قدمت إلى الصاحب هدية أصحبنيها الأمير أبو على محمد بن محمد برسمه . واعتذرت إليه بأن قلت : أنها إذا نقلت إلى حضرته بخرسان كانت كالتمر ينقل إلى كرمان فقال : ينقل التمر من المدينة إلى البصرة على جهة التبرك . وهذه سبيل ما يصحبك (٢) .

ومما يشهد على حضور ذهنه وحدة ذكائه ما حدث به أبو الرجاء الضرير الشطرنجى الشاعر الأهوازى . قال . قدم علينا الصاحب بن عباد .... فمدحته بقصيدة قلت فيها .

إلى ابن عباد أبى القاسم الصا حب اسماعيل كافى الكفاة ....

---

(١) وإن كانت أداة ابن العميد فى النقد لم تدون فى كتاب خاص.
(٢) يتيمه الدهر للثعالبى جـ٣/ ٣٩ ، ٤٠

فلما انتهيت إلى قولى فيها :

ويشرب الجيش هنيئا بها

فقال : يا أبا الرجاء أمسك . فأمسكت فقال

ويشرب الجيش هنيئا بها من بعد ماء الرىّ ماء الصراة

هكذا هو ؟؟؟ فقلت نعم . قال أحسنت . قلت : يا مولاى أحسنت أنت ، علمت أنا هذا فى ليلة ، وأنت علمته فى لحظة (١) .

وارتقى به توجيهه للمعانى إلى درجة أرقى .هى قوة تمثل المعانى فنراه ينقلها سريعا ثم يخرجها فى أسلوبه الخاص. قال صاحب كتاب الوساطه : إن الصاحب يقسم لى من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر مما يتلقانى به فى سائر البلاد . وقد استعفيت يوما من فرط تحفيه بى وتواضعه لى فأنشدنى :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدّه من فعلك الحسن

فالعز مطلوب وملتمس وأعزه ما قيل فى الوطن

ثم قال لى : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية ، فقلت : لعل مولانا يريد قولى :

وشيدت مجدى بين قومى فلم أقل ألا ليت قومى يعلمون صنيعى

فقال ما أردت غيره (٢) .

ولعل هذه القصة تدلنا على ما بلغه الصاحب من استعداد طيب فى أخذ معانى الآخرين . وما نال من توفيق فى السرقات الشعرية بما لا يؤثر فى ذوقه وفنه .

ولما كان الصاحب موفور الحظ فى الذكاء والذوق وتمثل المعانى وتصريفها كان موفور الحظ فى النقد الأدبى لأن القدرة على النقد وليدة التذوق .

وقد وهب الصاحب المقدرة الفنية على النقد وهو فى غضون الشباب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره :

ولعل نقده للمسائل الأدبية الجزئية فى الرجال والكتب كان سبب ارتقائه إلى درجة نقد المسائل الكلية فى تاريخ الأدب ولا نكون مكثرين إذا قلنا إن الصاحب كان عارفا

---

(١) ارشاد الأريب لياقوت جـ٢/٣١٢ ، ٣١٣

(٢) اليتيمة للثعالبى جـ٣/١٩٨ ، ١٩٩ (ط. دار الفكر — بيروت ١٣٩٢هـ)

بمواطن القوة والضعف فى حياة الأدب العربى شعره ونثره ملما بتطوره . يقول اسحق الحصرى: قال أبو القاسم اسماعيل بن عباد الصاحب بدئ الشعر بملك وختم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبو فراس (١) .

ومما يكشف لنا عن مقدرته الفنية فى النقد ما حكاه صاحب مرآة الجنان نقلا عن ابن عساكر . قال . حكى لى من أثق به أن الصاحب بن عباد إذا انتهى إلى ذكر الباقلانى وابن فورك والأستاذ أبى اسحق الإسفراييني وكانوا متعاصرين ومن أصحاب الشيخ أبو الحسن الأشعرى قال : الباقلانى بحر مغرق وابن فورك جبل مطرق والإسفراييني نار محرق . قال الحافظ ابن عساكر وكأن روح القدس نفث فى روحه حيث أخبر عن هؤلاء الثلاثة بما هو حقيقة الحال فيهم (٢) . وذلك مما يدل على مقدرته فى نقد الرجال .

وكما كان حسن الإصابة فى نقد الرجال ، كان ناقدا قديرا للكتب متعمقا فى تدبرها ولم يكن يخفى عليه انتحال المنتحلين أو المغيرين على رسائله (٣) أو السارقين لمعانى شعره (٤) عارفا بطبيعة كل أقليم وأدبه . ويحدثنا التاريخ أنه سمع بكتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الأندلسى المتوفى عام ٣٢٩ هـ فحرص على اقتنائه حتى حصل عنده ، فلما تأمله قال قولته المشهورة : " هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شئ من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا لاحاجة لنا فيه (٥) وفى ذلك دليل على مقدرته فى نقد الكتب .

هذه نصوص ثابتة تدلنا بغير جدل على تطور حياة الصاحب الناقدة لذلك لا نعجب أن يكون الصاحب مجودا فى نقد الشعر ، موهوب القدرة على نقد حروف

---

(١) زهر الآداب للحصرى جـ١ / ١٢١ .
(٢) مرآة الجنان لليافعى جـ٢ / ٤٢٣ .
(٣) انظر المرجع السابق نفس الصحيفة .
(٤) انظر معجم الأدباء جـ٦ / ٢٨٣ .
(٥) انظر معجم الأدباء جـ١ / ٦٧ .

البيت الواحد جرسا وتآلفا كما كان يفعل ابن العميد ولعل ذلك أيضا راجع إلى دقة حسه فى تذوق تراكيب اللغة فيفرق بين صحيحها وسقيمها وبين غثها وثمينها ، ودعنى أسوق إليك مثالا على دقة حسه الفنى فى تذوق تراكيب اللغة ، ذلك هو إعجابه بـ"واو" الوصل التى تأتى بين النفى والدعاء كقولك " لا وعافاك الله" فكان يقول عنها : " هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ فى خدود المرد الملاح" .

هذه شخصية الصاحب الناقد . فهل استطاع أن يبرز معالم شخصيته فى كتابه " الكشف عن مساوئ شعر المتنبى "؟؟؟

نقد الأدباء فى القرن الرابع

ارتقى النقد فى القرن الرابع تبعا لارتقاء الحياة العقلية . وأصبح شاغل علماء البديع أن يوازنوا بين شاعر وشاعر ، أو يفضلوا شاعرا على شاعر أو يتعصبوا لأحدهم على الآخر ، فعنوا عناية خاصة بمدارسة الشعر وتقدير رجاله وتخاصموا فيهم . فترى هذا ينتصر لأبى تمام ، وذاك للبحترى ، وهؤلاء ينقصون من قدر المتنبى ويرمونه بالتعقيد والالتواء ، واولئك يرفعون من مقداره وينسبون إليه كل فضيلة فى الشعر .

وقد غمرت بأحاديثهم مجالس الأدب ، ومنتديات الشعر ، وصارت كتبهم ومقالاتهم فى كل بقاع الأرض .

وما زال النقد الأدبى يأخذ طريقه صعدا إلى الأمام حتى أصبح صناعة النابهين من رجال الأدب . وتميز نقدهم باستقصاء البحث وشمول الفكر وتوضيح العلل والاهتمام والعناية بدراسة الشعراء والموازنة بينهم .

ونبغ من بين هؤلاء النقاد جماعة مشهورون كأبى الفرج الأصفهانى ، وأبى بكر الصولى ، وأبى الفضل ابن العميد ، وأبى الحسن الآمدى ، والقاضى على بن عبد العزيز ، وأبى على الحاتمى ، وأبو هلال العسكرى ، والصاحب بن عباد (١) .

وفى أواسط هذا القرن ظهر المتنبى وملأ الدنيا بشعره ، وشغل الناس كما يقول ابن رشيق (٢) . وتعصب له فريق من الأدباء وغض من شأنه فريق آخر . واختصموا فى شعره وقطعوا الأزمان المتواصلة فى تحديد أغراضه .

وفى هذه الاثناء دعاه الصاحب بن عباد لزيارته ولكن المتنبى لم يقم لهذه الدعوة وزنا ، ولم يجبه عن كتابه ، فحز ذلك فى نفس الصاحب وآلم كبرياءه وصيره غرضا

---

(١) انظر أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص ٢٤٢ .
(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ / ٢٢ .

يرشقه بسهام الوقيعة ، يتتبع عليه سقطاته فى شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته (١) وألف رسالته " الكشف عن مساوئ شعر المتنبى " وقد أقامها على ثلبه والغض منه . وبينما كان ابن عباد يقلل ويغض من شأن المتنبى كان أبو الفتح بن جنى من ناحية أخرى يرفع من قدره ويشيد بشعره ، وأصبح لكل من المتنبى والصاحب أشياع وأتباع .

وفى هذا المعترك ألف القاضى على عبد العزيز الجرجانى كتابه " الوساطة بين المتنبى وخصومه " وقف فيه موقفا وسطا محاولا التوفيق بين الفريقين وأخذ المنهج النقدى فى أواخر القرن الرابع يتسع وتكبر دائرته . فلم يعد النقاد يقصرون جهودهم على دراسة الشعراء ، والتعليق على آثارهم بل تعدوا ذلك إلى نقد الكتاب .

وظهرت محاولات جديدة وموازنات بين الكتاب ، فنرى النقاد يوازنون بين البديع والخوارزمى وبين عبد الحميد الكاتب وابن المقفع ، وبين الصاحب بن عباد وأبى اسحق الصابى ، وبين الصولى وابن الزيات (٢) وغير هؤلاء من الكتاب .

ولعل أبرز ما حدث من تطور بعد ذلك الخصومات الأدبية كالخصومات التى وقعت بين الخوارزمى وبديع الزمان ، وبين الصاحب وأبى حيان .
ومما يؤسف حقا أن يضيع ويفقد جل ما كتب فى الكتاب ، اللهم إلا ما خلفه أبو منصور الثعالبى فى كتابه يتيمة الدهر ، وقد كان رئيس مدرسة البديع ، وشيخ مؤرخى الأدب والنقد فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس .

وهكذا ـ راجت سوق النقد الأدبى فى هذا القرن ، وكثر النقاد الذين حملوا لواء هذا الفن ... فرسان ذلك الميدان .

---

(١) انظر الصبح المنبى عن حيثية المتنبى تحقيق مصطفى السقا ، ومحمد شتابى ١٤٥ ، ١٤٦ (ط . دار المعارف سنة ١٩٦٣م) .
(٢) أصول النقد الأدبى لأحمد الشايب ص ٢٥٥ .

وحلل النقاد أشعار القدماء والمحدثين وأوردوا كثيرا من محاسنهم وعيوبهم ، وأبانوا ما شاع فيها من غموض وتعقيد وأخذ وسرقة ، وأشعار حسنة أو رديئة . كما تعرضوا للبيئة وآثارها فى الشعر ، والبداوة وما تحدثه من خشونة فى الطباع ، والحضارة وما ينتج عنها من رقة وسهولة . وذلك منتهى ما وصل إليه النقاد اليوم ، ومبلغ ما أتوا إليه من أحكام فى كتب النقد الأدبى الحديث .

وبهذا — كما رأيت — كان القرن الرابع قرن تحول وتطور سريع فى النقد الأدبى .

فلننظر إلى أى حد أثرت هذه البيئة الزمانية والمكانية فى شخصية النقاد وفى طريقتهم فى النقد الأدبى .

" بين الصاحب والمتنبي "

حفل القرن الرابع بضجيج المتنبي وتحامل الصاحب بن عباد حتى لكأنهما زعيمان يتنازعان بين الناس المجد والشهرة ، وإن كان أحدهما شاعرا متفننا والآخر كاتبا مترسلا .

وحينما عاد المتنبي من رحلته الطويلة في مصر متجها نحو مدينة السلام ، وهو يقيم الدنيا ويقعدها بشعره لابسا ثوب الكبر وملتفا برداء الغرور ، والشعراء من حوله مذعنون لتفوقه ، معجبون بفنه غاية الإعجاب كان الصاحب وقتئذ كاتم سر مؤيد الدولة ، وما زال غضا في ثورة الشباب والحداثه ، طموحا لمعالي الأمور .

فطمع الصاحب في زيارة المتنبي إياه بأصفهان ليحظى منه بالمدح والثناء . فكتب إليه يدعوه متلطفا ، ويرغبه في زيارته ، ويضمن له مشاطرته جميع ما له . فلم يعبه المتنبي اهتمام ، ولم يعرج عليه ، وتعاظم عن مدحه (١) . وقد كان يمدح الملوك والوزراء وعمال الأقاليم ومن هم أعظم من الصاحب أودونه ، فصنف فيه الصاحب كتابه " الكشف عن مساوئ شعر المتنبي " .

والراجح من القرائن التاريخية أن دعوة الصاحب للمتنبي كانت سابقة لزيارة المتنبي لابن العميد . ولعلها كانت بعد عودة المتنبي إلى بغداد في غضون سنة ٣٥٢ هـ (٢) .

وإذا كان المتنبي توفي سنة ٣٥٤ هـ وأن زيارته لابن العميد كانت قبيل دعوة عضد الدولة وأن زيارته ووفاته وقعتا عام ٣٥٤ هـ فلا يعقل أن تكون دعوة الصاحب عقب هذه الحوادث أو خلالها ، ويرجح أنها كانت حوالي عام ٣٥٢ هـ قبل

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ص١٤٦ (ط. دار المعارف ١٩٦٣) .
(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ٢ / ٥٠٢

زيارته ابن العميد وزيارة عضد الدولة حين كان المتنبى مقيما ببغداد بعد رحلته الطويلة بمصر . وكان الصاحب كاتم سر مؤيد الدولة والوزراء والكتاب فى بغداد والرى يخطبون ود المتنبى .

وإذا كانت دعوة الصاحب للمتنبى سبقت زيارة المتنبى لابن العميد فهل كان كتابه الذى وضعه عام ٣٥٢ هـ فى نقد المتنبى أول هذه الكتب التى سجلها تاريخ الأدب فى نقد المتنبى . أم أن هناك كتبا أخرى سبقت الصاحب فى نقده ؟؟؟ .

والقرائن التاريخية وحدها هى التى تستطيع الإجابة عن هذا السؤال وإن كانت الأحداث التاريخية لا تصرح به .

وما يعيننا على الإجابة عن هذا السؤال أخبار المتنبى فى الفترة الأخيرة من حياته التى قضاها فى بغداد عام ٣٥٢ هـ وما بعدها ، ولعلها تكشف لنا شيئا من هذا السر

يقول ياقوت : إن الوزير المهلبى فى بغداد دعا المتنبى فى نفس هذا العام وطلب منه أن يمدحه . كما يحدثنا الحسن بن ابراهيم بن هلال الصابى أن والده أبا اسحق الصابى ـ معاصر الصاحب وأحد أترابه ـ دعا المتنبى إليه ووعده إن هو مدحه بقصيدتين أن يعطيه خمسة آلاف درهم ، فإمتنع المتنبى متعللا (١) .

فاحتد هؤلاء الكتاب على المتنبى يهجونه ويسفهونه وينقصونه فى عقله وعرضه ، ولكن المتنبى لم يبال بهم ولا بهجائهم ولم يجبهم ، ولم يفكر فيهم ، فقيل له فى ذلك فقال : إنى فرغت من إجابتهم بقولى لمن هو أرفع طبقة فى الشعر منهم .

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعرٌ ... ضعيفٌ يقاوينى قصيرٌ يطاولُ
لسانى بنطق صامت عنه عادلٌ ... وقلبى بصمتى ضاحكٌ منه هازلُ

---

(١) معجم الأدباء جـ١ / ٣٤٦ .

وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبعى فيهم غير أننى بغيض إلىّ الجاهلُ المتغافل (١)

وقولى :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى فاضل (٢)

وكان من بين الذين أغروا على نقد المتنبى أبو على محمد بن الحسن الحاتمى ، وكان الحاتمى هذا يعاصر الصاحب وإن كان التاريخ لا يحدثنا بشئ عن إتصال الحاتمى بالصاحب . وقد أخبرنا التاريخ الأدبى أن للحاتمى كتابا فى نقد المتنبى والحملة عليه يسمى " الموضحة فى مساوئ المتنبى " فأى الكتابين أسبق فى تاريخ النقد الأدبى ؟

لا شك أن الحاتمى بدأ كتابه السابق فى نقد المتنبى بعد أن ضجر الشعراء بالمتنبى ، وضاقوا بكبريائه . وبعد الحملة التى قام بها كتاب بغداد على المتنبى يهجونه ويسفهونه ولا سيما الوزير المهلبى وبعض ساداتها .
وكأن الحاتمى وضع كتابه المذكور بعد أن رأى ما رأى من كبرياء المتنبى على كُتاب بغداد والرى وإليك قول الحاتمى نفسه دليلا على صحة هذا الرأى الذى نرجحه يقول : كان أبو الطيب المتنبى عند وروده مدينة السلام " بغداد " التحف رداء الكبر وأزاد ذيول التيه ، وصعر خده ونأى بجانبه ... رافلا من التيه فى برديه يخيَّل إليه أن العلم مقصور عليه وأن الشعر بحر لم يغترف من مائه غيره ... (٣) .

فهذه الرواية تدلنا دلالة قاطعة على أن الحاتمى قبل أن يبدأ فى تصنيف كتابه فى نقد المتنبى تبرم لنفسه وللناس من صلف المتنبى وكبريائه . وقد زاد حنقه حين رأى أبا محمد المهلبى الوزير العباسى البويهى المشهور ببغداد لم يستطع كبح جماحه ولا تقويم أوده يقول الحاتمى فى موضع آخر :

---

(١) انظر الصبح المنبى ص١٤٣ ، ١٤٤ والأبيات من قصيدة يمدح بها سيف الدولة
(٢) المرجع السابق نفس الصحيفة .
(٣) معجم الأدباء جـ١٨ / ١٥٩

فطأطأ كثير منهم رأسه وخفض جناحه ... وتخيل أبو محمد المهلبي أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومحاورته ... فعند ذلك بدأ حملته عليه وتوجه حيث يقيم المتنبي على مقربة من بغداد حيث قال : " حتى إذا لم أجد ذلك قصدت موضعه الذى كان يحله فى ريض جيد فوافق مسيرى إليه حضور جماعة تقرأ شيئا من شعره ..(١) فلما أعرض المتنبي عنه بدأ فى ملاحاته قائلا :

" قلت أنا بخير لولا ما جنيت على نفس من قصدك ، وكلفت قدمى فى المسير إلى مثلك . ثم انحدرت عليه انحدار السيل إلى القرار ، وقلت له : أبن لى — عافاك الله — ما الذى يوجب ما أنت عليه من العظمة والكبرياء ، وما الذى يوجب ما أنت عليه من التجبر والتنمر ؟ هل هناك نسب فى الأبطح تبحبحت فى بحبوحة الشرف وفرعت إلى سماء المجد به ، أم علم أصبحت علما يقع الإيمان إليك فيه ؟ ، هل أنت إلا وتد بقاع فى شر البقاع وجفاء سيل دفاع ... وإنى أرى جمجمة ولا أرى طحنا (٢) . "

وتبدو لنا روح الناقد المزوجة بالحقد والغضب ، وحين انتهى من ملاحاته بدأ فى نقد بعض أبياته فى نفس الجلسة (٣) وقد كان نقدا طويلا لاشك أنه أعده ودرسه قبل أن يذهب إليه . ولا شك أنه قضى عقب ذلك فترة من الزمن قبل أن يجمع هذا النقد فى كتابه " الموضحة فى مساوئ شعر المتنبى " .

ونستطيع بدراستنا لقصة الحاتمى التى اسلفتها أن نستنتج أى الكتابين صنف قبل الآخر ، وإن كان التاريخ الأدبى لا يصرح بذلك ، ولا يذكره فى موضع . فالشئ الذى لا نستطيع انكاره أن دعوتى الصاحب والوزير المهلبى كانتا سابقتين على زيارة الحاتمى له .

وإذا كان كتاب الصاحب أول كتاب مفرد وضع فى نقد المتنبى ، وإن كنا لا نستطيع أن نحكم أنه أول كتاب مفرد وضع فى تاريخ النقد الأدبى له ، كما لا نستطيع أن نحكم

---

(١) معجم الأدباء جـ١٨ / ١٦١

(٢) المرجع السابق جـ١٨ / ١٦٢

(٣) انظر معجم الأدباء جـ١٨ / ١٦٤ إلى ١٧٩ ، تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى ، د . / زغلول سلام ص ٢٧٤

أن كتاب الصاحب سابق على كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى أو لاحق له ، لأن التاريخ لم يثبت ذلك أو يشير إليه ، كما أنه لا يوجد لدينا قرائن تعيننا على ترجيح سبق أحدهما على الآخر . وإن كان الآمدى نفسه يقرر أنه قرأ كتبه على الرئيس ابن العميد الذى توفى سنة ٣٦٠ هـ (١) .

ولكن لم يذكر الآمدى أنه قرأ كتاب الموازنة على ابن العميد كما لم يذكر متى ألفه ولم يترك لنا أى قرينة تدل على ذلك . وما يدرينا فلعله إنتهى من هذا الكتاب متأخرا ، ولعله ألفه بعد وفاة ابن العميد ، ولو أنه ألفه قبل سنة ٣٦٠هـ لجاز أن يقرأه عليه لأهمية هذا الكتاب على غيره . فيكون كتاب الموازنة بالاستنباط العلمى التاريخى — صنف بعد سنة ٣٦٠ هـ .

وقد يكون هذا الاستنباط صحيحا ، ولو ثبت بقرينة نقلية فى المستقبل لاعتبرنا كتاب الكشف عن مساوئ شعر المتنبى للصاحب بن عباد أول كتاب مفرد ألف فى تاريخ النقد الأدبى كله .

فائدة الصاحب والمتنبى من هذا النقد

كان لهذا الحدث أثر كبير فى تخليد الصاحب والمتنبى . فقد ربح الصاحب ربحا عظيما بإغفال المتنبى له ما كان يتاح له لو أنه مدحه وأثنى عليه من بين هذا العدد الكثير الذين مدحهم وأثنى عليهم . لأن كبرياء وترفع المتنبى كان سببا فى تفتح عينى الصاحب إلى معرفة مواضع الخطأ ووجوه النقص ومواطن الزلل فى عدوه الذى تعالى وترفع عن مدحه . فتوقد ذهنه وهو لا يزال فتى فى شرخ الشباب لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، فشغف بحب البحث والتقصى ومعرفة مثالب معاصريه ونقائصهم فكان ناقدا ناجحا .

---

(١) انظر معجم الأدباء جـ٨/٧٧ (ط. دار المأمون) .

وفى نفس الوقت الذى أفاد منه الصاحب بإغفال المتنبى فتح المتنبى على نفسه باب النقد والتجريح وكان سبق الصاحب إلى هذا الباب سببا فى جرأة النقاد عليه. فانقسم الأدباء والنقاد من أجل الصاحب والمتنبى شطرين . شطر يتعصب للصاحب على المتنبى وشطر يتعصب للمتنبى على الصاحب.

لقد أدى اغفال المتنبى للصاحب وأقرانه من أعلام الكتاب فى القرن الرابع نتيجة عكسية كانت لأسباب نفسية ما كان المتنبى يحسب لها حسابا فانضم إلى ابن عباد أشياعه وأصدقاؤه ، ورجال حاشيته وكتابا وشعراء متعصبين له على المتنبى ، وقد انضم إلى لواء ابن عباد كل من كان يبغض المتنبى وفى نفسه منه شئ ومن هنا ذاع أمر الصاحب وانتشر ذكره وظهر اسمه وعظمت مكانته فى النقد الأدبى .

وانحاز إلى الصاحب أبو بكر الخوارزمى وأبو هلال العسكرى والشريف الرضى وعبد الله الأصفهانى وأبو منصور الثعالبى وقد كانوا من معاصريه ثم انضم إليهم آخرون من النقاد والشراح لديوان المتنبى على اختلاف عصورهم .

ولعل أول من نقد المتنبى بعد الصاحب بزمن قليل هو أبو على محمد الحاتمى (١) المذكور آنفا ـ وأبو اسحق ابراهيم بن على الفارسى (٢) وحين اتصل أبو بكر الخوارزمى بالصاحب قبيل عام ٣٧٣ هـ اندفع فى نقد المتنبى فنراه يضع فيه رسالة قال فيها : "... ولو رأى الطمع فى جحر فأر لدخله ، ولو أتاه الدرهم من استكلب لما غسله ، فلا جرم أن الناس كلما استحسنوا قوله استقبحوا فعله ، وكما أعجبوا بشعره تعجبوا من غدره ، يشكر ثم يشكو ، ويمدح ثم يهجو ، ويشهد ثم يجرح شهادته ، ويعطى ثم يسترجع عطيته ، فكم من حر فضله ثم ثلبه ، وكم من عرض كساه ثم سلبه ، وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها (٣)".

ويجئ عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى فيؤلف كتابه إيضاح المشكل من شعر المتنبى ليهديه لبهاء الدولة البويهى وفيه يؤثر هجاء المتنبى وتسفيهه على

---

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت جـ١٨ / ١٥٦
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٥
(٣) رسائل الخوارزمى ص ٦

اطرائه والإعجاب به فيقول : " وأما الحكم عليه وعلى شعره فهو سريع الهجوم على المعانى ، ونعت الخيل والحرب من خصائصه ... يقبل الساقط الرديء كما يقبل النادر البديع ، وفى متن شعره وهى ، وفى ألفاظه تعقيد وتعريض(١) " .

كما أنضم أبو هلال العسكرى إلى لواء الصاحب ولكنه — وهو الناقد الحصيف والبلاغى الكبير — لايتجه اتجاه الخوارزمى بل ينقد المتنبى نقدا فنيا فيتحامل عليه فى كتاب الصناعتين مبرزا عيوبه ناظرا إليه من طرف خفى كأنه يستهين به ويحتقره حتى أنه أنف من التعرض للقبه أو ذكر اسمه . وكلما اعترضه معنى جميل تعمد أن يقارنه ببيت سخيف من شعر المتنبى (٢) فعرض به فى باب الكناية والتعريض وفى باب الترشيح وباب الترصيع.

ثم كان الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ وهو أكبر أصدقاء الصاحب من الشعراء ، لذلك لا نعجب حين يتعصب له ضد المتنبى . ويروى لنا ياقوت ما وقع بينه وبين أبى العلاء المعرى ببغداد من أجل أبى الطيب والصاحب بن عباد . قال : " وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبى ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن جاء بعده مثل أبى نواس وأبى تمام وكان المرتضى يبغض المتنبى ويتعصب عليه ..... (٣) .

ووضع أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى المتوفى عام ٤٤٣ هـ كتابه الإبانة عن سرقات المتنبى لفظا ومعنى قال فيه متعصبا عليه : " ولقد تأملت أشعاره كلها فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه وتعتبر فيها آدابه ، من أشعار المتقدمين مسروقة ومعانيها من معانيهم مسلوخة (٤) ويمثل أبو منصور الثعالبى وهو زعيم من زعماء أدباء العربية نفس الدور . فقد عد من سقطات المتنبى ومساوئه تسعة عشر عيبا

---

(١) ايضاح المشكل — وذكرى أبى الطيب بعد ألف عام لعزام ص ٣٦١
(٢) كتاب الصناعتين للعسكرى ص ٩٣
(٣) معجم الأدباء لياقوت وذكرى ابى الطيب لعزام ص ٣٦٧
(٤) الإبانة عن سرقات المتنبى ، وذكرى أبى الطيب ص ٣٦٨

منهـا استعمـال الغريـب ، والوحشى وإتباع الفقـرة الغـراء بالكلمـة العوراء ، والإغراب وافتعال ألفاظ المتصوفـة .... (١) .

وجمع الثعالبى مثالـب المتنبى فى كتـاب خاص سمـاه " أبو الطيب المتنبى ماله وما عليـه "

وهكـذا تعصب أكثر النقـاد والأدباء للصاحب بن عباد على المتنبى ودخلوا فيما دخـل فيـه الذين ذكروا مساوئه . وقـد كان هناك جماعـة آخرون تعصبـوا للصاحب ضد المتنبى ولكنهم لم يبلغـوا شأو مـن تقدمهـم ، منهم : أبو الحسـن على النحوى المعروف بابـن سيـدة المتوفـى عام ٤٥٨هـ ، والخطيب التبريـزى المتوفـى عام ٥٠٢هـ ، وأبو بكـر عـز الدين الزمزمـى المتوفـى عام ٩٩٣ هـ وفى الوقـت الذى كان فيـه أكثر النقـاد يتعصبـون للصاحـب كان هناك جماعـة يبالغـون فى الإعجـاب بالمتنبى وشعـره ويتعصبـون لـه ، ولعـل أبـا الفتـح بن جنى كان زعيم هذه المدرسـة التى أعجبت بأبى الطيب . وقـد كان ابـن جنى أول من شـرح ديوانـه وقرأه على المتنبى نفسـه (٢) .

وتوسـط عبد العزيـز الجرجانى المتوفـى عام ٣٦٦هـ بـين المتنبى وخصومـه ووضـع كتابـه الوساطة بـين المتنبى وخصومـه . وتعصـب للمتنبى جماعـة آخرون منهـم : ابـن شرف القيروانى المتوفـى عام ٤٦٠ هـ ، وابـن رشيـق القيروانى المتوفـى عـام ٤٦٣ هـ ، وأبو الحسن بن أحمد الواحـدى المتوفـى عام ٤٦٨ هـ ، وأبو العلاء أحمـد المعرى المتوفـى عام ٤٧٤ هـ ، عبد الله بن عبد الله العكبرى المتوفـى عام ٦١٦هـ ، وضيـاء الدين بن الأثـير الجزرى المتوفـى عـام ١٠٣٢ هـ وغيرهـم .

هـذه أحكامنا فيمـا أحدثـه الخلاف بين الصاحـب والمتنبى من ضجـة أدبيـة كـان لها صداهـا القوى فى عصرهـا وفـى القـرون المتعاقبـة .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ١ / ١١٦ ـ ١٤٧ " طـ الصاوى ١٩٣٤ "

(٢) انظر شرح ديوان المتنبى لابن جنى ص ٢٣

" كتاب الكشف عن مساوئ شعر المتنبى للصاحب"

بدأ الصاحب رسالته فى الكشف عن مساوئ شعر المتنبى داعيا إلى أصول النقد النزيه ، وترك التعصب فى الأحكام . فقال : " أما بعد — أطال الله مدتك ، وأدام فى العلوم رغبتك — فالهوى مركبٌ يهوى بصاحبه ، وظهر يعير براكبه ، وليس من الحزم أن يزرى العالم على نفسه بالعصبية " إلى أن قال منزها نفسه عن كل تعصب لا يليق ويتفق بمقام الناقد الفذ " . . . فالناس مع اختلافهم وتباين أصنافهم — متفقون على أن تغلب الأهواء يطمس أعين الآراء ، وأن الميل عن الحق يبهم سبيل الصدق (١) " وما كاد الصاحب ينتهى من حديثه عن شخصية الناقد الأديب ، وما يجب أن يتحلى به من ترك التعصب الذى لا يليق بجهابذه النقاد ، وأن يكون متحليا بالنزاهة فى أحكامه . حتى اعتذر لنفسه فى تأليف هذه الرسالة وقد أوضح وأبان أن دوافع تأليفها كانت لمؤثرات خارجية قاهرة ، ولم تكن منبعثة عن نفسه الكبيرة العالية التى تترفع عن التعرض للقبائح فنراه يقول :

" وكنت ذاكرت بعض من يتوسم الأدب فى الأشعار وقائليها ، والمجودين فيها ، فسألنى عن المتنبى فقلت : إنه بعيد المرمى فى شعره ، كثير الإصابة فى نظمه ، إلا أنه ربما يأتى بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء . فرأيته قد هاج وانزعج وحمى وتأجج ، وادعى أن شعره مستمر النظام ، متناسب الأقسام . ولم يعرض حتى تحدانى فقال : إن كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره ، وقيّده بالخط ما تذكره لتتصفحه العيون وتسبكه العقول . ففعلت (٢) . "

ويبنى الرسالة على طلب من واحد الأعوان أو الإخوان ليبسط له القول فى الشاعر وشعره ، ولعل قول القائل الذى تحداه : " فأثبت فى ورقه ما تنكره . . . الخ يؤيد ما ذهبنا إليه من أن نقد المتنبى لم يدون قبل ابن عباد فى صحيفة ، وأن الصاحب هو — بحق أول من وضع كتابا مفردا فى نقد المتنبى .

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ص٢٩
(مكتبة النهضه بغداد) .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠

ونـراه فى هذه الأسطر السابقة يكشف لنا عن نفسه الحـرة الأبيـة ، وأنه ما قصد الثلب وأنه أراد أن ينقـد نقدا نزيهـا ليقنـع صاحبه ويواجهه برأيه ويبين لـه أن المتنبى ليـس معصوما من الخطأ والزلل ، كما يزعم المتعصبـون لـه .

وهذا موضـوع يجب أن نشير إليه ، ذلك أن الصاحـب فى هذا الكتاب قدم إلينـا رسالتـين خطيرتـين .

الأولـى :ـ

أنـه كشف لنا عن شـىء من عيوب المتنبى ومثالبه الفنيـة ، وما كان يخالـج ويدور فى نفـوس النقـاد نحوه وإن لـم يتفوهـوا بـه .

الثانيـة :ـ

أعظـم مكانا من الأولى ، وذلك أن المتنبى كان قوى السلطـان بين أدباء ذلـك العصر ولم يجـرؤ أحد قبل الصاحب على نقـده وتتبع أغاليطـه وعيوبـه الفنيـة أو ثلبه ، فكان وضع الصاحب بن عباد حين عمل هـذا الكتاب عـملا محمودا لا يدركه إلا الراسخـون فى النقد ، ويكفى أن الصاحب فتـح فى تاريخ النقد الأدبـى بابا خطيرا كاد أن يكون مغلقا فى القرن الرابـع لولا جرأته على فتحـه . وهو بـاب خطير حقـا لأنه نقـد شاعر عظـيم كان الناس يعدون شعره قرآنا يتلى لجرسـه القوى وجودته وجمـال سبكـه .

فكان عمل الصاحب عمل الناقد الحر الذى يستطيع أن يبـين ويتحدث عما فى نفسـه ، وأن يسجل للنقاد أساسا فى النقـد والجرأة الأدبيـة معا ، ليتسنى لهم الاقتـداء والاهتـداء بـه مـن بعـده .

وبعـد أن انتهى الصاحب من حديثه عن دوافـع هذا النقد ، أخذ ينـدد بضعفاء النقاد الذين ادعوا معرفة الشعر ونقده وهم أجهل الناس بالنقد فقـال : " وقد بلينا بزمان . زمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب ، ومنينـا بأعيـار أغمـار اغتروا بمسامح الجهال ، لا يضرعـون لمن حلب العلـم أفاويقـه والدهر أشطره ، لاسيما علم الشعر ، فإنه فويق الثريا وهم دون الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفون فإذا حكموا رأيت

بهائم مرسلة ونعائم مجفلة (١) .

ثم يتحدث عن نفسه فيقول : " وها أنا ذا منذ عشرين سنة أجالس الكبراء وأباحث العلماء وأكاثر الأدباء وأجارى الشعراء ، بالجبال تارة وبالعراق مرة أخرى ، وآخذ من رواة محمد بن يزيد المبرد ، وأكتب عن أصحاب أحمد بن يحيى ثعلب ..... (٢) "

كما نراه يفخر بتلمذته لأبي الفضل بن العميد ويعتبره شيخ المجودين فى نقد الشعر ، ومنبع غزير من العلم والمعرفة وسعة الاطلاع فيقول :
" فما رأيت من يعرف الشعر حق معرفته ، وينقده نقد جهابذته ، غير الأستاذ الرئيس أبي الفضل بن العميد ، أدام الله أيامه ، وحصن لديه أنعامه ، فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن . وعن مجلسه — أعلاه الله — أخذت ما أتعاطى من هذا الفن ، وبأطراف كلامه تعلقت فيما أتحلى به من هذا الجنس (٣) .

ويسير الصاحب على هذا النمط مفاخرا بأستاذه مقدما إياه على نفسه فى صناعة النقد ، وعلمه بالشعر وغرضه على معانيه ومراميه . فلما انتهى من الثناء على أستاذه بالذى هو أهله ، نراه يرد أخبارا يصح أن نعدها من مقدمات تاريخ النقد الأدبى العربى عند جمهور القدماء .

كما استشهد على مقدرة أستاذه شارحا نواحى فضائله فى النقد ، وذكائه الفذ فى تقليب وجوه الرأى واستخراج المعنى وما أفاده منه جلساءه .

ونحس ذلك عندما نقرأ مقدمة الرسالة فنرى الصاحب يعتز بأستاذه وبجالسه الأدبية ، كما نلمس إعجابه الشديد به ، وإخلاصه له ، وما كان له من فضل فى تخريجه وتعهده حتى سيره فذا فى هذه الصناعة .

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص٣٠ ، ٣١
(٢) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص٣١
(٣) المرجع السابق نفس الصحيفة .

ويتضح لنا فى هذه الأمثال دقة ابن العميد وما كان يتمتع به من ذوق شديد سيطر على إحساس الصاحب فأحاله مثله ذوقا ونقدا .

ولعل أحسن ما يستحق الوقوف من هذه الشواهد قول الصاحب:

أنشدت يوما بحضرته كلمة أبى تمام التى أولها :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى وسحت كما سحت وشائع من برد

حتى انتهيت إلى قوله :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى ومتى مالمته لمته وحدى

فقال لى : هل تعرف فى هذا البيت عيبا ؟ فقلت : بلى ، قابل المدح باللوم فلم يوف التطبيق حقه ، إذ حق المدح أن يقابل بالهجو أو الذم ، على أنه قد روى :

... ... ومتى ما ذمته ذمته وحدى

فقال — أيده الله — غير هذا أردت ، فقلت : ما أعرف ، قال : إعلم أن أحد ما يحتاج إليه فى الشعر سلامة حروف اللفظ من الثقل ، وهذا التكرير فى "أمدحه أمدحه" مع الجمع بين الحاء والهاء مرتين — وهما من حروف الحلق — خارج عن حد الاعتدال نافر كل النفار (١) وهذا ما لا يدركه ولا يعلمه إلا من انقادت وجوه العلم له ، وأنهضه إلى ذراها طبعه .

كما لم يعجبه قول مادحه فى يوم نوروز فى مطلع القصيدة :

" أقبرٌ وما طلّت يداك يدُ الطلّ "

لأنه من الاستهلال القبيح الذى يبعث فى النفس التشاؤم . وكان يقول فى الشعر " إن أول ما يحتاج إليه فيه حسن المطالع والمقاطع.

وكذلك تنكر ابن العميد من قول ابن مقاتل فى مدح الداعى الحسن بن زيد بن محمد :

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة الداعى ويوم المهرجان

ونفر من قوله : " لا تقل بشرى " أشد نفار ، وقال أعمى ويبتدئ بمثل هذا فى يوم مهرجان (٢)

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص٣٤، ٣٥

(٢) المرجع السابق ص٤٠

فمقدرة الصاحب فى النقد الأدبى قبس من ابن العميد ، وشعاع من مجالسه النقدية ، وهى تدور حول الإحساس الذوقى الذى تلقاه عن أستاذه ، وأنت حين تقرأ رسالته تحس بهذه الروح التى فصلتها بين يديك . ونحس أننا نقرأ نقد أديب متذوق أكثر مما نحس أننا أمام ناقد متفلسف .

وإذا استقرأنا رسالة الصاحب ، واستوعبنا كل ما فيها من نقد يمكننا أن نقسم ما فيها من وجوه الاعتراض التى وجهها نحو المتنبى إلى الاقسام الآتية :

الأول :

بدأ الصاحب نقده بكلمته عن السرقات مبينا ما يستحسن منها وما يستقبح فقال : " فأما السرقة فما يعاب بها ، لاتفاق شعراء الجاهلية والإسلام عليها ، ولكن يعاب أنه كان يأخذ من الشعراء المحدثين كالبحترى وغيره جل المعانى ثم يقول : لا أعرفهم ولم أسمع بهم ، ثم ينشد أشعارهم فيقول : هذا شعر عليه أثر التوليد "(١) فهو يرى أن الغوص على معانى شعراء الجاهلية والإسلام لا يعد من السرقات بخلاف من يسرق من معانى المحدثين كالبحترى . وهذه العبارة التى قالها الصاحب فى السرقات لا تزال مادة غد دستور النقاد إلى اليوم . وحبذا لو سار الصاحب على هذه الطريقة فى نقده لأخرج لنا كتابا فى النقد لا يقتصر على نقد شخص معين .

وهو لم يستشهد على رداءة المتنبى فى السرقات الشعرية إلا حين قارب آخر الرسالة حيث قال :

" وبلغنى أنه كان إذا أنشد شعر أبى تمام قال : هذا نسج مهلهل وشعر مولد ، وما أعرف طائيكم هذا . وهو دائب يسرق منه ويأخذ عنه ، ثم يخرج ما يسرقه فى أقبح معرض كخريدة ألبست عباءة ، وعروس جليت فى مسوح ، ولو آتى على أفراد سرقاته لطال ذلك ، لكنه تعرض فى هذا المكان على اختصار ولولا خوف تضييع الأوقات لأطلت فى هذا المكان (٢) . "

---

(١) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى ص٤٢

(٢) المرجع السابق ص٦٤ ، ٦٥

الثانـــى :

رماه بالتعقيد ، وقال إنه يذهب فى التعقيد مذاهب لو سمعها الصوفية لتبرءوا منها مع اشتهارهم بالتعقيد وصبرهم على المعانى الباطنية وجعل من ذلك قوله :

نحن مَنْ ضايق الزمان له فيـ ـك وخانته قربَكَ الأيـام

ويرى أن قوله " له فيك " لو وقع فى عبارات الجُنَيْد أو الشبلى لتنازعته الصوفية دهرا طويلا (١) . كما يصف هذا البيت بأن رقية العقرب أقرب إلى الأفهام منه وكذلك أتى الصاحب بقوله :

وللتَّرْكُ للإحسان خير لمحسنٍ إذا جعل الإحسان غير رقيب

ثم قال : ذلك من تعقيده الذى لا يشق غباره ولا تدرك آثاره (٢) .

الثالـــث :

ومما أخذه عليه تفاصحه بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، حتى (كأنه وليد خباء وغذىٌّ لبن ، ولم يطأ الحضر ، ولم يعرف المدر) ، فمن ذلك قوله يرثى طفلا : (٣)

أيغطمه التَّوْرابُ قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل

وما أدرى كيف عشق التوراب حتى جعله عوذة شعره ؟ وليس ذلك سائغا لمثله ، وهو وليد قرية ، ومعلم صبية .

ويقول الصاحب : (وما لم أقدِّره يلج سمعا أو يرد أذنا قوله :

جواب مسائلى ألـه نظيرٌ ولا لك فى سؤالك لا ألا لا

وقد سمعت بالفأفاء ولم أسمع باللألاء ، حتى رأيت هذا المتكلف المتعسف (٤)

الرابـــع :

كما عاب عليه تنافر الحروف كقوله :

عظمت فلما لم تكلم مهابة تواضعت وهو العُظم عظمٌ من العَظْم

وقال : فما أكثر عظام هذا البيت ، ولو وقع عليه أبو الكلاب بجميع كلابه وهى جائعة لكان لهم فيه قوت (٥)

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص ٤٥

(٢) نفس المرجع ص ٥١

(٣) نفس المرجع ص ٤٩

(٤) نفس المرجع ص ٥٨

(٥) نفس المرجع ص ٦٥

وقال فى موضع آخر: ومنها بيت قد حشا تضاعيفه بالضعف وهو :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف (١)

الخامس :

رماه بسقم الذوق وسوء التصوير فقال : (فأول حديث المتنبى أن لا دليل أدل على تفاوت الطبع من جمع الإحسان والإساءة فى بيت واحد كقوله : (٢)

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها .

وهذا كلام مستقيم لو لم يعقبه ويعاقبه بقوله :

وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه .

فيأخذ عليه تفاوت شعره بين الجيد والردئ ، ويصف هذا البيت بأن شطره الأول جيد ولكن شطره الثانى من أرذل ما يقع لصبيان الشعراء وولدان الأدباء .

وقال : (ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

بعيشك هل سلوت فإن قلبى وإن جانبت أرضك غيرُ سالى (٣)

فيتشوق إليها ، ويخطىء خطأ لم يسبق إليه ، وإنما يقول مثل ذلك من يرثى بعض أهله ، فأما استعماله إياه فى هذا الوضع فدال على ضعف البصر بمواقع الكلام .

السادس :

ومن مآخذه عليه سوء التوافق بين المقام والمقال فى قوله : (٤)

رواق العزّ فوقك مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكَ علىّ ابنكِ فى كمالِ

فوصف المرثية بهذه الصورة عنده — يدل على فساد الحس وسوء أدب النفس ، لأن لفظة " الاسبطرار " فى مراثى النساء تدل على الخذلان الصفيق . ثم يتعقب خذلاته فى معانى هذه القصيدة التى يقول إن أنصاره يعتبرونها من عيون شعره . وانتقده على قوله فيها :—

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص ٦٨
(٢) المرجع السابق ص ٤٤
(٣) نفس المرجع ص ٤٥
(٤) نفس المرجع ص ٤٦

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجنة المكفن بالجمال

يقول : وقد قال لى بعض من يغلو فيه : هذه استعارة ، فقلت : صدقت ولكنها استعارة حداد فى عرس (١) .

السابع :

أخذ يسفهه فى اصطناع الغريب المبهم . فقال : وله بيت لا أدرى أمدح المقول له أم رقاه وهو قوله .

شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرّ من تحته وصهيل (٢)

وقال فى موضع آخر : ومن مساءلته الطلول البالية ـ وكلامه أشد منها بلى وأكثر إخلاقا

أسائلها عن المتديِّريها فما تدرى ولا تُذرى دموعا

فإن لفظة " المتديريها " لو وقعت فى بحر صافٍ لكدرته ، ولو ألقى ثقلها على جبل سام لهدّه ، وليس لها فى المقت غاية ، ولا فى البرد نهاية (٣)

وقال ـ فى موضع ثالث ـ وقد دلنا على حفظه الغريب قوله :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغرّ دلائل (٤)

يريد بالجفخ البذخ والفخر ، وليس هذا بسائغ لمثله ، وهو ولد قرية ومعلم صبية .

الثامن

وأخذ عليه قوله : " ومن عيوب قصائده التى تحير الأفهام ، وتفوت الأوهام وتجمع من الحساب مالا يدرك بالأرتما طيقى ، ولا بالأعداد الموضوعة للموسيقى قوله :

أحاد أم سداس فى أحاد لُيَيْلَتَنُا المنوطةُ بالتنادى

وهذا كلام الحَكْل (٥) ورطانة الزطّ ، وما ظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحه فصكّ سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعانى المنهوذة (٦) .

---

(١) الكشف عن مساوىء شعر المتنبى ص ٤٧
(٢) المصدر السابق ص ٥٤
(٣) نفس المرجع ص ٦٣
(٤) نفس المرجع ص ٧٣
(٥) الحكل : الكلام الذى لا يفهم .
(٦) انظر الكشف عن مساوىء شعر المتنبى ص ٦٣ ، ٦٣ .

التاسع :

رماه باصطناع الركاكة فى المعنى فى مواضع فقال : (ومن أوابده التى لايسمع طوال الدهر مثلها قوله فى سيف الدولة :

لئن كان بعض الناس سيفا لدولة ففى الناس بوقاتٌ لها وطبول

وهذا التحاذق منه كنزل العجائز قبحا ، ودلال الشيوخ سماجة ، ولكن بقى أن يوجد من يسمع .. ، وفى هذه القصيدة يقول :

فإن تكن الدولات قِسماً فإنها لمن ورد الموت الزؤام تدولُ

فإن قوله : " الدولات " و " تدول " من الألفاظ التى لو رزق فضل السكوت عنها لجاء درا) (١) .

العاشر :

رماه فى مواضع أخرى بـ " فساد المعنى " قال : " ومن إسرافه الذى لا يصبر عنه قوله :

يا من يُقَتِّل من أراد بسيفه أصبحت من قتلاك بالإحسانِ

فإنه أخذ قول الشاعر :

أصلحتنى بالجود بل أفسدتنى .

فجعل الإفساد قتلا .... هذا ومذهب الشعراء المدح بالإحياء عند الإعطاء ، وبالإماتة عند منع الحياء . (٢)

ثم يعرض جملة من أخطائه فى المعانى ، فيقول (ومن ابتداءاته العجيبة قوله لسيف الدولة فى التسلية عن المصيبة قوله :

---

(١) الكشف من مساوئ شعر المتنبى ص ٥٥ ، ٥٦
(٢) المرجع السابق ص ٥٧

لا يحزن الله الأميرَ فإننى لآخُذُ من حالاته بنصيب

ولا أدرى لم لا يحزن الله الأمير إذا أخذ أبو الطيب بنصيب من القلق ؟ أترى هذه التسلية عند أمته أحسن من قول أوس :

أيتها النفس أجملى جزعا ان الذى تحذرين قد وقعا (١)

الحادى عشر :

كما نقده بضعف التقليد فى الصناعة حيث قال : وللشعراء فن فى اشتقاق المدائح من أسماء الممدوحين ، كقول على ابن العباس الرومى :

كأن أباه حين سماه صاعدا رأى كيف يرقى فى المعالى ويصعد

فقتل المتنبى من ذلك حبلا اختنق به فقال :

فى رتبةٍ حَجَبَ الورى عن نيلها وعلا فَسَمَّوه علىَ الحاجبا (٢)

الثانى عشر :

ولم يقتصر الصاحب فى كتابه على ذكر ما فى شعر المتنبى من تعقيد لفظى ومعنوى فأخذ يبين ما فيه من التعقيد البيانى وتلك إحدى الكبر فأخذ عليه قوله :

وقد ذقتُ حلواءَ البنين على الصبا فلا تحسبنّى قلتُ ما قلتُ عن جهلِ

فقد جعل للبنين حلواء . وقال الصاحب : وما زلنا نعجب من قول أبى تمام ـ لا تسقنى ماء الملام ـ فسخف علينا بحلواء البنين ، ولحقّ ما قال أبو بكر ابن أبى قحافة لعلى بن أبى طالب : " وما من طامة إلا فوقها طامة (٣) وقال فى موضع آخر : ـ ومن استرسالاته إلى الاستعارة التى لا يرضاها عاقل ولا يلتفت إليها فاضل قوله :

فى الخد ان عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

فالمحول فى الخدود من البديع المردود ، ثم هذا الابتداء فى القصيدة من العيوب ما يضيق الصدور (٤) .

---

(١) الكشف من مساوىء شعر المتنبى ص ٥٠ ، ٥١

(٢) المرجع السابق ص ٦٢

(٣) نفس المرجع ص ٤٩

(٤) نفس المرجع ص ٥٩

وقال فى موضع ثالث — ومن تشبيهاته المتناسبة فى الخذلان قوله :

وشوقٍ كالتوقد فى فؤادٍ كجمر فى جوانح كالمحاشِ

وقال : ومن مجازاته التى خلقها خلقا متفاوتا تخفيفه " الغاش" ، وهذا ما لا أعلم سامعا باسم الأدب سوغه وسمح فيه فجوزه ، وذلك فى قوله :

كأنك ناظر فى كل قلب فما يخفى عليك محل غاشِ

وإن جاز هذا جاز أن يقال : عباس بن عبد المطلب والشماخ بن ضرار فلا تشدّدُ الباء من عباس والميم من الشماخ ، على أن ما أورده أشنع من هذا الذى مثلناه ، إذ كان لفظ " فاعل " يبنى على " فعّل " مشدد (١)

الثالث عشر :-

(القافية) قال ولا يزال يركب القوافى الصعبة ثقة بالقريحة السمحة ، فيبتدئ زائيته بقوله :

كفرندى فرندُ سيفى الجرازِ لذّة العين عُدّةٌ للبرازِ

حتى إذا امتد به النفس فقال :

يقضم الجمر والحديد الأعادى دونه قضم سكّرَ الأهواز (٢)

الرابع عشر :

سفهه فى أخص صفات الشعراء ، وأول ما يجب أن يتحلوا به فاعتبره من المخلين بقوانين " العروض " قال بصدد فائيته : " وفى هذه القصيدة سقطة عظيمة لا يفطن لها إلا من جمع فى علم وزن الشعر بين العروض والذوق . وهو :

تفكّرُه علمٌ ومنطقهُ حُكمٌ وباطنه دين وظاهره ظَرْفُ

وذلك إن سبيل عروض الطويل أن يقع " مفاعلن ، وليس يجوز أن تأتى " مفاعيلن قى العروض إلا إذا كان البيت مصرعا ، اللهم إلا أن يضع هو عروضا وتكون له دائرة

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص٧١ ، ٧٢

(٢) المرجع السابق ص٧٢

منفـردة . وهـذه العروض قـد ألزمت القبض ، لعلل ليس هـذا موضـع ذكرهـا ونحـن نحاكمـه إلى كل شعر للقدمـاء والمحدثـين على عـروض بحر الطويل ، فما نجـد لـه على خطئـه مساعـدا . واعتـبر من هذا الضرب قولـه السابـق:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف (١)

الخامس عشـر :

كذلك أخذ عليه عـدم التوفيق فى افتتاحيـات قصائـده ،ومنهـا قوله : ومن افتتاحاته التى تفتـح طرق الكـرب ، وتغلق أبـواب الـروح عـن القلب قولـه :

أراع كذا كل الأنام همـام وسح له رسل الملوك غمـام

ولو لـم يتكلم فى الشعـر إلا بمـا هـو من أصلـه لما سمـح مثـل هـذا (٢) .

السادس عشـر :

وبـه خـتم الصاحب رسالتـه بأقبـح ما ينتقد بـه شاعـر ، حيث وصـاه بإخطـاء القصـد فوسمـه بسمـة سوء التصـرف . وهـو ما يقـع من الشعراء فى استهلال القصيدة يخطئون فى مطلعهـا .. كما مـر من قول الشاعر " لا تقل بشرى " فقال : " وكانت الشعراء تصف المآزر وتكـنى بها عـما وراءها تـنزيها لألفاظهـا عما يستشنـع ذكره حتى تخطـى هذا الشاعـر المطبـوع إلى التصريـح الذى لـم يهتـد له غـيره فقـال :

إنى على شغفى بما فى خُمرهـا لأغَضُّ عما فى سراويلاتهـا

وكثـير من العهـر أحسـن من غـاف هـذا ... (٣) "

هذه ستـة عشر موضعـا أحصيناهـا للصاحـب على المتنبى فى كتابـه " الكشف عـن مساوئ شعـر المتنبى " وإنـى قـد رتبتهـا وأوضحتهـا على هـذا النسق بعـد أن جمعت المتشابـه منهـا فى قسـم واحد ليتيسر لنـا سبيل الحكـم على مقدرته فى النقـد الأدبى والتـذوق الفـنى .

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص٦٧ ، ٦٨
(٢) المرجع السابق ص٥٦
(٣) المرجع السابق ص ٧٥

وقد أعترف فى ختام هذه الرسالة أن المراد بها ضرب المثل . وذلك منه احتراز جميل ، ورد لطيف على سائر من يتهمونه بإغفال الاستقراء التام ، حيث كتب فى آخرها :

" هذه — أيدك الله — مقدمة علقتها ليُسْتَدل بها على ما بعدها ، ولو أتيت بنظائرها مما آخرجت من شعره لأضجرت القارئ وأملت السامع وإن دام هؤلاء الأغمار على النِّقار لم يعدموا الزيارة ، ولم يفقدوا الزيادة (١) " .

---

(١) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ص ٧٥ .

" الصاحب بن عباد بين مؤيديه ومعارضيه "

كان السلطان السياسى والأدبى الذى تمتع به الصاحب طوال حياته سبب انقسام النقاد عليه " بين متعصب له ومتعصب عليه ، مادح وقادح ، مع أنهم كانوا يشهدون له بالفضل ويقرون له برياستى العلم والأدب . والمتصفح لتاريخ الدولة العباسية سواء فى الأمصار الإسلامية أو فى بغداد دار الخلافة — يرى أنه لم يمدح وزير فى ذلك العصر — وخاصة فى البلاط البويهى — بمثل ما مدح به الصاحب بن عباد . وقد وقف ببابه خلق عظيم من الشعراء كالرستمى والزعفرانى والسلامى والبديهى ومحمد الخازن والمأمونى وابن أبى العلاء وبنى المنجم وأبى هاشم العلوى وابن بابك والقاشانى والأسدى والشاشى وأبو الفياض الطبرى وأبو معمر الإسماعيلى والنويرى وأبو دلف الخزرجى والهمذانى والشريف الرضى وكان هؤلاء نفرا قليلا من شعراء كثيرين قصدوا بابه ، وأعجبوا بمدحه ، والإنطواء تحت لوائه . ويكفى أنه ممدوح خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين وأنه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية .

كما مدحه جماعة من كبار الشعراء والمتأدبين كأبى الفتح البستى وفيه يقول :

اذا مدح الأقوام قوما بسؤدد ... وأعلوا له ذكرى وبثوا له فضلا
مدحت ابن عباد لأنى لا أرى ... له فى الندى نداولا فى العلا شكلا
كريم اذا ما جرد العزم ماضيا ... لأكرمه أزرى بمن جرد النصلا
طريف السجايا حلوة حركاته ... كأن له فى كل جارحة عقلا (١)

وكان المتنبى أحد الشعراء الذين ترفعوا عن مدح الصاحب . ولم تعظم الخسارة به حيث انبرى لمدحه شاعر آخر يناهض المتنبى فى الصيت والشهرة ويزيد عليه فى الجاه والمنصب ، ذلك هو الشريف الرضى الموسوى العلوى .

---

(١) ديوان أبى الفتح البستى ص ٥٩

مدحه الشريف ، ولم يكن مدح الشريف إلا شاهدا على اتساع شهرة الصاحب وعلو منزلته فى هذا العصر . ولقد بلغ الصاحب من مدح الشريف له ما لم يبلغه أستاذه ابن العميد من مدح المتنبى ، ذلك لأن مدح الشريف لم يكن صادرا عن طمع فى الصاحب أو عن رغبة فى ماله ، وإنما كان صادرا عن عقيدة وحب وإيمان بالممدوح وإعجاب بما بلغه من الشهرة والمكانة العلمية والأدبية . فأنشد فيه قصيدة رائية سنة ٣٧٥ هـ — رغم ما بينهما من بعد وتنائى الديار — ولم ينفذها إلى حضرته وفيها يقول :

أيا خاطبا ودى على الناس إننى ... صديقك إن كنت الحسام المهندا
فانى رأيت السيف أنصر للفتى ... إذا قال قولا ماضيا أو توعدا
أرى بين نيل العز والذل ساعة ... من الطعن تقتاد الوشيج المقصدا

ومدحه الشريف بقصائد أخرى كثيرة عدد فيها مكارمه يقول فى إحداها :

بهداه يستضوى الورى وبهديه ... قرب الطريق لهم إلى المعبود ...

ثم ساق القصيدة متحدثا عن فضائل الصاحب وجوانب شخصيته . وقصائد الشريف فى الصاحب تعتبر من أبلغ ما قاله مادحوه .

كما كان الصاحب شديد الإعجاب بأنصاره ، يردد كلما ذكرهم قول أبى سعيد الرستمى فيه :

ورث الوزارة كابرا عن كابر ... مرفوعة الإسناد بالإسناد
يروى عن العباس عباد وزا ... رته وإسماعيل عن عباد

وإذا كان الصاحب قد مدح بهذه المدائح ، واتسعت شهرته ، وعلا ذكره إلى هذه الدرجة التى لم يدركها إلا نفر قليل من أعلام عصره فإننا لا نعجب إن رأينا من يهجونه وسنرى أن هؤلاء المهاجمين قد بالغوا فى هجائه ، وادعوا فساد خلقه وعقله ، وأدبه وعلمه ، وجرحوا عقيدته كما انتقصوا دينه .

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت جـ ٢ / ٣١٤

وأول من فتح للشعراء باب الهجاء على حضرة أستاذه الصاحب الخوارزمى - أبو بكر بن محمد - حين هجره سنة ٣٧٤ هـ ، وتأثر بعض الشعراء بثقافته وسلكوا طريقته ، فنرى السلامى يرمية بالاعتزال ويعتبره من أكبر عيوبه حيث قال :

يابن عباد بن عباس ... بن عبد الله حرها
تنكر الجبر وقد أخر ... جت من دنياك كُرها (١)

وقال الخوارزمى :

صاحبنا أحواله عالية ... لكنما غرفته خالية
وإن عرفت السر من دائه ... لم تسأل الله سوى العافية (٢)

وما أحسب ذلك إلا حديث ثورة أو سبب تقصير فى عطاء ، وقد كان الخوارزمى من بين المتعصبين ضده والمتحاملين عليه وله فيه :

لا تحمدن ابن عباد وإن هطلت ... كفاه يوما ولا تذممه إن حرما
فانها خطرات من وساوسه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما (٣)

ونرى فى هذين البيتين أشنع الذم ، وأفحش الهجاء ، فقد وصفه بضعف الرؤية والبخل معا .

ولنسمع إلى قول أبى الحسن الغويرى حيث يهجوه بالبخل يقول :

إن كان اسماعيل لم يدعنى ... لأن أكل الخبز صعب عليه
فاننى آكل فى منزلى ... إذا دعانى ثم أحضر إليه

ولنقرأ قول أبى العلاء الأسدى :

إذا رأيت مسجى فى مرقعة ... ياوى المساجد حرا ضرة بادى
فاعلم بأن الفتى المسكين قد قذفت ... به الخطوب إلى لؤم بن عباد (٤)

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت جـ٢/ ٣١٤
(٢) يتيمة الدهر جـ٣ / ٢٥٢
(٣) ارشاد الاريب لياقوت جـ٢/ ٣١٣ ، ٣١٤
(٤) انظر اليتيمة للثعالبى جـ ٣/ ٢٥١ ، ٢٥٢

ومثل هذا وصفه ابن عطاء حيث نراه يقول : " إن عطاء ابن عباد لا يزيد على مائة درهم وثوب إلى خمسمائة ...(١)

وكان النقاد بطبيعتهم أكبر انقلابا عليه ، وهجاء له . فكان أبو مسلم القحطانى ينتقص عقله حين قال فيه وفى ابن العميد " زرتهما ... ، فكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم ، وابن عباد أكرم وكان يدعى العقل . وهما فى دعواهما كاذبان وعلى سجيتهما جاريان ...(٢) وكان أستاذه أبو الفضل ابن العميد يقول إذا رآه : " أحسب أن عينيه ركبتا من زئبق ، وعنقه عمل بلولب(٣) وذم الخليلى سجعه وخطه واتهمه بالجنون ووصفه بطباع المعلمين وكان يقول : " الرجل مجنون .... فى طباع المعلمين ... (٤) ووصفه أبو بكر الجرابانى ـ كاتب داره ـ بالثرثرة وادعاء المعرفة فى كل شىء .(٥) .

وقال (أحمد بن محمد) : " وإذا أنصفنا التزمنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف والمأخذ القريب ، والسجع الملائم ، واللفظ الموفق والتأليف الحلو ، والمسبوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة فى السمع ، الخالبة للقلب العابثة بالروح ، الزائدة فى الفضل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة على فضل الأدب ، الدالة على غزارة المغترف ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف ، وابن عباد بلى فى هذه الصناعة بأشياء كلها عليه لاله ، وخاذلته لاناصرته ، ومسلمته لا منفذته ، فأول ما بلى به أنه فقد الطبع وهو العمود ، والثانى العادة وهى المواتية ، والثالث الشغف بالجاسى من اللفظ وهو الاختيار الردىء والرابع تتبع الوحشى وهو الضلال المبين والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى ، والسادس استكراه المقصود من المعنى ، واللفظ على النبوة ، والسابع التعاظل المجهول بالاعتراض ، والثامن إلف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص ، والتاسع قلة الألفاظ بما كان ـ للثقة الواقعة فى النفس ـ من الفائت ، والعاشر

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦/ ٢٦٦
(٢) معجم الأدباء جـ ٦/ ٢٢٦ ، ٢٢٧
(٣) معجم الأدباء جـ ٦/ ٢٠١
(٤) معجم الأدباء جـ ٦/ ٢٢٨ : ٢٣٠
(٥) معجم الأدباء جـ ٦/ ٢٠٢ : ٢٠٥

تنفيق المتاع بالاقتدار فى سوق الغز ، وهذه كلها سبل الضلالة ، وطرق الجهالة . قال " وليس شىء أنفع للمنشىء من سوء الظن بنفسه ، والرجوع إلى غيره وإن كان دونه فى الدرجة . وليس فى الدنيا محسوب إلا وهو محتاج إلى تثقيف ، والمستعين أحزن من المستبد ، ومن تفرد لم يكمل ، ومن شاور لم ينقص ، وقد يتعجم المعنى ، كما يتعجم اللفظ ، ويشرد اللفظ كما ينـد المعنى ، وينتثر النظم كما ينتظم النثر ، وينحل المعقد كما يعقد المنحل .

والمدار على اجتلاب الحلاوة المذوقة بالطبع ، واجتناب النبوة المجوجة بالسمع والقريحة الصافية قد تكدر والقريحة الكدر قد تصفو ، وشر آفات البلاغة الاستكراه ، وانصح نصائحها الرضا بالعفو . وقال : " كان ابن المقفع يقف قلمه كثيرا ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الكلام يزدحم فى صدرى فيقف قلمى لأتخيره .

والكتاب يتصفح أكثر من تصفح الخطاب ، لأن الكاتب مختار ، والمخاطب مضطر ، ومن يرد عليه كتابك فليس يعلم اسرعت فيه أم أبطأت ، وإنما ينظر أصبت فيه أم أخطأت ، وأحسنت أم أسأت ، فإبطاؤك غير إصابتك ، كما ان اسراعك غير معف على غلطك (١)

كما أن هناك جماعة من تلاميذ الصاحب ومريديه لم يراعوا فيه حقوق العشرة ، فنسوا ما كان له من فضل وأياد غراء عليهم ، منهم أحمد بن فارس الذى رحل وفارق مجلسه قبل عام ٣٦٤ هـ (٢) . وأبو حيان محمد بن على التوحيدى الذى انقلب عليه سنة ٣٧٠هـ وأخذ يضع الكتب فى ذمه وذم ابن العميد ، وكذلك أبو بكر الخوارزمى الذى فارق مجلسه عام ٣٧٤ هـ ، والقاضى عبد الجبار ابن أحمد الذى لم يراع فيه حقوق العشرة ونسى أفضاله وتكرمه عليه وأخذ يهجوه بعد وفاته عام ٣٨٥ هـ .

---

(١) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ١ / ٦٣ ـ ٦٥ (ط. لجنة التأليف)

(٢) كان ذلك فى عهد مؤيد الدولة قبل عام ٣٦٤ هـ ، ثم عاد ابن فارس إلى مصاحبته بعد مقتل أبى الفتح بن العميد عام ٣٦٦ هـ ، وأنفذ اليه كتابه الحجر وهو بهمذان فعفا عنه الصاحب ، ولم تطب نفسه بتركه . وبعد سنة ٣٧٠ هـ كان ابن فارس من أوائل المتشيعين للصاحب عند أبى حيان التوحيدى وجماعته (انظر المقابسات ص ١٥ (ط. السندوبى)

أبو حيان التوحيدى والصاحب

كان أبو حيان أحد أئمة الفلسفة والتصوف والاعتزال فى القرن الرابع ، نَعَتَهُ ياقوت بشيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء . ولد ونشأ بشيراز ، وأقام مدة ببغداد قبل أن يلتقى بمجالس ابن العميد والصاحب بن عباد ، وفيها أخذ يدرس الفلسفات فى قرن راجت فيه سوقها ، وظهرت النحل المختلفة وقامت المذاهب الشيعية والصوفية والاعتزالية والمجوسية بأخطر الأدوار وتفنن أبو حيان فى الدراسات الأدبية وأخذ يتذوقها تذوقا فلسفيا ناقدا .

وكان أبو حيان شديد التعصب لآرائه معجبا بأساليبه فى النقد والابتداع رغم فقره وقلة ذات يده ، ولعل ثقته بنفسه واعجابه بها ودراساته الفلسفية فى عصر ازدهرت فيه الفلسفة الإسلامية هى التى هيأت منه للمجتمع ناقدا ناجحا عجيبا قوى الحبكة والأداء ، رصين الأسلوب . ولكن ذلك لم يمنع معاصريه من رميه بالإلحاد والزندقة فاضطر إلى احراق كتبه ضنا بها عليهم ، ومات فارا من وجه الصاحب والمهلبى فى سنة ٤٠٠ هـ .

ولا شك أن عصر الصاحب وشخصيته القوية التى لمسناها كان من أكبر العوامل المؤثرة التى وجهت إليه أنظار النقاد كأبى حيان التوحيدى ومن هم دونه كالجرا بازى وأبى السلم الشاعر والقحطانى والخليلى وابن عطاء .

وهناك مئات من النقاد جرحوا الصاحب ونقدوا أدبه غير الذين ذكرتهم وربما كان أبو على بن مسكويه المؤرخ أحد هؤلاء . وقد ضاع نقدهم فيما ضاع من تراث نقدى .

ولم يقف بنا التاريخ عن السنة التى اتصل فيها أبو حيان بالصاحب بن عباد ولكن النصوص الأدبية تدلنا دلالة قاطعة على حضور أبى حيان مجالس ابن العميد بدليل وصفه لها ، وذكره أحوال الوزير .

ولما توفى ابن العميد سنة ٣٦٠ هـ طالت مصاحبته للصاحب ولازمه فى كثير من حله وترحاله ، كما شاهد أكثر مجالسه الأدبية التى كان يقيمها ببابه . ولعل أسلوبه البليغ الذى أخذ ينقد به الوزيرين لم يكن إلا قبسا من نور هذه الصحبة التى لم يراع حقوقها .

وإذا سلمنا أن اتصاله بالصاحب كان قبل سنة ٣٦٠ هـ ، ثم ثبت لنا تاريخا أنه لم يفارق حضرة الصاحب إلا عام ٣٧٠ هـ ثبت لنا ثبوتا قطعيا أنه قضى فترة ليست بالقصيرة من حياته معه . ومن أجل ذلك لا نشك أنه حضر كثيرا من مجالسه الأدبية ، وشاهد بنفسه بعض ما كان يقام فيها من ندوات للأدب والعلم ، ومنابر للشعر .
وقد صرح أبو حيان بذلك حين قال :

" وجرت أشياء أخرى كان عقباها أنى فارقت بابه سنة ٣٧٠هـ راجعا إلى مدينة السلام (١)" .
ثم أخذ بعد ذلك يدون كتبه التى وضعها فى نقد الصاحب وابن العميد .

واستنفد أبو حيان فى نقد الصاحب بن عباد وذمه صفحات طوالا من كتبه . وقد أفرد بعضها فى نقده ، ونقد أستاذه بن العميد ومن هذه الكتب كتاب " أخلاق الوزيرين " الذى نقل إلينا ياقوت جزءا منه فى ترجمة الصاحب . ومنها كتاب " الصداقة والصديق " الذى شرحة وعلق عليه على متولى صلاح ومن هذه الكتب المفردة كتاب " مثالب الوزيرين أو ذم الوزيرين " وقد نقل ياقوت شطرا كبيرا منه فى كتابه معجم الأدباء .

ولم يبق لنا من كتبه النقدية إلا كتاب " الإمتاع والمؤانسة " فى جزأين تعرض فيه للصاحب بالمدح والقدح (٢) .

---

(١) أعيان الشيعة جـ١١ /٣٥٧ ، وانظر أيضا معجم الادباء لياقوت جـ ٦
(٢) طبقات ابن السبكى جـ ٢/٤

وربما كان لأبى حيان كتب أخرى تعرض فيها لنقدهما فقدناهـا من بين ما أحرق من كتبه حين انقلبت به الأيام ورأى أن كتبـه لم تنفعـه وضـن بها على من لا يعـرف قدرهـا (١) ولو لم تحرق هذه الكتب لعثرنا فيها علـى قضايا أخرى فى النقـــد.

نقد أبى حيان للصاحب

وتوجـد نصوص طويلة من هذا النقد فى ترجمة الصاحب. وقد رأيت أن مـــن حقوق البحث أن أضع به أهـداف هذا النقـد موزعـة توزيعـا فنيـا حسب أغراضهـا ومراميهـا ليسـهـل لنا أن نحكم له أو عليه فى ضوء هذا المنهـج .

١ — الاعـــتزال

كان التوحيدى متجنيا على الصاحب فى نقده له منذ الكلمة الأولى إذعاب عليـه اعتقاده لمذهب المعتزلة ، واقتباسـه طرائقهـم فى الكتابة . فقـال : "والغالـب عليه كلام المعتزلة ، وكتابتـه مهجنـة بطـرائقهـم (٢)

وهنـا نراه وقد ناقض نفسه حيث أنه نفسـه من المعتزلة : كما أن طرائـــق المعتزلة لا تهجن الكتابة ، بل إن أفادت فى شىء فليس غـير الكتابـة الـــتى يلومه بهـا . وقد كان أبو عمر الجاحـظ شيخ هذه الطبقـة أول المستفيديـــن من أساليب المعتزلـة . وقـد ارتفع بفضلهـا إلى الذروة فى التأليف والكتابـــة .

واستطـرد أبو حيان فى نقد الصاحب إلى نواح متشعبة ، ولكن أكثرها بعيـــد عن جوهر النقد وأصوله ، فنعته بسقم العقل وفساد الرأى (٣) ، كما وصفه بالميـــل إلى العنف والظلم والتسلط (٤) ، ونعته أيضا بضآلة حظه من الحكمة والفلسفة (٥)

---

(١) بغية الوعاه ص٢٤٨
(٢) ارشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٢٧٦ (ط. مطبعة هندية)
(٣) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ١ / ٥٥
(٤) معجم الأدبـاء جـ٦ / ٢٠٥
(٥) ارشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٢٧٦

والحقد على أهل الرأى والعلم (١) ، والكبر والصلف (٢) ، والمكابرة فى الحق (٣) والعجب والخيلاء (٤) ، والحسد والحقد (٥) ، والشح والبخل (٦) .

إنتحال الشعر

ومضى أبو حيان معرضا بالصاحب بن عباد من الناحيتين الأدبية والخلقية ، فقال : " ثم يعمل فى أوقات كالعيد والفصل شعرا ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجم ويقول له : قد نحلتك هذه القصيدة أمدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من المنشدين ، فيفعل ذلك أبو عيسى ، وهو بغدادى محنك قد شاخ على الخدائع وتحنك . وينشد فيقول له : عند سماعه شعره فى نفسه ، ووصفه بلسانه - ومدحه من تحبيره أعد يا أبا عيسى فإنك والله مجيد زه يا أباعيسى ، قد صفا ذهنك ، وجادت قريحتك ، وتنقحت قوافيك ، ليس هذا من الطراز الأول حيث أنشدتنا فى العيد الماضى . المجالس تخرج الناس وتهب لهم الذكاء ، وتزيدهم فى الفطنة ، .... ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنيّة ، وعطية هنية . ويغايظ الجماعة من الشعراء وغيرهم لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ولا يذوق عروضا (٧) .

ومن ذلك يتضح لنا أن التوحيدى فى غيه وتعريضه بالصاحب يحاول جهده أن يضع أيدينا على ضعف فنى يختلقه ويدعيه عليه . فذكر أنه كان ينشد القصائد ثم ينتحلها الشعراء من مجلسه ليمد حوه بها فى حضرة جلسائه على رؤوس الأشهاد ليرتفع مقامه فى نفوسهم ، ويعظم قدره فى أعينهم .

---

(١) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ١ / ٥٥
(٢) المقابسات لأبى حيان ص ٢٥ (ط السندوبى)
(٣) المرجع السابق ص ٩٥
(٤) معجم الأدباء لياقوت جـ ٦ / ٢٣٧
(٥) المقاسات لأبى حيان ص ٩٣ ، ارشاد الأريب جـ ٢ / ٢٧٦
(٦) تاريخ الحضارة لمتز جـ ١ / ١٧٢
(٧) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان جـ١ / ٥٦ ، انظر ارشاد الأريب جـ ٢ / ٢٧٧

ثم مضى فقال : " قال يوما : من فى الدار ؟ فقيل له : أبو القاسم الكاتب وابن ثابت . فعمل فى الحال بيتين ، وقال لإنسان بين يديه : إذا أذنت لهذين فادخل بعدهما بساعة وقل : قد قلت بيتين فإن رسمت لى إنشادهما أنشدهما ، وأزعم أنك بدهت بهما . ولا تجزع من تأفف بك . ولا تفزع من تكبرى عليك . ودفع البيتين إليه . وأمره بالخروج إلى صحن الدار . وأذن للرجلين حتى وصلا . فلما جلسا وأنصا ودخل الآخر على تغيئتهما ووقف للخدمة ، وأخذ يتلمظ يُرى إنه يقرض شعرا ثم قال : يا مولانا قد حضرنى بيتان فإن أذنت أنشدت . قال له أنت إنسان أخرق سخيف لا تقول شيئا فيه خير اكفنى أمرك وشعرك قال يامولانا هى بديهتى وإن كسرتنى ظلمتنى وعلى كل حال فاسمع فإن كانا بارعين وإلافعاملنى بما تحب قال : أنت لحوح هات . فأنشد :

يا أيها الصاحب تاج العلا ... لاتجعلنى نزهة الشامت

بملحد يكنى ابا قاسم ... ومجبر يعزى إلى ثابت

فقال : قاتلك الله لقد أحسنت وأنت مسىء . وقال أبو حيان : قال لى أبو القاسم وكدت اتفقأ غيظا لأنى علمت أنها من فعلاته المعروفة وكان ذلك الجاهل لا يقرض بيتا (١) نقول :

لقد أعسف أبو حيان فى نقده حتى ضل الطريق وظهر للأعمى والبصير عوارة وادعاؤه وتحامله على حضرة الصاحب لأنه ليس من المعقول أن يصدق العقل أن رجلا عظيما يقف ببابه من الشعراء من يربون فى العدد على شعراء الرشيد ، ويفدون إلى حضرته مئات كل يوم يحمل نفسه على انتحال القصائد لجلسائه !! ما كان أغناه عن هذا الانتحال بكثرة الوافدين من الشعراء على بابه .

كما افترى على جلسائه أشياء ليست فيهم حين قال : " لأنهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ولا يذوق عروضا " ويكذب ذلك أن أبا عيسى

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت ج ٢/٢٧٧ ، ٢٧٨ ، الامتاع والمؤانسة لأبى حيان ج ١ / ٥٦ ، ٥٧

لا يقرض مصراعا ولا يزن بيتا ولا يذوق عروضا " ويكذب ذلك أن أبا عيسى شاعر ، وقد أورد له الثعالبي في اليتيمة جملة أشعار فيهـا قولـه (٢)

آخ من شئت ثم رم منه شيئـا تلف من دون ما ترام الثريـا

وبنو المنجم شعراء أدباء . يقول الثعالبي : وما منهم إلا أغر نجيب ولهم وراثة قديمة في مناداة الملوك والرؤساء ، واختصاص شديد بالصاحب وفيهم يقـول :

لبـني المنجم فطنة لهبيـة ومحاسن عجمية عربيـة
ما زلت أمدحهم وأنشر فضلهـم حتى اتهمت بشدة العصبية

وضرب السلامي الشاعر المثل في السماع بأحدهم (٢).

فما أقبح النقد إذا اقترن بالكذب وظهر عواره وبان خطلـه . !!!

التصنع في الأسلوب

وما كاد أبو حيان ينتهي من نقد صفاته الخلقية والاجتماعيه وميله في انتحال الشعر حتى أخذ يكيل له القدح في أدبه وأسلوبه فقال : " وكان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأينا ، في هذه البلاد ...(٣)".

ثم قال : " ومما يدل على ولوع ابن عباد بالسجع ، ومجاوزته الحد فيه بالافراط قوله يوما : " حدثني أن ناش ، وكان من سادة الناس " وجعل السين شينا ، ومر في هذا الحديث وقال : هذه لغة وكذب وكان كذوبا (٤)".

وبعد ذلك أخذ يدلل على كثرة استعماله السجع في الكلام فقال : " " وقال ابن عباد لشيخ من خراسان في شيء جرى : والله لولا شيء لقطعتك تقطيعا ، وبضعتك تبضيعا ، ووزعتك توزيعا ، ومزعتك تمزيعا ، وجزعتك

---

(١) انظر يتيمة الدهر ج ٣/ ٣٥٨ ، ٣٥٩ (مطبعة الصاوي ط الأولى سنة ١٣٥٣هـ)
(٢) انظر ليتيمة جـ ٣ / ٣٥٨
(٣) ارشاد الاريب لياقوت جـ٢/ ٢٩١
(٤) المرجع السابق ص٢٩٤

تجزيها ، وأدخلتك فى خزائنك ثم وقف ساعة ثم قال جميعـــا " .

ثم وصفه وهو يسجع فقال : " وملح هذه الحكاية ينبثر فى الكتابة ، وبها ينقـص فى الرواية دون مشاهدة الحال ، وسماع اللفظ ، وملاحة الشكل فى التحـــرك والتثنى والترنح والتهادى ومدّ اليد ولىّ العنق وهز الرأس والأكتـاف ، واستعمـال الأعضاء والمفاصـل (١) " .

وقال فى وصفه أيضا : " كان ابن عباد يأتى بالسجع فى أثر كلامه مـع رويـة طويلة ، وأنفاس مديدة ، وحشرجة صدر ، وانتفاخ منخريـة ، والتواء شد قيـه ، وتعويج عنقه ، واللعب بشاربه وعنفقته . فلو رأيته يقـرر المسائل على هـذه الأمثلة العجيبة ، والبيان الشافى لرأيت عجبا من العجائب ، وضربا من الغرائب (٢)

ثم يعرض أبو حيان شواهـد من سجعه ليقف بنا على مبلـغ سخفـه فى السجـع فقال : " وسمعته يقول لابن ثابت : جعلك الله ممن إذا خرئ شطر ، وإذا بـال قطر ، وإذا فساغبر ، وإذا ضرط كبر ، وإذا عجف عبر ، قال وهذا سخـف لا يليق بأصحاب الفرصة والذين اختلفوا إلى الخنـدق (٣) ودار بانوكـة (٤) والزبيدية (٥) والرمادة (٦) والخلـد (٧) ... (٨) "

وبعد ذلك العرض والنقد الأجوف أورد أبو حيان طرفا آخر ظنه من مثالب الرجـل فقال : " والذى غلّطه فى نفسه ، وحمله على الإعجـاب بفضله ، والاستبـداد برأيـه أنه لم يجبه قط بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئه لأنه نشأ على أن يقال أصاب سيدنـا وصدق مولانا ، ولله درّه ما رأينا مثله من ابن عبد كان مضافا إليه ، ومن ابـن ثوابة نقيسـه عليه ، ومن ابراهيم بن العباس الصولى من صريع الغوانى مـن

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت جـ٢ / ٢٩٤
(٢) المرجع السابق ص٣١٧ ، ٣١٨
(٣) الخندق : محلة بجرجان
(٤) لعلها مدينه بكرمان أو قرية باصفهان
(٥) الزبيدية : محلة ببغداد
(٦) الرمادة : محلة بنيسابور واخرى ببلـخ .
(٧) الخلد : قصر للمنصور العباسى ببغداد
(٨) انظر ارشاد الأريب جـ٢ / ٣٠٣

أشجع السلمى إذا سلك طريقهما قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ، وعلى الاسكافى فى الموازنة ، وعلى ابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وعلى ابن مجاهد فى القراءات ، وعلى ... ، وعلى ... ، وعلى ذى الرياستين فى التدبير ، وعلى سطيح فى الكهانة ، وعلى أبى المحياة خالد بن سنان فى دعواه هو والله أولى بقول أبى شريح أوس بن حجر التميمى فى فضالة بن كلدة أبى دليجة :

الا لمعنّ الذى يظن لك الظن كأنْ قد رأى وقد سمعا (١) "

ثم أخذ أبو حيان يصف حال الصاحب وهو يسمع المثل العليا فى الإطراء والثناء فنراه يقول :

" فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويبتسم ، ويطير فرحا به ، وينقسم ويقول : ولا كذى ثمرة السبق لهم ، وقصرنا أن نلحقهم أو نقفوا أثرهم ، وهو فى ذلك يتشاجى ويتحايك ، ويلوى شدقه ، ويبتلع ريقه ، ويردّ كالآخذ ، ويأخذ كالممتنع ، ويغضب فى عرض الرضى ، ويرضى فى لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتفاتك ويتمايل ، ويحاكى الوسمات ، ويخرج فى أصحاب السماجات وهو مع هذا يظن أنه خافٍ على نقاد الأخلاق ، وجهابذة الأحوال (٢) " ونقول : لو لم يقل الصاحب غير قوله : " ولا كذى .. ثمرة السبق لهم وقصدنا أن نلحق بهم . أو نقفوا أثرهم " لكفاه هذا الرد على ما رماه به التوحيدى من ادعاءات .

وأرى أن نقد أبى حيان كان لهوى فى نفسه ، وليس منبعثا عن وازع أدبى صرف ، حيث أنه قصد الصاحب بن عباد ولم يرزق منه فأخذ يذمه وينقده .

وقد قال المؤرخون : " فإن أبا حيان كان قصدا بن عباد فلم يرزق منه فرجع عنه ذاما له ، وكان أبو حيان مجبولاً على الغرام بثلب الكرام فاجتهد فى الغض

---

(١) إرشاد الأريب لياقوت جـ ٢/ ٢٧٨ ، ٢٧٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٩ ، ٢٨٠

من ابن عباد ، وكانت فضائل ابن عباد تأبى إلا أن تسوقه إلى المدح وإيضاح مكارمه فصار ذمه له مدحا (١)".

يضاف إلى ذلك أن ابن عباد كان يبغض أبا حيان لميله إلى الفلسفة (٢) ولأنه كان معجبا بأبى الفتح بن العميد (٣).

كما جهل أبو حيان مشاعر الأديب ، وما يشيع فى نفسه من فخر وزهو ونشوة وإعجاب حين ينشئ القصيدة أو المقالة ، فشعور الأديب فى ذلك كشعور المصور والرسام والنحات تماما. فلا يلام على شئ من هذه الخيلاء. ولعلك ترى معى أن ابن عباد فى نشوته وتسلطه آدب منه فى سكوته وهدوئه .. لا لأن ذلك شأن الأديب . بل لأن شخصية الصاحب شخصية عاتية طاغية إلى الفخر ، وتعمد إلى تسنم ذرا المجد .

فالصاحب حين يفخر بما مدح به . أو يهتز ويتمايل لكل ما سمعه من بديع الإطراء والمدح يمثل دور الأديب الواثق الذى لا يرى إلا حسنه ، ولا يلمس إلا وجوده ، ولا يقتنع إلا بنفسه .

لذلك فإن نقد أبى حيان مرفوض لأنه نقد ذاتى صرف بعيد عن موضوعية الأدب ، وهو نقد ملئ بصنوف الشتم والسباب ، والتفريح وذم الأخلاق ، وقلما يعمد فيه إلى دراسة الشعر أو النثر .

وكذلك بعد ما ثبت من زيغ عقيدته وفساد دينه . وقد نص على ذلك ابن فارس (٤) وابن الجوزى والذهبى . (٥)

---

(١) ارشاد الاريب لياقوت جـ ٢/ ٢٨٢
(٢) انظر أعيان الشيعة جـ ١١ / ٣٣٧
(٣) المرجع السابق ص ٣٦٠
(٤) انظر أعيان الشيعة للعاملى جـ ١١ / ٣٥٩
(٥) انظر ميزان الاعتدال للذهبى

ويكفى أن نستمع إلى أبى حيان نفسه حين يعترف ببطلان ما ذهب إليه ، هادما كل ما بناه من نقد ، حتى لكأنه أحسن بطريقته العقيمة ، ومنهجه الردىء حين ختم نقده يقول :

" ولولا أن هذين الرجلين أعنى " ابن عباد وابن العميد ، كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا ، والقبيح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ . ولكن النقص مما يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدّعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه يدعواه عجيب ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم إلى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد (١)

---

(١) اخلاق الوزيرين ـ وارشاد الأريب لياقوت جـ٢ / ٣٠٢ ، ٣٠٣

موازنة بين الأدباء فى بلاط الصاحب

نبغ فى القرن الرابع الهجرى جماعة كثيرون من الكتاب ، وعاش أكثرهم فى أصبهان فى بلاط الصاحب بن عباد ، واعتبروا من أترابه وزملائه فى صناعة الكتابة ، من أشهرهم أبو الفضل محمد بن العميد (المتوفى عام ٣٦٠ هـ) وأبو العباس إسماعيل الميكالى (المتوفى عام ٣٦٢ هـ) ، وأبو الفتح على بن العميد (المتوفى عام ٣٦٦هـ) ، والحسن المهلبى (المتوفى عام ٣٥٢ هـ) ، ومحمد بن بقية(المتوفى عام ٣٦٧ هـ) ، وعبد العزيز بن يوسف وزير عضد الدولة (المتوفى عام ٣٨٨ هـ) ، وأبو بكر الخوارزمى (المتوفى عام ٣٨٤ هـ) وأبو إسحق إبراهيم الصابى (المتوفى عام ٣٨٤ هـ) ، وأبو العباس أحمد الضبى (المتوفى عام ٣٩٨ هـ) ، وأبو الفتح البستى (المتوفى عام ٤٠٠ هـ) ، والأمير قابوس ابن وشمكير (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، وأبو حيان التوحيدى المتوفى عام ٤٠٠ هـ) .

وكان من بين هؤلاء الكتاب جماعة أكثروا من التردد على الصاحب بن عباد فى أصبهان وانتفعوا بمجالسه وعلمه وسلطانه ، وتخرج بعضهم على يديه ، فبلغوا من الشهرة به ما لم يبلغه غيرهم من كتاب هذا العصر .

منهم أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الفضل بديع الزمان الهمذانى ، وكان الثلاثة الأخيرون أشد معاصريه تعصبا له وولوعا بمجالسه .

فقد وفد الخوارزمى على الصاحب فى أصبهان قبل أن يجول فى بلاد المشرق واستأذن عليه فى الدخول . فأرسل الصاحب مع حاجبه يقول إنه لا يقرب مجلسنا إلا من يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر . فأجاب الخوارزمى : أمن شعر النساء هو أم من شعر الرجال . فعلم الصاحب أنه الخوارزمى فأمر له بالدخول ، وأكرم وفادته . وصادف وقتئذ حملة الصاحب على المتنبى ، وانقسام النقاد بينهما . فانحاز الخوارزمى إلى جانب الصاحب واندفع معه ينتقص المتنبى فى أخلاقه وشعره .

أما بديع الزمان فقصد الصاحب برفقة والده ، وهو حدث صغير وما أن رآه الصاحب حتى أعجب بذكائه وتجويده الشعر وعلمه بقوافيه .

وقد أثرت مجالس الصاحب فى نفس البديع فأطال التردد على حضرته وكانت له بين يديه مواقف مشهورة ، لو صحت — لاعتبرت من أعظم الأساليب الأدبية التى سلكها الصاحب فى تأديب تلاميذه وما طوعهم عليه من تعصب للعرب وآدابهم رغم جنسيته الفارسية (١) "

ولكن أحدا من هؤلاء الكتاب لم يحظ بما حظى به أبو العباس الضبى من تلمذته له .

والحق أننا لو تتبعنا تراجم الكتاب فى القرن الرابع لم نجد منهم من بلغ ما بلغه الضبى من تأثر بابن عباد ، سواء فى طريقته وأسلوبه وتعصبه له . وقد قال الثعالبى : إنه أشبه الناس بالصاحب وأعظم الذين تخرجوا على يديه وورثوه فى الكتابة والترسل .

فالكتاب والأدباء فى أصبهان لم يكونوا من نبع واحد ولا من درجة واحدة فى الترسل . بل كان لكل واحد منهم طابع معين ، ولذلك كان انتهالهم من مورد الصاحب على اختلاف تام فى المشرب والأداء ، وإن كانوا جميعا من المجودين الضاربين فى أعماق هذه الصناعة .

ولو تتبعنا هؤلاء الكتاب وأردنا أن نوازن بينهم لما استطعنا أن نضعهم فى طبقة واحدة من حيث التأثر .

وقد استطعت بعد إمعان فى النظر وطول الفكر أن أقسمهم إلى ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى :

ونلحظ فى رجالها أنهم تأثروا بالصاحب بن عباد تأثرا ضعيفا ، لم يتجاوزوا فيه

---

(١) انظر أعيان الشيعة للعاملى جـ ١١ / ٤١٣

حد التوجيه الاجتماعى ، فانتفعوا فقط بمعونة الصاحب ، وأفادوا الكثير من خيره وعطائه . الذى كان يفيض به لكبار الأدباء ، ومن هذه الجماعة أبو إسحق إبراهيم الصابى .

الطبقة الثانية :

وقد ارتقى جماعتها إلى درجة التأثر الاجتماعى والأدبى معا وإن لم يلتقنوا طريقة الصاحب تلقينا تاما . أى أنهم كانوا يغدون مجالس الصاحب ويفاخرون بأدبه وعلمه ولكنهم آثروا العيش فى جو من الحرية الأدبية التامة ، فلم يتقيدوا بخصائصه الأدبية أو يلتزموا أسلوبه فى شعرهم ونثرهم ، وكان أكثر هذه الجماعة من الكتاب المتشاعرين كأبى بكر الخوارزمى والبديع الهمذانى .

الطبقة الثالثة :

وقد بلغ رجال هذه الطبقة درجة التأثر التام فأشربوا طريقة الصاحب ، وصبغوا بيانهم بأسلوبه . وأدائه فَمُدَّوا من خواص تلاميذه الذين تخرجوا عليه فى صناعة الكتابة ، وورثوه فى دواوين الإنشاء . ولعل أسبق هذه الجماعة أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبى .

ثم تشعب رجال الطبقة الثالثة إلى شيع وجماعات مختلفة ، وتأثر كل جماعة منهم بناحية معينة من صناعة الصاحب ، وطريقته وأسلوبه . فمنهم من عنى بمجاراته فى الرسائل السلطانية ، ومنهم من قلد إخوانيات الصاحب ومنهم من غلبت عليه الحكم والأمثال .

فتأثر الإسكافى بالصاحب فى الرسائل السلطانية (١) وهى الرسائل الرسمية وجاراه الأمير قابوس بن وشمكير فى الإخوانيات . (٢) كما قلده أبو الفتح البستى فى الحكم والأمثال (٣) .

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٤ / ٩٢
(٢) انظر رسائل قابوس (ط . السلفية ١٩٤٣ م)
(٣) اليتيمة جـ ٤ / ٢٨٤

وهناك جماعة من العلماء والمؤرخين أو لعوا ببديع الصاحب وأعجبوا بسجعه وطبقوا طريقة الصاحب فى كتاباتهم وفى مؤلفاتهم العلمية . فكتب أبو بكر الخوارزمى رسائل فى الطب على نسج رسالته الطبية ، ووضع أبو عبد الله المقدسى (٣٨٠ هـ) كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ووضع أبو إسحاق الصابى كتابه التاجى فى تاريخ الدولة البويهية ، ثم وضع أبو نصر العتبى (٤٢٧ هـ) كتابه اليمينى فى تاريخ يمين الدولة محمود بن سبكتكين — وقد جارى هؤلاء جميعا ابن عباد فى سجعه وأسلوبه .

وقد لاحظ القدماء تأثر هؤلاء الكتاب بطريقة الصاحب فكانوا يوازنون بين الصاحب وزملائه ، أو بينه وبين تلاميذه فى صناعة الكتابة . فعقد الثعالبى فى يتيمة الدهر موازنة بين الصاحب بن عباد وأبى الفتح البستى ، كما وازن بينه وبين الإسكافى وأبى العباس الضبى وأبى إسحق الصابى فى مواضع متفرقة ، وهو وإن لم يفردها بالتبويب فقد أدرك أن هناك جماعة مارسو طريقة الصاحب بن عباد وتأثروا بأسلوبه الفنى فى الكتابة ولو فى مواضع من هذه الصناعة .

وهكذا عنى القدماء فى الموازنة بين الصاحب وبين معاصريه من العلماء والكتاب حين عنوا باصطناع أسلوبه فيما كتبوه من رسائل أو دونوه من كتب .
إلا أن القدماء كانوا أشد اهتماما فى الموازنة بين الصاحب والصابى وكان الثعالبى يقول فى ذلك :

كان الصاحب يكتب كما يريد والصابى كما يؤمر ويراد ... فهو يريد أن الصاحب حر طليق فيما يكتب ، والصابى يسير فى كتابته على قواعد ونظم لا يكاد يتعداها .

اهتم المتأخرون بترديد هذه العبارة ، كما عنو يترديد سائر العبارات التى تفنن الثعالبى فى إرسالها — حتى حسبوها قاعدة عامة من القواعد التى يؤخذ بها فى تاريخ الأدب ونقده — ففسرها البعض بتقديم الصابى ذاهبين أن القواعد والنظم فى الكتابة خير من التحرر والابتداع . وتأول الآخرون تقديم الصاحب على

الصابى لأن الصاحب فى نظرهم حر طليق فى أساليبه وتعبيراته *.

لقد كانت هذه الموازنة سببا فى إثارة الفكر وحافزا للنقاد على الإدلاء بآرائهم. فمنهم من كان يتعصب لابن عباد ، ومنهم من كان يفضل الصابى عليه . وكان للفريقين آراء وأدلة وحجج كثيرة .

أقول : لو أننا طبقنا هذه الموازنة على المقاييس النقدية التى تخضع لمناهج البحث العلمى لاستطعنا أن نقف موقفا حازما من الصاحب والصابى .

كان الصاحب يكتب بأسلوب يحرص فيه على جمال العبارة كما يحرص على صحة المعنى ، وكان الصابى يكتب بأسلوب قوامه المنطق فكيف نوازن بينهما ؟

إن الكاتب كالفنان ، والشاعر تماما لا يستغنى عن عواطفه وإحساساته فى التعبير عما يريد . والصورة التى يرسمها الكاتب بقلمه لا تكون قوية بارزة إلا اذا وهبها شيئا من وجدانه ، وأضفى عليها جزءا من خياله وإلا كانت صورة ضعيفة فاترة لا تستقر فى النفس ولا يكاد القارئ يتأثر بها ، يقرؤها ويفهمها كما يقرأ الكتب العامة . إن هذا الوجدان وذلك الخيال الذى من نوع خاص يمثل ذاتية الكاتب وذاتية الكاتب جزء مهم جدا فى نجاحه فيما يصور أو يكتب . فلا ن يكتب الصاحب كما يريد خير من أن يكتب كما يراد . لأن إرادته فيما يكتب دليل على ذاتيته .

كان الصابى يخضع أكثر ما يخضع للأساليب العقلية ، ويدين أكثر ما يدين للمنطق فخرج نثره قويا ولكنه يحتاج إلى روية ومعان فى تدبّره .
وهو وإن كان رصينا متينا إلا أنه لا يعدو باب الأفكار ، ولا يكاد يتجاوز العقل . فهو يخاطب العقل ويهتم به وحده .

---

* وكما استطاع الثعالبى أن يوازن بين الصاحب وبين هؤلاء الكتاب ، نستطيع نحن من جانب آخر أن نوازن بين الصاحب وبين الصابى أو المقدسى أو العتبى فيما وضعوه من كتب علمية فى التاريخ .

أما ابن عباد فكان ـ كما رأينا فى النماذج التى قدمتها من نثره وشعره ونقده ـ كالمصور الماهر . بل هو المصور عينه ، لا يكتفى بمنطق الصابى ولا يرضى بإهداء المعانى مجردة عن الوجدان الحاد والخيال المسهب ، فنراه يضع المعانى والفكر فى صورة جميلة منبثقة من وجدانه ، يخرجها إلينا فى إطار براق من خياله .. ويضفى عليها شعاعا من نفسه ، ويصب فيها جزءا كبيرا من ذاتيته فلا يكاد كلامه يصل إلى عقل سامعه حتى يطرق باب قلبه وما ذلك إلا لأنه يكتب كما يريد وكما تملى عليه ذاتيته . فشتان بين من يخاطب عقلك وبين من يخاطب عقلك وقلبك معا .

من أجل ذلك ترانى حين وازنت بين الصاحب والصابى قدمت الصاحب لأن أدبه أدب العقل والقلب معا . وهو من أجل ذلك يترك فى النفس أثرا لا يمحى .

الخاتمـــة

درسنا فى هذا البحث الحياة الأدبية فى أصبهان فى القرن الرابع الهجرى وقد سبقت الدراسة بمقدمة أبرزت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، وأشرت فيها إلى مصادر الدراسة ومراجعها ، والمنهج الذى رأيناه فى هذه الدراسة .

وجاءت الدراسة فى ثلاثة أبواب يسبقها تمهيد ، يقع فى مباحث ثلاثة إلقاء الضوء على أصبهان مكان الدراسة . المبحث الأول فى أصبهان الموقع والشكل ، والثانى فى مكانتها بين المدن الإسلامية والمبحث الثالث فى العوامل البيئية وأثرها فى الأدب .

وقد خصصت الباب الأول لدراسة الشعر فى أصبهان ، فجاء فى فصلين ، جعلت الأول لبيئة أصبهان بين الكتابة والشعر . وفى هذا الفصل تناولت ترجمة مختصرة لبعض النابهين ممن كان لهم أثر واضح على الأدب والشعر فى أصبهان ، وذكرت ما خلفوه من الكتب ووصفت أهم تلك الكتب وقيمتها بالنسبة لسواها ، وأشرت إلى المطبوع منها مع سنة الطبع ومكانه . وما لم يطبع ذكرت مكان وجوده فى أشهر المكتبات الكبرى . وربما فاتنى ذكر كتب لا توجد إلا فى بعض المكتبات الخاصة أو لم نصل إليها ، وذيلت كل ترجمة بأشهر المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى تفصيل تلك الترجمة أو التوسع فى ذلك .

وبعد هذه الترجمة الموجزة قمت بالوقوف كثيرا مع حمزة بن الحسن الأصبهانى والصاحب بن عباد لما لهما من أثر عظيم على الكتابة والشعر .

وأفردت الفصل الثانى منه بالحديث عن موضوعات الشعر وفنونه صدرته بتمهيد عن حالة الشعر فى القرن الرابع الهجرى ثم دراسة لبعض الأغراض الشعرية التى طرقها الشعراء فى أصبهان فى القرن الرابع محللا طرائقها ، معللا شيوع بعض هذه الأغراض وندرة البعض الآخر ، وأتيت فى غضون ذلك بالشاهد والشاهدين فى الغرض الواحد .

وتبين لى أن شعراء أصبهان فى هذا العصر نظموا قصائدهم فى كل غرض وجالوا فى كل مجال . ومن ثم قسمت هذه الأغراض الى قسمين .. أغراض تقليدية : وقد نظم فيها الشعراء كما نظم فيها الشعراء من قبلهم .. ولكنهم امتازوا فيها فى أحيان كثيرة بتجويد الأسلوب ، وتهذيب المعنى ، ورقة الأغراض . ومنها الغزل ، والمدح ، والرثاء والهجاء ، والشكوى ، والإخوانيات. وأغراض تجديدية : وهى كثيرة كثرة جدة الحياة نفسها فى هذا العصر ومنها الوصف ، وقد تناول الشعراء فى أصبهان وصف الطبيعة الحية والصامتة . واتضح لنا مما قدمناه من أمثلة أن الوصف كان من فنون الشعر التى تجددت فى القرن الرابع واتسعت دائرتها فى وصف الماديات والمعنويات على السواء ووصف المحسوس وغير المحسوس ، وأن مظاهر الحضارة الجديدة قد انعكست بأجلى صورها وأدق جزئياتها فى شعر هذا القرن ، كما اتخذ الوصف ألوانا كثيرة ، منها شمول النظرة والاستقصاء والميل الى السخرية والفكاهة ، والنزوع الى الجون أحيانا .

يضاف الى ذلك تطور شعر الطبيعة تطورا ظاهرا فبعد أن كان وصفا تقليديا أصبح وصفا وجدانيا يصور جميع نواحيها وبخاصة الجانب الرقيق الباسم الهادئ الفواح بالعطر والشذى .

وليس الوصف كل ما ذكرناه فحسب ولكنه كان يتضمن أيضا وصف الخمر وما يتصل بها .

ثم تحدثت عن التشيع الذى نلمسه فى الشعر الأصبهانى وختمت ذلك بقيمة شعرهم من الوجهة الفنية .

وتركت هذا الباب إلى الباب الثانى فتحدثت فيه عن فنون النثر الأدبى فى أصبهان . وما يشتمل عليه من رسائل مختلفة ، وفنون متنوعة وقد لاحظت فى الرسائل أن الكتاب كتبوا فى جميع ما عرف من الرسائل الإخوانية والديوانية والعامة ، لذلك وضعت كل رسالة فى موضعها المناسب .

أما الفنون الأخرى فقد تحدثت فيها عن التوقيعات ، والمناظرات ، والحكم والأمثال ، والمكاتبات التى أثرت عن الكتاب فى أصبهان ، وفى غضون ذلك تحدثت عن الخصائص الأدبية للرسائل فى أصبهان فى القرن الرابع.

وقصرت الحديث فى الباب الثالث من البحث على النقد الأدبى فى أصبهان. وفيه تناولت.. النقد والبلاغة قبل القرن الرابع الهجرى فى أصبهان ، ثم بينت كيف شاع نقد الأدباء فى القرن الرابع ، وما كان بين المتنبى والصاحب بن عباد من خصومات أدبية أحدثت ضجة هائلة فى الميدان النقدى فى القرن الرابع وما بعده ، ثم تحدثت عن الصاحب الناقد ، وعن كتاب الكشف عن مساوئ شعر المتنبى ، ثم تناولت الصاحب بين يديه ومعارضيه ، وأبا حيان التوحيدى والصاحب.

وبعد ذلك تناولت نقد أبى حيان للصاحب وختمت هذا الباب بموازنة بين الأدباء فى بلاط الصاحب بن عباد.

وقد حققت فى دراستى للحياة الأدبية فى أصبهان فى القرن الرابع الغرض الذى كنت أنشده من هذه الرسالة ، وعرفت منها قيمة الكتاب والشعراء من الوجهة الفنية ، ومدى ما يتركونه من أثر فى نفوس معاصريهم ومن يجيئون بعدهم. كما تحقق زعمى فى خلود مدارس النثر الفنى ، وأنها كانت أبقى زمنا وأطول عمرا ، وأعظم أثرا من مدارس الشعر التى أشبع القوم دراستها فى السنوات الماضية.

ووقفت من دراستى هذه على نواح كثيرة تفيدنا فى معرفة تطور الشعر والنثر والنقد ، وترسم أمامنا خطوطا جزئية كثيرة فى تاريخ الأدب ، هذه الخطوط تعتبر مواد أولية لا بد منها لمن يريد أن يدرس تاريخ الأدب دراسة تفصيلية تحقيقية متينة الجوانب.

وقد استرعى نظرى فى " الشعر فى أصبهان " أنه شعر قصير النفس وأنه شعر من الطبقة الثانية لأنه شعر مناسبات يرسله الشعراء عند الضرورة والحاجة .

ومن طريف ما وقفت عليه من شعرهم توافر عناصر الحوار والقصص فى كثير من أجزائه ، بحيث يجوز لنا أن نقول . إن لهم شعرا تمثيليا ، وشعرا قصصيا . وإن ما لهم فى هذين الضربين يمثل حركة بطيئة من حركات تطور الحوار والقصص فى الشعر العربى .

ولعل هذين الجانبين اللذين لاحظتهما فى الشعر يرجعان فى الغالب إلى ميلهم للشيعة ، واهتمامهم بابراز ممدوحيهم من الأئمة فى صورة حية متحركة بسبب ما يكنونه لهم من حب واجلال . ولعل عوامل الوراثة الفارسية بما تضمنته من أفكار وآداب فارسية كانت ذات جانب إيحائى واستعداد خاص أعانهم على ابراز هاتين الصورتين فى شعرهم .

وقد لاحظت فى دراستى للنثر الأدبى تطور النثر فى أسلوبه حيث أتوا بما لم يكن معهودا فى مدرسة ابن العميد فمالوا إلى السجع القصير الفواصل الذى سلمهم بدوره إلى الإكثار من الازدواج فى عباراته . وقد كان هذا التطور ايذانا بظهور مدرسة جديدة فى تاريخ النثر اتخذت من السجع طابعها الأول .

وقد لاحظت أن الكتاب استطاعوا أن يطوعوا المعانى والأفكار العلمية لأساليب الأدب .

يضاف إلى ما لاحظته — أن مدرسة النثر الأدبى وعلى رأسها الصاحب بن عباد كانت أبعد أثرا مما تصور القدماء لأنه كان أكثر من أستاذه ابن العميد أتباعا وأوسع منه طريقة . فلم يكن الكتاب وحدهم شيعته فى أسلوبه الجديد ، حيث انضم إليه جماعة آخرون .

وكانت طريقة الصاحب التى لمسناها فى أسلوبه وأسلوب مدرسته تمثل حلقة من حلقات تطور النثر الفنى ، لاحظت فيها تساوى الصناعة اللفظية مع الصناعة المعنوية تقريبا .

ولاحظت أخيرا ـ أن مدرسة الصاحب بن عباد فى أصبهان مهدت تمهيدا واضحا لكتاب المقامات ، بدليل أن البديع الهمذانى وهو أول كتاب المقامات المشهورين كان تلميذ الصاحب وكان شديد الاعجاب بأسلوبه وسجعه فلم لا يكون سجع (المدرسة الصاحبية) تمهيدا لكتابة المقامات؟

وتكون السجعات القصار محور الانتقال بين مدرسة السجع ومدرسة المقامات ، ولو من ناحية الصناعة اللفظية .

كل هذا وغيره يمكن أن يقال عن النواحى التى تضمنتها هذه الدراسة التى أرجو أن تكون قد سدت فراغا فى تاريخ أدبنا العربى وجلت صورة من أزهى صوره وأبهاها وأكثرها غنى بالأشكال والألوان فإذا وجدوا فيها بعض الظلال أو القتام فهذا عجزى وتقصيرى وما أنسب الكمال لنفسى وحسبى أنى فكرت واجتهدت وحاولت .

والحمد لله وما توفيقى إلا بالله .

الفهـــارس

*** الفهـــــــــــــارس ***

١ ــ فهرس الأشعار والقوافى

٢ ــ فهرس المراجع والمصادر

٣ ــ فهـــــرس الموضوعـات

فهـــرس الأشعـــار والقوافـــى

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
	((الهمـــزة))		
١	هـذا فـؤادك	أراء	٢٦
٢	أدعى بأسمـاء	أسمائى	٢٦
٣	لو أن سحبـان	فأفـاء	٢٦
٤	إن الجهـول	استقاء	٨٨
٥	نعم تجنـب	الـراء	١٤٥
٦	والنبـت	بالمـاء	١٥٠
	((الهـــاء))		
٧	أفسـد	مذهبى	٥٣
٨	تبسطنـا	الذنوب	٥٥
٩	وقد بلغـت	النـوب	٥٨
١٠	ومذلـل	فكئيـب	٩٦
١١	لقد قلـت	اللهيب	٩٧
١٢	أرى سنـتى	النوائب	١٠٨
١٣	أبيت أنـادى	طالـب	١١٦
١٤	لنـار الهـم	المهيب	١١٩ ، ١٢٠
١٥	وحبـة من عنـب	التراثـب	١٢٧
١٦	وشمعة قدمـت	صـب	١٣٥
١٧	إن القداح أمرهـا	والرقيب	١٣٥
١٨	أيا أمـة أعمـى	لاحـب	١٤٢
١٩	ألا سـاء	والمحارب	١٤٢
٢٠	قل لباغى النـدى	موهـوب	١٥٠

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٢١	أرابك دمعي	صعب	١٥١
٢٢	لدغت عيناك	عقرب	١٥١
٢٣	رث الشمائل	الأعراب	١٦٢
٢٤	إذا أدناك	وراقب	٢٣٠
٢٥	فأدركهن	متحلب	٢٥١
٢٦	فللسوط ألهوب	متعب	٢٥١
٢٧	وصدر أراح	جانب	٢٥٢
٢٨	وللترك	ريب	٢٩٢
٢٩	لا يحزن الله	بنصيب	٢٩٤
٣٠	في رتبة حجب	الحاجبا	٢٩٤

((التاء))

٣١	في مشيبي	لحياتي	١٠٨
٣٢	قد قبلنا	الباقيات	٢١٤
٣٣	أيها الصاحب	الشامت	٣٠٧

((الثاء))

٣٤	وشادن قلت له	عباث	٩٢

((الجيم))

٣٥	بعثنا من	نوافج	١٢٧
٣٦	كرات من العقيان	صوالج	١٢٩
٣٧	قل للوزير	الملتجي	٢١٥
٣٨	هنئته هنئته	الدجي	٢١٥

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٣٩	وأقطع الخرق	سرجا	٢٥٣
	((العين))		
٤٠	تسحب ما أردت	الصباح	٩٠
٤١	خداه ورد	الراح	٩٠، ٩٤
٤٢	قلت لخلي	الملاح	٩٠
٤٣	تبسم إذ تبسم	صباح	٩٣
٤٤	فمضى أبو موسى	البراح	١٤٢
٤٥	وأدنيتني	الأباطح	١٧١
	((الدال))		
٤٦	الحمد لله	ولدا	٢٧
٤٧	أعددت للحدثان	علندى	٢٨، ١٣٠
٤٨	ورث الوزارة	بالاسناد	٨٠، ١٠١، ٢٩٩
٤٩	يا ابن الخضيرى	والعود	٨٤
٥٠	حث المطى	الوجد	٩٥
٥١	ما زلت أعسف	بالانجاد	٩٥
٥٢	أيها الآملون	الزناد	٩٨
٥٣	ولرب ليل	بسهاد	٩٩
٥٤	ولن تبلغ	الجهدا	١٠٠
٥٥	وأذم أيام	العواد	١٠٠
٥٦	قل للزمان	عادى	١٠٠
٥٧	ولو عد الناس	معبودا	١٠١
٥٨	أبعد ابن عباس	جواد	١٠٦
٥٩	أناخ الشيب	مردا	١٠٧، ١١٥

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٦٠	أضحى اللوم	وعادى	١١١
٦١	ياقاضيا	السعيد	١١٣
٦٢	نبئت أنك	وعيدى	١١٤
٦٣	فتناهى البنيان	بالتشييد	١٣٣
٦٤	ياأيها الظبى	الأسد	١٣٨
٦٥	خون سيبد بارم (فارسى)	سعد	١٥١
٦٦	ولم أرلى	مسعدا	١٥١
٦٧	والنجم فى كبد	قائد	١٥٢
٦٨	مابال هذى	قائد	١٥٢
٦٩	لبسن برود	برود	١٥٢
٧٠	هل غادر	مستردم	١٥٣
٧١	يا مرحبا بغد	فى غد	١٦٣
٧٢	سلاما كمارق	الورد	١٧٦
٧٣	سأطلب بعد	لتجمدا	٢٦٠
٧٤	شهدت	من برد	٢٨٨
٧٥	كأن أباه	ويصعد	٢٩٤
٧٦	أيا خاطبا	المهندا	٢٩٩
٧٧	بهداه يستضوى	المعبود	٢٩٩
٧٨	اذا رأيت	بادى	٣٠٠

((الـــــــراء))

٧٩	للـــــه در	الخطير	٥٤
٨٠	ابن لى	بلا نظير	٧٠
٨١	وعهدى بالعقارب	خيرا	٩٠
٨٢	أتانى البدر	يا قمر	٩٣
٨٣	وخطكأن	فأتمر	٩٤

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٨٤	أهتز عند	الظفر	٩٤
٨٥	فأقسمت ما في	شاعر	٩٩
٨٦	وإذا لقيت	الوطر	١٠٢
٨٧	همام رأى	وقور	١٠٣
٨٨	ولكن له طبع	بصير	١٠٣
٨٩	ومكلف الأيام	نار	١٠٥
٩٠	قالوا اكتهلت	نهار	١٠٧
٩١	نزلت على	جار	١١٨
٩٢	يا أبا القاسم	لا تزور	١٢١
٩٣	أشرف عليها	الأستار	١٢٣
٩٤	وفصل فيه	حرير	١٢٥
٩٥	كم من جنان	الأشجار	١٢٦
٩٦	تين يزين	يتحير	١٢٧
٩٧	أقبل الثلج	منثور	١٢٨
٩٨	رق الزجاج	الأمر	١٣٨ و ١٤٩
٩٩	نهبت ندمائي	العبور	١٣٩
١٠٠	بدر و زهتهن	سوافر	١٥٠
١٠١	وكأن السماء	كافور	١٥٢
١٠٢	وكم من جبال	البحر	١٦١
١٠٣	سقى الله	ابن عامر	١٦٣
١٠٤	وإن صخرا	نار	٢٥١
	« الـــــزاى »		
١٠٥	حسن الربيع	بزبروز	١٢٥
١٠٦	وتبدو صحون	حرزا	١٣٢

مسلسل	مظلع البيت	القافية	رقم الصفحة
١٠٧	كفرندى	للبراز	٢٩٥
١٠٨	يقضم الجمر	الأهواز	٢٩٥
	((السين))		
١٠٩	ترفق أيها المولى	النفوسا	٩٦
١١٠	يا أبا مسلم	الجليس	١١٨
١١١	قتلتني بظلمة	الأبنوس	١٢٨
١١٢	فمازال معقولا	حابس	٢٥٣
	((الشين))		
١١٣	وشوق كالتوقد	كالمحاش	٢٩٥
١١٤	كأنك ناظر	غاش	٢٩٥
	((العين))		
١١٥	إذا زرته	بشافع	٩٨
١١٦	سيشهد أبناء	مطيع	١٢١
١١٧	يا زائرين	الرجوعا	١٤٨
١١٨	ولما تنازعن	تتقنعا	١٥٠
١١٩	وقضيت من الخلاف	الترصيع	١٧٨
١٢٠	أسائلها	دموعا	٢٩٢
١٢١	أيتها النفس	وقعا	٢٩٤
١٢٢	الألمعي الذى	سمعا	٣١٠

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
	((الغين))		
١٢٣	يارب غانية	تنساغ	٩٤
	((الفاء))		
١٢٤	انظر إليه	أشرف	٩١
١٢٥	وفي خمسة	الرشف	٩٥
١٢٦	يا من نعوذ	الأشرف	١٠١
١٢٧	إن الغوير	الكنف	١١٣
١٢٨	يا أيها الرشأ	إلى تلفى	١١٥
١٢٩	أبا جعفر	الهدف	١١٧
١٣٠	لله عيش	مالف	١٢٤
١٣١	وأصهب في	خشف	١٢٩
١٣٢	هذى المدام	تختلف	١٣٩
١٣٣	ولا الضعف	ألف	٢٩١ ، ٢٩٦
١٣٤	تفكره طعم	ظرف	٢٩٥
	((القاف))		
١٣٥	لا تركنن إلى	المذاق	٥٠
١٣٦	هذا الأديب	مشتاقا	١١١
١٣٧	ولما بدا	الشفق	١٢٧
١٣٨	ذريني أواصل	الفارق	١٤٠
١٣٩	والله لو كانت	عشقوا	١٥٠
١٤٠	تعرفت بالعدل	العراق	٢١٦
١٤١	أرق على أرق	ترقرق	٢٢٧

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
	((اللام))		
١٤٢	لست آسى	الزلال	٦
١٤٣	أبكيك لى	أرامل	٥١
١٤٤	لو كان علمك	رسولا	٨٧
١٤٥	وشادن	معتدل	٩١
١٤٦	طال اشتياقى	بال	٩٢
١٤٧	أيا ملكا	عواملة	٩٩
١٤٨	برق الثناء	الأعزل	١٠٣
١٤٩	يقولون لى	جليل	١٠٦
١٥٠	أراك على شغا	فضول	١١٠
١٥١	غنينا بالطبول	ذمول	١١٠
١٥٢	هواء كأيام	العوازل	١٢٧
١٥٣	سقى قصر	العزالى	١٣١
١٥٤	وسامية الأعلام	متضائلا	١٣٢
١٥٥	أكل بناء	المنازلا	١٣٣
١٥٦	أيها الصاحب	العقول	١٣٦
١٥٧	لو عاينت	منزل	١٣٧
١٥٨	قالت من صاحب	الرسل	١٤٧
١٥٩	ليس الوشى	الجمالا	١٥٢
١٦٠	لو كنت أعلم	أفعل	١٦٥
١٦١	قفانيك	فحومل	١٦٦
١٦٢	فلو كان النساء	الرجال	١٧٣
١٦٣	كأن جميع	شامل	١٧٦
١٦٤	نقل فؤادك	الأولى	١٧٧

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
١٦٥	إذا ما أرادت	أول	١٧٧
١٦٦	وليل كموج البحر	ليبتلى	٢٥٢
١٦٧	أيقتلني	أغوال	٢٥٥
١٦٨	أفي كل	يطاول	٢٧٨ ، ٢٧٩
١٦٩	وإذا أتتك	فاضل	٢٧٩
١٧٠	وأتعب من	تشاكل	٢٧٩
١٧١	أقبر	الطل	٢٨٨
١٧٢	أيغطمه	الأكل	٢٩٠
١٧٣	رواق العز	كمال	٢٩١
١٧٤	صلاة الله	بالجمال	٢٩٢
١٧٥	شوائل	صهيل	٢٩٢
١٧٦	جغجغت	دلائل	٢٩٢
١٧٧	لئن كان	وطبول	٢٩٣
١٧٨	فإن تكن	تدول	٢٩٣
١٧٩	وقد ذقت	عن جهل	٢٩٤
١٨٠	في الخد	محولا	٢٩٤
١٨١	إذا مدح	فضلا	٢٩٨

((الميم))

١٨٢	يقولون لي	أحجما	٤١
١٨٣	أكافي كفاة	نعمى	١١٨ ، ١٠٢ ، ٥٠
١٨٤	يالذتي	ولثما	٩٢
١٨٥	قالوا ربيعك	سلم	١٠٢

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
١٨٦	سعود يحار	المنجم	١٠٣
١٨٧	فدى لك	الحمام	١٠٦
١٨٨	تمهرفى	لجام	١٠٧
١٨٩	يا مالك الأرواح	والاحكام	١٠٨
١٩٠	رغيفك	الحرم	١١١
١٩١	أقول لركب	نعم	١١٤
١٩٢	ولما تناءت	وهم	١١٦
١٩٣	انى ركبت	تنكتم	١٣٠
١٩٤	قصور كالكواعب	الظلما	١٣١
١٩٥	علمت فى	الأنجما	١٣٣
١٩٦	لوم النديم	الندام	١٣٦
١٩٧	برئت من	غذائهم	١٤١
١٩٨	هل غادر الشعراء	متردم	١٥٣
١٩٩	تحدثت الركاب	خيامى	١٦٣
٢٠٠	وقائلة	الأمم	١٦٧
٢٠١	والمورد العذب	الزحام	٢٢٤
٢٠٢	لنا الجفنات	دما	٢٥١
٢٠٣	كفاك كف	الدما	٢٥٩
٢٠٤	عظمت	المظم	٢٩٠
٢٠٥	نحن من	الأيام	٢٩٠
٢٠٦	لا تحمدن	حرما	٣٠٠

((النون))

٢٠٧	نعوه	الناعيان	٥٣

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٢٠٨	من غدير	والخلان	٥٨
٢٠٩	أيا من عطاياه	أو دنا	٨٠
٢١٠	صم إن أردت	بالهجران	٩٢
٢١١	راسلت من	رمضان	٩٢
٢١٢	ولما انتجعنا	وما منا	٩٨
٢١٣	يا كافي الملك	تأبين	١٠٦
٢١٤	أقول وقد	مقبلة الينا	١١٥
٢١٥	ولما أبيتم	الرجفان	١١٧
٢١٦	أروم نهوضا	الرجفان	١١٧
٢١٧	أكرم أخاك	الحسن	١١٨ ، ٢٧١
٢١٨	يا أبا الفضل	ظنا	١٢١
٢١٩	يا خليلي	العطشان	١٤٠
٢٢٠	حفظ اللسان	للاحسان	٢٣٠
٢٢١	رأيت بباب	حمراوين	٢٦٨
٢٢٢	لا تقل بشرى	المهرجان	٢٨٨
٢٢٣	يا من يقتل	بالاحسان	٢٩٣

((الهاء))

٢٢٤	دار الوزراء	لاحقها	٢٧
٢٢٥	اذا نحن	شذورها	٤١
٢٢٦	تزهى بأترابها	ابن ماجدها	٤٩
٢٢٧	بدايع الحسن	متفقه	٥٤
٢٢٨	سما التلعفري	وصاله	٥٥

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٢٢٩	لا يعجبنك	منازلها	٥٧
٢٣٠	على كالغزال	غلاله	٨٩
٢٣١	أبا شجاع	قبله	٨٩
٢٣٢	رشاغدا	كخصره	٩٠
٢٣٣	بدا لنا	عقوقه	٩١
٢٣٤	قال لي	فداره	٩٣
٢٣٥	نفسي الغداء	حجابه	٩٣
٢٣٦	عذارك	وبأماقها	٩٤
٢٣٧	المستغاث من الهوى	تياه	٩٥ ، ١١٥
٢٣٨	ومختصر الخصر	صده	٩٦
٢٣٩	الآن أحسن	وريحانه	٩٦
٢٤٠	إن كان اسماعيل	لديه	١١١
٢٤١	قال يوما	فؤاده	١١٢
٢٤٢	صاحبنا أحواله	خالية	١١٢ ، ٣٠٠
٢٤٣	هيهات	أبراجه	١١٦
٢٤٤	وأخ إذا	معروفه	١١٧
٢٤٥	يا أيها القاضي	مشتاقه	١١٨ ، ١٤٩
٢٤٦	أو ما ترى	ريحانه	١٢٢
٢٤٧	كم ليلة	كسمانها	١٢٨
٢٤٨	هات المدامة	غضه	١٢٩
٢٤٩	وحبة من عنب	متخذه	١٢٩
٢٥٠	ند لفخر الدولة	يديه	١٣٠
٢٥١	من فوقها	أقصاها	١٣٢
٢٥٢	ظللنا اليوم	مستنيره	١٣٤ ، ١٣٥
٢٥٣	سقيت وفي	بصوتها	١٣٨

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٢٥٤	بلغت نفسي	طه	١٤١
٢٥٥	من كمولاى علي	لظاها	١٤١
٢٥٦	أتى القول	تحاربه	١٤١
٢٥٧	إن سارفي	صاحبه	١٥٠
٢٥٨	وترى الرياح	قذاه	١٥٠
٢٥٩	ولو لم يكن	سائله	١٥٠
٢٦٠	كالنار تأكل	ما تأكله	١٥١
٢٦١	لئن هو	ريفه	١٥١
٢٦٢	ومن عجب	كاتبه	١٥٢
٢٦٣	يقر بعيني	سلامها	١٦٧
٢٦٤	لو كنت أملك	ترابها	١٦٩
٢٦٥	العميري	القضاه	٢١٤
٢٦٦	يا ابن عباد	حرها	٢١٧ ، ٣٠٠
٢٦٧	يزدحم الناس	بابه	٢٢٤
٢٦٨	هذا الأديب	ببركه	٢٢٧
٢٦٩	من لم يعدنا	الجنازة	٢٣٠
٢٧٠	اسمع نصيحة	والمقه	٢٤٥
٢٧١	وما مثله	يقاربه	٢٦٠
٢٧٢	كأن مثار	كواكبه	٢٦٢
٢٧٣	حسود	حزينه	٢٦٨
٢٧٤	إلى ابن عباد	الكفاه	٢٧٠
٢٧٥	ويشرب الجيش	الصراه	٢٧١
٢٧٦	بليت بلي	أقف بها	٢٩١
٢٧٧	وقوف شحيح	خاتمه	٢٩١

مسلسل	مطلع البيت	القافية	رقم الصفحة
٢٧٨	إنى على	سراويلاتها	٢٩٦
٢٧٩	إن كان اسماعيل	صعب عليه	٣٠٠
٢٨٠	لبنى المنجم	عربية	٣٠٨

((الهـــــاء))

٢٨١	أحمد الله	العشى	٢٧
٢٨٢	وشادن	صفتى	٨٥ ، ٩٢
٢٨٣	وصرت إلى الباب	أجتنى	٩٨
٢٨٤	مضى بأبى الفضل	مما بقى	١٠٥
٢٨٥	وكم شامت	وفاتى	١٠٩
٢٨٦	ظل السلامى	وأستاذى	١١٢
٢٨٧	إن قاضينا	تعامى	١١٣
٢٨٨	ومحبوب يطوف	وحيا	١٣٨
٢٨٩	ألا زعمت	أمثالى	٢٥٨
٢٩٠	كأن قلوب	البالى	٢٦٢
٢٩١	كهم متى	وحدى	٢٨٨
٢٩٢	يعيشك هل	غير سالى	٢٩١
٢٩٣	أحاد	بالتنادى	٢٩٢
٢٩٤	أصلحتنى	أفسدتنى	٢٩٣

::*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*

** المراجـــــع والمصـــــادر **

أولا : القـــــرآن الكريـــــم :

ثانيا : المطبوعـــــــــات :

ـ اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجـــرى . د . محمد مصطفى هدارة (الطبعة الأولى ، المكتب الإسلامى ١٤٠١ هـ).

ـ الآثـــار الباقيـــــــــة للبيرونى (طبعة ليبســـك ١٨٧٨م) .

ـ آثار البلاد وأخبار العبـــاد زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (دار صادر بـــيروت) .

ـ أثر القرآن فى تطور النقد العربـى د . محمـــد زغلـــول ســـلام .

ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقالـيم للمقديس (طبعة ليدن ١٩٠٦ م) .

ـ أخبار أصبهـان لأبى نعيم الأصبهانى (طبعة ليدن ١٩٣١م).

ـ اخبـار العلمـاء بأخبار الحكمـاء للقفطى (طبعـة السعادة ١٣٢٦ هـــ).

ـ أخـلاق الوزيريـن لأبى حيـــان التوحيـــدى .

ـ الأدب فى ظـل بـنى بويـــه للزهيرى (طبعـة الأمانـة ١٩٤٩ م).

ـ ارشاد الاريـــب لياقـوت (مطبعة هندية بالموسكـــى).

ـ ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى للقسطلانـــى .

ـ أصول النقـد الأدبـــى لأحمد الشايب (طبعة الفاروقية ١٩٤٠م).

ـ الإعجاز والإيجـــاز للثعالبى (طبعـة مصـــــر ١٨٩٧م).

ـ الأعـــلام لخير الدين الزركلى (طبعة العربية ١٣٤٧هـ).

ـ الاعـــلان بالتوبيخ للسخاوى (مخطوط بدار الكتب القوميـة).

ـ أعيان الشيعـــة للعاملى (طبعة ابن زيدون ١٣٥٧ هـ).

ـ الأغانـــــــى لأبى الفرج الأصفهانى (طبعة دار الكتـب).

ـ ألحـان الحـــان لعبد الرحمن صدقى (طبعة دار المعارف ١٩٤٧م).

ـ الإمتـــاع والمؤانســة	لأبى حيان التوحيدى (طبعة لجنه التأليف)
ـ إنبـاه الرواه على أنباه النحاة	جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى
ـ الأنســاب	للسمعانى (طبعة حيد رأباد ، الهنـــد) (ليدن ١٩١٢م) .
ـ الإيضـــاح	للخطيب القزوينى (طبعة دار الفكر العربـى)
ـ البداية والنهايـة	لابن كثير الدمشقى (طبعة القاهرة)
ـ البديـــع	لابن المعـــتز
ـ بغية الوعـاة	للسيوطـى (طبعة السعادة ١٣٢٦هـ) .
ـ البلاغـــة	لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد .
ـ بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار وأثره فى الدراسات البلاغيه	د . عبد الفتاح لاشين (دار الفكر العربـــى ١٩٧٧م) .
ـ بلـوغ الأرب	شرح محمد بهجة الأثرى (طبعة دار الكتاب العربى ١٣٤٢هـ) .
ـ البيان والتبيـين	للجاحظ ـ (تحقيق هارون ، وطبعه الرحمانية ١٩٢٧م) .
ـ تأويل مختلـف الحديـث	لابن قتيبـة (طبعـة الحلـبى) .
ـ تأويل مشكـل القـــرآن	لابن قتيبـة (طبعـة الحلـبى) .
ـ تاريخ آداب اللغـة العربيـــة	لجرجى زيدان (طبعة دار الهـــلال) .
ـ تاريخ الأدب العربـى	أحمد حسن الزيات (الطبعة الرابعة ١٣٤٧هـ مطبعـة الاعتمـاد) .
ـ تاريخ الأدب العربى المترجـم	لكارل بروكلمـــان .
ـ تاريـخ أصبهـان	لابى نعيم (طبعة ليـدن ١٩٣١م) .
ـ تاريـخ بغـــداد	للبغـــدادى
ـ تاريـخ الحضـارة	لبارتولد (ترجمة حمزة طاهر طبعة دار المعارف ١٩٤٢م) .
ـ تاريخ الحضارة فى القرن الرابـــع	لمتز (طبعة لجنة التأليف ١٣٥٩ هـ) .
ـ تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبيـاء	لحمزة الأصبهانـى (طبعـة بيروت) .

ـ تاريخ النقد الأدبى والبلاغة حتى القرن الرابع الهجرى	د ٠ محمد زغلول سلام
ـ تذكرة الحفاظ	للذهبى (طبعة حيدرأباد ١٢٣٣ هـ) ٠
ـ تذوق الأدب طرقة ووسائله	لمحمود ذهنى
ـ تراث فارس (بحث الحدائق الفارسية)	ترجمة أحمد الساداتى (طبعة الحلبى القاهرة ١٩٥٩م)٠
ف ٠ ساكفيل وست	
ـ تفسير سورة الإخلاص	لابن تيمية
ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق	لمسكويه (تحقيق ابن الخطيب ـ الطبعة الأولى ١٩٢٤م)٠
ـ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى	تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ط٠ مصرسنه ١٩٠٨م
ـ الحضارة العربية الإسلامية لآدم ستز	ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة (طبعة دار الكتاب العربى بيروت ١٣٨٧ هـ)٠
ـ أبو حيان التوحيدى	لعبد الرازق محيى الدين ط٠ السعادة ١٩٤٩)٠
ـ الحيوان للجاحظ	تحقيق فوزى عطوى ـ دار صعب بيروت) ٠
ـ خاص الخاص	لأبى منصور الثعالبى (طبعة السعادة ١٩٠٨م)٠
ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب	لعبد القادر البغدادى ـ (طبعة السلفية)٠
ـ دائرة المعارف الإسلامية لبعض المستشرقين مادة بويه	(ترجمة لجنة التأليف ١٩٣٣م)٠
ـ دراسات فى الأدب العربى	د ٠ محمد زغلول سلام (منشأة المعارف بالأسكندرية)
ـ الدرة الفاخرة فى الأمثال السائرة لحمزة الأصبهانى	تحقيق عبد المجيد قطامش (طبعة دار المعارف سنة ١٩٧١م)٠
ـ ديوان الشريف الرضى	(طبعة الأدبية ببيروت ١٣٠٧ هـ)٠
ـ ديوان الشعر العربى	على أحمد سعيد (آدونيس) منشورات المكتبة العصرية ٠
ـ ديوان أبى الفتح البستى	طبعة جمعية الفنون ببيروت ١٢٩٤ هـ) ٠
= ديوان المتنبى	(طبعة بيروت ١٩٢٥م)٠
ـ ديوان أبى نواس	بتحقيق فاغنر
ـ ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام	لعزام (طبعة الجزيرة ببغداد ١٩٣٦م) ٠

- ذيل تجارب الأمم — لابن شجاع (طبعة التمدن ١٩١٥م).
- رسائل بديع الزمان الهمذانى — (طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ).
- رسائل أبى بكر الخوارزمى — (طبعة مطبعة الجوائب ١٢٩٧هـ) الطبعة الأولى .
- رسائل الصاحب بن عباد — تصحيح وتقديم محمد الوهاب عزام ، وشوقى ضيف (الطبعة الأولى - دار الفكر العربى).
- رسائل قابوس وشمكير — (طبعة السلفية ١٣٤١ هـ).
- رسالة الارشاد — للقوبائى (طبعة المجلس بطهران ١٣٥٢هـ).
- زهر الآداب للحصرى القيروانى — شرح على محمد البجاوى (الطبعة الثانية - دار احياء الكتب القومية) ، (طبعة الرحمانية ١٣٤٤ هـ).
- سر الفصاحة — لابن سنان الخفاجى (طبعة الرحمانية ١٩٣٢م).
- سرقات أبى نواس — تحقيق د . محمد مصطفى هدارة .
- سيبويه إمام النحاة — د . على النجدى ناصف
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — لابن العماد (مطبعة القدسى ١٣٥٠ هـ) .
- شرح ديوان المتنبى — لابن جنى
- شرح المضمون به على غير أهله — لعبيد الله الكافى العبيدى (دار البيان - بغداد - دار صعب بيروت
- شرح مقامات الحريرى — للشريشى (الطبعة الثانية ١٣٠٠هـ ، المطبعة الميرية ببولاق) .
- الشعر والشعراء — لابن قتيبة
- صبح الأعشى فى صناعة الانشاء — لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى (طبعة الحلبى)
- الصبح المنبى عن حيثية المتنبى — تحقيق مصطفى السقا ، محمد شتا ، عبده زيادة - (دار المعارف ١٩٦٣)
- الصناعتين — لأبى هلال العسكرى (طبعة استانبول ، طبعة الأستانة ١٩١٣م).

ـ طبقات الشافعية	لابن السبكى (طبعة الحسينية)٠
ـ ظهور الإسلام	أحمد أمين (طبعة اللجنة ١٩٤٥م)٠
ـ العصر العباسى الثانى	د ٠ شوقى ضيف (طبعة دار المعارف الثانية ١٩٧٣ م)
ـ العمدة فى صناعة الشعر ونقده	لابن رشيق القيروانى (نشر مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٠٧ ، طبعة السعادة ١٣٢٥هـ)٠
ـ عيار الشعر لابن طباطبا	تحقيق د ٠ محمد زغلول سلام (طبعة منشأة المعارف)
ـ عيار الشعر لابن طباطبا	تحقيق د ٠ عبد العزيز بن ناصر المانع (طبعة دار العلوم ١٤٠٥ هـ الرياض السعودية)
ـ عيون الأخبار	لابن قتيبة (طبعة بيروت)٠
ـ غاية النهاية فى طبقات القراء	لشمس الدين أبى الخير محمد بن محمد بن الجزرى٠
ـ غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى بن ظافر الأسدى	تحقيق د ٠ زغلول سلام ، مصطفى الصاوى (طبعة دار المعارف)
ـ فلسفة البلاغة	د ٠ محمد رجاء عيد ٠
ـ الفن ومذاهبه	د ٠ شوقى ضيف (طبعة اللجنة ١٩٤٦م)٠
ـ الفنون الإيرانية	لزكى حسن (طبعة دار الكتب ١٩٤٠م)٠
ـ الفهرست للنديم	أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحق (طبعة بيروت)٠
ـ فوات الوفيات	لابن شاكر
ـ القاضى الجرجانى	د ٠ محمود السمره (طبعة بيروت)٠
ـ قاضى القضاء عبد الجبار	عبد الكريم عثمان (طبعة بيروت)٠
ـ القاموس المحيط	للفيروز بازى (طبعة المصرية ١٣٥٣ هـ)٠
ـ الكامل فى التاريخ	لأبى الحسن بن الأثير (طبعة ليدن ١٨٩٣م)٠
ـ الكامل فى اللغة والأدب	لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد
ـ كشف الظنون	مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة

ـ الكشف عن مساوىء شعر المتنبى للصاحب	تحقيق محمد حسن آل ياسين (مكتبة النهضة بغداد ـ طاسنة ١٣٨٥ هـ)
ـ كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان	لابراهيم الأُحدب (ط٠دار التراث بيروت)٠
ـ لسان العرب	لابن منظور (طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، طبعة بولاق ١٣٠٠ هـ)٠
ـ لطائف اللطف لأبى منصور الثعالبى	تحقيق د٠ عمر الأسعد (طبعة ١ سنة ١٤٠٠هـ ـ دار المسيرة بيروت) ٠
ـ مآثر الاناقة فى معالم الخلافة	تحقيق عبد الستار أحمد فراج (عالم الكتب)٠
ـ المثل السائر لضياء الدين بن الأثير	تحقيق أحمد الحوفى ، بدوى طبانة (طبعة مكتبة النهضة ١٩٥٩م ،طبعة بولاق ١٢٨٢هـ)٠
ـ محاسن أصفهان للمافروخى	تصحيح ونشر السيد جلال الدين الحسنى الطهرانى (مطبعة مجلس ١٣٥٢ هـ)
ـ محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى	تهذيب واختصار إبراهيم زيدان (دار التراث)
ـ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية	للشيخ محمد الخضرى (طبعة الحلبى ١٣٤٩هـ، الطبعة الرابعة مطبعة الاستقامة ١٣٥٤ هـ)٠
ـ مرآة الجنان	لأبى محمد اليافعى (طبعة الهند ١٣٣٨هـ)٠
ـ مرآة الزمان	لبسط بن الجوزى (مخطوط بدار الكتب) ٠
ـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار	لابن فضل الله العمرى (طبعة دار الكتب ١٩٢٤م)٠
ـ مسالك الممالك	للاصطخرى (طبعة ليدن ١٨٧٣ م)
ـ مصادر الدراسة الأدبية	يوسف أسعد داغر (مطبعة دير المخلص ـ صيدا ـ لبنان ١٩٥٠ م)٠
ـ معانى القرآن للفراء	تحقيق النجار ٠
ـ معاهد التنصيص على شواهد التخليص للعباسى	تحقيق محمد محى إبراهيم (طبعة مصر ١٣١٦هـ)٠

ـ معجم الأدباء — لياقوت (طبعة دار المأمون الأخيرة ، طبعة فريد الرفاعي) .

ـ معجم البلدان — لياقوت (طبعة دار صادر بيروت ١٩٧٩م ، طبعة السعادة ١٣٢٤ هـ) .

ـ المغنى فى أبواب التوحيد والعدل — للقاضى أبى الحسن عبد الجبار

ـ المقابسات لأبى حيان التوحيدى — تصحيح أحمد أمين (طبعة السندوبى) .

ـ المنتظم لابن الجوزى — (طبعة الهند ١٣٥٧ هـ)

ـ المنظومة الفريدة للصاحب — مخطوط بدار الكتب رقم ١٦ ش تاريخ

ـ المنية والأمل — لابن المرتضى (طبعة حيدر أباد ١٣١٦هـ) .

ـ الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء — لأبى عبد الله المرزبانى تحقيق البجاوى (طبعة السلفية ١٣٤٣ هـ) .

ـ ميزان الاعتدال — للذهبى (طبعة حيدر أباد ١٣٠١ هـ) .

ـ النثر الفنى فى القرن الرابع — د . زكى مبارك (طبعة دار الكتب ١٩٣٤) .

ـ نثر النظم وحل العقد — للثعالبى (طبعة التجارية بمصر ١٣١٧ هـ) .

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب ١٣٥١هـ) .

ـ نزهة الألباء فى طبقات الأدباء — لعبد الرحمن الانبارى (طبعة جمعية إحياء آثار العلماء) .

ـ نشأة البلاغة — د . سيد نوفل

ـ نهاية الأرب — للنويرى (طبعة دار الكتب ١٣٤٢ ، ١٣٤٧هـ) .

ـ هدية العارفين — لاسماعيل بغدادى (طبعة استانبول ١٩٨١م) .

ـ الوافى بالوفيات — لصلاح الدين الصفدى (المطبعة الهاشمية ـ دمشق ١٩٥٣م ، مطبعة استانبول ١٩٣١م) .

ـ الوزراء والكتاب — للجهشيارى (طبعة ١٩٣٨ م)

ـ الوساطة — لعبد العزيز الجرجانى (طبعة الحلبى ١٣٦٤هـ) .

ـ وفيات الأعيان — لابن خلكان (طبعة دار المأمون) .

ـ يتيمة الدهر — للثعالبى (ط . الصاوى الأولى ١٣٥٣ هـ) ، (ط . السليمية بدمشق ١٣٠٣ هـ) .

ثالثا : الرسائـــل العلميـــة :

ـ دور اللغويين فى نشأة النقد الأدبى حتى نهاية القـرن الرابـع .	رفيق حسن الحليمى ـ دكتوراه ١٩٨٠ ـ جامعة عـين شمـس .
ـ الصاحب بن عباد . حياته وأدبـه .	حامد حنفى داود ـ ماجستير ١٩٥١ م ـ جامعة عين شمـس .
ـ صور الحضارة العباسية فى بغداد فى شعـر القـرن الثالث الهجرى .	جمال محمود عيسى ـ ماجستير ١٩٨٤ ـ جامعـة طنطـا .

رابعا : المراجـــع الأجنبيـــة :

El well - sutton, modern Iran .

فهـــــــرس الموضوعـــــــات

الموضـــــــوع	الصفحـــــة من	الـــى
مقدمة : الدافع إلى الرسالة - عرض عام لها — مصادر البحث.	أ	جـ
التمهيـــد :	١	٢٩
.....		
مدينة أصبهـــان	١	٢
موقع المدينـــة	٢	
بناء أصبهـــان	٤	
أبواب المدينـــة	٤	٥
بيئتها الطبيعية	٥	٦
مكانتهـــــا	٧	٨
فتحهـــــا	٨	٩
العوامل البيئية وأثرها فى الأدب	١٠	١٢
عوامل البيئـــة	١٢	١٣
البيئة الاجتماعية والاقتصادية	١٤	١٦
البيئة السياسية	١٦	٢٠
الحياة العقلية وأثرها فى الأدب	٢١	٢٤
منزلة أصبهان الأدبية	٢٤	
الشعراء فى أصبهـــان	٢٥	
المجالس الأدبية فى أصبهان	٢٥	٢٦
المعارضـــات الشعرية	٢٦	٢٩
الباب الأول :— الشعر فى أصبهـــان	٣٢	١٥٣
الفصل الأول :— بيئة أصبهان بين الكتابة والشعر	٣٢	٨٥

	من	الى
الأدب والأدباء	٣٦	
ابن كيغلغ	٣٦	٣٧
أبو الفرج الأصبهانى	٣٧	٣٨
أثره فى الأدب	٣٨	٤١
أبو الحسن الجرجانى	٤١	
أثره فى الأدب	٤١	٤٢
أبو هلال العسكرى	٤٢	
أثره فى الأدب	٤٢	٤٣
المرزوقى	٤٣	٤٤
أثره وتصانيفه	٤٤	
أسلوب الترسل	٤٥	
المنشئون أو المترسلون	٤٦	
أبو بكر الخوارزمى	٤٦	
بديع الزمان الهمذانى	٤٧	٤٨
الهمذانى وأثرة فى الأدب	٤٨	٤٩
الصابى	٤٩	٥١
الشعر والشعراء	٥٢	
ابن الحجاج	٥٢	٥٣
السلامى	٥٤	٥٥
التاريخ والمؤرخون	٥٦	
حمزة الأصبهانى	٥٦	
مسكويه	٥٧	٥٩
السهمى	٥٩	
أبو نعيم	٥٩	
اللغة واللغويون	٦٠	
الطبرانى	٦٠	

	من	الى
آثاره ومصنفاته	٦٠	
ابن المقرى	٦١	
الخطيب الإسكافى ومصنفاته	٦١	
العلوم الإسلامية	٦٢	
أبو مسلم الأصفهانى	٦٢	
مصنفاته وأثره	٦٢	٦٣
ابن أشته	٦٣	
عبد الله بن أحمد الأصبهانى	٦٣	
أبو القاسم الدارکى	٦٣	٦٤
أبو على الأصبهانى	٦٤	
ابن منده	٦٤	٦٥
ابن باكويه وتصانيفه	٦٥	
حمزة الأصبهانى	٦٦	٦٧
مكانته الأدبية	٦٨	٧٠
رحلات حمزة إلى بغداد	٧٠	٧١
أثره فى الأدب	٧١	٧٥
الصاحب بن عباد	٧٦	٧٩
مكانته الأدبية	٧٩	٨١
محاسن الصاحب	٨١	٨٤
مصنفاته وأثره فى الأدب	٨٤	٨٥
الفصل الثانى :- موضوعات الشعر وفنونه	٨٧	١٥٣
موضوعات الشعر وفنونه	٨٧	٨٩
أ - أغراض تقليدية :	٨٩	١٢١
١ - الغزل	٨٩	٩٧
٢ - المدح	٩٨	١٠٤
٣ - الرثاء	١٠٥	١٠٩

	من	الى
٤ ـ الهجاء	١١٠	١١٤
٥ ـ الشكوى	١١٥	١١٦
٦ ـ الإخوانيات	١١٧	١٢١
ب ـ **أغراض تجديدية** :	١١٢	١٥٣
١ ـ الوصف	١٢٢	١٣٠
٢ ـ وصف الطبيعة العمرانية	١٣١	١٤٠
التشبيه فى الشعر	١٤١	١٤٣
قيمة الشعر فى أصبهان	١٤٤	١٥٣
الباب الثاني : فنون النثر الأدبى فى أصبهان	١٥٥	٢٤٩
مدخـــل	١٥٥	١٥٧
أولا الرسائل	١٥٨	٢١٢
١ ـ الرسائل الشخصية ...	١٥٩	١٧٩
٢ ـ الرسائل الديوانية ...	١٨٠	١٩٥
٣ ـ الرسائل العامة ...	١٩٥	٢٠١
الخصائص الأدبية للرسائل فى أصبهان فـــى القرن الرابع الهجرى	٢٠٢	٢١٢
ثانيا : فنون أخرى من النثر الأدبى ...	٢١٣	٢٤٩
١ ـ التوقيعات	٢١٣	٢٢١
٢ ـ المناظرات	٢٢٢	٢٢٨
٣ ـ الحكم والأمثال ...	٢٢٩	٢٣٨
٤ ـ المكاتبات	٢٣٩	٢٤٥
مدرسة أصبهان الأدبية	٢٤٦	٢٤٧
ظاهرة السجع فى القرن الرابع	٢٤٧	٢٤٩

		من	الى
الباب الثالث :	**النقد الأدبى فى أصبهان**	٢٥١	٣١٨
	النقد والبلاغة قبل القرن الرابع	٢٥١	
	النقد والبلاغة قبل نزول القرآن	٢٥١	٢٥٣
	أثر القرآن فى العلماء	٢٥٤	٢٧٣
	نقد الأدباء فى القرن الرابع	٢٧٤	٢٧٦
	بين الصاحب والمتنبى	٢٧٧	٢٨١
	فائدة الصاحب والمتنبى من هذا النقد ...	٢٨١	٢٨٤
	كتاب الكشف عن مساوىء شعر المتنبى للصاحب	٢٨٥	٢٩٧
	الصاحب بن عباد بين مؤيديه ومعارضيه ...	٢٩٨	٣٠٢
	أبو حيان التوحيدى والصاحب	٣٠٣	٣٠٥
	نقد أبى حيان للصاحب بن عباد	٣٠٥	٣٠٦
	انتحال الشعر	٣٠٦	٣٠٨
	التصنع فى الأسلوب	٣٠٨	٣١٢
	موازنة بين الأدباء فى بلاط الصاحب	٣١٣	٣١٨
الخاتمة :	.....	٣٢٠	٣٢٤
الفهارس :	.....	٣٢٦	٣٥٢
	فهرس الاشعار والقوافى	٣٢٦	٣٣٩
	فهرس المراجع والمصادر	٣٤٠	٣٤٧
	فهرس الموضوعات	٣٤٨	٣٥٢

::*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*:*